

وَقَائِمُ الْوَقَائِمِ

بِاخْتِصَارِ دَارِ الْمُصْطَفَى

تأليف
نور الدين علي بن أحمد السهمودي

تحقيقه، وفصله، وعلق حواشيه
محمد محي الدين عبد المجيد

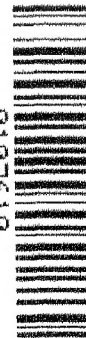
المجلد الأول

دار الكتب والعلوم

بيروت - لبنان



Bibliotheca Alexandrina



0107610

وَقَاءُ الْوَقَا

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين علي بن أحمد السمهودي

المتوفى في عام ٩١١ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد مجي الدين بن محمد بن محمد

عفا الله تعالى عنه

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يكافئُ موفور نعمته ، والشكر له سبحانه على سوابغ فضله وعظيم منته ، وصلاة الله وسلامه على سيد ولد آدم ومُصْطَفَاه من بَرِيَّتِهِ ، محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، وعلى آله وصحبه وعترته .

أما بعد ، فهذا ثانی ثلاثة كتب صنفها الشيخ العلامة نور الدين على بن أحمد السهودي ، المصرى ، نزيل المدينة المنورة ، المتوفى فى عام ٩١١ من الهجرة ، وموضوع الكتب الثلاثة واحد :

أولها : كتاب مُفَصَّل ذكر فيه ما أمكنه الوقوف عليه من تواريخ المدينة المنورة ، وما عاينه من أمور لم يظفر بها أحد من مؤرخيها ، وسلك فيه « طريقة الاستيعاب » ، وجمع ما افترق من معانى تلك الأبواب ، وتلخيص مقاصد جميع تواريخ المدينة التى وقف عليها ، وإضافة ما اقتضى الحال أن يضاف إليها « وهو يسمى هذا الكتاب فى مطلع الكتاب الثانى « اقتفاء الوفا » ، بأخبار دار المصطفى » وكذلك يسميه صاحب شذرات الذهب ، ولكن حاجى خليفة يسميه « الوفا » ، بما يجب لحضرة المصطفى « والمؤلف نفسه يسميه فى ثانيا كتابه الثانى وفى مطلع الثالث « الوفا » . ولم يظفر بهذا الكتاب بالإتمام فضلاً عن الظهور والتداول ، فقد كان المؤلف تركه فى المسجد النبوى وسافر إلى مكة المكرمة فاحترق الكتاب فيما احترق بحريق أما كن من المسجد الشريف .

وثانيها : كتاب وسيطٌ صنفه استجابة لمن « طاعته غُنى » ، ومخالفته غُرم « وقصد به أن يختصر كتابه الأول « مع توسط غير مُفرط » و « مع ما رأى فى ذلك من الإتحاف بأمور لا توجدُ فى غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ، سيما فيما يتعلق بأخبار الحجرة الشريفة ، ومعالمها المنيعة ، فقد استفاد ذلك عياناً ،

وعلم أخبارها إيقانا ، بسبب ما حدث في زمانه من العماره ؛ لاشتمالها على تجديد ما كاد أن يَهَيَّ في الحجرة الشريفة من الأركان ، وإحكام ما أحاط بها من البنيان ، وتشرفه بالخدمة في إعادة بنيانها ، وحُظْوَتِهِ بالوقوف على عرصَتِها ، وتمتُّعُه بالتشاقق تربتها .

وهذا الكتاب هو الذى تقدمه بين يدي القارئ ، واسمه « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » بعد تحقيق أصله ، وتفصيله ، وضبط غرائبه ، والتعليق عليه تعليقا وجيزا يبين ما لا بد للقارئ المتوسط من معرفته من شرح كلمة غريبة أو بيان موضع أصبح اسمه في ذمة التاريخ ، أو إشارة إلى خطأ وقع في الأصول التى اعتمدناها في إخراج هذا الكتاب ، أو نحو ذلك مما يعرض لنا .

وثالثها : كتاب مختصر « في نحو نصف وفاء الوفا ، مع جمع مقاصده وتحسين وصفه » واسم هذا الكتاب « خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى » .

وقد طبع الكتابان الثانى - وهو هذا - والثالث ، مراراً ، طبعاً غير مُفَصَّل ولا مضبوط ، وذلك شأن الوراقين فى كل ما كانوا ينشرونه من كتب العلم والأدب والتاريخ ، ولما أراد الشيخ محمد المنذكانى نزول المدينة المنورة والكتبة بها أن يعيد طبع كتاب « الوفا » رغبت إلىّ فى تحقيقه وتفصيله ، وصادف ذلك منى رغبة خالصة لوجه الله تعالى ، رجاء أن يتقبل سبحانه هذا العمل الذى أحببت أن أتقرب به إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقامت بضبط غرائبه ، وتفصيل عباراته بوضع علامات الترقيم الحديثة ، ووضع عناوين مُوجَزَة على هامش النسخة ، والله سبحانه المرجو أن يجعل هذا العمل فى سجل الحسنات ، وأن ينفع به النَّفَعَ المرغوب فيه ، إنه ولى ذلك كله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كتبه أبو رجاء ، المعتز بالله تعالى

عبدالحى الدين عبدالحى

{ سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٧٤
الموافق ٢٣ من يناير ١٩٥٥ }

عن مصر الجديدة فى

ترجمة مؤلف الكتاب

الشيخ العلامة على بن أحمد السموهوى ، رحمه الله !

(١) هو الإمام ، القدوة ، الحجة ، المكنى ، نور الدين ، أبو الحسن على بن القاضى عفيف الدين عبد الله ، بن أحمد بن على بن عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ابن عيسى بن جلال الدين أبى العلياء بن أبى الفضل جعفر بن على بن أبى الطاهر ابن الحسن بن أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن حسن بن محمد بن إسحاق ابن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن الأكبر بن على بن أبى طالب ، الحسنى ، ويعرف بالسموهوى . نزيل المدينة المنورة ، وعالمها ، ومفتيها ، ومدرستها ، ومؤرخها ، الشافعى .

(٢) وُلد فى صفر الخير من سنة ٨٤٤ أربع وأربعين وثمانمائة ، فى سمهود ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم ، والمنهاج الفرعى ، وكتبها ، ولازم والده حتى قرأ عليه المنهاج بحثاً مع شرحه لجلال الدين الحلى ، وشرح البهجة ، وجمع الجوامع ، وسمع عليه بعض كتب الحديث ، وقدم القاهرة معه غير مرة ، ولازم الشمس الجوجرى فى الفقه وأصوله والعربية ، وقرأ على الجلال الحلى بعض شرحيه على المنهاج وجمع الجوامع ، ولازم الشريف المناوى وقرأ عليه الكثير ، وأبسه خرقة التصوف ، وقرأ على النجم بن قاضى عجلاون تصحيحه للمنهاج ، وعلى الشيخ زكريا فى الفقه والفرائض ، وعلى السعد الديرى وأذن له فى التدريس هو والياى والجوجرى ، وقرأ على مَنْ لا يُحصى مالا يُحصى ، وكان على خير كثير .

(٣) قطن بالمدينة المنورة من سنة ثلاث وسبعين ، ولازم فيها الشهاب الألبشى ، وقرأ عليه تصانيفه وغيرها ، وأذن له فى التدريس ، وأكثر من السماع هناك على أبى الفرج المراغى ، وسمع بمكة من كمالية بنت النجم المرجانى وشقيقها السكال ، والنجم عمر بن فهد ، فى آخرين .

- (٤) انتفع به جماعة الطلبة في الحرمين الشريفين ، وألف عدة تأليف ، منها « جواهر العقدين ، في فضل الشرفين » ومنها كتاب « اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » الذي ذكرناه في التصدير ، وبيننا أنه احترق قبل تمامه ، ومنها « الوفا ، بأخبار دار المصطفى » وهو الكتاب الذي نعانى إخراجه اليوم ، ومنها « خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى » ومنها حاشية على الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي سماها « الإفصاح » ومنها حاشية على الروضة في فقه الشافعي سماها « أمنية المعتنين ، بروضة الطالبين » وصل فيها إلى باب الربا ، وجمع فتاويه في مجلد ، وحصل كتبنا نفيسة احترقت كلها وهو بمكة في سنة ست وثمانين .
- (٥) زار بيت المقدس ثم عاد إلى المدينة المنورة مستوطنا ، وتزوج بها عدة زوجات ، ثم اقتصر على السّراري ، ومَلَكَ الدور ، وعمراً .
- (٦) قال الحافظ السخاوي : قلّ أن يكون أحد من أهل المدينة لم يقرأ عليه
- (٧) وفي الجلة هو إمام مفنن ، متميز في الأصاين والفقّه ، مديم دراسة العلم والتأليف ، متوجه للعبادة والمباحثة والمناظرة ، قوى الجَلادة ، قوى اليقين .
- (٨) توفي بالمدينة المنورة يوم الخميس ثامن عشر ذى القعدة من عام أحد عشر وتسعمائة من الهجرة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأسبغ عليه ذيول فضله وكرمه ، آمين .

فهرس الجزء الأول

من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى »

لنور الدين على بن أحمد السهمودي المتوفى في عام ٩١١ هـ

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١	خطبة المؤلف	٩٢	الفصل التاسع في بيان جبلها عير وثور
٢	ثبت الكتاب	٩٦	الفصل العاشر ، في ذكر أحاديث تقتضى زيادة حرم المدينة على البلدة الشريفة
٨	الباب الأول في ذكر أسماء هذه البلدة الشريفة	٩٨	الفصل الحادى عشر ، في بيان ما في شأنها ، وما يثول إليه أمرها ، وفيه ستة عشر فصلا
٢٨	الباب الثانى في فضائلها ، وبدء شأنها ، وما يثول إليه أمرها ، وفيه ستة عشر فصلا	١٠٣	الفصل الثانى عشر ، في حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم
٢٨	الفصل الأول ، في تفضيلها على غيرها من البلاد	١٠٥	الفصل الثالث عشر ، في أحكام هذا الحرم ، وفيه مسائل :
٣٩	الفصل الثانى ، في الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها وشدتها ، وكونها تنفى الخبث والدنوب ، ووعيد من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حدثاً	—	المسألة الأولى ، القول في تحريم الصيد وقطع الشجر
٤٧	الفصل الثالث ، في الحث على حفظ أهلها وإكرامهم والتحريض على الموت بها ، واتخاذ الأصل	١١٠	المسألة الثانية ، في بيان ما يستثنى مما يحرم
٥٢	الفصل الرابع ، في بعض دعاء الرسول (ص) لها ولأهلها ، وما كان بها من الوباء ، ونقله عنها	١١٢	المسألة الثالثة ، في أخذ شيء من ذلك للدواء
٦١	الفصل الخامس ، في عصمتها من الدجال والطاعون	١١٣	المسألة الرابعة ، دية القتل الخطأ في المدينة مغلظة
٦٧	الفصل السادس ، في الاستشفاء بترابها ، وبتمرها	١١٣	المسألة الخامسة ، حكم لقطة حرم المدينة
٧٣	الفصل السابع ، في سرد خصائصها التى لا تنحصر	١١٣	المسألة السادسة في حكم المقاتلة في حرم المدينة
٨٩	الفصل الثامن ، في الأحاديث الواردة في تحريمها	١١٤	المسألة السابعة ، حكم الاستنجاء بحجارة الحرم
		—	المسألة الثامنة ، حكم نقل تراب الحرم المبنى

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١١٨	الفصل الرابع عشر ، في ذكر بدء شأنها وما يشول إليه أمرها	٢٢٨	الفصل الثامن ، في حديث العقبة الكبرى
١٢٢	الفصل الخامس عشر ، في ذكر وقوع ما أخبر به النبي (ص) من خروج أهلها وتركها ، وذكر واقعة الحرة المقتضية لذلك	٢٣٥	الفصل التاسع ، في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها
١٣٩	الفصل السادس عشر ، في ظهور نار الحجاز التي أئذربها النبي (ص) فظهرت بأرض المدينة وأطفأها الله عند وصولها إلى حرماها	٢٤٤	الفصل العاشر ، في دخول النبي (ص) إلى المدينة ، وتأسيسه مسجد قباء
١٥٦	الباب الثالث ، في أخبار سكانها في سالف الزمان ، ومقدم النبي (ص) إليها ، وما كان من أمره بها في سفي الهجرة ، وفيه اثنا عشر فصلا	٢٥٤	الفصل الحادي عشر ، في قدوم النبي (ص) باطن المدينة ، وسكنائه بدار أبي أيوب الأنصاري
—	الفصل الأول ، في سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر في سبب نزول اليهود بها ، وبيان منازلهم	٢٧٠	الفصل الثاني عشر ، فيما كان من أمره (ص) بها في سفي الهجرة إلى انتقاله للرفيق الأعلى ، مختصراً ، مرتباً على السنين
١٦٦	الفصل الثاني ، في سبب سكنى الأنصار بها	—	السنة الأولى : بناء المسجد النبوي موت أسعد بن زرارة - وموت البراء بن معرور - الزيادة في صلاة الحضرة - وعك المهاجرين ودعاؤه (ص) بنقل وبائها - مولد عبدالله بن الزبير - أول راية عقدت في الإسلام - زواجه (ص) بعائشة ، وعقده على سودة بنت زمعة - إسلام عبدالله بن سلام
١٧٣	الفصل الثالث ، في نسب الأنصار	٢٧٤	السنة الثانية من الهجرة : صوم عاشوراء - زواج علي بفاطمة - غزوة الأبواء (ودان) التوجه إلى الكعبة - غزو بني قينقاع - غزوة السويق
١٧٧	الفصل الرابع ، في تمسكهم بالمدينة وظهورهم على اليهود ، وما اتفق لهم مع تبع	٢٧٩	السنة الثالثة من الهجرة : مقتل كعب بن الأشرف ، غزوة الكدر ، غزوة أنمار ، غزوة ذي أمر ، سرية القردة ، غزوة أحد ، مقتل
١٩٠	الفصل الخامس ، في منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود ، وشيء من آطامهم		
٢١٥	الفصل السادس ، فيما كان بينهم من حرب بعث		
٢٢٠	الفصل السابع ، في مبدأ إكرام الله تعالى لهم بالنبي (ص) وحديث العقبة الصغرى		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
	أبي بن خلف ، أبو عزة الجمحي ومقتله ، تحريم الحجر		ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلاً :
٢٩٦	السنة الرابعة من الهجرة : بئر معونة ، غزوة الربيع ، غزو بني النضير ، زواج أم سلمة ، غزوة ذات الرقاع	٣٢٢	الفصل الأول ، في أخذه (ص) لموضع مسجده ، وكيفية بنائه
٣٠٠	السنة الخامسة من الهجرة : غزوة الخندق ، إسلام نعيم بن مسعود ، غزوة بني قريظة	٣٣٩	زيادة النبي (ص) بعد أن فتح الله عليه خيبر في مسجده
٣١٠	السنة السادسة من الهجرة : غزوة ذي قرد ، قصة العرينين ، غزوة بني المصطلق (المريسيع) فرض الحج	٣٤٠	الفصل الثاني : في ذرع المسجد النبوي وحدوده التي يتميز بها عن سائر المسجد اليوم
٣١٥	السنة السابعة من الهجرة : زواج صفية بنت حيى	٣٥٩	الفصل الثالث ، في المقام الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم به في الصلاة : قبل تحويل القبلة ، وبعد ما جاء في تحويلها
٣١٦	السنة الثامنة من الهجرة : غزوة مؤتة	٣٦٢	تاريخ تحويل القبلة
—	السنة التاسعة من الهجرة : هجر النبي (ص) نساءه ، تناسع الوفود ، حج أبي بكر بالمسلمين ، نزول براءة ، غزوة تبوك	—	مدة الصلاة إلى بيت المقدس
٣١٧	السنة العاشرة من الهجرة : قدوم وفد طيء ، مرضه (ص) في بيت ميمونة أو زينب بنت جحش	٣٦٤	أول صلاة صليت إلى الكعبة
٣٢٢	الباب الثالث : فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم ، والحجرات المنيفات ، وما كان مطيفاً به من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ،	—	إلى أى جهة كانت الصلاة بمكة قبل الهجرة ؟
		٣٦٥	كيف حررت قبلة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم
		٣٧٠	محراب المسجد النبوي ، ومق صنع ؟
		٣٨٠	العود الذي كان في المصلى الشريف
		٣٨٣	هل كان مصلى النبي (ص) على عين القبلة أو على جهتها ؟
		٣٨٤	خاتمة الجزء الأول

وقد تمت فهرست الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفا » للعلامة السهمودي ، والحمد لله تعالى في مبدأ أمورنا كلها وفي خواتيمها ، ونسأله جلّت قدرته - أن يوفق لإكمالها ، وأن يسدد خطانا ، ويجعلنا بفضل الله من المقبولين .

نبأ الله الخال الحبيب

وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه .

خطبة
المؤلف

﴿أما بعد﴾ حمد الله على آلائه^(١)، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفياه ؛ فقد سألت من طاعته غم ، ومخالفته غم ، أن أختصر تأليفي المسمى بـ «اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى» - صلى الله عليه وسلم - وزاده شرفاً وفضلاً لديه - اختصاراً مع توسط غير مفرط ، هذا مع كونه بعد لم يقدّر إتمامه بتكامل أقسامه ؛ لسلوكي فيه طريقة الاستيعاب ، وجمع ما اقترق من معاني تلك الأبواب ، وتلخيص مقاصد جميع تواريخ المدينة التي وقفت عليها ، وإضافة ما اقتضى الحال أن يضاف إليها ، مع عروض الموانع ، وترادف الشواغل والقواطع ، فأجبتني إلى سؤاله ؛ لما رأيت من شفّفه^(٢) بذلك وإقباله ، مع ما رأيت في ذلك من الإتحاف بأمور لا توجد في غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ، سيما فيما يتعلق بأخبار الحجرة الشريفة ، ومعالمها المنيفة ، فإني قد استفدتني عياناً ، وعلمت أخبارها إيقاناً ، بسبب ما حدث في زماننا من العارة التي سنشير إليها ، ونقف في محلها عليها ؛ لاشتغالها على تجديد ما كاد أن يهـي^(٣) في الحجرة الشريفة من الأركان ، وإحكام ما أحاط بها من البنيان . وتشرفت بالخدمة في إعادة بنيانها ، وتجنّبت شهود نقض أركانها ، وحظيت بالوقوف على عرصتها ، وتمتعت بانتشاق^(٤) ثوبتها ، ونعمت العين بالاكتحال

(١) الآلاء : النعم ، واحدها إلى ، بوزن رضا ، ومعنى الإلى : النعمة .

(٢) الشغف - بالتحريك - المحبة التي تخالط شغاف القلب .

(٣) وهى يهـى - بوزن رعى يعى - ومعناه : سقط . (٤) انتشق التربة : شمها .

(١ - وفاة)

بأرضها الشريفة ، ومحالُّ الأجساد المنيفة ، فامتلاً القلب حياء ومهابة ، واكتسى من ثياب الذال أثوابه ، هذا وقد جُبِلَت القلوب^(١) على الشغف بأخبار هذا المحل وأحواله ، كما هو دأب كل محب مغرم وآله^(٢) ، ولله در القائل :

أُمْلِيَانِي حَدِيثَ مَنْ سَكَنَ الْجَزْ عَ وَلَا تَكْتُبَاهُ إِلَّا بِدَمْعِي
فَأَتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي فَلَمَعَلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي

ولعمري إن الاعتناء بذاك وضبطه وإفادته من مهمات الدين ، وإن النظر فيه مما يزيد في الإيمان واليقين ؛ لما فيه من معرفة معاهد دار الإيمان ، ونشر أعلامها المرغمة للشيطان ، وتذكر آياتها الواضحة للنبيان ، والمرجؤ من الله تعالى أن يكون كتابناً هذا تحفة لمحيي دار الأبرار ، ومن سكن بها من الأخيار ، ووفد عليها من الوفاء ، وقد بذلت الجهد في تهذيبه وتقريبه ، رجاء دعوة تمحو الأوزار^(٣) ، وتُقِيل العثار ، ونظرة قبول من المصطفى المختار ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار ، وصحابه الأخيار ! .

وسميته « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » صلى الله عليه وسلم ، وشرف وعظم !
ورتبته على أبواب :

الباب الأول : في أسماء هذه البلدة الشريفة .

الباب الثاني : في فضائلها ، وبدء شأنها ، وما يؤول إليه أمرها ، وما يتعلق بذلك ، وفيه ستة عشر فصلاً : الأول : في تفضيلها على غيرها من البلاد ، الثاني : في الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها^(٤) وشدتها ، وكونها تنفي الخبث

أبواب
الكتاب

(١) جُبِلَت القلوب : فطرت وطبعت ، يريد أن ذلك طبيعتها وجبلتها وفطرتها التي فطرها الله تعالى عليها .

(٢) الواله : الذي اشتد حبه حتى قارب الجنون .

(٣) الأوزار : الذنوب ، واحدها وزر ، بكسر الواو وسكون الزاي .

(٤) اللأواء : الشدة ؛ فعطف الشدة عليه عطف تفسير .

والذنوب ، ووَعِيدٍ من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حَدَثًا أو آوَى مُحَدَّثًا ،
 الثالث : في الحثِّ على حفظ أهلها وإكرامهم ، والتحرّيز على الموت بها ،
 واتخاذ الأصل^(١) ، الرابع : في بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان
 بها من الوَبَاءِ ، ودعائه بتَقْلِهِ ، الخامس : في عصمتها من الدَجَالِ والطاعون ،
 السادس : في الاستشفاء بترابها وتمرّها ، السابع : في سَرْدِ خصائصها ، الثامن :
 في صحيح ماورد في تحريمها ، التاسع : في بيان غَيْرِ وَثُورِ الَّذِينَ وقع تحديدهُ الحَرَمِ
 بهما ، العاشر : في أحاديث أُخَرٍ تَقْتَضِي زيادة الحَرَمِ على ذلك التحديد وأنه مقدر
 ببريد ، الحادى عشر : في بيان ما في هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ،
 ومن ذهب إلى مقتضاها ، الثانى عشر : في حكمة تخصيص هذا المقدار المعين
 بالتحريم ، الثالث عشر : في أحكام هذا الحَرَمِ الكريم ، الرابع عشر : في بدء
 شأنها ، وما يؤول إليه أمرها ، الخامس عشر : فيما ذكر من وقوع ما ورد
 من خروج أهلها وتركهم لها ، السادس عشر : في ظهور نار الحِجَازِ التي
 أُنذِر بها النبي صلى الله عليه وسلم فظهرت من أرضها ، وانطفأها عند وصولها
 إلى حرما .

الباب الثالث : في أخبار سكانها في سالف الزمان ، ومَقْدَمِهِ صلى الله عليه
 وسلم إليها ، وما كان من أمره بها في سِنِي الهِجْرَةِ ، وفيه اثنا عشر فصلا . الأول :
 في سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر في سبب سكنى اليهود بها ، وبيان منازلهم ،
 الثانى : في سبب سكنى الأنصار بها ، الثالث : في نسبهم ، الرابع : في ظهورهم
 على اليهود ، وما اتفق لهم مع مُتَّبِعٍ ، الخامس : في منازلهم بعد إذلال اليهود ، وشيء

(١) المراد بالأصل هنا المال ، وسيأتى تعليقه بأن المال يحمل الإنسان على البقاء ؛
 فكان المقصود من اتخاذ الأصل الإقامة الدائمة بها .

من أطامهم^(١) وحروبهم ، السادس : في ما كان بينهم من حرب بُغاث ، السابع : في مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبي الكريم ، وذكر العقبة الصغرى ، الثامن : في العقبة الكبرى وما أفضت إليه^(٢) ، التاسع : في مبدأ هجرته صلى الله عليه وسلم ، العاشر : في دخوله صلى الله عليه وسلم أرض المدينة وتأسيس مسجد قباء ، الحادى عشر : في قدومه باطن المدينة المنيفة ، وسكنه بدار أبى أيوب الأنصارى ، وخبر هذه الدار ، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، الثانى عشر : في ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم بها فى سنين الهجرة^(٣) .

الباب الرابع : فيما يتعلق بأمر مسجدھا الأَظم ، والحُجُرات المنيفات ، وما كان مُطِيفاً بها من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلاً : الأول : فى أخذہ صلى الله عليه وسلم لموضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه ، الثانى : فى ذرعه وحدوده التى يتميز بها عن سائر مسجده اليوم ، الثالث : فى مقامه الذى كان يقوم به قبل تحويل القبلة وبعده ، وما جاء فى تحويلها ، الرابع : فى خبر الجذع ، واتخاذ المنبر ، وما اتفق فيه ، الخامس : فى فضل المسجد الشريف ، السادس : فى فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة ، السابع : فى الأساطين^(٤) المنيفة ، الثامن : فى الصفة وأهلها ، وتعليق الأقناء^(٥) لهم بالمسجد ، التاسع : فى حجره صلى الله عليه وسلم ، وبيان إحاطتها بمسجده إلا من جهة المغرب ، العاشر : فى حجرة ابنته فاطمة رضى الله عنها ، الحادى عشر : فى الأمر بسد الأبواب ، وبيان ما استثنى من ذلك ، الثانى عشر : فى زيادة عمر رضى الله عنه فى المسجد ، الثالث عشر : فى البطيحاء التى بناها

(١) الآطام : الحصون ، واحدها أطم ، بضم المعزة والطاء جميعاً ، ووزانه عنق وأعناق .

(٢) أفضت إليه : آلت إليه ، يريد آثارها التى ترتبت عليها .

(٣) كذا ، والفصيح « فى سنى الهجرة » .

(٤) الأساطين : جمع أسطوانة ، والمراد الأعمدة . (٥) الأقناء : جمع قنو .

بناحيته ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، الرابع عشر : في زيادة عثمان رضى الله عنه ، الخامس عشر : في المقصورة التي اتخذها به ، السادس عشر : في زيادة الوليد على يد عمر بن عبد العزيز ، السابع عشر : فيما اتخذ عمر فيها من الحراب والشرفات والمفارات والحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه ، الثامن عشر : في زيادة المهدي ، التاسع عشر : فيما كانت عليه الحجرة المنيفة الحاوية للقبور الشريفة في مبدأ الأمر ، العشرون : في عمارتها بعد ذلك ، والحائز^(١) الذى أدير عليها ، الحادى والعشرون : فيما روى في صفة القبور الشريفة بها ، وأنه بقى هناك موضع قبر لعيسى عليه الصلاة والسلام ، وتنزل الملائكة حافين بالقبور الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به ، الثانى والعشرون : فيما ذكر من صفتها وصفة الحائز الدائر عليها ، وما شاهدناه مما يخالف ذلك ، الثالث والعشرون : في عمارة اتفقت بها بعد ما تقدم ، على ما نقله بعضهم ، وما نقل من الدخول إليها وتأثيرها بالرخام ، الرابع والعشرون : فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الكريم والمسار الفضة المواجه للوجه الشريف ، ومقام جبريل عليه السلام ، وكسوة الحجرة وتحليلتها ، الخامس والعشرون : فى قناديلها ومعاليقها ، السادس والعشرون : فى الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المجددة بها والمسجد وسقفها وما أعيد من ذلك ، السابع والعشرون : فى اتخاذ القببة الزرقاء تمييزاً للحجرة الشريفة والمقصورة الدائرة عليها ، الثامن والعشرون : فى عمارتها المتجددة فى زماننا ، على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل من إزالة هدم الحريق من ذلك والحل الشريف ، ومشاهد وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة ، التاسع والعشرون : فى الحريق الحادث فى زماننا بعد العمارة السابقة ، وما ترتب عليه ألحقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه فى الفصول ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مَسَوِّدَة كتابنا هذا ، وفى آخره خاتمة فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد

(١) الحائز : المراد به جدار يحيط بالحجرة .

لخندق مملوء من الرصاص حَوْلَ الحجرة ، الثلاثون : في تحصيب المسجد^(١) ، وأمر
البراق فيه ، وتخلّيقه^(٢) ، وإجماره ، وشيء من أحكامه ، الحادى والثلاثون : فيما
احتوى عليه من الأزوقة والأساطين والبلوعات والسقايات والحواصل ، وغير ذلك ،
الثانى والثلاثون : فى أبوابه وخواتمه ، وما يميزها من الدور المحاذية لها ، الثالث
والثلاثون : فى خوخة آل عمر رضى الله عنه ، الرابع والثلاثون : فيما كان مطيقاً
به من الدور ، الخامس والثلاثون : فى البلاط وما حوله من منازل المهاجرين ،
السادس والثلاثون : فى سوق المدينة ، السابع والثلاثون : فى منازل القبائل من
المهاجرين ، وما حدث من اتخاذ السور .

الباب الخامس : فى مُصَلَّى النّبي صلى الله عليه وسلم فى الأعياد ، وغير ذلك
من مساجد المدينة التى صلى فيها النّبي صلى الله عليه وسلم أو جلس مما علمتُ عَيْنَهُ
أَوْجِهَتَهُ ، وفضل مقابرها ، ومن سمي ممن دفن بها ، وفضل أحدٍ والشهداء به ،
وفيه سبعة فصول : الأول : فى مُصَلَّى الأعياد ، الثانى : فى مسجد قباء ، وخبر
مسجد الضّرّار ، الثالث : فى بقية المساجد المعلومة العين فى زماننا ، الرابع : فيما
علمت جهته من ذلك ، ولم يعلم عينه ، الخامس : فى فضل مقابرها ، السادس :
فى تعيين بعض من دفن بالبقيع من الصحابة وأهل البيت رضوان الله عليهم ،
والمشاهد المعروفة بها ، السابع : فى فضل أحدٍ والشهداء به .

الباب السادس : فى آبارها المباركات ، والعين والغراس والصدقات ، التى
هى للنّبي صلى الله عليه وسلم منسوبات ، وما يُعزى إليه^(٣) من المساجد التى صلى فيها
فى الأسفار والغزوات ، وفيه خمسة فصول : الأول : فى الآبار المباركات ، وفيه
تنمة فى العين المنسوبة للنّبي صلى الله عليه وسلم ، والعين الموجودة فى زماننا ،
الثانى : فى صدقاته صلى الله عليه وسلم وما غرّسه بيده الشريفة ، الثالث : فيما

(١) تحصيب المسجد : فرش به بالحصباء ، وهى صفار الحصى .

(٢) تخلّيقه : أى مسه بالخلوق - بفتح الخاء - وهو ضرب من الطيب ، والمراد

تطيب المسجد ، والمراد بإجماره تبخيره . (٣) يعزى : ينسب .

ينسب إليه من المساجد التي بين مكة والمدينة بالطريق التي كان يسلكها صلى الله عليه وسلم ، الرابع : في بقية المساجد التي بينهما بطريق ركب الحاج في زماننا ، وطريق المشيان^(١) ، وما قرب من ذلك ، الخامس : في بقية المساجد المتعلقة بغزواته وعمره صلى الله عليه وسلم .

الباب السابع : في أوديتها وأسمائها^(٢) وبقاعها وجبالها وأعمالها ومضافاتها ، ومشهور ما في ذلك من المياه والأودية ، وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك ، وفيه ثمانية فصول : الأول : في فضل وادي العقيق وعرضته وحدوده ، الثاني : فيما جاء في إقطاعه وابتناء القصور به وطريق أخبارها ، الثالث : في العرصة وقصورها ، وشيء مما قيل فيها وفي العقيق من الشعر ، الرابع : في جماعاته ، وأرض الشجرة ، وندية الشريد ، وغيرها من جهاته ، وفيه خاتمة في سرد ما يدفع فيه من الأودية وما به من الغدران ، الخامس : في بقية أودية المدينة ، السادس : فيما سمي من الأسماء ومن سمّاها وشرح حال حكي النبي صلى الله عليه وسلم بالنقيع ، السابع : في شرح بقية الأسماء ، وأخبارها ، الثامن : في بقاع المدينة وأعراضها وأعمالها ومضافاتها وأنديتها وجبالها وتلاعها^(٣) ، ومشهور ما في ذلك من الآبار والمياه والأودية ، وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك وبالمساجد والآطام والغزوات ، وشرح حال ما يتعلق بجهات المدينة وأعمالها من ذلك ، على ترتيب حروف الهجاء .

الباب الثامن : في زيارته صلى الله عليه وسلم ، وفيه أربعة فصول : الأول : في الأحاديث الواردة في الزيارة نصا ، الثاني : في بقية أدلتها ، وبيان تأكد مشروعيتهما ، وقرنها من درجة الوجوب ، حتى أطلقه بعضهم عليها ، وبيان حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره ، وشدة الرحال إليه ، وصحة نذر زيارته ، والاستعجار للسلام عليه ، الثالث : في توسل الزائر ، وتشفعه به صلى الله عليه وسلم

(١) كذا ، ولعله « المشاة » جمع ماش ، بزنة قاض وقضاء ورام ورماة .

(٢) الأسماء : جمع حمى . (٣) التلاع : جمع تلعة ، وهي ما ارتفع من الأرض

إلى ربِّه تعالى ، واستقبله له صلى الله عليه وسلم في سلامه وتوسله ودعائه ، الرابع : في آداب الزيارة والمجاورة ، والتبرك بتلك المساجد والآثار ، وهذا الباب وإن كان من حقه التقديم ، لكنه لما كان كنتيجة الكتاب ، ومقدماته ما تقدمه من الأبواب ، ختمت به أقسامه ؛ ليكون المسكُ خِتامه ، وسِرُّ الوجود تمامه ، وتفاؤلا بأن يفتح لي به ثمانية أبواب الجنة ، ويعظم لي بسببه سوابغ الجنة ^(١) ، وبالله لا سواه أعصم ، وأسأله العصمة مما يصم ^(٢) ، فهو حسبي ونعم الوكيل .

الباب الأول

في أسماء هذه البلدة الشريفة

أعلم أن كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمى ، ولم أجد أكثر من أسماء هذه البلدة الشريفة ، وقد استقصيتها بحسب القدرة حتى إنى زدت على شيخ مشايخنا المجتهد الشيرازي اللغوي - وهو أعظم الناس في هذا الباب - نحو ثلاثين اسما ، فرقمتُ على ذلك صورة لتمييزوها ، وأنا أوردتها مرتبة على حروف المعجم .

الأول : أثرب - كمسجد ، بفتح الهمزة وسكون المثناة وكسر الراء وباء موحد - لغة في « يثرب » الآتي ، وأحد الأسماء كالملم ويللم ، قيل : سميت بذلك لأنه اسم من سكنها عند تفرق ذرية نوح عليه السلام في البلاد ، وهل هو اسم للناحية التي منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو للمدينة نفسها ، أو لموضع مخصوص من أرضها ؟ أقوال ، الأول لأبي عبيدة ، والثاني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ومشى عليه الزمخشري ، والثالث هو الملعني بقول محمد بن الحسن أحد أصحاب مالك ويعرف بابن ^(٣) زباله : وكانت يثرب أم قرى المدينة ، وهي ما بين طرف قناة

(١) الجنة : العطية ، وسوابغها : جزيلها وعظيمها ، وأصل السابغ الثوب يغطى الجسم كله . (٢) وصمه يصمه - بوزن وصفه يصفه - أي عابه وتقصه .

(٣) زباله - بزنة سحابة - اسم موضع منه محمد بن الحسن المعروف بابن زباله قاله في القاموس ، ويقال له أيضا « الزبالي » على النسبة ، وهو ممن روى عن مالك ابن أنس إمام دار الهجرة ، لكنه ليس بثقة ، قاله في تهذيب التهذيب ٩ / ١١٥ .

إلى طرف الجرف ، وما بين المال الذى يقال له البرنى إلى زبالة ، وقد نقل ذلك الجمل المطرى عنه ، وزاد فى النقل أنه كان بها ثلاثمائة صائغ من اليهود ، وابن زبالة إنما ذكر أن ذلك كان بزهوة ، وقد غايرَ بينها وبين يثرب ، وكأن الجمل فهم اتحادها ، وقد قال عقب نقله لذلك عنه : وهو يعنى يثرب معروفة اليوم بهذا الاسم ، وفيها نخيل كثيرة ملك لأهل المدينة وأوقاف للفقراء وغيرهم ، وهى غربى مشهد سيدنا حمزة ، وشرقى الموضع المعروف بالبركة مصرف عين الأزرق ، ينزلها الحاج الشامى فى وروده وصدوره ، وتسميها الحجاجُ عيون حمزة ، وهى إلى اليوم معروفة بهذا الاسم ، أعنى يثرب ، وربما قالوا فيها « أثارب » بصيغة الجمع ، وبه عبر البرهان ابن فرحون فى مناسكه ، فلك أن تعده اسما آخر ، وهذا الموضع يثرب قال المطرى : كان به منازل بنى حارثة بطن صخيم من الأوس ، قال : وفيهم نزل قوله تعالى فى يوم الأحزاب : « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ^(١) » ورجع به القول الثالث ، وذلك أن قريشا ومن معهم نزلوا يوم الأحزاب ويوم أحد أيضا على ما ذكره المطرى برومة وما والاها بالقرب من منازل بنى حارثة من الأوس ومنازل بنى سلمة من الخزرج ، وكان الفريقان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركز الحرب ، ولذلك خافوا على ذراريهم وديارهم العدو يوم أحد ؛ فنزل فيها « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِّنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ^(٢) » قال عقلاؤهم : ما كرهنا نزولها لتولى الله إيانا ، ودفع الله عنهم ببركة النبي صلى الله عليه وسلم وصدق نياتهم ، وقيل : إن القائل لبنى حارثة « يا أهل يثرب لا مقام لكم » هو أوس بن قبيط ومن معه ، وقيل : غير ذلك

قلت : ويرجع القول الثالث أيضا قول الحافظ عمر بن شبة النميرى ^(٣) : قال

(١) من سورة الأحزاب من الآية ١٣ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢٢

(٣) عمر بن شبة - بفتح الشين وتشديد الباء الموحدة مفتوحة - بن عبيدة ،

واسم شبة زيد ، البصرى ، النميرى ، الأخبارى ، النحوى ، الأديب ، الحافظ ، وثقه

الدارقطنى ، مات فى سنة ٢٦٢ من الهجرة ، وله ترجمة فى نهذب التهذيب (٧/ ٤٦٠)

وفى خلاصة الخزرجى (٢٨٣ بولاق) .

أبو غسان : وكان بالمدينة في الجاهلية سوق بزبالة في الناحية التي تدعى يثرب ،
 تهى . ولا شك في إطلاق يثرب على المدينة نفسها ، كما ثبت في الصحيح ،
 وشواهدُه أشهر من أن تذكر ، وسيأتى في الفصل الرابع عشر من الباب الثاني
 ما يقتضى أن الله تعالى سماها قبل أن تعمر وتسكن ، فيما أن يكون موضوعا لها ،
 أو هو من باب إطلاق اسم البعض على الكل ، أو من باب عكسه على الخلاف المتقدم .
 وروى ابن زبالة وابن شبة نَهْيَه صلى الله عليه وسلم عن تسمية المدينة يثرب ،
 وفي تاريخ البخارى حديث « مَنْ قَالَ يَثْرِبُ مَرَّةً فَلْيَقُلْ الْمَدِينَةُ عَشْرَ مَرَّاتٍ »
 وروى أحمد وأبو يعلى حديثا « من سَمَى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ فَلَيْسَتْغْفِرَ اللَّهُ ، وَهِيَ طَابَةُ »
 ورجاله ثقات ، وفي رواية « فَلَيْسَتْغْفِرَ اللَّهُ ثَلَاثًا » ولهذا قال عيسى بن دينار : من
 سَمَى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ كَتَبَتْ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ ، وَكَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ تَسْمِيَتَهَا بِذَلِكَ ، وَمَا وَقَعَ
 فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَسْمِيَتِهَا بِهِ إِنَّمَا هُوَ حِكَايَةٌ عَنْ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ ، وَوَجْهُ كِرَاهَةِ ذَلِكَ
 إِمَّا لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الثَّرَبِ — بِالتَّحْرِيكِ — وَهُوَ الْفُسَادُ ، أَوْ لِكِرَاهَةِ التَّنْثِيْبِ
 وَهُوَ الْمَوَازَاةُ بِالذَّنْبِ ، أَوْ لِتَسْمِيَتِهَا بِاسْمِ كَافِرٍ ، وَقَدْ يَنْزَعُ فِي الْكِرَاهَةِ بِمَا فِي حَدِيثِ
 الْهَجْرَةِ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « فَذْهَبَ وَهَلِي ^(١) إِلَى الْيَمَامَةِ
 أَوْ هَجَرَ ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ » وحديث مسلم « إِنَّهُ وَجَّهَتْ إِلَى أَرْضِ ذَاتِ
 النَّخْلِ لَا أَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبَ » وكذا جاء في غيرها من الأحاديث ، وقد يجاب بأن
 ذلك كان قبل النبي .

أرض الله الثاني « أرض الله » قال الله تعالى : « أَلَمْ تَسْكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا
 فِيهَا ^(٢) » ذكر مقاتل والثعلبي وغيرها أن المراد به المدينة ، وفي هذه الإضافة من
 مزيد التعظيم ما لا يخفى .

الهجرة الثالث « أرض الهجرة » كما في حديث « المدينة قبة الإسلام » .

(١) الوهل — بفتح الواو وسكون الهاء — الوهم .

(٢) من سورة النساء من الآية ٩٧ .

الرابع « أكلة البلدان » لتسلطها على جميع الأمصار ، وارتفاعها على سائر أكلة البلدان بلدان الأقطار ، وافتتاحها منها على أيدي أهلها فغنموها وأكلوها .

الخامس « أكلة القرى » لحديث الصحيحين «أمرت بقرية تأكل القرى» أكلة القرى وقد استدل به مُؤَيِّدُو الاسم قبله ، وهو أَصْرَحُ في هذا ؛ للفرق بين البلدة والقرية .

السادس « الإيمان » قال الله تعالى مُؤَيِّدًا على الأنصار « وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجِئُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ »^(١) وأسند ابن زبالة عن عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جعفر قالا : سَمَّى اللهُ المدينة الدار والإيمان ، وأسند ابن شَبَّه عن الثاني فقط . وقال البيضاوي في تفسيره : قيل سَمَى اللهُ المدينة بالإيمان لأنها مَظْهَرُهُ وَمَصِيرُهُ . وروى أحمد الدينوري في كتابه المجالسة في قصة طويلة عن أنس بن مالك « أن مَلَكَ الإيمان قال : أنا أسكن المدينة ، فقال مَلَكَ الحياء : وَأَنَا مَعَكَ » فأجمعت الأمة على أن الإيمان والحياء ببلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيأتي في حديث « الإيمان يَأْرِزُ إِلَى المدينة كما تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا »^(٢) .

السابع « البارة » ، الثامن « البرة » هما من قولك : امرأة بارة وَبَرَّةٌ ، أى كثيرة البر ، سميت بذلك لكثرة برها إلى أهلها خصوصاً وإلى جميع العالم عموماً ؛ إذ هى مُتَّبِعُ الأسرار وإشراق الأنوار ، وبها العيشة الهنية ، والبركات النبوية . التاسع « البَحِيرَة » بفتح أوله وسكون المهملة . العاشر « البَحِيرَة » تصغير ما قبله . الحادى عشر « البَحِيرَة » بفتح أوله — نقلتُ ثَلَاثَتَهَا عن منتخب كراع ، والأولان عن معجم ياقوت ، والاستبحار : السَّعة ، ويقال : هذه بَحْرَتُنَا ، أى أرضنا أو بلدتنا ، سميت بذلك لكونها فى مُتَسَعٍ من الأرض ، وفى الصحيح قول سعد فى قصة ابن أبى^(٣) « وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهَ » رواه

البحرة
والبحيرة

(١) من سورة الحشر من الآية ٩ .

(٢) الإيمان يَأْرِزُ : المراد ياجأ إليها ويعتصم بها ، وأرزت الحية إلى جحرها : أى لا ذت به .

(٣) ابن أبى : هو عبد الله بن أبى ابن سلول ، أبوه أبى ، وسلول أمه ، وهو

رأس المناققين ، والذي يشير إليه هذا الحديث أن أهل المدينة كانوا قد أجمعوا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يجعلوه ملسكا عليهم .

ابن شبة بلفظ « أهل هذه البحيرة » وقال عياض في المشارق : البحيرة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويروى البحيرة ، والْبَحِيرَة : بضم الباء مصغراً وفتحها على غير التصغير ، وهى الرواية هنا ، ويقال « البحر » أيضاً بغير تاء ساكن الحاء ، وأصله القرى ، وكل قرية بحرة . انتهى .

البلاط

الثاني عشر: « البلاط » بالفتح — نقل عن كتاب ليس لابن خالويه ، وهو لغة الحجارة التى تفرش على الأرض ، والأرض المفروش بها والمستوية للمساء ، فكانها سميت به لكثرة فيها ، أو لاشتغالها على مواضع تعرف به كما سيأتى فى الباب الرابع إن شاء الله تعالى .

البلد

الثالث عشر: « البلد » قال تعالى « لا أقسم بهذا البلد^(١) » قال الواسطى فيما نقله عن عياض : أى يحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه حياً وبركتك ميتاً ، يعنى المدينة ، وقيل : المراد مكة ، ونقل عن ابن عباس ، وبه استدل من ذكره فى أسماؤها ، ورجّحه عياض لكون السورة مكية ، والبلد لغة صدر القرى .

بيت الرسول

الرابع عشر : « بيت الرسول » صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق^(٢) » ، قال المفسرون : أى من المدينة لأنها مأجرتهم ومسكنهم [فهى] فى اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ، أو المراد بيته بها .

ندد وتندر

الخامس عشر : « تندد » بالثناة الفوقية والنون وإهمال الدالين . السادس عشر : « تندر » براء بدل الدال الأخيرة مما قبله ، وسيأتى دليلهما فى يندد ويندر بالثناة التحتية ، وأن المجد صوّب حذف ما عدّا يندر بالتحتية .

الجابرة

السابع عشر: « الجابرة » لعدة فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » سميت به لأنها تجبر الكسير ، وتغنى الفقير ، وتجبر^(٣) على الإذعان لمطالعة بركاتها ، وشهود آياتها : وجبرت البلاد على الإسلام .

(١) من سورة البلد ، الآية ١ . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٥

(٣) تجبر هنا بمعنى تقهر ، وأما التى قبلها فمن قولهم « جبرت الكسير » أى أصلحت ما فسد منه .

الثامن عشر « جَبَّارٍ » كَحَذَّارٍ ، رواه ابن شبة بدل الجابرة في الحديث. جبار المذكور .

التاسع عشر « الجبارة » نقله صاحبُ كتاب أخبار النواحي مع الجابرة الجبارة والمجبورة عن التوراة .

العشرون « جزيرة العرب » قال ابن زبالة : كان ابن شهاب يقول : جزيرة جزيرة العرب العرب المدينة ، وسيأتي في حديث ابن عباس « خرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فالتفتَ إليها وقال : إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك » ونقل الهروي عن مالك أن المراد من حديث « أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ » المدينةُ خاصةً ، والصحيحُ عن مالك كقولنا أن المراد الحجاز .

الحادي والعشرون « الجُنَّةُ الحصينة » بضم الجيم ، وهي الوقاية ؛ لما حكاها بعضهم من قوله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد « أَنَا فِي جُنَّةٍ حَصِينَةٍ — يعني المدينة — دَعُوهُمْ يَدْخُلُونَ نَفَاتِلَهُمْ » وروى أحمد برجال الصحيح حديث « رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعِ حَصِينَةٍ ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا تُنَجَّرُ ، فَأُولَتْ الدَّرْعَ الْحَصِينَةَ الْمَدِينَةَ » وهذا هو المذكور في كتب السير .

الثاني والعشرون « الحبيبة » لحبه لها صلى الله عليه وسلم ، وقال « اللهم حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ » أو أشد « وسيأتي مزيد بيان لذلك في اسمها المحبوبة .

الثالث والعشرون « الحرم » بالفتح بمعنى الحرام ؛ لتحريمها ، وفي حديث مسلم « المدينة حرم » وفي رواية « إنها حرم آمن » .

الرابع والعشرون « حَرَّمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » لأنه الذي حرمها ، وفي الحديث « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ حَرَمِي أَخَافَهُ اللهُ » ، وروى ابن زبالة حديث « حَرَّمُ إِبْرَاهِيمَ مَكَّةَ وَحَرَمِي الْمَدِينَةَ » .

الحامس والعشرون « حَسَنَة » بلفظ مقابل السيئة ، قال تعالى : « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ^(١) » قال المفسرون : مَبَاءة حسنة ^(٢) ، وهى المدينة ، وقيل : حسنة اسم المدينة ، وقد اشتملت على الحُسْن الحسنى والمعنوى .
السادس والعشرون « الْخَيْرَة » بتشديد المثناة التحتية كالنيرة .

السابع والعشرون « الْخَيْرَة » كالذى قبله إلا أن الياء مخففة ، تقول : رجل خَيْر وخَيْر ، وامرأة خَيْرَة وخَيْرَة ، بالتشديد والتخفيف ، بمعنى ، وهو الكثير الخير ، وإذا أردت التفضيل قلت : فلان خَيْرُ الناس ، وفى الحديث « والمدينة خَيْرُ لَّهُمْ لو كانوا يعلمون » وسيأتى حديث « المدينة خَيْرُ من مكة » .

الثامن والعشرون « الدار » لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ^(٣) » على ما سبق فى الإيمان ، سميت به لَأَمْنِهَا والاستقرار بها وجمعها البناء والعَرْصة .
التاسع والعشرون « دار الأبرار » . الثلاثون « دار الأخيار » لأنها دار المصطفى المختار ، والمهاجرين والأنصار ، ولأنها تَنْفِي شِرَارَهَا وَمَنْ أَقام بها منهم فليست فى الحقيقة له بدار ، وربما نقل منها بعد الدفن على ما جاء فى بعض الأخبار .
الحادى والثلاثون « دار الإيمان » كما فى حديث « المدينة قُبَّةُ الإسلام ودار الإيمان » إذ منها ظهوره وانتشاره ، وسيأتى فى حديث « الإيمان يَأْرِزُ إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحيةُ إلى جُحْرِها » ^(٤)

النائى والثلاثون « دار السنة » . الثالث والثلاثون « دار السلامة » . الرابع والثلاثون « دار الفتح » . الخامس والثلاثون « دار الهجرة » ؛ فى صحيح البخارى قولُ عبد الرحمن لعمرضى الله عنهما « حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة » وفى رواية

(١) من سورة النحل من الآية ٤١

(٢) المباءة : المنزل ، وتقول : تبوأ فلان المكان ، تريد أنه اتخذ محلاً يقيم فيه ، وبوأته إياه : أحلته

(٣) من سورة الحشر من الآية ٩ .

(٤) انظر الهامشة ٢ فى ص ١١ .

الكشميين «والسلامة» وقد فتحت منها مكة وسائر الأمصار، وكانت بها عصابة الأنصار، ومهاجرة النبي المختار^(١)، صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين الأبرار، ومنها انتشرت السنة في الأقطار.

السادس والثلاثون «ذات الحُجر» لاشتغالها عليها، قال أبو بكر رضى الله عنه مُثْنِيَا عَلَى الْأَنْصَارِ: مَا وَجَدْتُ لَنَا وَلِهَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ مَثَلًا إِلَّا مَا قَالَ طَفَيْلُ الْغَنَوِيِّ:

أَبَوْا أَنْ يَمْلِكُوا وَلَوْ أَنَّ آمَنَّا تَلَاقِي الَّذِي يَنْلَقُونَ مِنَّا لَمَلَّتْ
هُمْ خَلَطُونَا بِالْثُمُوسِ وَأَوَّلُجُوا إِلَى حُجَرَاتٍ أَدْفَاتٍ وَأُظْلَمَتْ

السابع والثلاثون «ذات الحرار» لكثرة الحرار بها، وفي قصة خُنافر ذات الحرار ابن التوأم الحميري الكاهن^(٢) عن رَئِيه من الجن وقد وصف له دين الإسلام، فقال له خُنافر: من أين أبغى هذا الدين؟ قال: مِنْ ذَاتِ الْأَحْرَيْنِ، وَالنَّفَرِ الْمَيَّامِينَ، أَهْلِ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ، قلت: أَوْضِحْ، قال: الْحَقُّ يَثْرِبُ ذَاتِ النَّخْلِ وَالْحَرَّةُ ذَاتِ النَّعْلِ، قال الأسمعي: أَحْرُونَ وَحِرَارٌ جَمْعُ حَرَّةٍ.

الثامن والثلاثون «ذات النخل» وهو وذات الحجر مما استعمله المتأخرون في ذات النخل أشعارهم، وقد نسجت على مِنْوَالِهِمْ حَيْثُ قَلْتُ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَةٍ:

أَشْجَانُ قَلْبِي بِذَاتِ النَّخْلِ وَالْحَجَرِ وَأُخْتِيهَا تِلْكَ ذَاتِ الْحَجَرِ وَالْحَجَرِ
تَقَسَّمَ الْقَلْبُ بَيْنَ الْبَلَدَتَيْنِ؛ فَلَا أَنْفَكَ مِنْ لَهَبِ الْأَشْوَاقِ فِي سُعْرِ
وفي أحاديث الهجرة «أُرِيتُ دَارَ هَجْرَتِي ذَاتِ نَخْلٍ وَحَرَّةٍ»^(٣)، وقال عمران ابن عامر الكاهن يصف البلاد لقومه: وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِدَارِ الرَّاسِخَاتِ فِي الْوَحْلِ، الْمَطْعِمَاتِ فِي الْمَخْلِ^(٤)، فليحَقَّ بِالْحَرَّةِ ذَاتِ النَّخْلِ. وروى كما سيأتي: يَثْرِبُ ذَاتِ النَّخْلِ

(١) المراد أنها موضع هجرته صلى الله عليه وسلم. (٢) انظر حديثه في ترجمته في الإصابة رقم (٢٣٤٢). (٣) الحرة — بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين — الأرض ذات الحجارة السود التي كأنها محروقة بالنار: (٤) الحل — بفتح الميم وسكون الحاء المهمل — الجذب والقحط.

السَّلَقَة

التاسع والثلاثون « السَّلَقَة » ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الإقشهرى فى أسماؤها المنقولة عن التوراة ، ولم نضبطه ، وهو محتمل لفتح اللام وكسرها ، والسَّاقى بالتحريك : القاعُ الصَّفَصَفُ^(١) ، وسَلَقْتُ البيضَ : أغليت به بالنار ، والمِسْلَاقُ : الخطيبُ البليغ ، وربما قيل للمرأةِ السليطة : سَلَقَة - بكسر اللام - فتسميتها بذلك لاتساعها وبُعدها عن جبالها ، أوللاً وأئها ، أو لشدة حرها وما كان بها من الحمى الشديدة ، أو لأن الله تعالى سَلَطَ أهلها على سائر البلاد فافتتحوها الأربعون « سيدة البلدان » لما أسنده الديلمى من الحلية لأبى نعيم عن ابن عمر مرفوعاً « يا طيبة يا سيدة البلدان »

سيدة البلدان

الشافية

الحادى والأربعون « الشافية » لحديث « تبراها شفاء من كل داء » وذكر الجذام والبرص ، ولقد شاهدنا من استشفى بتراها من الجذام فنفعه الله به ، والاستشفاء بترية صُعَيْب^(٢) من الحمى مشهور ، كما سيأتى ، ولما صح فى الاستشفاء بتمرها ، وذكر ابن مسدى الاستشفاء من الحمى بكتابة أسماؤها وتعليقها على الحموم ، وسيأتى أنها تنفى الذنوب فتشفى من دائها .

طابة وطيبة

الثانى والأربعون « طَابَة » بتخفيف الموحدة . الثالث والأربعون : « طَائِبَة » بسكون المثناة التحتية . الرابع والأربعون « طَيْبَة » بتشديدها . الخامس والأربعون « طَائِب » ككاتب ، وهذه الأربعة مع اسمها المطيبة أخوات لفظاً ومعنى ، مختلفات صيغة ومبنى ، وقد صحَّ حديث « إن الله سَمَّى

(١) القاع : الأرض السهلة المطمئنة التى قد انفرجت عنها الجبال ، والصفصف - بوزن جعفر - المستوى .

(٢) فى خلاصة الوفا (ص ٢٨ ط الحلبي) نقلاً عن طاهر بن يحيى العلوى « صعيب : وادى بطحان دون الماششونية - أى الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية - وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه . وهو اليوم إذا وبنى إنسان أخذ منه » اهـ وفى معجم ما استعجم للبكرى (ص ٨٣٤) « صعيب - على لفظ تصغير صعب - موضع فى ديار بلحارث » اهـ وانظر ما يأتى فى الفصل الرابع من هذا الباب فى الاستشفاء بتراها وبتمرها وما جاء فيه .

المدينة طابة » وفي رواية « إن الله أمرني أن أسمى المدينة طابة » وروى ابن شبة وغيره: كانوا يسمون يثرب، فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة، وفي حديث « للمدينة عشرة أسماء هي المدينة وطيبة وطابة » ورواه صاحب النواحي بلفظ طابت بدل طيبة، وعن وهب بن منبه: والله إن اسمها في كتاب الله - يعني التوراة - طيبة وطابة، ونقل عن التوراة تسميتها بالمطيبة أيضا، وكذا بطابة والطيبة، وتسميتها بهذه الأسماء إما من الطيب بتشديد المثناة، وهو الطاهر؛ لطهارتها من أدناس الشرك، أو لموافقتها من قوله تعالى « بريح طيبة ^(١) » أو لخلول الطيب بها صلى الله عليه وسلم، أو لكونها كالأكبر تنفي خبثها وينصع طيبها، وإما من الطيب - بسكون المثناة - لطيب أمورها كلها، وطيب رائحتها، ووجود ريح الطيب بها، قال ابن بطال: من سكنها يجد من تربتها وحيطانها رائحة حسنة، وقال الإشبيلي: لتربة المدينة نَفحة، ليس طيبها كما عهد من الطيب، بل هو عجب من الأعاجيب، وقال ياقوت: من خصائصها طيب ريحها، وللمطر فيها رائحة لاتوجد في غيرها، وما أحسن قول أبي عبد الله العطار:

بَطِيبِ رَسُولِ اللَّهِ طَابَ نَسِيمُهَا فَمَا الْمِسْكُ مَا الْكَافُورُ مَا الْمَنْدَلُ الرَّطْبُ

السادس والأربعون « ظباب » ذكره ياقوت، ولم يضبطه، وهو ما بكسر المهملة أو بفتح المعجمة؛ فالأول بمعنى القطعة المستطيلة من الأرض، والثاني من ظب (٢) وظبب إذا حُم؛ لأنها كانت لا يدخلها أحد إلا حُم، قاله الجدي.

السابع والأربعون « العاصمة » لأنها عصمت المهاجرين ووقتهم أذى المشركين، ولما تقدم في « الجنة الحصينة » ويحتمل أن يكون بمعنى المعصومة لعصمتها قديماً بجيوش موسى وداود عليهما السلام المبعوث إلى من كان بها من الجبابرة، وحفظها حديثاً نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم حتى صارت حرماً آمناً، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون، ومن أرادها بسوء أذابه الله.

(١) من سورة يونس من الآية ٢٢ . (٢) لم أجد أول هذين الفعلين .

(٢ - وفاة ١)

الثامن والأربعون « العذراء » بإهمال أوله وإعجام ثانيه ، منقول عن التوراة ، سميت به لحفظها من وطء العدو القاهر في سالف الزمان ، إلى أن تَسَامَهَا ملكها الحقيقي سيد الأنام ، مع صعوبتها وامتناعها على الأعداء ، ولذلك سميت البكر بالعذراء .

التاسع والأربعون « العراء » بإهمال أوله وثانيه وتشديده ، بمعنى الذى قبله ، قال أئمة اللغة : العراء الجارية العذراء ، كأنها شبهت بالناقاة العراء التى لا سَتَامَ لها وصغر سنانها كصغر نَهْدِ العذراء أو عدمه ؛ فيجوز أن يكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبنيتها في السماء .

الخمسون « العروض » كصَبُور ، وقيل : هو اسم لها ولما حولها ؛ لانخفاض مواضع منها ومسائل أودية فيها ، وقال الخليل : العروض : طريقٌ في عرض الجبل ، وعَرَضَ الرجلُ إذا أتى المدينة^(١) ؛ فإن المدينة سميت عروضا لأنها من بلاد نجد ، ونجد كلها على خط مستقيم طولانى والمدينة معترضة عنها ناحية على أنها نجدية .

الحادى والخمسون « الغراء » بالغين المعجمة — تأنيث الأغر ، وهو ذوالغرة من الخيل : أى البياض فى مُقَدِّم وجهه ، والغرة أيضاً : خيار كل شيء ، وغرة الإنسان : وجهه ، والأغر : الأبيض من كل شيء ، والذى أخذت اللحية جميع وجهه إلا القليل ، ومن الأيام الشديد الحر ، والرجل الكريم ، والغراء : نبت طيب الرائحة ، والسيدة الكبيرة فى قبيلتها ؛ فسميت المدينة بذلك لشرف معاملها ، ووضوح مكارمها ، واشتهارها ، وسطوع نورها ، وبياض نورها ، وطيب رائحتها ، وكثرة نخلها ، وسيادتها على القرى ، وكرم أهلها ، ورفعة محلها .

الثانى والخمسون « غلبة » محرّكة بمعنى الغلب ؛ لظهورها واستيلائها على سائر البلاد ، وهو اسم قديم جاهلى ، قال ابن زبالة : حدثني داود بن مسكين

(١) ومنه قول عبد يعوث بن وقاص الحارثي ، وكان قد أسر في يوم كلاب :

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ قَبْلُنَا نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانِ أَنْ لَا تَلَا قِيَا

الأَنْصَارِي عن مشيخته قالوا : كانت يثرب في الجاهلية تدعى غَلَبَة ، نزلت اليهود على العماليق فغلبتهم عليها ، ونزلت الأَوْسُ والخَزْرَجُ على اليهود فغلبوهم عليها ، ونزل الأعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها ، كذا في النسخة التي وقفتُ عليها من كتاب ابن زَبَّالَة ، ونقله المجد عن الزبير بن بكار راوى كتاب ابن زَبَّالَة ، وقال فيه بدل قوله ونزل الأعاجم : ونزل المهاجرون على الأَوْس والخَزْرَج فغلبوهم عليها .

الفاضحة

الثالث والخمسون « الفاضحة » بالفاء والصاد المعجمة والحاء المهملة - نقله بعضهم عن كُرَاع ، ومأخذها ماسيأتى في معنى كونها تنفى خَبَثَها من أنها تميزه وتظهره فلا يُبَيِّنُ بها أحدٌ عقيدةً فاسدةً أو يضمُرُ أمراً إلا ظهر عليه ، وافتضح به ، بخلاف غيرها من البلاد ، وقد شاهدنا ذلك كثيراً بها .

القاصمة

الرابع والخمسون « القاصمة » بالقاف والصاد المهملة - نقل عن التوراة سميت به لقَصَمِها كل جبار عنها^(١) ، وكسر كل متمرد أنها ، ومن أرادها بسوء أذا به الله .

قبة الإسلام

الخامس والخمسون « قبة الإسلام » لحديث « المدينة قبة الإسلام » .

قرية الأنصار

السادس والخمسون « قرية الأنصار » قال ابن سَيِّدَة : القرية - بفتح القاف وكسرها - المصرُ الجامعُ ، من قرَّيت الماء في الحوض ، إذا جمعه ، وقال أبو هلال العسكري : العربُ تسمى كل مدينة صغرت أو كبرت قريةً ، قلت : وسيأتى في معنى « المدينة » ما يقتضى أنه يعتبر في سماها زيادتها على القرية ونقصها على المصر ، وقيل : يطلق عليه ، والأنصار : واحد من ناصر ، سمو بذلك لنصرهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وإيوائهم له وللمهاجرين ، فدَحَّهم الله بقوله : « والذين آوَوْا وَنَصَرُوا »^(٢) « فسامهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ، وكان يقال لهم قبل ذلك الأَوْسُ والخَزْرَجُ ، وفي الحديث عن غَيْلان بن جرير

(١) عنها : قصدها ، والمراد قصدها بسوء ، ووقع في المخطوطات « عتاها »

(٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٢ .

قال : قلت لأَنَس بن مالك : أَرَأَيْتُمْ اسْمَ الْأَنْصَارِ، كُنْتُمْ تَسْمُونُ بِهِ أَمْ سَمَّاكُمْ اللَّهُ ؟
قال : بَلْ سَمَّانا اللَّهُ . وسِيَأْتِي فِي حَدِيثٍ « إِنَّ اللَّهَ قَدْ طَهَرَ هَذِهِ الْقَرْيَةَ مِنَ الشَّرِكِ »
فَلَاكَ أَنْ تَعُدَّهُ اسْمًا آخَرَ .

السابع والخمسون « قَرْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » لما سِيَأْتِي فِي عَصْمَتِهَا
مِنَ الدِّجَالِ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « ثُمَّ يَسِيرُ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَدِينَةَ ، وَلَا يَأْذَنُ لَهُ
فِيهَا ؛ فَيَقُولُ : هَذِهِ قَرْيَةُ ذَاكَ الرَّجُلِ » يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
الثامن والخمسون « قَلْبُ الْإِيمَانِ » أوردَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْوَفَاءِ فِي حَدِيثٍ
« الْمَدِينَةُ قِبَةُ الْإِسْلَامِ » .

قَرْيَةُ
رَسُولِ اللَّهِ

قَلْبُ الْإِيمَانِ

التاسع والخمسون « الْمُؤْمِنَةُ » إِمَّا لِنَتَصَدِّقُهَا بِاللَّهِ حَقِيقَةً كَذَوَى الْعُقُولِ ؛ إِذْ
لَا بُعْدَ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى قُوَّةً فِي الْجَمَادِ قَابِلَةً لِلتَّصَدِّيقِ وَالتَّكْذِيبِ^(١) ، وَقَدْ سَمِعَ
تَسْبِيحَ الْحَصَى فِي كَفِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ مَجَازاً لَا تُصَافُ أَهْلُهَا بِذَلِكَ ،
وَلَا تُنْشَرُ الْإِيمَانُ مِنْهَا ، وَأَشْتَمَلُهَا عَلَى أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِ مِنَ النِّفْعِ وَالبَرَكَةِ وَعَدَمِ
الضَّرَرِ وَالمَسْكَنَةِ ، وَإِمَّا لِإِدْخَالِهَا أَهْلَهَا فِي الْأَمَانِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَأَمْنِهِمْ مِنَ الدِّجَالِ
وَالطَّاعُونَ ، وَرَوَى ابْنُ زُبَيْلَةَ فِي حَدِيثٍ « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ تَرَبَّيْتُهَا لِمُؤْمِنَةٍ »
وَرَوَى « أَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ فِي التَّوْرَةِ مُؤْمِنَةٌ » .

الْمُؤْمِنَةُ

الستون « الْمُبَارَكَةُ » ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَارَكَ فِيهَا بِدَعَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِحَدِيثٍ « اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ » وَغَيْرِهِ مِنْ
الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْكَثِيرَةِ ، وَأَثَارُ تِلْكَ الدَّعَوَاتِ مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَاتِ .

الْمُبَارَكَةُ

الحادي والستون « مُبَوَّأُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ » رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي حَدِيثٍ « الْمَدِينَةُ
قُبَّةُ الْإِسْلَامِ » وَالتَّبَوُّؤُ : التَّحْكُنُ وَالِاسْتِقْرَارُ ، سَمِيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا حُلٌّ تَمَسْكُنُ
هَذِينَ الْحَكَمَيْنِ وَاسْتِقْرَارَهُمَا ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ « مَثْوًى » بِالمَثَلَةِ السَّاكِنَةِ بَدَلِ

مُبَوَّأُ
الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ

(١) وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ فَصَلَتْ مِنَ الْآيَةِ ١١ (قَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اثْنَانِ
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) : إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ خَلَقَ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ قُوَّةَ الْإِدْرَاكِ
وَفَهْمِ الْحِطَابِ وَإِنِّهُمَا أَجَابَتَا ، وَلِهَذَا قَالَ سَبَّحَانَهُ (طَائِعِينَ) وَعَبَّرَ عَنْهُمَا كَمَا يَعْبُرُ عَنِ الْعُقُلَاءِ .

الموحدة ، والأول هو الذى رأيت به بخط الحافظ أبى الفتح المرازى .

الثنى والستون « مبین الحلال والحرام » رواه ابن الجوزى والسيد أبو العباس ^{مبین} ^{الحلال والحرام} القرافى فى حديث « المدينة قبة الإسلام » بدل الذى قبله ، سميت به لأنها المحل الذى ابتدأ فيه ببيان الحلال والحرام .

الثالث والستون « المحبورة » بالجيم - ذكره فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » ونقل عن الكتب المتقدمة ، وسميت به لأن الله تعالى جَبَرَهَا بسكنى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم حيا وضمها لأعضائه الشريفة ميتاً بعد نقل حَمَاهَا ، وتطيب مَعْنَاهَا ، والحث على سكناها ، وتنزل البركات بِمُدَّهَا وصَاعِيهَا ؛ فهى بهذا السر الشريف مسرورة ، وبهذه المِفْح العظيمة محبورة ، تسحب ذيل الفخار ، على سائر الأقطار .

الرابع والستون « المحبة » بضم الميم وبالحاء المهملة وتشديد الموحدة - نقل عن الكتب المتقدمة .

الخامس والستون « المحبة » بزيادة موحدة على ما قبله .

السادس والستون « المحبوبة » نقل عن الكتب المتقدمة أيضاً ، وهذه ثلاثة مع ما تقدم من اسمها الحبيبة من مادة واحدة ، سميت بذلك لما تقدم من حبه صلى الله عليه وسلم لها ودعائه بذلك ، وجاء ما يقتضى أنها أَحَبُّ البقاع إلى الله تعالى ، ويؤيده أنه تعالى اختارها لحبيبه صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً ؛ فهى محبوبة إلى الله تعالى ورسوله وسائر المؤمنين ، ولهذا ترتاح النفوس لذكرها ، وتهيم القلوب لشهود سرها .

السابع والستون « المحبورة » من الحَبْر ، وهو السرور ، وكذلك الحُبْرُ والحُبُورُ والحَبْرَةُ ؛ لما تقدم فى الحبورة ^(١) ، أو هو من الحَبْرَةِ بمعنى النعمة ، والحبرة ^(٢)

(١) لم يسبق هذا الاسم ؛ فلعل المؤلف ذكره فى كتابه الأول الذى جمع أطرافه فى هذا الكتاب ، أو لعله محرف عن « المحبورة » بالجيم ، وهذا عندنا أقرب .

(٢) قال المجد فى القاموس « والحبرة بالفتح : السماع فى الجنة ، وكل نعمة حسنة ، والمبالغة فيما وصف بجميل » اهـ .

أيضا المبالغة فيما وصِفَ^(١) بجَمِيل ، والمَحْبَار من الأرض : السريعةُ النباتِ
الكثيرة الخيرات .

الحُرمة

الثامن والستون « الحرمة » لما سيأتى فى تحریمها .

المحفوفة

التاسع والستون « المحفوفة » لأنها محفوفة بالبركات ، وملائكة السموات ،
محفوفة من الخواف والأوجال ، وعلى أبوابها وأتقابها^(٢) الملائكة يُخْرُسُونَهَا من
الطاعون والدجال ، وسيأتى حديث « المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة ، على كل
تَقَبٍ منها مَلَكٌ ، لا يَدْخُلُهَا الدجال ولا الطاعون » .

المحفوفة

السبعون « المحفوفة » لأن الله تعالى حفظها من الدجال والطاعون وغيرها ،
وفى حديث « القرى المحفوفة أربع » وذكر المدينة منها ، وفى حديث آخر
رويناه فى فضائل المدينة للمفضل الجندى « المدينة مشتبكة بالملائكة ، على كل
تَقَبٍ^(٣) منها مَلَكٌ يحرسها » فلك أن تسميها المحروسة أيضا .

المختارة

الحادى والسبعون « المختارة » لأن الله تعالى اختارها للمختار من خلقه فى حياته وعماته .

مدخل صدق

الثانى والسبعون « مدخل صدق » قال الله تعالى « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي
مُدْخَلَ صِدْقٍ^(٣) » الآية ، قال بعض المفسرين : مدخل صدق : المدينة ، ومخرجُ
صدق : مكة ، وسلطاناً نصيراً : الأنصار ، وروى ذلك عن زيد بن أسلم ،
ويُدَلُّ له ما رَوَاهُ الترمذى وصححه فى سبب نزول الآية .

المدينة، ومدينة
الرسول

الثالث والسبعون « المدينة » . الرابع والسبعون « مدينة الرسول صلى
الله عليه وسلم » من مَدَنَ بالمكان إذا أقام ، أو من دَانَ إذا أطاع ، فالميم زائدة ؛
لأن السلطان يسكن المدن فتقام له طاعة فيها ، أو لأن الله تعالى يُطَاع فيها ،
والمدينة : أبايت مجتمعة كثيرة تجاوز حد القرى كثرة وعمارة ، ولم تبلغ حد الأمصار ،
وقيل : يقال لكل مصر . والمدينة وإن أطلق على أما كن كثيرة فهو علم مدينة

(١) فى المطبوعات « المبالغة فيما وصفه بجَمِيل » تطبيع ، وقرأ عبارة المجد التى
أُتْرِنَاهَا لك فى تفسير كلمة « الحبرة » فى ص ٢١ . (٢) الأتقاب : جمع تَقَبٍ ، والتَقَبُ
- بفتح أو بضم فسكون - الطريق فى الجبل . (٣) من سورة الإسراء من الآية ٨٠ .

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهُجِرَ كونهَ عالماً في غيرها ، بحيث إذا أطلق لا يتبادر إلى الفهم غيرها ؛ ولا يستعمل فيها إلا معرفة ، قيل : لأنه صلى الله عليه وسلم سكنها ، وله دانت الأمم ولأمته ، والنكرة اسم لكل مدينة ، وقد نسبوا لكل مدينى ، وإلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم مَدَنَى ، للفرق ، وتسميتها بذلك متكررة في القرآن العظيم ، ونقل عن التوراة .

الخامس والسبعون « المرحومة » نقل عن التوراة ، سميت به لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، ومحل تنزيل الرحمة من أرحم الراحمين ، وأول بلد رحمت بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

السادس والسبعون « المرزوقة » لأن الله تعالى رَزَقَهَا أَفْضَلَ الخلق فسكنها ، أو المرزوق أهلها أرزاقاً حسية ومعنوية ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولا يخرج أحد منها رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيراً منه كما جاء في الحديث .

السابع والسبعون « مسجد الأقصى » نقله التادلي في منسكه عن صاحب المطالع . مسجد الأقصى الثامن والسبعون « المسكينة » نقل عن التوراة ، وذكر في حديث « للمدينة عشرة أسماء » وروى عن علي يرفعه « إن الله تعالى قال للمدينة : يا طيبة ، يا طابة يا مسكينة ، لا تقبلى الكنوز ، أرفع أجاجيرك^(١) على أجاجير^(٢) القرى » عن كعب أنه وجد ذلك في التوراة ، والأجاجير : السطوح ، وأصل المسكنة الخضوع ، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خَلَقَ فيها الخضوع والخشوع له ، وإما لأنها مسكنُ المساكين ، سكنها كل خاضع وخاشع ، وفي الحديث « اللهم أخيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، وأخشرنى في زُمرَةِ المساكين » .

التاسع والسبعون « المسلة » كالمؤمنة ، وقد قدمناه ، والإسلام يطلق على

(١) الأجاجير : جمع إجار أو إجارة - بكسر الهمزة وتشديد الجيم ، وآخره راء مهملة - وهو السطح الذى لا سترة عليه ، ويقال فى الجمع « أجاجرة » ويقال فى المفرد « إنجار » بإبدان أول الجيمين نوناً .

الانقياد والانقطاع إلى الله تعالى ، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خلق فيها الانقياد والانقطاع إليه ، وإما لانقياد أهلها بالطاعة والاستسلام ، وفتح بلدهم بالقرآن ، لا بالسيف والسهم ، وانقطاعهم إلى الله ورسوله ، وتبثلتهم لنصره وتحصيل سُوْلِهِ^(١).

مضجع الرسول الثمانون « مَضْجَعُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » لما سيأتي في حفظ أهلها وإكرامهم من قوله صلى الله عليه وسلم « المدينة مُهَاجِرِي وَمَضْجَعِي فِي الْأَرْضِ ». الحادى والثمانون « المَطْيَبَةُ » بضم أوله وفتح ثانيه — تقدم مع أخواته في الطيبة الثانية والثمانون « المقدسة » لتنزُّهها ولطهارتها من الشرك والخبائث ، ولأنها يتبرك بها ويتطهر عن أرجاس الذنوب والآثام .

الثالث والثمانون « المقرّ » بالقاف : من القرار كما رأيتُه في بعض كتب اللغة وسيأتي في دعائه صلى الله عليه وسلم لها قوله « اللهم اجعل لنا بها قَرَارًا وَرِزْقًا حَسَنًا ». الرابع والثمانون « المسكَّتَانِ » قال سعد بن أبى سَرْح في حِصَارِ عُمَانَ : أَرَى الْأَمْرَ لَا يَزْدَادُ إِلَّا تَفَاقُمًا وَأُنْصَارُنَا بِالْمَسْكَتَيْنِ قَلِيلُ وقال نصر بن حَجَّاج فيما كتب به إلى عُمر رضى الله عنه بعد نفيه إياه من المدينة لما سمع امرأة تترنم به في شعرها لجماله :

حَقَّقَتْ بِي الظَّنَّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ مُقَامٌ ؛ فَمَا لِي بِالَّذِي كَلَامُ
فَأَصْبَحْتُ مَنْفِيًّا عَلَى غَيْرِ رِيْبَةٍ وَقَدْ كَانَ لِي بِالْمَسْكَتَيْنِ مُقَامُ
والظاهر أن المراد المدينة ؛ لأن قصة عثمان ونصر بن حجاج كانتا بها ، وأطلق ذلك لانتقال أهل مكة أو غالبهم إليها وانضمامهم إلى أهلها ، وقد ذكر البرهان القيراطى المسكتين في أسماء مكة ، قال التقى الفاسى : ولعله أخذه من قول وَرَقَةَ بن نوفل :

(١) السؤل — بضم السين — أصله السؤل ، خفف بقلب الهمزة واوا ، وفي القرآن الكريم في سورة طه من الآية ٢٦ : (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) والسؤل والسؤل والسؤل بمعنى واحد .

* بطن المسكتين على رجائي *

قال السهيلي : ثنّى مكة - وهى واحدة - لأن لها بَطَاحًا وظَوَاهِر^(١) ، وإنما مقصد العرب في هذه الإشارة إلى جانبى كل بلدة ، أو أعلى البلد وأسفلها ، فيجعلونها اثنين على هذا المعنى ، انتهى . ويحتمل أن تكون التثنية فيما استشهدنا به من قبيل التغليب^(٢) وأن المراد مكة والمدينة ، فيسقط الاستشهاد به .

الخامس والثمانون « الْمَكِينَة » لتمكّنها في المكانة والمنزلة عند الله تعالى .
السادس والثمانون « مُهَاجِرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؛ لقوله :
« المدينة مُهَاجِرِي^(٣) » .

السابع والثمانون « الْمُؤَفِّيَة » بتشديد الفاء - من التوفية ، ويجوز تخفيفها ، إذ التوفية والإيفاء بمعنى ؛ سُمِّيت به لتوفيتها حقّ الواردين ، وإحسانها نُزُلَ الوافدين حساً ومعنى ، أو لأن سكانها من الصحابة الْمُؤَفُّونَ بما عَاهَدُوا الله عليه .

الثامن والثمانون « النَاجِيَة » بالجم من نجا إذا خَلَصَ أو أسرع ، أو من نَجَاهُ وَنَاجَاه سَارَهُ^(٤) ، أو من النَجْوَة للأرض العالية ، سميت بذلك لنجاتها من العتاة والطاعون والدجال ، ولإسراعها في الخيرات ، وسبقها إلى حيازة سبق بأشرف المخلوقات ، ولارتفاع شأنها بين الورى ، ورفع أجاجيرها^(٥) على أجاجير القرى .

التاسع والثمانون « نَبْلَاء » نقل من كراع ، وأظنه بفتح النون وسكون الموحدة ممدودا ، من النَّبْل - بالضم والسكون - وهو الفضل والنجابة ، ويقال : امرأة نبيلة في الحسن ، بَيِّنَةُ النَّبَالَةِ ، وَأَنْبَلُ النَّخْلِ : أَرْطَبُ ، وَالتَّنْبَلَة - بالضم - الثواب والجزاء والعطية التسعون « النحر » بفتح النون وسكون الحاء المهملة - سميت به إما لشدة

(١) الظواهر : ظهر مكة ، والبطاح : باطنها ، ويقال « قريش الظواهر » لمن سكن منهم ظاهرها ، و« قريش البطاح » لمن سكن منهم باطنها .

(٢) في المطبوعات « التغليب » تطبيع

(٣) المهاجر - بضم الميم وفتح الجيم - موضع الهجرة .

(٤) في المطبوعات « أو من نجاه ونجاء » تطبيع (٥) انظر الهامشة ١ في ص ٢٣

المكينة
مهاجر
الرسول

الموفية

الناجية

نبلاء

النحر

حرها ، كما يقال : نَحَزُ الظَّهيرة ، ولذا شاركتها مكة فيه ، وإما لإطلاق النحر على الأصل ، وهما أساس بلاد الإسلام وأصلها .

لهذراء . الحادى والتسعون « الهذراء » ذكره ابن النجار بدل العذراء نقلا عن النوراة ، وتبعه جماعة كالمطرى ؛ فلذلك أثبتناه ، وإن كان الصواب إسقاطه كما بيناه فى الأصل ، وقد رويناه فى كلام مَنْ أثبتنه بالذال المعجمة ، فالتسمية به لشدة حرها ، يقال : يوم هاذر شديد الحر ، أو لكثرة مياهها وسوانيتها المصَوِّتة عند سَوِّقها ، يقال : هذر فى كلامه ، إذا أكثره ، والهذر - محركا - الكثير الردى ، ويحتمل أن يكون بالمهمل من « هَذَر الحام » إذا صَوَّت ، والماء انصَبَّ وانهمر ، والعُشْب طال ، وأرض هادرة : كثيرة النبات .

يثرب . الثانى والتسعون « يثرب » لغة فى أثرب ، وقد تقدم الكلام عليه فيه ، وليست المذكورة فى قول الشاعر :

وَعَدَتْ وَكَانَ الْخَلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً مَوَاعِيْدَ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ يَثْرِبُ^(١)
لأن المجد قال : أجمعوا فيه على تشنية التاء وفتح الراء ، وقال : هى مدينة بحضر موت ، قيل : كان بها عرقوب صاحب المواعيد ، مع أن المجد صَحَّح أنه من قَدَماء يهود مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى مشارق عياض قيل : إن يثرب المذكورة فى البيت مثل يثرب المدينة النبوية ، وقيل : قرية باليمامة ، وقيل : إنما هى يثرب بمثناة فوقية وراء مفتوحة اسم تلك القرية ، وقيل : اسم قرية من بلاد بنى سعد من تميم ، كما اختلف فى عرقوب هذا ؛ فقليل : رجل من الأوس من أهل المدينة ، وقيل : من العمالقِ أهل اليمامة ، وقيل : من بنى سعد المذكورين اهـ . وأما قول هند بنت عتبة :
لَنَهْبِطَنَّ يَثْرِبَهُ * بِغَارَةٍ مُنْشَعِبَةٍ

(١) السجية : الطبيعة والحلقة ، والمواعيد : جمع ميعاد ، وهو الوعد ، و« أخاه » منصوب بمواعيد لأنه جمع المصدر المسمى ، وهو يعمل عمل فعله بإجماع المعتد بهم من النحاة ، وفعله ينصب المفعول به ؛ يقال « وعدته أعدوه وعداً وموعداً وميعاداً » .

فالظاهر أن الماء فيه للسكت ، فليس اسماً آخر .

الثالث والتسعون « يندد » ذكره كراع هكذا بالمشناة التحتية ودالين ، وهو يندد إما من الندّ وهو الطيب المعروف ، وقيل : العنبر ، أو من الندّ لالتل المرتفع ، أو من النداد وهو الرزق^(١) .

الرابع والتسعون « يندر » بإبدال الدال الأخيرة من الاسم قبله راء ، ذكره المجدد عند سرد الأسماء ، ولم يتكلم عليه بعد ، لما سنده ، وإنباته لوقوعه كذلك في حديث « للمدينة عشرة أسماء » في بعض الكتب ، وفي بعضها بمشناة فوقية ودالين ، وفي بعضها كذلك مع إبدال الدال الأخيرة راء ؛ فتحذر من مجموع ذلك أربعة أسماء : اثنان بالمشناة التحتية ، واثنان بالفوقية ، وذلك المستند في تقديمها في محلها ، وقال المجدد : إن ذلك كله تصحيف ، وإن الصواب يندد بالمشناة التحتية ودالين^(٢) ، وفيه نظر ؛ لأن الزركشى عند ذكر أسماء المدينة جمع بين اثنين من هذه الأربعة وقال : ذكرهما البكرى ؛ فيحتمل ثبوت الأخيرين ، وحديث « للمدينة عشرة أسماء » رواه ابن شبة عن طريق عبد العزيز بن عمران ، وسردها فيه ثمانية فقط ، ثم روى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب سمى الله المدينة الدارَ والإيمان ، قال : وجاء في الحديث الأول ثمانية أسماء ، وجاء في هذا اسمان ، فأن الله أعلم أهما تمام العشرة أم لا اه . ورواه ابن زبالة كذلك إلا أنه سرّد تسعة فزاد اسم الدار ، وأسقط العاشر ، ونقل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال : بلغني أن المدينة في التوراة أربعين اسماً ، والله أعلم .

(١) يقال « ليس لهؤلاء ناد » أي رزق ، قاله المجدد .

(٢) قال المجدد (ندد) ما نصه « ويندد : موضع ، ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم » وقال في (ندر) ما نصه « ويندر كحيدر : من أسماء المدينة ، أو هو بدالين » اه .

الباب الثاني

في فضائلها ، وبَدء شأنها وما يؤل إليه أمرها ، وظهور النار المذَر بها من أرضها ، وانطوائها عند الوصول إلى حرمها ، وفيه ستة عشر فصلا

الفصل الأول

في تفضيلها على غيرها من البلاد

مكة أفضل
أم المدينة

قد انعقد الإجماع على تفضيل ما صَمَّ الأعضاء الشريفة ، حتى على الكعبة المنيفة ، وأجمعوا بعدُ على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد ، واختلفوا أيهما أفضل ؛ فذهب عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ومالك بن أنس وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة ، وأحسنَ بعضهم فقال : محلُّ الخلاف في غير الكعبة الشريفة ، فهي أفضل من المدينة ماعدا ماضم الأعضاء الشريفة إجماعا ، وحكاية الإجماع على تفضيل ماضم الأعضاء الشريفة نقله القاضي عياض ، وكذا القاضي أبو الوليد^(١) الباجيُّ قبله كما قال الخطيب ابن جملة ، وكذا نقله أبو الين ابن عساكر وغيرهم ، مع التصريح بالتفضيل على الكعبة الشريفة ، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أن تلك البقعة أفضل من العرش .

وقال التاج الفاكهي : قالوا : لا خلاف أن البقعة التي ضمت الأعضاء الشريفة أفضلُ بقاع الأرض على الإطلاق حتى موضع الكعبة ، ثم قال : وأقول أنا : أفضل بقاع السموات أيضا ، ولم أرَ من تعرض لذلك ، والذي أعنتده أن ذلك لو عُرِضَ على علماء الأمة لم يختلفوا فيه ، وقد جاء أن السموات تشرفت بمواطء قدميه صلى الله عليه وسلم ، بل لو قال قائل إن جميع بقاع الأرض أفضل من جميع بقاع السماء شرفها لكون النبي صلى الله عليه وسلم حالاً فيها لم يبعد ، بل هو عندى الظاهر المتعين

١ في خلاصة الوفا (ص ١٠) « أبو الوليد الناجي » بالنون .

قلت : وقد صرح بما بحثه من تفضيل الأرض على السماء ابنُ العِمَادِ نقلاً عن الأرض أفضل
الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية
قال : وقالوا : إن الأكثرين عليه ؛ لأن الأنبياء خُلِقُوا من الأرض وعَبَدُوا
الله فيها ، ودفنوا بها اهـ .

وقال النووي : المختار الذي عليه الجمهور أن السموات أفضل من الأرض ،
وقيل : إن الأرض أشرف ؛ لأنها مُسْتَقَرٌّ^(١) الأنبياء ودفنهم ، وهو ضعيف
قلت : وكأن وجه تضعيفه للثاني أن الكلام عن مطلق الأرض ، ولا يلزم
من تفضيل بعضها لكونها مدفنَ الأنبياء تفضيلُ كلها ، وضعف أيضاً بأن أرواح
الأنبياء في السموات والأرواح أفضل من الأجساد ، وجوابه ما سنحققه إن شاء
الله تعالى من حياة الأنبياء في قبورهم ، صلوات الله وسلامه عليهم
وقال شيخنا المحققُ ابنُ إمام الكاملية في تفسير سورة الصف : والحق أن
مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرفُ من كل ما سواها من الأرض والسماء ، ومحلُّ
الخلافاً في غير ذلك كما كان يقرره شيخ الإسلام البلقيني
قال الزركشي : وتفضيلُ ماضم الأعضاء الشريفة للمجاورة ، ولهذا يحرم
للمحدث مس جلد المصحف^(٢) .

قال القرافي : ولما خفي هذا المعنى على بعض الفضلاء أنكر حكاية الإجماع
عود لتفضيل مكة أو المدينة
على تفضيل ماضم الأعضاء الشريفة . وقال : التفضيلُ إنما هو بكثرة الثواب على
الأعمال ، والعملُ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم محرم ، قال : ولم يعلم أن
أسباب التفضيل أعم من الثواب ، والإجماع منعقد على التفضيل بهذا الوجه
(١) المستقر : مكان الاستقرار ، واستقرار الأنبياء في الأرض أما في حياتهم
فلأنها موطن دعوتهم والحاجة إليهم فيها ، وأما بعد وفاتهم فلأن مدفنهم بها .
(٢) قاس ماضم الأعضاء على جلد المصحف ، فكما أعطى جلد المصحف حكم
المصحف لعله المجاورة أعطى ما ضم الأعضاء حكم الأعضاء لعله المجاورة ، والقرافي
جعل لعله هي كثرة الثواب فلم يصح عنده هذا القياس .

لا بكثرة الثواب ، ويلزمه أن لا يكون جلدُ المصحف — بل ولا المصحف نفسه — أفضلَ من غيره لتعذر العمل فيه ، وهو خرق للاجماع قلت : وما ذكره من التفضيل بالمجاورة مُسلمٌ ، لكن ما اقتضاه من عدم التفضيل لكثرة الثواب في ذلك ممنوع لما سنحققه .

كلام للعز
ابن عبد السلام
وأصلُ الإشكال لابن عبد السلام فإنه قال في أماليه : تفضيلُ مكة على المدينة أو عكسه معناه أن الله يرتب على العمل في إحداها من الثواب أكثر مما يرتبه على العمل في الأخرى ؛ فيشكل قول القاضي عياض : أجمعت الأمة على أن موضع القبر الشريف أفضل ؛ إذ لا يمكن أحد أن يعبد الله فيه .

كلام للتق
السبكي
قال التقى السبكي : وقد رأيت جماعة يستشكلون نقل هذا الإجماع ، وقال لي قاضي القضاة السروجي الحنفي : طالعتُ في مذهبنا خمسين تصنيفا فلم أجِد فيها تعرضا لذلك ، قال السبكي : وقد وقفت على ما ذكره ابن عبد السلام من أن الأزمان والأماكن كلها متساوية ، ويفضلان بما يقع فيهما ، لا بصفات قائمة بها ، ويرجع تفضيلها إلى ما يُنزلُ اللهُ العبادَ فيهما ، وأن التفضيل الذي فيهما أن الله يحود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما ، قال السبكي : وأنا أقول : قد يكون التفضيل لذلك ، وقد يكون لأمر آخر فيهما ، وإن لم يكن عمل ؛ فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة ، وله عند الله من المحبة ، وإساكنه ما تقصر العقول عن إداركه ، وليس ذلك لمكان غيره ، فكيف لا يكون أفضل الأماكن ؟ وليس محل عمل لنا ، فهذا معنى غير تضعيف^(١) الأعمال فيه ، وأيضا باعتبار ما قيل : إن كل أحد يدفن بالموضع الذي خلق^(٢) منه ، وأيضا فقد تكون الأعمال مضاعفة فيها باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم حي ، وأن أعماله مضاعفة أكثر من كل أحد ؛ فلا يختص التضعيف بأعمالنا نحن

(١) تضعيف الأعمال : أراد به تضعيف ثوابها ، بأن يعطيه الله على العمل فيهما أضعاف ما يعطيه على هذا العمل في غيرها (والله يضاعف لمن يشاء) .
(٢) سيأتى ذكر هذه المسألة والاستدلال عليها ، انظر ص ٣٣ الآتية ،

قلت : وهذا من النفاسة بمكان ، على أنى أقول : الرحمت والبركات النازلة بذلك المحل يعم فيضها الأمة ، وهى غير متناهية ؛ لدوام ترقياته عليه الصلاة والسلام ، وما تناله الأمة بسبب نبينا هو الغاية فى الفضل ، ولذا كانت خير أمة بسبب كون نبينا خير الأنبياء^(١) ، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضل البقاع مع كونه منبع فيض الخيرات ؟ ألا ترى أن السكبة على رأى من منع الصلاة فيها ليست محل عملنا ، أفيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها لأنه محل العمل مع أن السكبة هى السبب فى إنالة تلك الخيرات ؟ وأيضا فاهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر أمته معلوم ، وإقبال الله عليه دائماً ، وهو بهذا المحل الشريف ، فتكثر شفاعته فيه لأمرته وأمداده إياهم ، وقد ورد فى حديث « وَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ » [وجاء] بيان ذلك بأن « أعمالكم تُعرضُ على ؛ فإن رأيت خيراً حمدت الله ، وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم » وفى رواية « استوهبتُ اللهَ ذنوبكم » وله شواهد تُقويه ، وسيأتى فى الباب الثامن أن الحجة المذكور فى قوله تعالى « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ^(٢) » الآية حاصل بالحجىء إلى قبره الشريف أيضا ، فزيارته والمجاورة عنده من أفضل القربات ، وعنده تجاب الدعوات ، وتحصل الطلبات ، فقد جعله الله تعالى سببا فى ذلك أيضا ، فهو روضة من رياض الجنة ، بل أفضل رياضها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لَقَابُ قَوْسٍ^(٣) أَحَدُكُمْ فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » بل لو تعلق متعلق بما قرناه من كون القبر الشريف منبع جميع الخيرات وهو بالمدينة فتكون هى أفضل لكان له وجه

وقد قال الحكيم الترمذى فى نوادره : سمعتُ الزبير بن بكار يقول : صَنَّفَ بعضُ أهل المدينة فى المدينة كتابا ، وصنف بعض أهل مكة فى مكة كتابا ، فلم

(١) وهذا ينص الكتاب الكريم ، قال الله تعالى فى سورة آل عمران من الآية ١١٠ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(٢) من سورة النساء من الآية ٦٤ .

(٣) قاب قوس : مقداره .

يزل كل واحد منهما يذكر ببعته بفضيلة ، يريد كل واحد منهما أن يبرز^(١) على صاحبه بها ، حتى برز المدنى على المسكى فى خلة واحدة^(٢) عجز عنها المسكى ، وان المدنى قال : إذ كل نفس إنما خلقت من تربته التى يُدفنُ فيها بعد الموت ، وكان نفس الرسول إنما خلقت من تربة المدينة ؛ فحينئذ تلك التربة لها فضيلة بارزة على سائر الأرض قلت : ويدل لما ذكر من أن النفس تخلق من تربة الدفن ما رواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح وله شواهد صحيحة عن أبى سعيد ، قال : « مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عند قبر ، فقال : قَبْرُ مَنْ هَذَا ؟ فقالوا : فلان الحبشى يا رسول الله ، فقال : لا إلهَ إلا الله ، سيق من أرضه وسماه إلى التربة التى منها خلق » ورواه الحكيم الترمذى بنحوه عن أبى هريرة ، ورواه البزار عن أبى سعيد بنحوه ، وفيه عبد الله والد ابن المدنى وهو ضعيف ، وروى الطبرانى فى الأوسط نحوه عن أبى الدرداء ، وفيه الأحوص بن حكيم ، وثقه العجلى ، وضعفه الجمهور ، وروى فى الكبير أيضا نحوه عن ابن عمر ، وقال الذهبى فى بعض رواه : ضعفوه ، وأسند ابن الجوزى فى الوفاء عن كعب الأحبار : لما أراد الله عز وجل أن يخلق محمدا صلى الله عليه وسلم أمرَ جبريلَ فأثاه بالقبضة البيضاء التى هى موضعُ قبره صلى الله عليه وسلم ، فعُجِنَتْ بماء التَّسْنِيمِ ، ثم غُمِسَتْ فى أنهار الجنة ، وطُيِفَ بها فى السموات والأرض ، فعَرَفَتِ الملائكة محمدا وفضله قبل أن تعرف آدم عليه السلام ، وسيأتى لهذا مزيدُ بيانٍ فى سرِّد خصائصها .

يخلق
الإنسان من
تربة الأرض
التي يدفن فيها

وقال الحكيم الترمذى فى حديث « إذا قضى الله لعبده أن يموت بأرض جعلَ له إليها حاجة » : إنما صار أجله هناك لأنه خُلِقَ من تلك البقعة ، وقد قال الله تعالى : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ^(٣) » الآية ، قال : فإنما يعاد المرء من حيث بَدِءَ منه ، قال : وروى أن الأرض عَجَّتْ^(٤) إلى ربها لما أخذت تربة آدم عليه السلام ، فقال لها : سَأَرْدُهَا إِلَيْكَ ، فإذا مات دُفِنَ فى البقعة التى منها تربته

(١) يبرز : يتفوق . (٢) الخلة - بفتح الخاء - الخصلة .

(٣) من سورة طه من الآية ٥٥ . (٤) عجت : رفعت صوتها كأنها تصرخ .

وعن يزيد الجريري قال : سمعت ابن سيرين يقول : لو حلفتُ حلفت صادقاً باراً غير شاك ولا مُستثنٍ أن الله تعالى ما خلق نبيه صلى الله عليه وسلم ولا أباً بكر ولا عمر إلا من طينة واحدة ثم ردهم إلى تلك الطينة وروى ابن الجوزي في الوفاء عن عائشة قالت : لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اختلفوا في دفنه ؛ فقالوا : أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال على : إنه ليس في الأرض بقعة أكرم على الله من بقعة قبض فيها نفس نبيه صلى الله عليه وسلم ، وروى يحيى أن علياً قال لما اختلفوا : لا يُدفن إلا حيث توفاه الله عز وجل ، وأنهم رضوا بذلك .

قلت : ويؤخذ مما قاله على مستند نقل الإجماع السابق^(١) على تفضيل القبر الشريف ؛ لسكوتهم عليه ، ورجوعهم إلى الدفن به .

ولما قال الناس لأبي بكر رضي الله عنه : يا صاحب رسول الله ، أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : في المكان الذي قبض الله تعالى روحه فيه ؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب ، رواه الترمذي في شمائله ، والنسائي في الكبرى ، وإسناده صحيح ، ورواه أبو يعلى الموصلي ، ولفظه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبض النبي إلا في أحب الأمكنة إليه » .

قلت : وأحبها إليه أحبها إلى ربه ؛ لأن حبه تابع لحب ربه إلا أن يكون حبه عن هوى نفس ، وما كان أحب إلى الله ورسوله كيف لا يكون أفضل ، ولهذا أخذت تفضيل المدينة على مكة من قوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » أي بل أشد ، أو وأشد ، كما روى به ، ومن إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم كان يحرك دابته إذا رآها من حبتها .

(١) أي لكونه رضي الله تعالى عنه قد قال عبارة تدل على أن أكرم بقعة في الأرض هي التي قبضت فيها نفسه صلى الله عليه وسلم ، وقد دفن صلوات الله عليه حيث قبضت نفسه .

وقد روى الحاكم في مستدركه حديث «اللهم إني أخرجتني من أحب البقاع إلى ، فاسكنني في أحب البقاع إليك » وفي بعض طرقه أنه صلى الله عليه وسلم قاله حين خرج من مكة ، وفي بعضها أنه وقف بالحزورة^(١) ، وفي بعضها بالحجون فقال له ، وقد ضعفه ابن عبد البر

قيل : ولو سلمت صحته فالمراد أحب البقاع إليك بعد مكة ؛ لحديث « إن مكة خير بلاد الله » وفي رواية « أحب أرض الله إلى الله » ولأنه قد صح لمسجد مكة من المضاعفة زيادة على ما صح لمسجد المدينة كما سيأتي

قلت : فيما قدمناه من دعائه صلى الله عليه وسلم بحبها أشد من حب مكة مع ما أشرنا إليه من إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ، ومن أنه تعالى لا يجعلها أحب إلى نبيه إلا بعد جعلها أحب إليه تعالى غنية عن صحة هذا الحديث ، وكون المراد منه ما ذكر خلاف الظاهر ، وما ذكر لا يصلح مستندا في الصّرف عن الظاهر ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قصد به الدعاء للدار التي تكون هجرته إليها ، فطلب من الله أن يصيرها أحب البقاع إليه تعالى ، والحب من الله تعالى إنالة الخير والتعظيم للمحبوب ، وهذا يمكن تجرده بعد أن لم يكن ، وقوله « إن مكة خير بلاد الله وأحبها إليه » محمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله في بدء الأمر قبل ثبوت الفضل للمدينة ، فلما طالت إقامته صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأظهر الله دينه ، وتجدد لها ما سيأتي من الفضائل حتى عاد نفعها على مكة ، فافتتحها الله وسائر بلاد الإسلام منها ؛ فقد أناها الله تعالى وأنال بها من الخير ما لم يزل غيرهما من البلاد ، وظهر إجابة الدعوة الكريمة ، وأنها صارت خير أرض الله وأحبها إليه بعد ذلك ، ولهذا لم يعُد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد فتحها .

(١) الحزورة - بفتح فسكون - كانت سوق مكة ، ثم دخلت في المسجد الحرام لما زيد فيه ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم «وقف بالحزورة ، فقال : يا بطحاء مكة مأطبيك من بلدة ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك » والحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهائها .

فإن قيل : إنما لم يعد إليها لأن الله افترض عليه المقام بدار هجرته .
قلنا : لم يكن الله ليفترض عليه المقام بها إلا وهي أفضل ؛ لكرامته عنده ،
وقد حثَّ صلى الله عليه وسلم على الاقتداء به في سكنائها والإقامة بها ، وقال :
« والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

فإن قيل : قال التقي الفاسي : ظن بعض أهل عصرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن مكة خير بلاد الله » حين خرج من مكة للهجرة ، وليس كذلك ؛
لأن في بعض طرق الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك وهو على راحلته
بالخزوة ، وهو لم يكن بهذه الصفة حين هاجر ؛ لأن الأخبار تقتضي أنه خرج من
مكة مستخفياً ، ولوركب بالموضع المشار إليه - وهو الذي يقول له عوام مكة
عزوة - لأشعر ذلك بسفره .

قلنا : جاء في رواية لابن زبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم حين أمره الله
بالخروج قال : « اللهم إنك أخرجتني » الحديث ، وقد وقع في رواية لابن حبان
في حديث الهجرة « فركبا - يعني هو وأبو بكر - حتى أتيا الغار - وهو ثور -
فتواريا فيه » وسيأتي في أحاديث الهجرة ما يقتضي أنهما توجها إلى الغار ليلا بعد
أن ذرَّ صلى الله عليه وسلم ترابا على رؤوس جماعة من الكفار كانوا يرصدونه ،
وقرأ أوائل يس يستتر بها منهم ، فلم يرؤهُ ، فلا يمتنع أن يكون راكبا
في هذا الموضع .

وأما أمر مزيد المضاعفة لمسجد مكة ، فجوابه أن أسباب التفضيل لا تنحصر
في المضاعفة ، ألا ترى أن فعل الصلوات الخمسة للمتوجه إلى عرفات وظهر يوم النحر
بمئى أفضل من فعلها بمسجد مكة ، وإن اشتمل فعلها بالمسجد على المضاعفة إذ في
الاتباع ما يربو عليها ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه بمزيد المضاعفة لمسجد مكة
كما سيأتي مع قوله بتفضيل المدينة ، وغايته أن المفضول مزية ليست للفاضل ،
ويؤيد ذلك ما سيأتي من أن المضاعفة تعم الفرض والنفل ، وأن النفل بالبيت

أفضل ، على أنه إن أريد بالمسجد الحرام في حديث المضاعفة الكعبة فقط كما ستأتي الإشارة إليه ، فالجواب أن الكلام فيما عداها ، مع أن دعاءه صلى الله عليه وسلم المدينة بضعفي ما بمكة من البركة ، ومع البركة بركتين شامل^١ للأمور الدينية والدنيوية ، وقد يبارك في العدد القليل فيربو^(١) نفعه على الكثير ، ولهذا استدل به على تفضيل المدينة لأكثرية المدعوين لها من البركة الشاملة .

ولا يرد على ما قررناه ما جاء في فضل الكعبة الشريفة ؛ إذ الكلام فيما عداها ، ولهذا روى مالك في الموطأ^(٢) أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن عياش الحزومي : أنت القائل لمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هي حرم الله وأمنه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول في حرم الله ولا في بيت الله شيئا ، ثم قال عمر : أنت القائل لمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هي حرم الله وأمنه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول في حرم الله ولا في بيت الله شيئا ، ثم انصرف ، وفي رواية لوزين : فاشتد على ابن عياش ، فانصرف .

ولا يرد أيضا ما بمكة من مواضع النسك ؛ لتعلق النسك بالكعبة ، وأيضا فقد عوّض الله المدينة عن العمرة ما سيأتي في مسجد قباء ، وعن الحج ما سيأتي مرفوعا « مَنْ خرج لا يريد إلا الصلاة في مسجدى حتى يصلى فيه كان بمنزلة حجة » ، وهذا أعظم ؛ لكونه أيسر ، ويتكرر في اليوم والليلة مرارا ، والحج لا يتكرر ، ويؤخذ منه أنه يضاف إلى ما جاء في المضاعفة بمسجدها الحجة لمن أخلص قصده للصلاة .

ولا يرد أيضا كونه صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بعد النبوة أكثر من إقامته بالمدينة ، على الخلاف فيه ؛ لأن إقامته بالمدينة كان سببا في إعزاز دين الله وإظهاره ، وبها تقررت الشرائع ، وفرضت غالب الفرائض ، وأكمل الله الدين ، واستقر بها صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

(١) يربو : يزيد . (٢) انظر الموطأ (ص ٨٩٤ ط الحلبي سنة ١٣٧٠)

وقد ثبت في محبته صلى الله عليه وسلم للمدينة ما لم يثبت مثله لمكة ، وحث على الإقامة والموت بها ، والصبر على لأوائها وشدتها ، كما ستقف عليه ، وسيأتى حديث « اللهم لا تجعل منأيانا بمكة » وحديث « ما على الأرض بقعة أحب إلى من أن يكون قبرى بها منها » يعنى المدينة ، قالها ثلاث مرات .

وقد شرع الله لنا أن نحب ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ، وأن نعظم ما كان يعظمه ، وإذا ثبت تفضيل الموت بالمدينة ثبت تفضيل سكنها ، لأنه طريقه . هذا ، وقد روى الطبرانى في الكبير والمفضل الجندى في فضائل المدينة وغيرها عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال : أشهد سمعت — وفى رواية « لسمعت » — رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المدينة خير من مكة » ، وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن الرداد ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان يخطئ ، وقال أبو حاتم : ليس بقوى ، وقال أبو زرعة : لين ، وقال الأزدي : لا يكتب حديثه ، وقال ابن عدى : روايته ليست محفوظة ، ولهذا قال ابن عبد البر : هو حديث ضعيف ، وفيما قدمناه غنية عنه .

وفى الصحيحين حديث « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » ويأرز كمسجد^(١) أى ينقبض ويجتمع وينضم ويلتجىء ، وقد رأينا كل مؤمن له من نفسه سائق إلى المدينة لحبه فى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة ؛ لأنه فى زمنه صلى الله عليه وسلم للتعلم منه ، وفى زمن الصحابة والتابعين للاقتداء بهم ، ومن بعد ذلك لزيارته ، وفضل بلده ، والتبرك بمشاهدة آثاره ، والاتباع له فى سكنها .

ورويانا فى فضائل المدينة للجندى حديث « يوشك الإيمان أن يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » يعنى يرجع إليها الإيمان .

(١) قوله « كمسجد » الأولى إن يقال « كيضرب » ، وانظر ص ١١

الهامشة رقم ٢ .

وأُسند ابن زبالة حديث « لا تقوم الساعة حتى يحاز الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيلُ الدَّمَنَ » .

وقد تقدم في الأسماء^(١) حديث الصحيحين « أُمِرْتُ بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب، وهى المدينة » قال ابن المنذر : يحتمل أن يكون المراد بأكلها القرى غلبة فضلها على فضل غيرها ؛ فعناه أن الفضائل تضمحلُ في جنب عظيم فضلها حتى تسكاد تكون عدما ، وهذا أبلغ من تسمية مكة « أم القرى » ؛ لأن الأمومة لا تنمحي معها ما هى له أم ، لكن يكون لها حق الأمومة ، انتهى . وجزم القاضي عبد الوهاب بهذا الاحتمال .

وروى البزار عن عليّ رضي الله عنه حديث « إن الشياطين قد يئست أن تعبد ببلدى هذا » يعنى المدينة « وبجزيرة العرب ، ولكن التحريش بينهم » وله أصل في صحيح مسلم من حديث جابر .

وروى أبو يعلى بسند فيه من اختلف في توثيقه وبقية رجاله ثقات عن العباس رضي الله عنه قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة فالتفت إليها وقال : « إن الله قد برأ هذه الجزيرة من الشرك » وفي رواية « إن الله قد طهر هذه القرية من الشرك ، إن لم تضلّهم النجوم ، قال : يُنزلُ الله الغيث ، فيقولون : مُطِرْنَا بِنَوْءٍ^(٢) كذا وكذا » وقد تقدم في الأسماء تسميتها بالمؤمنة والمسماة ، وأنه لا مانع من إجرائه على ظاهره فهو مقتضى للتفضيل ، سيما وسببه ما سبق من كونه صلى الله عليه وسلم خُلِقَ من تربتها .

وقد استدل أبو بكر الأبهري من المالكية على تفضيلها على مكة بما سبقت الإشارة إليه من أن النبي صلى الله عليه وسلم مخاوق من تراب المدينة ، وهو أفضل البشر ، فكانت تربته أفضل التراب . قال الحافظ ابن حجر : وكون تربته أفضل التراب لا نزاع فيه ، وإنما النزاع هل يلزم من ذلك أن تكون المدينة أفضل من

(١) انظر ص ١١ السطر ٣ .

(٢) النوء : أن يسقط نجم في المغرب مع الفجر ويطلع رقيقه من ساعته .

مكة لأن المجاور للشيء لو ثبت له جميع مزاياه لكان لجار ذلك المجاور نحو ذلك ؛
فيلزم أن يكون ما جاور المدينة أفضل من مكة ، وليس كذلك اتفاقاً ، كذا
أجاب به بعض المتقدمين ، وفيه نظر ، انتهى .

قلت : لم يبين وجه النظر ، ولعل وجهه أن الأفضل لقوة أصالته في الفضل
يفيد مجاوره الأفضلية لمزية هذه المجاورة الخاصة ، وهي منتفية عن مجاور المجاور ،
ألا ترى أن جلد المصحف قد ثبت له مزية التعظيم له جاورة ، ولم يلزم من ذلك
ثبوت نحوها لمجاوره ، وأيضاً فالمتقضى لتفضيل المدينة خلقه صلى الله عليه وسلم
من تربتها ، وهذا لا يوجد لمجاورها ، والله أعلم .

الفصل الثاني

في الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها وشدتها ، وكونها تنفي الخبث
والذنوب ، ووعيد من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً .

روينا في الصحيحين حديث « مَنْ صَبَرَ عَلَى لَأَوَائِهَا وَشَدَّتْهَا كُنْتُ لَهُ شَهِيداً وَعَدَ مِنْ صَبْرِ
أَوْ شَفِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وفي صحيح مسلم عن سعيد مولى المهري أنه جاء إلى أبي سعيد الخدري ليالي
الحرّة ، فاستشاره في الجلاء من المدينة ، وشكا إليه أسعارها وكثرة عيالها ، وأخبره
أن لا صَبْرَ له على جَهْدِ المدينة ولأوائها ، فقال : ويحك ! لا أمرك بذلك ، إني
سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يصبر » وفي رواية « لا يثبت أحدٌ على
لأوائها وجَهْدِها إلا كنت له شافعياً أو شهيداً يوم القيامة » وفي رواية « فقال أبو سعيد :
لا تفعل ، الزم المدينة » وذكر الحديث بزيادة قصة .

وفي مسلم وفي الموطأ والترمذي عن يَحْيَى^(١) مولى مصعب بن الزبير أنه كان

(١) يَحْيَى : بضم الياء المثناة وفتح الحاء المهملة ، وبعدها نون مشددة مكسورة
أو مفتوحة ، وآخره سين مهملة أو شين معجمة ، ووقع في المطبوعات « يَحْيَى »
تطبيع (وانظر الموطأ ٨٨٥ وخلاصة الخزرجي ٤٤٢)

جالساً عند ابن عمر في الفتنة، فأتته مولاة [له] تسلم عليه، فقالت : إني أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن ، اشتد علينا الزمان ، فقال لها عبدُ الله : اقعدى لكأع^(١) ، ولفظ الترمذى : اضـبـرى لكأع^(١) : فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » .

فإن قيل : ما معنى التردد في قوله « شفيعاً أو شهيداً » ؟ وما معنى هذه الشفاعة مع عموم شفاعته صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : ذكر عياض ما ملخصه أن بعض مشايخه جعل «أو» للشك من الراوى، وأن الظاهر خلافه لكثرة روايته بذلك ، بل الظاهر أنه من لفظه صلى الله عليه وسلم، فإما أن يكون أعلم بهذه الجملة هكذا ، وإما أن تكون «أو» للتقسيم ، ويكون شفيعاً للعاصين وشهيداً للطيعين ، أو شهيداً لمن مات في حياته وشفيعاً لمن مات بعده ، قال : وهذه الشفاعة أو الشهادة زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعاملين في القيامة وعلى شهادته على جميع الأمم ، فيكون لتخصيصهم بذلك مزية وزيادة منزلة وحظوة قال : ويحتمل أن يكون «أو» بمعنى الواو ، قلت : ويدلّ له ما رواه البرّاءُ رجل الصريح عن عمر رضى الله عنه بلفظ « فن صبر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » وأسنده ابن النجار بلفظ « كنت له شفيعاً وكنت له شهيداً يوم القيامة » وأسنده المفضل الجندى في فضائل المدينة عن أبي هريرة أيضاً بلفظ « لا يصبر أحد على لأواء المدينة » وفي نسخة « وحرها إلا كنت له شفيعاً وشهيداً » قال القاضي : وإذا جعلنا «أو» للشك فإن كانت اللفظة شهيداً فالشهادة أمر زائد على الشفاعة المجردة المدخرة لغيرهم من الأمة ، وإن كانت اللفظة شفيعاً فهذه شفاعة غير العامة تكون لأهل المدينة بزيادة الدرجات أو تخفيف الحساب أو بإكرامهم يوم

(١) لكأع : كلمة تذكر لسبب الأثني ، وهى مبنية على الكسر ، ومعناها : ياحمقاء ، أو يامن لا تتجهين لمنطق ولا غيره ، وفي الموطأ (١٨٦) « اقعدى لكع »

القيامة بأنواع من الكرامات كإيوائهم في ظلّ العرش أو كونهم في روح^(١) وعلى منابر أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات . قلت : ويحتمل أن يجمع لهم ببركة شفاعته صلى الله عليه وسلم أو شهادته الخاصة بين ذلك كله ؛ فالجاء عظيم ، والكرم واسع ، وتأكيد الوصية بالجار يؤيد ذلك ، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد مع ذلك البشرى بموتهم على الإسلام ؛ لأن شفاعته وشهادته صلى الله عليه وسلم المذكورة خاصة بالمسلمين ، وكفى بذلك نعمة ومزية ، وسيأتى الإشارة إلى نحو ذلك في أول الباب الثامن .

وفي الموطأ والصحيحين حديث « تفتح اليمين فيأتى قوم يبشّون فيتحمّلون أهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » الحديث . وقوله « يبسون » بفتح المثناة التحتية أوله وضم الباء الموحدة وكسرهما ، ويقال أيضاً بضم المثناة وكسر الموحدة — يسوقون بهائمهم سوقاً شديداً ، وقيل : البسّ : سرعة الذهاب .

وفي مسلم حديث « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه أو قريبه : المدينة هلم إلى الرخاء ، هلم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذي نفسى بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ، ألا إن المدينة كالسكر^(٢) تخرج الخبث ، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى السكر خبث الحديد » .

وفي الصحيحين « أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى السكر خبث الحديد » وفي رواية لابن زبالة « إن المدينة تنفى خبث الرجال » وفي رواية « خبث أهلها كما ينفى السكر خبث الحديد » .

(١) الروح - بفتح الراء وسكون الواو - الراحة والرحمة ، وقوله « على منابر » أى من نور كما ورد في حديث .

(٢) السكر - بكسر السكاف - زق ينفخ فيه الحديد (المنفاخ)

وفي صحيح البخارى حديث « إنها طيبة تنفى الذنوب كما ينفى الكير خبث الفضة » .

وفي الصحيحين قصة الأعرابي الذى جاء من الغد محموا فقال : أفلنى بيعتى ، فأبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج الأعرابي ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنما المدينة كالكير تنفى خبثها وتنصع طيبها » .

قوله « أفلنى بيعتى » أى انقض العهد حتى أرجع إلى وطنى ، وكأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة . وقوله « تنفى خبثها » يحتمل أن يكون بمعنى الطرد والإبعاد لأهل الخبث ، وقصة الأعرابي المذكور ظاهرة فيه ، وخصه ابن عبد البر بزمه صلى الله عليه وسلم ، والظاهر كما قال النووى عدم التخصيص ؛ ففى الصحيح « لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها » يعنى عند ظهور الدجال ، وسيأتى فى الفصل الخامس فى حديث أحمد وغيره برجال الصحيح قصة خروج من بالمدينة من المنافقين إلى الدجال ، ثم قال « وذلك يوم التخليص ، ذلك يوم تنفى المدينة الخبث » وقال عمر بن عبدالعزيز مشفقاً إذ خرج منها لمن معه : أنخشى أن نكون ممن نفت المدينة ؟ وقد طهرها الله تعالى ممن كان بها من أرباب الأديان الخائفين لدين الإسلام ، وأهلك من كان بها من المنافقين ، وهؤلاء هم أهل الخبث الكامل ، ومن عداهم من أهل الخبث والذنوب قد يكون طرده وإبعاده إن استمر على ذلك بآخرة الأمر بنقل الملائكة له إلى غيرها من الأرض كما أشار إليه الأقرشى قال : ويكون قوله « تنفى خبثها ، وتنفى الذنوب » أى أهل ذلك ، على طريقة حذف المضاف ، ويحتمل أن يكون بمعنى طرد أهل الخبث الكامل ، وهم أهل الشقاء والكفر ، لأهل السعادة والإسلام ؛ لأن القسم الأول ليس قابلاً للشفاعة ولا المغفرة ، وقد وعد صلى الله عليه وسلم من يموت بها بالشفاعة [لهذا]^(١) وجب انتفاء القسم الأول منها ، ويحتمل أن يكون بمعنى تخليص النفوس من شرها وميلها إلى اللذات

(١) زيادة يستدعيها تساق الكلام

بما فيها من اللأواء والشدة ، ويؤيده رواية « إنها طيبة تنفى الذنوب » الحديث ، ويكون نفيها للذنوب على ظاهره ، سيما وقد اشتملت على عظيم المضاعفات ، وتنوع المثوبات ، وتوالى الرحات ، وقد قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »^(١) مع ما لأهلها من الشفاعة والشهادة الخاصة ، وما بها من تضاعف البركات ، ويحتمل أن يكون بمعنى أنه لا يخفى حال من انطوى فيها على خبث ، بل تظهر طويته كما هو مُشاهد بها ، ولم أر الآن مَنْ نصّ على هذا الاحتمال ، وهو في حفظي قديماً ، ويؤيده ما في غزوة أحد في الصحيح من أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد رَجَعَ ناس من أصحابه - أى وهم المنافقون - فقال صلى الله عليه وسلم : « المدينة كالِكَبِيرِ » الحديث ، ولهذا سميت بالفاضحة كما قدمته ، مع أن الذى ظهر لى من مجموع الأحاديث واستقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفى خبثها بالمعاني الأربعة .

وقوله « وتنصع » بالفوقانية المفتوحة والنون والمهملتين كتمنع - أى تخلص ، والناصع : الخالص الصافى ، و « طيبها » بفتح الطاء والتشديد منصوباً على أنه مفعول هذا هو المشهور فيه ، والله أعلم .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر فى تحريم المدينة مرفوعاً « ولا يريدُ وعيد من أراد أَحَدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِسَوْءٍ إِلَّا أَذَاهُ اللَّهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ ، أو ذوب الملح فى الماء » .

قال عياض : قوله « فى النار » يدفع إشكال الأحاديث التى لم تذكر فيها هذه الزيادة ، ويبين أن هذا حكمه فى الآخرة . قال : وقد يكون المراد به أن مَنْ أرادها فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم كُفِيَ المسلمون أمره ، واضمحل كيده كما يضمحل الرصاص فى النار . قال : ويحتمل أن يكون المراد مَنْ كَادَهَا اغتيالاً

(١) من سورة هود من الآية ١١٤ .

وطلبا لغرتها فلا يتم له أمر ، بخلاف مَنْ أتى ذلك جهارا . قال : وقد يكون فى اللفظ تقديم وتأخير : أى أذابه الله كذوب الرصاص فى النار ، ويكون ذلك لمن أرادها فى الدنيا فلا يمسه الله ولا يمكن له سلطانا ، بل يذهبه عن قرب ، كما انقضى شأن مَنْ حاربها أيام بنى أمية مثل مسلم بن عقبة^(١) ، فأهلك فى منصرفه منها . ثم هلك يزيد بن معاوية مُرسِلُهُ على أثر ذلك ، وغيرهما ممن صنع صنيعهما ، انتهى .

وهذا الاحتمال الأخير هو الأرجح ، وليس فى الحديث ما يقتضى أنه لا يتم له ما أراد منهم ، بل الوعد بإهلاكه ، ولم يزل شأن المدينة على هذا حتى فى زماننا هذا لما تظاهرت طائفة العياشى بإرادة السوء بالمدينة الشريفة لأمر اقتضى خروجهم منها حتى أهلك الله تعالى عُتَاتَهُمْ مع كثرتهم فى مدة يسيرة

وقد يقال : المراد من الأحاديث الجمع بين إذاخته بالإهلاك فى الدنيا وبين إذاخته فى النار فى الأخرى ، والمذكور فى هذا الحديث هو الثانى ، وفى غيره الأول ؛ فى رواية لأحمد برجال الصحيح من جملة حديث « من أرادها بسوء » يعنى المدينة « أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » وكذا فى مسلم أيضاً ، وفى فضائل المدينة للجندي حديث « أيما جَبَّارٍ أراد المدينة بسوء أذابه الله تعالى كما يذوب الملح فى الماء » وفى رواية لمسلم « بَنَ أراد أهل هذه البلدة بسوء - يعنى المدينة - أذابه الله تعالى كما يذوب الملح فى الماء » وفى رواية له أيضا « مَنْ أراد أهل هذه البلدة بَدَهُمْ أو بسوء » ، وروى البزار بإسنادٍ حَسَنٍ حديث : « اللهم اكْفِهِمْ مَنْ

(١) مسلم بن عقبة المرى : هو الذى سموه فيما بعد « مسرفا » وهو الذى أرسله يزيد بن معاوية لحرب أهل المدينة ، وكانوا قد دخلوا يزيد ، وأخرجوا عامله عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وأمروا عليهم عبيد الله بن حنظلة ، ووقعة مسلم بأهل المدينة تسمى « وquete الحرة » وقد مات بالمشلل - وقيل : بثنية هرثى - منصرفه عن المدينة قاصداً مكة لقتال عبدالله بن الزبير بن العوام ، فى سنة ٦٤ من الهجرة .

دَهَمَهُمْ بِيَأْسٍ « يعنى أهل المدينة » ولا يريدُها أحدٌ بسوءٍ إلا أذابه الله كما يذوب الملح في الماء .

وقوله « دهمهم » محركا أى غشيهم بسرعة ، وقوله في الحديث قبله « بدهم » بفتح أوله وإسكان ثانيه - أى بغائلة وأمر عظيم ، ولذا قيل : المرادُ غازيا مُغيرا عليها .

وفي البخارى حديث « لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع ^(١) » كما ينماع الملح في الماء « وأسند ابن زبالة عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف على المدينة فرفع يديه حتى روى عُفرة إبطيه ثم قال « اللهم مَنْ أَرَادَنِي وَأَهْلَ بَلَدِي بِسُوءٍ فَمَجِّلْ هَلَاكَهُ » وروى الطبرانى فى الأوسط رجال الصحيح حديث « اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخِفْهُ وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ ^(٢) ولا عدلٌ » وفي رواية لغيره « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ صَرْفًا ^(٣) ولا عدلا » وروى النسائى حديث « من أخاف أهل المدينة ظلما لهم أخافه الله ، وكانت عليه لعنة الله » الحديث ، ولابن حبان نحوه ، وروى أحمد رجال الصحيح عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أن أميرا من أمراء الفتنة قَدِمَ المدينة ، وكان قد ذهب بصرُ جابر ، فقيل لجابر : لو تَنَحَّيْتَ عنه ^(٤) ، فخرج يمشى بين ابنيه ، فنكب ، فقال : تَعِيسَ مَنْ أَخَافَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! فقال ابناه ، أو أحدهما : يا أَبَتِ ، فكيف أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مات ؟ فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبَيَّْ » .

(١) انماع ينماع : ذاب يذوب .

(٢) الصرف - بفتح فسكون - التوبة ، أو الفدية ، أو النافلة ، وسيأتى للشارح

تفسيره ص ٤٧ . (٣) تنحيت عنه : ابتعدت .

بسر بن أرطاة
يغزو المدينة

قلت : والظاهر أن الأمير المُشار إليه هو بُسر بن أرطاة
قال القرطبي : ذكر في رواية ابن عبد البر أن معاوية رضى الله عنه بعد تحكيم الحكمين
أرسل بُسر بن أرطاة في جيش ، فقدموا المدينة ، وعاملها يومئذٍ على رضى الله عنه
أبوايُوب الأنصارى - رضى الله عنه ! - ففرأبوايُوب ولحق بعلي ، ودخل بُسر المدينة ،
وقال لأهلها : والله لولا ما عهد إلى أمير المؤمنين ما تركت فيها محتلماً ^(١) إلا قتلته ،
ثم أمر أهل المدينة بالبيعة لمعاوية ، وأرسل إلى بني سلمة فقال : ما لكم عندى أمان
ولا مبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله ، فأخبر جابر ، فانطلق حتى جاء أم سلمة
زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ماذا ترين فأنى أخشى أن أقتل ، وهذه
بيعة ضلال ، فقالت : أرى أن تبأيع ، وقد أمرتُ ابني عمر بن أبى سلمة أن
يبأيع ، فأتى جابر بُسراً فبايعه ، وهدم بسر دوراً بالمدينة ، ثم انطلق .
وفى رواية ستأتى في الفصل الخامس عشر أن أهل المدينة فرّوا يومئذٍ حتى
دخلوا الحرّة حرّة بني سليم ^(٢) ، والله أعلم .

وفى الكبير للطبرانى حديث « مَنْ آذَى أهل المدينة آذاه الله ، وعليه لعنة
الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يُقبل منه صَرْف ولا عدل » .
وروى ابن النجار حديث « مَنْ أخاف أهل المدينة ظمناً أخافه الله ، وعليه
لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلاً »
والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

وعيد من
أحدث بها
حدثاً

وفى الصحيحين فى أحاديث تحريم المدينة « فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى
مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً

(١) محتلماً : أى بالغا .

(٢) وقع فى كل المطبوعات « بسر بن أرطاة » بالشين المعجمة فى كل المواضع
- تطبيع ، وانظر ابن الأثير (الكامل ١٦٦/٣ بولاق) .

ولا عَدْلًا» ولفظ البخارى « لا يُقْبَلُ منه صرف ولا عدل » قيل : الصَّرْفُ الفريضة ، والعدل التطوع ، ونقل عن الجمهور ، وقيل عكسه ، وقيل : الصرف التوبة ، والعدل الفدية ، قيل : والمعنى لا يقبل الله فريضته ونافلته أو توبته قبولاً رِضاً ، ولا يجد في القيامة فداء يفتدى به من يهودى أو نصرانى ، بخلاف سائر المذنبين ، وقيل غير ذلك ، ومعنى هذا اللّعن المبالغة في الإبعاد عن رحمة الله تعالى والطرد عن الجنة أول الأمر لأنه كلّمَن الكفار .

قال القاضى : ومعنى قوله « مَنْ أَحَدَثَ فيها حدثاً إلى آخره » من أتى فيها إثماً أو آوى مَنْ أتاه وضمه إليه وسخاه ، وآوى بالمد والقصر ، قال : واستدلوا به على أن ذلك من الكبائر ؛ لأن اللعنة لا تكون إلا في كبيرة .

قلت : فيستفاد منه أن إثم الصغيرة بها كإثم الكبيرة بغيرها ؛ لِإِصْدَاقِ الإِثْمِ بها ، بل نقل الزركشى عن مالك رحمه الله ما يقتضى شمول الحديث المذكور للمكروه كما بيناه في الأصل ، وذلك لأن الإساءة بحضور الملك ليست كالإساءة في أطراف المملكة ، وقفنا الله تعالى لحسن الأدب في هذه الحضرة الشريفة بمنه وكرمه !!

الفصل الثالث

في الحث على حفظ أهلها ، وإكرامهم ، والتحريض على الموت بها واتخاذ الأصل^(١) .

روينا في كتاب ابن النجار عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة مأجورة ، فيها مضجعى ، ومنها متبعى ، حقيق على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، مَنْ حفظهم كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة ، ومن لم يحفظهم سقى من طينة الخبال » قيل للزنى : ما طينة الخبال ؟ قال : عَصَاة أهل النار . قلت : قال بعضهم : المراد بالزنى معقل بن يسار ، وتفسير طينة الخبال بذلك رفعه مسلم ، والحديث فى الكبير للطبرانى بسند فيه متروك ،

(١) الأصل : المال ، وانظر ص ٣ الهامشة ١

ولفله « المدينة مهاجري^(١) » ومضجعي في الأرض ، حق على أمتي أن يكرموا جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، فمن لم يفعل ذلك سقاه الله من طينة الخبال « قلنا : يا أبا يسار، وما طينة الخبال ؟ قال : عَصَاة أهل النار .

وروى القاضى أبو الحسن على الهاشمى فى فوائده عن خارجة بن زيد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة مُهاجِرِي^(١) » وفيها مَضْجَعِي ، ومنها مَحْشَرِي ، حَقٌّ على أمتي حِفْظُ جيرانى فيها ، مَنْ حَفِظَ وصيتي كنت له شهيداً يوم القيامة ، ومن ضَيَّعَهَا أورده الله حوض الخبال ، قيل : وما حوض الخبال يا رسول الله ؟ قال : حوض من صَدِيدِ أهل النار .

وروى ابن زبالة عن عطاء بن يسار وغيره حديث « إن الله جعل المدينة مُهاجِرِي^(١) » ، وبها مضجعي ، ومنها مبعثي ، فحق على أمتي حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، فمن حفظ فيهم حرمتي كنت له شفيعاً يوم القيامة ، ومن ضيع فيهم حرمتي أورده الله حوض الخبال . وفى رواية له « المدينة مُهاجِرِي^(١) » ، وبها وفاقي ، ومنها محشري ، وحقيق على أمتي أن يحفظوا جيرانى ما اجتنبوا الكبيرة ، مَنْ حَفِظَ فيهم حرمتي كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة .

وفى مدارك عياض قال محمد بن مسلمة : سمعت مالكا يقول : دخلت على المهدي فقال : أوصني ، فقلت : أوصيك بتقوى الله وخدته ، والمطفئ على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه ؛ فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المدينة مُهاجِرِي^(١) » ، ومنها مبعثي ، وبهنا قبري ، وأهلها جيرانى ، وحقيق على أمتي حفظ جيرانى ؛ فمن حفظهم فى كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ، ومن لم يحفظ وصيتي فى جيرانى سقاه الله من طينة الخبال .

(١) مهاجري - بضم الميم وفتح الجيم - موضع هجرى

وروى مالك في الموطأ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسا وقَبْرُهُ يُخْفَرُ بالمدينة ، فاطَّلَعَ رجل في القبر فقال : بُئس مضجع المؤمن ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بُئس ما قلت » قال الرجل : إني لم أرد هذا ، إنما أردتُ القتلَ في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا مثْلَ للقتل في سبيل الله ، ما على الأرض بُقْعَةٌ أحب إلىَّ من أن يكون قبري بها منها » يعني المدينة ، ثلاث مرات (١) .

وروى ابن شَبَّة في أخبار مكة عن سعيد بن أبي هند قال : سمعت أبي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل مكة قال : اللهم لا تجعل منايانا (٢) بمكة حتى نخرج منها » ورواه أحمد في مسنده برجال الصحيح عن ابن عمر مرفوعا ، إلا أنه قال « حتى نُخْرِجَنَا منها » .

وروى مالك والبخاري ورُزَيْنُ الْعَبْدَرِي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتى في بلد رسولك ، زاد رزين أن ذلك كان من أجل (٣) دعاء عمر .

وسَبَقَ ما جاء في أن الإنسان يُدْفَن في التربة التي خلق منها ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم وأكثَرُ أصحابه وأفضلهم خلقوا من تربة المدينة ، وقد ثبت حديث « من مات بالمدينة كنت له شفيعاً يوم القيامة » ورواه البيهقي بلفظ « من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ ، فمن مات بالمدينة كنت له شفيعاً وشهيداً » وفي رواية له « فإنه مَنْ يَمُتْ بها أَشْفَعُ له ، أو أشهد له » وقد ذكر هذه الرواية ابنُ حِبَّان في صحيحه .

وروى الترمذي وابن حبان في صحيحه وابن ماجّة والبيهقي وعبد الحق

(١) انظر الموطأ (ص ٦٢ ط الحلبي) قال ابن عبد البر : هذا الحديث لا أحفظه مسندا ، ولكن معناه موجود من رواية مالك وغيره .

(٢) النايان : جمع منية ، وهي اللوت . (٣) أجل دعاء عمر : أكثره وأعظمه .

وصححه حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليُمت بها » ، فإنى أشفع لمن يموت بها « ولفظ ابن ماجه « فإنى أشهد » بدل « فإنى أشفع » ورواه الطبرانى فى الكبير بسند حسن ، ولفظه « من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ؛ فإنه من مات بها كنت له شهيداً - أو شفيعاً - يوم القيامة » ورواه ابن رزى بنحوه ، وزاد « وإنى أول من تَنَشَّقُ عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم أنتظر أهل مكة فأحشر بين أهل الحرمين » وفى روايه لابن النجار « فأخرج أنا وأبو بكر وعمر إلى البقيع فيبعثون ، ثم يبعث أهل مكة » . وروى الطبرانى حديث « أول من أشفع له من أمتى أهل المدينة ، ثم أهل مكة ، ثم أهل الطائف » وأخرجه الترمذى بالواو بدل ثم ، وسيأتى فى فضل البقيع زيادة تتعلق بذلك .

وبالجملة فالترغيب فى الموت فى المدينة لم يثبت مثله لغيرها ، والسكنى بها وُصلة إليه ؛ فيكون ترغيباً فى سكنائها ، وتفضيلاً لها على غيرها ، واختيار سكنائها هو المعروف من حال السلف ، ولا شك أن الإقامة بالمدينة فى حياته صلى الله عليه وسلم أفضل لاجتماعاً ، فنستصحب ذلك بعد وفاته حتى يثبت لإجماع مثله برفعه . وأسند ابن شُكْبَةَ فى أخبار مكة عن إسماعيل بن سالم قال : سألت عامراً عن فتياً أفتى بها حبيب بن أبى ثابت ، فقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث نزل مكة وهى قرية أعرابية ، ولأن أنزل دوران^(١) أحب من إلى أن أنزل مكة ، وهى قرية هاجر منها النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن الشعبى أنه كان يكره المقام بمكة ، ويقول : هى دار أعرابية ، هاجر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث يجاور بمكة وهى دار أعرابية ، وقال عبد الرزاق فى مصنفه : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحجون ثم يرجعون ، ويعتَمرون ثم يرجعون ، ولا يجاورون .

(١) دوران كحوران : عند طرف قديد ، ذكره المصنف فى خلاصة الوفا ٢١ .

قلت: ولم أظفر عن السلف بنقل في كراهة المجاورة بالمدينة الشريفة ، بخلاف مكة ، لكن اقتضى كلام النووي في شرح مسلم حكاية الخلاف فيها ، وكأنه قاس المدينة على مكة من حيث إن علة الكراهة وهي خوف الملل وقلة الحرمة للأنس وخوف ملابسة الذنوب لأن الذنب بها أقبح ، ونحوه موجود بالمدينة ، ولهذا قال : والمختار أن المجاورة بهما جميعاً مستحبة إلا أن يغلب على ظنه الوقوع في المحذورت المذكورة .

وقال الزركشي عقب نقل كلام النووي : إن الظاهر ضعف الخلاف في المدينة : أي لما قدمناه من الترغيب فيها ، ولأن كل من كره المجاورة بمكة استدل بترك الصحابة الجوار بها ، بخلاف المدينة فكانوا يحرصون على الإقامة بها ، وقد روى الطبراني في الأوسط حديث « من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مُشربٌ جَفْوَةً » وأسند ابن أبي شعبة حديث « من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به ، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلاً ولو قصرَةً » قال ابن الأثير: القصرة محرّكة أصل الشجرة ، أي ولو نخلة واحدة ، والقصرة أيضاً : العنق ، وقال الخطابي: القصرة النخلة ، وقرأ الحسن « إنها ترمى بشرر كالقصر » وفسروه بأعناق النخل ، ورواه الطبراني في الكبير بلفظه إلى قوله « فليجعل له بها أصلاً » وقال عقبه: « فليأتين على الناس زمان يكون الذي ليس له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها » ورواه ابن شعبة أيضاً بنحوه ، ثم أسند عن الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاتخذوا الأموال بمكة ، واتخذوها في دار هجرتكم ؛ فإن المرء مع ماله » وأسند أيضاً عن ابن عمر حديث « لاتخذوا من وراء الروحاء مالا ، ولا تردوا على أعقابكم بعد الهجرة ولا تُنْكِحُوا بناتكم طُلُقَاء أهل مكة ، وأنكحوهن بأترابهن فأترابهن » أي مستويات في السن في ثلاث وثلاثين سنة .

وهذا كله متضمن للبحث على سكنى المدينة وتفضيله على سكنى مكة ، وهي جديرة بذلك ؛ لأن الله تعالى اختارها لنبيه صلى الله عليه وسلم قراراً ، وجعل أهلها

شيعة له وأنصارا ، وكانت لهم أوطانا ، ولو لم يكن إلا جواره صلى الله عليه وسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصيني بالجار » الحديث^(١) ، ولم يخص جارا دون جار ، ولا يخرج أحد عن حكم الجار وإن جاز ، ولهذا اخترت تفضيل سكنها على مكة ، مع تسليم مزيد المضاعفة لمكة ؛ إذ جهة الفضل غير منحصرة في ذلك ؛ فتلك لها مزيد العدد ، ولهذا تضاعف البركة والمدد ، وتلك جوار بيت الله ، ولهذا جوار حبيب الله وأكرم الخلق على الله ، سر الوجود ، والبركة الشاملة لكل موجود

قال عياض في المدارك : قال مُصْعَب : لما قدم المهدي المدينة استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميال ، فلما بصر بمالك انحرف المهدي إليه فمآنته وسلم عليه وسيره ، فالتفت مالك إلى المهدي فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك ، وهم أولاد المهاجرين والأنصار ، فسلم عليهم ؛ فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ، ولا خير من المدينة ، قال : ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقال : إنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كان قبر محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فينبغي أن يعرف فضلهم على غيرهم ، ففعل المهدي ما أمره به ، فأشار مالك رحمه الله - إلى أن المقتضى للتفضيل هو وجود قبر النبي صلى الله عليه وسلم بها ، ومجاورة أهلها له

الفصل الرابع

في بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان بها من الوباء ، ونقله رويناً في الصحيحين حديث « اللهم حبيب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » ورواه زين العبدري والجندي بالواو بدل «أو» مع أن أوفى تلك الرواية بمعنى بل ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم في محبة المدينة ما لم يرد مثله لمكة ؛ ففي صحيح

حب النبي
صلى الله
عليه وسلم
للمدينة

(١) تتمته « حق ظننت أنه سيورثه » .

البخارى وجامع الترمذى حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أو وضع راحلته ^(١) ، وإن كان على دابة حركها من حبتها » وفي روايه لابن زبالة « تبأشراً بالمدينة » ، وفي رواية له « كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية طرح ردائه عن منكبيه وقال : هذه أرواح طيبة » وقد تكرر دعاؤه صلى الله عليه وسلم بتحبيب المدينة إليه كما سيأتى ، والظاهر أن الإجابة حصلت بالأول ، والتكرير لطلب الزيادة ، وفي كتاب الدعاء للمحاملى وغيره عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه « كان إذا قدم من سفر من أسفاره فأقبل على المدينة يسير أتم السير ، ويقول : اللهم اجعل لنا بها قراراً ، ورزقا حسنا »

وفي الصحيحين حديث « اللهم اجعل بالمدينة ضيفي ما جعلت بمكة من البركة » . وفي مسلم « اللهم بارك لنا في تمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليفك ونيبك ، وإني عبدك ونيبك ، وإنه دعاك لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » وفيه أيضا « اللهم بارك لنا في مدينتنا ، اللهم بارك لنا في صاعنا ، اللهم بارك لنا في مدنا ، اللهم بارك لنا في مدينتنا ، اللهم اجعل مع البركة بركتين » وفيه أيضا وفي الترمذى حديث « كان الناس إذا رأوا أول الثمرة جاءوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا أخذه قال : اللهم بارك لنا في تمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا » الحديث ، وهو يقتضى تكرار هذا الدعاء بتكرار ظهور الثمرة والإتيان بأولها ، وفي الترمذى - وقال : حسن صحيح - عن علي رضى الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بحرة السقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثنوني بوضوء ، فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة فقال : اللهم إن إبراهيم كان عبدك

(١) الإيضاع : الإسراع ، والمراد أنه كان يحملها على السرعة .

وخليك ، ودعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مُدَّهم وصاعهم مِثْلِي ما باركت لأهل مكة ، مع البركة بركتين » ورواه ابن شبة في أخبار مكة بنحوه ، إلا أنه قال : « حتى إذا كنا بالحرة بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتوني بوضوء ، فلما توضأ قام فاستقبل القبلة ثم قال » الحديث بنحوه ، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد ، ولفظه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كنا عند السقيا التي كانت لسعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك دعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك ورسولك وإني أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم مثل ما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين » هكذا في النسخة التي وقعت لنا ، ولعله « مِثْلِي » كما في الرواية السابقة ، ويؤخذ منه الإشارة إلى أن المدعو به ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، وفي حديث رواه ابن زبالة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم « خرج إلى ناحية من المدينة ، وخرجت معه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه حتى إنى لأرى بياض ما تحت منكبيه ، ثم قال : اللهم إن إبراهيم نبيك وخليك دعاك لأهل مكة ، وأنا نبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة ، اللهم بارك لهم في مُدَّهم وصاعهم ، وقليلهم وكثيرهم ، ضِعْفِي ما باركت لأهل مكة ، اللهم من ههنا وههنا وههنا ، حتى أشار إلى نواحي الأرض كلها ، اللهم من أرادهم بسوء فأذِبه » كما يذوب المدح في الماء » وفي الأوسط للطبراني ورجاله ثقات عن ابن عمر قال : « صَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر ، ثم أقبل على القوم فقال : اللهم بارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في مدنا وصاعنا » الحديث ، وفي الكبير له ورجاله ثقات عن ابن عباس نحوه ، وروى أحمد والبخاري وإسناده حسن عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر يوما إلى الشام فقال : اللهم أقبل بقلوبهم ، ونظر إلى العراق فقال : اللهم مثل ذلك ، ونظر قبل كل أفق ففعل ذلك ، وقال :

اللهم ارزُقْنَا من ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدَنَا وَصَاعِنَا » وفي الصحيحين حديث « اللهم بَارِكْ لَهُمْ فِي مَكِّيَّاتِهِمْ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي مَدَمِهِمْ » قال القاضي في الكلام عليه : البركة هنا بمعنى الثُّمُورِ وَالزُّيَادَةِ ، وَتَكُونُ بِمَعْنَى الثَّبَاتِ ، فَقِيلَ : يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْبَرَكَةُ دِينِيَّةً ، وَهِيَ مَا تَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ الْمَقَادِيرُ فِي الزَّكَاةِ وَالْكَفَّارَاتِ ؛ فَتَكُونُ بِمَعْنَى الثَّبَاتِ لِثَبَاتِ الْحُكْمِ بِهَا وَبَقَائِهِ بِبَقَاءِ الشَّرِيعَةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ دُنْيَوِيَّةً مِنْ تَكْثِيرِ الْكَيْلِ وَالْقَدَرِ بِهَذِهِ الْأَكْيَالِ حَتَّى يَكْفِيَ مِنْهُ مَا لَا يَكْفِي مِنْ غَيْرِهِ فِي غَيْرِ الْمَدِينَةِ ، أَوْ تَرْجِعَ الْبَرَكَةُ إِلَى كَثْرَةِ مَا يَكَالُ بِهَا مِنْ غَلَّاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا ، وَفِي هَذَا كُلِّهِ ظَهَرَ إِجَابَةُ دَعْوَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ : الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَرَكَةِ فِي نَفْسِ الْمَكِيلِ فِي الْمَدِينَةِ ، بِحَيْثُ يَكْفِي الْمَدْفِيهَا لِمَنْ لَا يَكْفِيهِ فِي غَيْرِهَا . قُلْتُ : هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَحَادِيثِ الْكَيْلِ ، وَأَمَّا غَيْرُهَا فَعَلَى عَمُومِهِ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ . وَرَوَيْنَا فِي فَضَائِلِ الْمَدِينَةِ لِلْجَنْدِيِّ حَدِيثٌ : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ ، كَحَبْنَا مَكَّةَ وَأَشْهَدُ ، وَصَحِّحْهَا لَنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّهَا وَصَاعِهَا ، وَانْقُلْ حُجَّاهَا ، وَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ » وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ الصَّحِيحَ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « صَلَّى بِأَرْضِ سَعْدٍ بِأَصْلِ الْحَرَةِ عِنْدَ بَيْوتِ السَّقِيَا ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَكَ وَعَبْدَكَ وَنَبِيَّكَ دَعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا دَعَاكَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِمَكَّةَ ، أَدْعُوكَ أَنْ تَبَارِكَ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمَدَمِهِمْ وَثَمَرِهِمْ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ ، وَاجْعَلْ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ وَبَاءٍ بِجَنَمٍ » ^(١) الْحَدِيثَ ، وَقَوْلُهُ « بِجَنَمٍ » بضم الحاء المعجمة وتشديد الميم - مكان قرب الْجُحْفَةِ كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ ، وَرَوَى ابْنُ زُبَيْلَةَ حَدِيثٌ « لَمَّا قَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَوَعَدَ فِيهَا أَصْحَابَهُ » وَفِيهِ « فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ انْقُلْ عَنَّا الْوَبَاءَ » فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ :

(١) فِي الْقَامُوسِ : « وَغَدِيرُ خَمٍّ مَوْضِعٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ بِالْجُحْفَةِ بَيْنَ الْحَرَمَيْنِ ، أَوْ خَمٍّ اسْمُ غِيْضَةٍ هُنَاكَ بِهَا غَدِيرُ مَاءٍ سَمَّاهُ لَمْ يُولَدْ بِهَا أَحَدٌ فَعَاشَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ إِلَّا أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْهَا » .

أتيت هذه الليلة بالحمى ، فإذا بعجوز سوداء مُلَبَّبة في يَدَي الذي جاء بها ، فقال :
هذه الحمى ، فما ترى فيها ؟ فقلت : اجعلوها بُحْم .

وفي مسلم حديث عن عائشة رضى الله عنها : « قدمنا إلى المدينة وهي وِية
فاشكى أبو بكر ، واشتكى بلال ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوى
أصحابه قال : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حُببت مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك
لنا في صاعها ومدها ، وَحَوِّلْ حُمَاهَا إلى الجُحْفَةِ » .

الدعاء بنقل
وبأها

وهو في البخارى بلفظ « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وَعِكَ
أبو بكر وبلال - رضى الله عنهما ! - وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :
كُلُّ امرئ مُصَبِّحٌ في أهله والموت أدنى من شرِّك نَعْلِهِ
وكان بلال إذا قلع عنه يرفع عَقِيرَتَهُ^(١) ويقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هل أَيْتَنَ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوْلٍ إِذْ خِرْتُ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرَدَنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَنَةٍ وَهَلْ يَنْبُدُونُ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ

اللهم اَلْمَنْ شَيْبَةُ بن ربيعة وَعُتْبَةُ بن ربيعة وأمِية بن خلف كما أخرجونا من
أَرْضنا إلى أرض الوباء ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حَبِّبْ إلينا
المدينة كَحُبِّنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مُدَّنَا ، وصححها لنا ،
وانقل حُمَاهَا إلى الجُحْفَةِ » قالت : وقدمنا المدينة وهي أو بأ أرض الله ، وكان
بطحان يجرى نَجْلًا ، تعنى ماء آجنا^(٢) .

ورواه في الموطأ بزيادة : « وكان عامر بن فهيرة يقول :

قَدْ ذُفْتُ طَعْمَ الْمَوْتِ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنْ الْجَبَانَ حَتَفُهُ مِنْ قَوْقِهِ
ورواه ابن إسحاق بزيادة أخرى ، ولفظه « لما قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه
وسلم المدينة قَدِمَهَا وهي أو بأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء
وسَقَمٌ ، وصرفه الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبو بكر وعامر

(١) قلع عه : ذهب عنه بخران الحمى ، ورفع عقيرته : رفع صوته .

(٢) بطحان : واد بالمدينة ، والماء الآجن : المتغير لونه وطعمه .

ابن فهيرة و بلال مولى أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد ، فأصابتهم الحمى ، فدخلت عليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب ، ولهم مالا يعلمه إلا الله من شدة الوعك ، فدنوت من أبى بكر ، فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ أى كيف تجد نفسك ، فقال * كل امرئ * البيت المتقدم ، فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول ، ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة ، فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقِهِ إن الجبانَ حَتَفَهُ من فَوْقِهِ
كل امرئٍ مُجَاهِدٌ بطَوْقِهِ كالنَّوْرِ يَحْمَى جِلْدُهُ بِرَوْقِهِ^(١)
قالت : فقلتُ ما يدرى عامر ما يقول ، وقالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عَظِيرَتَهُ وقال : * ألا ليت شعرى * البيتين .
ورواه ابن زبالة بلفظ « لما قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وَعِكَ أصحابه ، فخرج يعود أبابكر ، فوجده يَهْجُرُ »^(٢) ، فقال : يا رسول الله * لقد لقيتُ الموتَ قبل ذوقِهِ * البيت المتقدم ، فخرج من عنده ، فدخل على بلال فوجده يَهْجُرُ وهو يقول * ألا ليت شعرى * البيتين المتقدمين ، ودخل على أبى أحمد بن جَحْش فوجده مَوْعُوكًا ، فلما جلس إليه قال :

واحِذا مَكَّةَ مِنْ وادِي أرضُ بها تَكْثُرُ عَوادِي
أَرْضُهَا تُضْرَبُ أوتادِي أرضُهَا أَهْلِي وَأولادِي
* أرضُهَا أَمْشَى بلا هَادِي *

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا أن يُنْقَلَ الوَبَاءُ من المدينة فيجعل به بخرم .

وفى رواية له أنه « أَمَرَ عائشة بالذهاب إلى أبى بكر ومَوَاتِيئِهِ ، وأنها رجعت

(١) روق النور - بفتح الراء وسكون الواو - قرنه ، وسيدكره المؤلف .

(٢) يهجر - بوزن ينصر - أى يهذى ويخلط فى كلامه .

وأخبرته بحالهم ، فذكره ذلك ، ثم عمد إلى بقيع الخليل - وهو سوق المدينة^(١) - فقام فيه ووجهه إلى القبلة ، ورفع يديه إلى الله فقال : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لأهل المدينة في سُوْقِهِمْ ، وبارك لهم في صَاعِهِمْ ، وبارك لهم في مُدَّتِهِمْ ، اللهم انقل ما كان بالمدينة من وباء إلى مهبعة »

قوله « رفع عقيرته » أى صوته ، وقوله « بواد » روى « بفتح » وهو وادى الزاهر ، والجليل - بالجيم - الثمام ، ومجنة - بكسر الميم وفتحها - سوق بأسفل مكة ، وقال الأصمعي : بمر الظهران ، وشامة وطفيل : جبلان يُشْرِفَانِ على مجنة ، قاله ابن الأثير ، قال : ويقال « شابة » بالباء الموحدة ، وهو جبل حجازي ، قال الحب الطبري : وروايته بالباء الموحدة بخط شيخنا الصاغاني ، وكتب عليها صح ، وقال الطبري : والأشهر أنهما جَبَلَانِ على مراحل من مكة من جهة اليمن ، وقال الخطابي : عِينَان . وقوله « بَطَوَقِهِ » أى بطاقته ، وقوله « بَرَوَقِهِ » أى بقرنه ، و « مهبعة » هى الجحفة أحدُ المواقيت المشهورة ، وخم : بقرها ، وإنما دعا صلى الله عليه وسلم بنقل الحمى إليها لأنها كانت دار شرك ، ولم تزل من يومئذ أكثر بلاد الله حمى ، قال بعضهم : وإنه لِيُتَقَى شرب الماء من عينها التى يقال لها عين خم ، فقلَّ مَنْ شرب منها إلّا حُمَّ .

وروى البيهقي حديث عائشة من طريق هشام بن عروة عن أبيه ، وفيه « قال هشام : فكان المولود يُولدُ بالجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تُضَرَّعَهُ الحمى^(٢) » وقال الخطابي : كان أهل الجحفة إذ ذاك يهودا ، وقيل : إنه لم يبق أحد من أهلها إلّا أخذته الحمى .

قال النووي : وهذا عِلْمٌ من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن الجحفة من يومئذ وَبِيَّةٌ ، ولا يشرب أحد من ماءها إلّا حم .

(١) بقيع الخليل ، وهو سوق المدينة ، هو الذى يعرف اليوم بسوق المناخة (مكة)

(٢) تضرعه : تخضعه وتذله ، والمراد أنها تضعفه أشد الضعف .

و بطحان : من أودية المدينة كما سيأتى ، والماء الآجن : المتغير الطعم واللون .
واتفق أهل الأخبار أن الوباء بالمدينة كان شديداً ، حتى روى ابن إسحاق
عن هشام ابن عروة قال : كان وباؤها معروفاً فى الجاهلية ، وكان الإنسان إذا دخلها
وأراد أن يسلم من وبائها قيل له : انهق ، فينهق كما ينهق الحمار .

وفى دلائل النبوة من طريق هشام عن أبيه عن عائشة قالت : « قدم رسول الله
صلى الله عليه وسلم المدينة وهى أو بأرض الله ، ووانديها بطحان تجل يجرى عليه الأمل »
قال هشام : وكان وباؤها معروفاً فى الجاهلية ، وكان إذا كان الوادى وبياً فأشرف
عليه الإنسان قيل له : انهق نهيق الحمار ، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادى ،
قال الشاعر حين أشرف على المدينة :

لعمري لئن عشت من خيفة الردى * نهيق الحمار إننى لجزوع
قالت عائشة : فاشتكى أبو بكر ، الحديث .

وروى ابن شعبة عن عامر بن جابر قال : كان لا يدخل المدينة أحد إلا من
طريق واحد ، من ثنية الوداع ، فإن لم يعش بها - أى : ينهق كالحمار عشرة
أصوات فى طلق واحد - مات قبل أن يخرج منها ، فإذا وقف على الثنية قيل : قد
ودع ، فسميت ثنية الوداع ، حتى قدم عروة بن الزرد العيسى ، فقيل له : عشر بها ،
فلم يعشر ، وأنشأ يقول :

لعمري لئن عشت من خشية الردى * نهيق الحمار إننى لجزوع
ثم دخل فقال : يا معشر يهود ، ما لكم وللتعشير ؟ قالوا : إله لا يدخلها أحد
من غير أهلها فلم يعش بها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله
المُرزال ، فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية .

وتحويل الوباء من أعظم المعجزات ؛ إذ لا يقدر عليه جميع الأطباء ، وفى
البخارى حديث « رأيت امرأة سوداء تأثرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت
مهيعة ، فتأولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة » وفى الأوسط للطبرانى نحوه ، وفى
تحويل الوباء
من دلائل
النبوة

كتاب ابن زبالة «أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فجاءه إنسان كأنه قدم من ناحية طريق مكة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هل لقيت أحداً؟ قال: لا، إلا امرأة سوداء عُرْيَانَةٌ ثائرة الشعر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلك الحمى، ولن تعود بعد اليوم أبداً» وفيه أيضاً حديث «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة، وانقل وباءها إلى مهيعة، وما بقي منه فاجعله تحت ذنب مشعط» وحديث «إن كان الوباء في شيء من المدينة فهو في ظل مشعط». قال المجد: هو جبل أو موضع بالمدينة. قلت: سيأتي عن ابن زبالة في المنازل أن بنى حُدَيْلَةَ ابْتَنَوْا أُطْمَينَ أَحَدَهَا يُقَالُ لَهُ «مَشْعُطٌ» كان موضعه في غربي مسجد بنى حُدَيْلَةَ^(١)، وفي موضعه بيت يقال له بيت أُنَيْي، ثم أورد عقبه الحديث المذكور، فأفاد أنه هو المراد، وفيه أيضاً حديث «أصح المدينة من الحمى ما بين حرّة بنى قريظة والعريض» وهو يؤذن ببقاء شيء من الحمى بالمدينة، وأن الذي نقل عنها أصلاً ورأساً سلطانها وشدتها ووباؤها وكثرتها بحيث لا يعد ما بقي بالنسبة إليه شيئاً، ويحتمل أنها رفعت أولاً بالسكلية، ثم أعيدت خفيفة لثلاث يفوت ثوابها كما أشار إليه الحافظ ابن حجر، ويدل له ما روى أحمد برجال الصحيح وأبو يعقوب وابن حبان في صحيحه عن جابر «استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: مَنْ هَذِهِ؟ فقالت: أُمِّ سَلْدَمَ، فأمر بها إلى أهل قباء، فَلَمَقُوا ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فأتوه فشكوا ذلك إليه، فقال: ما شئتم، إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم، وإن شئتم تكون لكم طهُوراً، قالوا: أو تفعل؟ قال: نعم، قالوا: فدَعَهَا» ورواه الطبراني بنحوه، وقال فيه «إن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم، قالوا: فدَعَهَا» يارسول الله» وروى أحمد ورجاله ثقات حديث «أتاني جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة، وأرسلت الطاعون بالشام، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجزٌ على الكفار» والأقرب أن هذا كان في آخر الأمر بعد نقل

(١) مسجد بنى حديلة: داخل البقيع على يمين الداخل من بابه متصل بسورة؛ سيكون في زقاق سيدنا إسماعيل (مكي).

الحمى بالكلىة ، لكن قال الحافظ ابن حجر : لما دخل صلى الله عليه وسلم المدينة كان في قلة من أصحابه ، فاختر الحمى لقلّة الموت بها على الطاعون لما فيها من الأجر الجزيل ، وقضيتها إضعاف الأجساد ، فلما أمر بالجهاد دعا بنقل الحمى إلى الجحفة ، ثم كانوا من حينئذ من فاتته الشهادة بالطاعون ربما حصلت له بالقتل في سبيل الله ، ومن فاته ذلك حصلت له الحمى التي هي حظ المؤمن من النار ، ثم استمر ذلك بالمدينة ، يعنى بعد كثرة المسلمين تمييزاً لها على غيرها ، انتهى ، وهو يقتضى عود شيء من الحمى إليها بآخرة الأمر ، والمشاهد في زماننا عدم خاوها عنها أصلاً ، لكنه كما وصف أولاً ، بخلاف الطاعون ، فإنها محفوظة عنه بالكلىة كما سيأتى ، والأقرب أنه صلى الله عليه وسلم لما سأل ربه تعالى لأمته أن لا يلبسهم نسيئاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض فنعى ذلك فقال في دعائه « حمى إذا أو طاعوناً » أراد بالدعاء بالحمى الموضع الذى لا يدخله طاعون كما سنشير إليه في الفصل الآتى ؛ فيكون ما بالمدينة اليوم ليس هو حمى الوباء ، بل حمى رحمة بدعائه صلى الله عليه وسلم كما سنوضحه ، والله أعلم .

الفصل الخامس

في عصمتها من الدجال والطاعون

روينا في الصحيحين وغيرهما حديث « على أنقاب المدينة ^(١) ملائكة يحرسونها ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » وفيهما أيضاً حديث « ليس من بلد إلا سيطوها الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس نقب ^(٢) من أنقابها إلا عليه ملائكة صافين يحرسونها ، فينزل السبخة ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فيخرج إليه كل كافر ومنافق » وفي رواية « فيأتى سبخة الجرف ، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة » وفي البخارى حديث « لا يدخل المدينة رُعبُ المسيح ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب مَلَكَانِ » وفي مسلم حديث « يأتى المسيح من قبل المشرق

(١) الأنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق في الجبل .

حراسة المدينة
من الدجال
والطاعون

وهمته المدينة حتى ينزل دبر أحد ، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام ، وهناك يهلك » وفي الصحيحين « قصة خروج الرجل الذي هو خير الناس ، أو من خير الناس ، من المدينة إلى الدجال إذا نزل بعض سباخها فيقول له : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث بطوله .

قال معمر فيما رواه أبو حاتم : يرون هذا الرجل هو الخضر عليه السلام . وروى أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح عن جابر بن عبد الله قال : « أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على فلَقْ^(١) من أفلاق الحرة ونحن معه ، فقال : نعم الأرض المدينة ، إذا خرج الدجال ، على كل نقبٍ من أنقابها مَلَكٌ لا يدخلها ، فإذا كان ذلك رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثرم - يعنى من يخرج إليه - النساء ، وذلك يوم التخايف ، ذلك يوم تنفى المدينة الخبث كما ينفى الكبرُ خبث الحديد ، يكون معه سبعون ألفاً من اليهود ، على كل رجل منهم ساج وسيف محلى ؛ فيضرب قبته بهذا المضرب الذى بمجتمع السيول » الحديث بطوله ، ولفظ الطبراني « يا أهل المدينة ، اذكروا يوم الخلاص ، قالوا : وما يوم الخلاص ؟ قال : يُقبِلُ الدجال حتى ينزل بذياب ، فلا يبقى في المدينة مشرك ولا مشركة ، ولا كافر ولا كافرة ، ولا منافق ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، ويخلص المؤمنون ، فذلك يوم الخلاص » وروى أحمد رجال الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ؟ ثلاثاً ، فقل له : وما يوم الخلاص ؟ قال : يحىء الدجال فيصعد أحداً فيقول لأصحابه : أترون هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتى المدينة فيجد بكل نقبٍ منها ملكاً مُصلتاً ، فيأتى سبخة الجرف ، فيضرب رواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فذلك يوم الخلاص » وقال الحافظ

(١) الفلق - بالتحريك - المطمئن من الأرض بين ربوتين ، ويجمع على فلقان .

ابن حجر : إن أحمد والحاكم أخرجا من رواية محجن بن الأدرع رفعه « يجيء الدجال فيصعد أحدا فيطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه : ألا ترون إلى هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتي المدينة فيجد في كل نَقَب من أنقابها مَلَسْكَامُضْلِتًا سَيْفَهُ » وبقية بلفظ الحديث المذكور ، إلا أنه قال في آخره : « فتخلص المدينة ، فذلك يوم الخلاص » والمراد بالرواق الفُسطاط ، ولابن ماجه من حديث أبي أمامة « ينزل عند الطريق الأحمر عند منقطع السبخة » ولأحمد من حديث ابن عمر « ينزل الدجال في هذه السبخة بِمَرَقَنَاءَ » أى ممرها ، وفي عتيق المدينة للزبير بن بكار عن أبي هريرة « ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع السيول ، فقال : ألا أخبركم بمنزل الدجال من المدينة ؟ ثم قال : هذا منزله ، يريد المدينة ، لا يستطيعها ، يحدها متمنطقة بالملائكة ، على كل نَقَب من أنقابها ملك شاهر سلاحه ، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون ، فيزلزل بالمدينة وبأصحاب الدجال زلزلة ، لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثر من يتبعه النساء ، فلا يعجز الرجل أن يمسك سفيته » .

قلت : يستفاد منه أن المراد من قوله في الأحاديث المتقدمة : فترجف المدينة يعنى بسبب الزلزلة ؛ فلا يشكل بما تقدم من أنه لا يدخل المدينة رُعبُ المسيح الدجال فيستغنى عما جمع به بعضهم من أن الرعب المنفى هو أن لا يحصل لمن بها بسبب قر به منها خوف ، أو هو عبارة عن غايته ، وهو غلبته عليها ، والمراد بالرجفة إشاعة مجيئه وأن لا طاقة لأحد به ؛ فيتسارع حينئذ عليه مَنْ كان يتصف بالنفاق أو الفسق ، قاله الحافظ ابن حجر ، وما قدمناه أولى .

وفى الأوسط للطبراني حديث « ينزل الدجال حَذَوَ المدينة^(١) ، فأول من يتبعه النساء والإماء » وفى حديث رواه أحمد والطبراني واللفظ له ورجاله ثقة فى وصف الدجال « ثم يسير حتى يأتى المدينة ، ولا يؤذن له فيها ، فيقول : هذه قرية ذاك

(١) حذو المدينة - بفتح الحاء وسكون الدال - إزاءها .

الرجل ، ثم يسير حتى يأتي الشام فيهلكه الله عز وجل عند عقبة أفيق^(١)» وروى أبو يعلى حديث الجساسة المشهور في الصحيح ، بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح وزاد فيه « هو المسيح تطوى له الأرض في أربعين يوما ، إلا ما كان من طيبة » ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وطيبة المدينة ، ما باب من أبوابها إلا وملاك مُصَلَّتٌ سيفه يمنعه ، وبمكة مثل ذلك» وفي البخاري والترمذي حديث « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقر بها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى » .

وروى أحمد ورجاله ثقة وابن شبة برجال الصحيح حديث « المدينة ومكة محفوظتان بالملائكة ، على كل نقب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون » ، وروى أحمد مرسلًا وابنه متصلًا وكذا الطبراني ورجاله ثقة حديث « ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل خرج من بعض الأرياف ، حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء ؛ ففرغ الناس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأرجو أن لا يطلع علينا نقابها » يعنى المدينة ؛ ونقابها وأنقابها : طرقها وفجاجها ؛ واحدها نقب ، بكسر النون^(٢) .

وقوله في الرواية المتقدمة « فلا يقر بها الدجال ولا الطاعون » فيقتضى جواز دخول الطاعون المدينة ، ويرده الجزم في سائر الأحاديث ، والصواب حفظها منه كما هو المشاهد

وقد استشكل قرن الدجال بالطاعون مع أن الطاعون شهادة ورحمة فكيف يتمدح بعده ؟

والجواب من وجوه : أحدها : أن كونه كذلك ، ليس لذاته ، وإنما المراد ترتب ذلك عليه ، وقد ثبت تفسيره من رواية أحمد « بوخز أعدائكم من الجن » ؛ فيكون الإشارة بذلك إلى أن كفار الجن وشياطينهم ممنوعون من الطعن ، كما

(١) أفيق - بالهمزة أوله مفتوحة - قرية من حوران في طريق الغور في أول العقبة التي تعرف بعقبة أفيق ، والعامة تقول « فيق » بغير همزة ، والغور : هو الأردن .
(٢) الذي في القاموس أنه يفتح النون

أن الدجال ممنوع منها ، ألا ترى أن قتل الكافر المسلم شهادة ، ولو ثبت للحل أن الكفار لا تُسلط عليه لحاز بذلك غاية الشرف ، ثانيها : أن أسباب الرحمة لم تنحصر في الطاعون ، وقد عوضهم صلى الله عليه وسلم عنه الحمى حيث اختارها عند ما عُرِضا عليه كما تقدم ، وهى مطهرة للمؤمن وحظه من النار ، والطاعون يأتى فى بعض الأعوام ، والحمى تتكرر فى كل حين ، فيتعادلان ، وفيه نظر ؛ لأن تكثير أسباب الرحمة مطلوب ، ولأنه لا يدفع إشكال التمذح بخدمه ، ثالثها : أنه وإن اشتمل على الرحمة والشهادة فقد ورد أن سببه أشياء تقع من الأمة كظهور بعض المعاصى ، وقد روى أحمد بأسانيد حسان وصحاح عن شرحبيل بن حسنة وغيره « أنه - يعنى الطاعون - رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم » وروى أحمد أيضا تفسير كونه دعوة نبيكم عن أبى قلابه بأنه صلى الله عليه وسلم « سأل ربه عز وجل ألا يهلك أمته بسة ، فأعطىها ، وسأله ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم ، فأعطىها ، وسأله ألا يلبسهم شيئا ويذيق بعضهم بأس بعض ، فنعى ، فقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه : فحى إذا أو طاعونا » كرهه ثلاثا ؛ فقد تضمن الطاعون نوعا من المؤاخذه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم دعا به ليحصل كفاية لإذاقة بعضهم بأس بعض ، ويكون هلاكهم حينئذ بسبب لا يعصون به ، بل يثابون ؛ فحفظ الله تعالى بآية نبيه صلى الله عليه وسلم من الطاعون المشتل على الانتقام إكراما لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهم الحمى المضعفة للأبدان عن إذاقة بعضهم بأس بعض والمطهرة لهم ؛ ففعله صلى الله عليه وسلم « فحى إذا » أى للموضع الذى لا يدخله الطاعون ، بل عصم منه وهو جواره الشريف ، وقوله « أو طاعونا » أى للموضع الذى لم يعصم منه ، وهو سائر البلاد ، هذا ما ظهر لى فى فهم هذه الأحاديث ، وهو يقتضى شرف الحمى الواقعة بالمدينة وفضلها ؛ لأنها دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ورحمة ربنا أيضا ؛ لأنها من لازم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأنها جعلت فى مقابلة

الطاعون الذى هو رحمة لغيرهم ؛ فتكون الحمى رحمة لهم ؛ فهى غير حمى الوباء
الذاهبة من المدينة ، رابعها - ذكره الحافظ ابن حجر نقلا عن القرطبي - وهو أن
المعنى لا يدخل إلى المدينة من الطاعون مثل الذى وقع في غيرها كطاعون عمّواس^(١) ،
قال الحافظ ابن حجر : وهو يقتضى أن الطاعون يدخلها في الجملة ، وليس كذلك ؛
فقد جزم ابن قتيبة وتبعه جمع جَمَّ من آخرهم النووى بأن الطاعون لا يدخل المدينة
أصلا ، ولا مكة أيضا ، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة في الطاعون العام سنة
تسع وأربعين وسبعمائة ، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد قط أنه دخلها أصلا ، ثم
ذكر الحافظ ابن حجر الحديث المتقدم المشتمل على ذكر مكة أيضا ، ثم قال : وعلى هذا
فالذى نقل أنه وجد بمكة ليس كما ظن ناقله كونه طاعونا ، بل وباء ، وهو أعم
من الطاعون ، أو يجاب بجواب القرطبي المتقدم ، قال : ولعله بنى جوابه على أن
الطاعون ما ينشأ عن فساد الهوى فيقع به الموت الكثير ، وليس كذلك ؛ ففي
الصحيح قول أبي الأسود : قدمت المدينة وهم يموتون بها موتا ذريعا ؛ فهذا
وقع بالمدينة وهو وباء ، ولكن الشأن في تسميته طاعونا ، قال : والحق أن المراد
بالطاعون في هذه الأحاديث الذى ينشأ عن طعن الجن فيهبج به الدم في البدن
فيقتل ، فهذا لم يدخل المدينة قط . قلت : نقل الزركشى عن القرطبي أنه فسر
الطاعون بالموت العام الفاشى ، وهو صريح في أنه أراد ما فهمه عنه الحافظ ابن
حجر ، ويرده قوله في الحديث المتقدم « حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض
الطريق أصابه الوباء فأفزع الناس » فإن المراد فيه بالوباء الطاعون المعروف
بعلاماته عندهم ، وإلا فموت الشخص الواحد لا يفزع ولا يسمى موتا عاما ، ويبعد
جعل الموت العام بمجرد شهادة ، وقد أخبر بعض الأولياء بمشاهدة الجن يقظة
يطعمون الناس في بعض سنى الطاعون ، ورأيت أنه كذلك مناما ، ورأيت أن بينى

(١) عمّواس - بفتح العين والميم جميعا ، أو بكسر العين وسكون الميم - كورة من فلسطين
بالقرب من بيت المقدس ، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب ، ثم فشا
في بلاد الشام ومات به خلق كثير منهم أميين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

وبينهم حائلا ، فحانى الله منه فى تلك السنة ، على أنه لو سلم أن المراد ما ذكره القرطبي فالإشكال المتقدم باقٍ ؛ إذ يقال : لِمَ لَمْ يكثر بالمدينة وهو رجمة ؟ فالحق ما قدمناه ، وهذا - كما قال بعضهم - من المعجزات العظيمة المستمرة التى هى من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لأن الأطباء بأجمعهم قد عَجَزُوا عن دفع الطاعون عن بلد ما فى دهر من الدهور ، وقد امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة ، مع أنه يقع بالحجاز الشريف ، ويدخل قرية ينبع وجدة والفرع والصفراء والخيف وغير ذلك من الأماكن القريبة من المدينة ، ولا يدخلها هى كما شاهدنا ذلك فى طاعون أواخر سنة إحدى وثمانين وثمانمائة مع أوائل التى بعدها ؛ فإنه عم أكثر الأماكن القريبة من المدينة ، وكثر بجمدة ، واختلف فى دخوله مكة ، والذى تحفتهنا كثرة الموت بها فى ذلك الزمان ، وكثرت الحمى بالمدينة ، لكن لم يكثر بها موت ، وبالجمله فهى محفوظة منه أتم الحفظ ؛ فله الحمد والمنة .

الفصل السادس

فى الاستشفاء بترابها ، وبتمريها ، وما جاء فيه

روينا فى كتاب ابن النجار والوفاء لابن الجوزى حديث « غبار المدينة شفاء من الجذام » ما جاء فى أن وفى جامع الأصول لابن الأثير وبيضا لمخرجه عن سعد^(١) رضى الله عنه قال « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك تلقاه رجال من الخلفين من المؤمنين ، فأثاروا غباراً ، فخرم - أو فغطى - بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفه ، فأزال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللثام عن وجهه ، وقال : والذى نَفْسِي بيده إن فى غبارها شفاء من كل داء » قال : وأراه ذكر « ومن الجذام والبرص » وقد أورده كذلك رزين العبدري فى جامعه ، وهو مستند ابن الأثير فى إيراد ، قال الحافظ المذرى : ولم أره فى الأصول .

(١) عبارة « وبيضا لمخرجه عن سعد » ليست فى نسخة خلاصة الوفا للعولف المطبوعة ، وقد جاء فى تعليقات المكي « عن سعد رضى الله عنه قال لما رجع ، كذا فى هامش نسخة بخط ثقة »

وروى رزين أيضاً عن ابن عمر نحوه ، إلا أنه قال « فمدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يده فأماطه عن وجهه ، وقال : أما علمت أن عَجْوَةَ المدينة شفاء من السَّعَم ، وغبارها شفاء من الجُذَام » ورواه ابن زَبَّالة مختصراً عن صيفي بن أبي عامر ، ولفظه « والذي نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة ، وإنها شفاء من الجُذَام » وروى أيضاً عن أبي سلمة : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « غبار المدينة يطفي الجذام » قلت : وقد رأينا من استشفى بغبارها من الجذام ، وكان قد أُضْرَّ به كثيراً ؛ فصار يخرج إلى الكومة البيضاء ببُطْحَانَ بطريق قباء ويتمرغ بها ويتخذ منها في مرقده ، فنفعه ذلك جداً . وروى ابن زَبَّالة ويحيى بن الحسن ابن جعفر العلوى وابن النجار كلاهما من طريقه « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بَلْحَارِث ، فإذا هم رَوَّيْ^(١) ، فقال : مالكم يا بني الحارث رَوَّيْ ؟ قالوا : أصابتنا يارسول الله هذه الحمى ، قال : فأين أنتم عن صُعَيْب ؟ قالوا : يارسول الله مانصنع به ؟ قال : تأخذون من ترابه فتجعلونه في ماء ، ثم يتفل عليه أحدكم ويقول : بسم الله ، ترابُ أرضنا ، بريق بعضنا ، شفاء لمريضنا ، بإذن ربنا ، ففعلوا ، فتركهم الحمى » قال ابن النجار عقبه : قال أبو القاسم طاهر بن يحيى العلوى : صعب : وادى بطحان دون الماششونية ، وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه ، وهو اليوم إذا وبأ إنسان أخذ منه . قلت : قد رأيت ذلك في نسخة كتاب يحيى التى رَوَّاهَا ابنُه طاهر بن يحيى عنه ، والماششونية هى الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية ، وقال ابن النجار عقبه : وقد رأيت أنا هذه الحفرة اليوم ، والناس يأخذون منها ، وذكروا أنهم قد جرَّبوه فوجدوه صحيحاً ، قال : وأخذت أنا منه أيضاً . قلت : وهذه الحفرة موجودة اليوم ، مشهورة سلفاً عن خلف ، يأخذ الناس منها وينقلونه للتداوى ، وقد بعثت منها لبعض الأصحاب أخذاً مما ذكروه فى أخذ نبات الحرم للتدارى ، ثم رأيت الزركشى قد قال : ينبغى أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم (١) روى : جمع روبان ، مثل عطشان وعطشى وسكران وسكرى ؛ وهو

الاستشفاء
بتراب صعب

الخائر النفس الشديد الإعياء المختلط العقل .

تربة حمزة رضى الله عنه ؛ لإطباق السلف والخلف على نقلها للتداوى من الصداع ، فقلت عند الوقوف عليه : أين هومن تراب صُعَيْب لما قدمناه فيه ؟ بخلاف ما ذكره إذ لا أصل له ، وذكر المجد أن جماعة من العلماء ذكروا أنهم جربوا تراب صُعَيْب للحمى فوجدوه صحيحا ، قال : وأنا بنفسى سقيته غلاما لى مريضاً من نحو سنة تواظبه الحمى ، فاقطعت عنه من يومه ، وذكر المجد أيضاً فى موضع آخر كيفية الاستشفاء به أنه يجعل فى الماء ويغتسل به ، وكذا ذكره الجلال المطرى عند ذكر صُعَيْب فقال : وفيه حفرة يؤخذ من ترابها ويجعل فى الماء ويغتسل به من الحمى . قلت : فينبغى أن يجعل فى الماء ثم يتفل عليه ، وتقال الرقية الواردة ، ثم يجمع بين الشرب والغسل منه ، ويستأنس للغسل بما رويناه عن جزء وأبى مسعود بن الفرات الرازى عن ثابت بن قيس « أن النبى صلى الله عليه وسلم عاده وهو مريض فقال : أَذْهَبَ الْبَاسُ رَبِّ النَّاسِ ^(١) » ، عن ثابت بن قيس بن شماس ، ثم أخذ كفا من بطحاء ، فجعله فى قدح من ماء ، ثم أمر فصب عليه « وفى الصحيحين حديث « كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى الإنسانُ أو كانت به قرحة أو جرح قال بأصبعه هكذا ، ووضع سَفِيَانُ سَجَابَتَهُ بالأرض ثم رفعها ، وقال : بسم الله ، تربة أرضنا ، بريق بعضنا ، يشفى سقيمنا ، بإذن ربنا » ورواه أبو داود بنحوه ، وفى رواية « يقول بريقه ، ثم قال به فى التراب : تربة أرضنا » وروى ابن زَبَّالَةَ « أن رجلا أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجله قرحة ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرف الحصير ، ثم وضع أصبعه التى تلى الإبهام على التراب بعد ما مسحها بريقه ، وقال : بسم الله ، ريق بعضنا ، بتربة أرضنا ، ليشفى سقيمنا ، بإذن ربنا ، ثم وضع أصبعه على القرحة ، فكأنما حُلَّ من عَقَالٍ » وروى أيضاً حديث « تراب أرضنا ، شفاء لقرحتنا ، بإذن ربنا » وأن أم سلمة كانت تنعت من القرحة تراب الضبة .

(١) الباس : الشدة ، وأصله البأس - بالهمز - فسهلت الهمزة بقلبها ألساً لانفتاح ما قبلها ، وهى لغة لقريش

ما جاء في أن
تمرها شفاء

وفي مسلم حديث « مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِمَّا يَبْنِي لَهَا بَنِيهَا حِينَ يَصْبَحُ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَمْسَى » وفي الصحيحين حديث « مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سَمٌ وَلَا سِحْرٌ » ورواه أحمد برجال الصحيح بلفظ « مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ مِمَّا بَيْنَ لَابَتَيْ الْمَدِينَةِ عَلَى الرِّيقِ لَمْ يَضُرَّهُ يَوْمَهُ ذَلِكَ شَيْءٌ حَتَّى يَمْسَى » قال فليح : وأظنه قال « وَإِنْ أَكَلَهَا حِينَ يُمَسِّي لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَصْبَحَ » ورواه ابن زبالة بلفظ « مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ مِنَ الْعَجْوَةِ لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ « مِنْ الْعَالِيَةِ لَمْ يَضُرَّهُ يَوْمَئِذٍ سَمٌ وَلَا سِحْرٌ » وفي صحيح مسلم حديث « إِنْ فِي عَجْوَةِ الْعَالِيَةِ شِفَاءٌ ، أَوْ لَهَا تَرِياقٌ أَوَّلُ الْبُكَرَةِ » وروى أحمد برجال الصحيح حديثاً فيه « وَاعْلَمُوا أَنَّ الْكُمَاةَ دَوَاءٌ الْعَيْنِ ، وَأَنَّ الْعَجْوَةَ مِنَ فَاكِهِةِ الْجَنَّةِ » وروى النسائي وأبوداود الطيالسي والطبراني في الثلاثة بسند جيد حديث « الْكُمَاةُ مِنَ الْمَنِّ ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ ، وَالْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَهِيَ شِفَاءٌ مِنَ السَّمِّ » وقد صح في سنن أبي داود عن سعد بن أبي وقاص قال « مَرَضْتُ مَرَضًا ، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُنِي ، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ ثَدْيِي حَتَّى وَجَدَتْ بَرْدَهَا عَلَى فُؤَادِي ، فَقَالَ : إِنَّكَ رَجُلٌ مَقُودٌ ، أَتَيْتَ الْحَارِثَ بْنَ كَلْدَةَ أَخَا ثَقِيفٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَتَطَبَّبُ ، فَلْيَأْخُذْ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِنَ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ ، فَلْيَجَاهُنْ ^(١) ثُمَّ لَيْلُكَ بَهَنَ » ورواه الطبراني لکن عن سعد بن أبي رافع .

قوله « فليجاهن » أي فليدقهن ، قال عياض : وقال ابن الأثير فليجاهن أي فليدقهن ، وبه سميت الوجيئة ، وهو تمر يبل بلبن ثم يدق حتى يلتئم ^(٢) ، ومنه الحديث « أَنَّهُ دَعَا سَعْدًا فَوَصَفَ لَهُ الْوَجِيئَةَ » وقوله « ثُمَّ لَيْلُكَ » أي يسقيك ، يقال : لَدَّه بِاللَّادُودِ ، إِذَا سَقَاهُ الدَّوَاءَ فِي أَحَدِ جَانِبِي الْفَمِ .

وفي كامل ابن عدي حديث « يَنْفَعُ مِنَ الدُّوَامِ أَنْ يَأْخُذَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِنَ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ كُلَّ يَوْمٍ يَفْعَلُ ذَلِكَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ » وفي غريب الحديث للخطابي عن عائشة رضي الله عنها ^(١) في مجمع البحار « فليجاهن مع نواهن : أي يدقهن مع النوى حتى يتكسر النوى ويعجن » ^(٢) (مكي) قال المجذد « الوجيئة : تمر أو جراد يدق ويلت بسمن أو زيت فيؤكل » .

« أنها كانت تأمر للدُّوَام والدُّوَارِ بسبع تمرات عجوة في سبع غدوات على الرقيق » والدُّوَام والدُّوَار: ما يأخذ الإنسان في رأسه فيدومه ، ومنه تدويم الطائر ، وهو: أن يستدير في طيرانه ، قال الخطابي : كون العجوة عُودَةً من السم والسحر إنما هو من طريق التبرك بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا لأن طبعها يفعل شيئاً ، وقال النووي : في تخصيصها دون غيرها وعدد السبع من الأمور التي علمها الشارع ، ولا نعلم نحن حكمتها ؛ فيجب الإيمان بها ، واعتقاد فضلها ، وما ذكره المازري والقاضي في هذا باطل ، وقصدت بذلك التحذير من الاغترار به ، انتهى . وأشار به لقول القاضي في أثناء تعليل ذلك : إنه لتأثير في الأرض أو الهواء ، ولقول المازري : لعل ذلك كان لأهل زمنه صلى الله عليه وسلم خاصة ، أولاً كثرتهم ؛ إذ لم يثبت استمرار وقوع الشفاء في زمننا غالباً ، وإن وجد ذلك في الأكثر حُجِّلَ على أنه أراد وصف غالب الحال ، انتهى . وقد جمعه ابن التين احتمالاً ، وزاد عليه آخَرَ أعجَبَ منه ، فقال : يحتمل أن يكون المراد نخلاً خاصاً من المدينة لا يعرف الآن ، ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بزمانه صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وهو مردود ؛ لأن سَوَقَ الأحاديث وإيراد العلماء لها وإطباق الناس على التبرك بعجوة المدينة وتمرها يرد التخصيص بزمنه صلى الله عليه وسلم ، مع أن الأصل عدمه ، ولم تزل العجوة معروفة بالمدينة يأتريها الخلف عن السلف ، يعلمها كبيرهم وصغيرهم علماً لا يقبل التشكيك .

وقال الداودي: هي من أوسط التمر كما هو المشاهد اليوم . وقال غيره : هي من أجود تمر المدينة ، ومراده أنها ليست من رديه . وقال ابن الأثير: العجوة ضرب من التمر أكبر من الصَّبَّحَانِي يضرب إلى السواد ، وهو مما غرسه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بالمدينة . وذكر هذا الأخير البزارُ أيضاً ، فلعل الأوداء ^(١) التي كاتب سلمان الفارسي أهله عليها وغرَّسَهَا صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة بالفُقَيْر أو غيره من العالية

(١) الأوداء : جمع ودي - على زنة غني وعلى - وهو صغير النخل .

كانت عجوة ، والعجوة^(١) توجد بالفقير إلى يومنا هذا، ويبعد أن يكون المراد أن هذا النوع إنما حدث بغرسه صلى الله عليه وسلم وأن جميع ما يوجد منه من غرسه كالاخفى .
وروى ابن حبان عن ابن عباس ل « كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة » وفي حديث ضعيف « خير تمركم البرني ، يخرج الداء ، ولا داء فيه » ورواه ابن شبة بنحوه خطابا لوفد عبد القيس في ثمارهم ، وكذا الحاكم في مستدركه ، وفي مسلم حديث « يا عائشة بيت لا تمر فيه جياغ أهله » قالها مرتين أو ثلاثا ، وفيه أيضا حديث « لا يجوع أهل بيت عندهم التمر » وفي الكبير والصغير للطبراني ورجال الصغير رجال الصحيح عن ابن عباس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالباكورة من الثمار وضعها على عينيه ثم قال : اللهم كما أطعمتنا أوله فأطعمنا آخره ، ثم يأمر به للمولود من أهله » ولفظ الكبير « كان إذا أتى بالباكورة من التمر قبلها وجعلها على عينيه » الحديث ، وفي نوادر الحكيم الترمذي عن أنس بن مالك قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالباكورة من كل شيء قبلها ووضعها على عينه ثلثا ، ثم على عينه اليسرى ثلثا ، ثم يقول : اللهم » الحديث بنحوه .

وروى البزار بسند فيه ضعيف حديث « يا عائشة إذا جاء الرطب فهينني » ورويناه في الغيلانيات ، وفيها أيضا حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يُفطر على الرطب في أيام الرطب ، وعلى التمر إذا لم يكن رطب ، ويختم بهن ، ويجعلهن وترًا ثلاثا أو خمسًا أو سبعا » وفيها حديث « كلوا التمر على الريق ؛ فإنه يقتل الدود »

وأأنواع تمر المدينة كثيرة ، ذكرنا ما أمكن جمعه منها في الأصل فبلغ مائة وبضعًا وثلاثين نوعًا : منها النوع المسمى بالصَّيْحَانِي^(٢) ، وقد أسند

(١) لعل هذا النوع كان في زمن المؤلف ، وأما في زماننا فهي غير معروفة ، والناس مختلفون فيها ؛ فبعضهم يقول : هي الجلية ، وبعضهم يقول : هي الجادى ، وبعضهم يعين نوعًا آخر (مكي) (٢) هذا النوع غير معروف اليوم (مكي)

الصَّدرُ إبراهيم بن محمد بن مؤيد الحموي في كتابه فضل أهل البيت عن جابر رضى الله عنه قال « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوماً في بعض حيطان المدينة ، ويدُّ علىّ في يده ، قال : فمررنا بنخل ، فصاح النخل : هذا محمد سيد الأنبياء ، وهذا علىّ سيد الأولياء أبو الأئمة الطاهرين ، ثم مررنا بنخل فصاح النخل : هذا محمد رسول الله ، وهذا علىّ سيف الله ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى علىّ ، فقال له : يا على سَمِّ الصَّيْحَانِي ، فسمى من ذلك اليوم الصيحيان» وهو حديث غريب ؛ فكان هذا سبب تسمية ذلك النوع بهذا الاسم ؛ لأن تلك النخلات كانت منه ، ويحتمل أن يكون المراد تسمية ذلك الحائط بهذا الاسم ، وبالمدينة اليوم موضع يحفاف يعرف بالصيحيان .

وروى بعضهم هذا الحديث عن على بالفاظ فيها تَكَارَر ، وفي آخره «يا على سَمِّ نَخْلَ المدينة صيحياناً لأنهن صِيحْنَنَ بفضلى وفضلك » .

الفصل السابع

في سرِّ خصائصها

وهي كثيرة لا تكاد تنحصر ، وها أنا ذا أذكر ما حضرني منها الآن وإف شاركتها مكة في بعضه ، فأقول وبالله التوفيق :

الخاصة الأولى : ما تقدمت الإشارة إليه من كونه صلى الله عليه وسلم خلق من طينتها ، وكذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأكثَر الصحابة والسلف ممن دُفِنَ بها وروى أن الله تعالى بعث جبريل وميكائيل ليقبضا قَبْضَةً من الأرض ، فَأَبَتْ ، حتى بعث الله تعالى عزرائيل فقبض منها قبضة ، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه ، فصار بعضُ الأرض بين قدميه وبعضُ الأرض موضع أقدامه ، فخلقت النفسُ مما مسَّ قدم إبليس؛ فصارت مأوى الشر ، ومن التربة التي لم يصل إليها قدم إبليس أصل الأنبياء والأولياء .

قال في العوارف : وكانت درة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسه قدم إبليس .
وقيل : [لما] ^(١) خاطب الله السموات والأرض بقوله « اثبتا طوعاً وأكرها » ^(٢)
الآية أجاب من الأرض موضع الكعبة ومن السماء ما يحاذيها .

وعن ابن عباس : أصل طينة النبي صلى الله عليه وسلم من سرّة الأرض بمكة ، يعنى الكعبة ، وهو مُشعر بأن ما أجاب من الأرض درته صلى الله عليه وسلم ، ومن الكعبة دُحيت الأرض ؛ فصار صلى الله عليه وسلم هو الأصل في التكوين .

قال في العوارف عقبه : وتربة الشخص مدفنه ، فكان مقتضى ذلك أن يكون مدفنه هناك ، لكن قيل : لما تموج الماء رمى الزبد إلى النواحي ، فوقعت جوهرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذي تربته الشريفة بالمدينة ، فكان مكيا مدنيا .

قلت : فلمكة الفضل بالبداية ، وللمدينة بالاستقرار والنهاية .

الثانية : اشتمالها على البقعة التي انعقد الإجماع على تفضيلها على سائر البقاع ، كما تقدم تحقيقه .

الثالثة : دفن أفضل الأمة بها والكثير من الصحابة الذين هم خير القرون .

الرابعة : أنها محفوفة بأفضل الشهداء الذين بذلوا نفوسهم في ذات الله بين يدى نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فكان شهيداً عليهم

ونقل عياض في المدارك وابن الجوزي في منسكه أن مالكا كان يقول في فضل المدينة : هي دار الهجرة والسنة ، وهي محفوفة بالشهداء ، وبها خيار الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) زيادة يحتاج إليها اتساق الكلام (٢) من سورة فصلت من الآية ١١ .

الخامسة : أن الله تعالى اختارها داراً وقراراً لأفضل خلقه وأكرمهم عليه صلى الله عليه وسلم .

السادسة : أن الله تعالى اختار أهلها للنصرة والإيواء .

السابعة : أن سائر البلاد افتتحت بالسيف ، وافتتحت هي بالقرآن ، كما هو مروي عن مالك ، ورفع ابن زبالة من طريقه .

الثامنة : أن الله تعالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام ، حتى مكة المشرفة ، وجعلها مظهر دينه القويم .

التاسعة : ما ذكره عياض من الاتفاق على وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة ، ووجوب سكنائها لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم ومواساته بالأنفس ، قال : ومن هاجر قبل الفتح فالجمهور على منعه من الإقامة بمكة بعد الفتح ، ورخص له في الإقامة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه .

العاشرة : أنه يبعث أشرف هذه الأمة يوم القيامة منها ، على مانقة عياض في المدارك عن مالك في ضمن أشياء في فضل المدينة ، قال : وهذا لا يقوله مالك من عند نفسه .

الحادية عشرة : ماتقدم في الأسماء من تسميتها بالمؤمنة والمسلمة ، وإن ترتبها لمؤمنة ، وأنه لا مانع من أن الله خلق ذلك فيها .

الثانية عشرة : إضافتها إلى الله تعالى في قوله : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً » ^(١) على ماتقدم في الأسماء ، وقد جاءت الأرض غير مضافة إلى الله تعالى والمراد بها مكة ، وذلك في قوله تعالى : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَتْتُمْ لَقِيلَ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ » ^(٢) .

الثالثة عشرة : إضافة الله إياها إلى رسوله بلفظ البيت في قوله : « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ » ^(٣) على ماتقدم في الأسماء .

(١) من سورة النساء من الآية ٩٧ (٢) من سورة الأنفال من الآية ٢٦

(٣) من سورة الأنفال من الآية ٥

الرابعة عشرة : إقسام الله تعالى بها في قوله «لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ»^(١) على ما سبق في الأسماء ، أى نحلّف لك بهذا البلد الذى شرفته بك ، و «لا» زائدة للتأكيد ، ويدل عليه قراءة الحسن والأعمش «لَأُقْسِمُ» .

الخامسة عشرة : أن الله بدأ بها في قوله : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ »^(٢) فمدخل صدق هى ، ومخرجه مكة كما تقدم ، مع أن القياس البداية بالخروج لموافقة الواقع . فإن قيل : التقديم للاهتمام بأمر المدخل ، قلنا : فى الاهتمام به كفاية .

السادسة عشرة : تسميتها فى التوراة بالرحومة ونحوه ، ومخاطبة الله إياها كما تقدم .
السابعة عشرة : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بحبها كمكة وأشد ، وتسميتها بالحبيبة وغيره مما تقدم ، ودعاؤه أن يجعل الله له بها قراراً ورزقاً حسناً .

الثامنة عشرة : تحريكه صلى الله عليه وسلم دابته أو إيضاعها إذا أبصر جدرانها عند قدومها ، وأنه كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية^(٣) طرح رداءه عن منكبيه وقال « هذه أرواح طائية » كما تقدم .

التاسعة عشرة : اهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر الدعاء لها بالبركة وغير ذلك .
العشرون : تحريمها على لسان أفضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه إكراماً له ، وكونه لاجزاء فيها على القول به دليل عظيم حرمتها حيث لم يشرع فيها جابر .
الحادية والعشرون : تأسيس مسجدتها الشريف على يده صلى الله عليه وسلم ، وتعلّمه فيه بنفسه ، ومعه خير الأمة المهاجرون الأولون والأنصار المقدمون .
الثانية والعشرون : اختصاصها بالمسجد الذى أنزل الله فيه « لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ »^(٤) .

الثالثة والعشرون : كون ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة ، وفى

(١) من سورة البلد من الآية ١ (٢) من سورة الإسراء من الآية ٨٠

(٣) الأثاية : موضع بين مكة والمدينة فيه مسجد نبوى ، أو بئر دون العرج

عليها مسجد نبوى (٤) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

رواية « ما بين منبري وهذه الحُجَرِ » يعنى حُجَرَه صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى بيان أن ذلك يعم مسجده صلى الله عليه وسلم على ما هو المشهور بين الناس فى تحديد المسجد الشريف ؛ ولهذا قال بعضهم : هذا المسجد هو المسجد الذى لا تُعرف بقعة فى الأرض من الجنة غيره .

الرابعة والعشرون : كون منبره الشريف على تُرْعَة من تُرَع الجنة ، وأن قوائمه رواتب فى الجنة ، وفى رواية « ومنبري على حوضى » .

الخامسة والعشرون : ما ورد فى مسجده الشريف من المضاعفة الآتى بيانها .
السادسة والعشرون : حديث « مَنْ صَلَّى فى مسجدى هذا أربعين صلاة كتب له براءة من النار ، وبرائة من العذاب ، وبري من النفاق » رواه الطبرانى فى الأوسط .

السابعة والعشرون : ماسيأتى أن مَنْ خرج على طُهر لا يريد إلا الصلاة فيه كان بمنزلة حَجَّة ، وأن الخارج إليه من حين يخرج من منزله فِرَجْلٌ تكتب حسنةٌ ورجل تحط خطيئة .

الثامنة والعشرون : أن إتيان مسجد قباء يعدل عمرة كما سيأتى .
التاسعة والعشرون : حديث « صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة فى المدينة كألف صلاة فيما سواها » فسائر أفعال البر كذلك كما قيل به فى مكة ، وبه صرح أبو سليمان داود الشاذلى فى الانتصار ، ثم رأيت فى الإحياء ، قال : إن الأعمال فى المدينة تتضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا » الحديث ، ثم قال : فكذلك كل عمل بالمدينة بألف انتهى ، وقال ابن الرفعة فى المطلب : وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصيام بالمدينة أفضل من الصلاة ، والصلاة بمكة أفضل من الصيام ، مراعاة لنزول فرضيتهما^(١) ، انتهى

(١) يريد أن الصلاة شرعت بمكة فيكون فعلها بها أفضل من الصيام بها ، وأن الصيام شرع فى المدينة ففعله بها أفضل من الصلاة بها .

قلت : ويؤخذ من هذه العلة أن كل عبادة شرعت بالمدينة فهي بها أفضل منها بمكة ، ولك أن تعد هذا خاصة مستقلة .

الثلاثون : حديث « لَا يَسْمَعُ النداءُ في مسجدى هذا ثم يخرج منه إلا الحاجة ثم لا يرجع إليه إلا منافق » .

الحادية والثلاثون : تأكد التعلم والتعليم بمسجدها كما سيأتى .

الثانية والثلاثون : اختصاصه بمزيد الأدب وخفض الصوت ؛ لكونه بحضرة سيد المرسلين^(١) ، واختصاصه عند بعضهم بمنع آكل الثوم ونحوه من دخوله ؛ لاختصاصه بملائكة الوحي .

الثالثة والثلاثون : أنه لا يجتهد في محرابه ؛ لأنه صواب قطعاً ؛ فلا مجال للاجتهاد فيه حتى باليمنة واليسرة ، بخلاف محاريب المسلمين ، والمراد مكان مُصَلِّاهُ صلى الله عليه وسلم ، قال الرافعي : وفي معناه سائر البقاع التي صلى فيها صلى الله عليه وسلم إذا ضبط المحراب ، قلت : وفي ضبطه بغيرها عسر أو تعذر .

الرابعة والثلاثون : أن ما بين منبره صلى الله عليه وسلم ومسجد المصلى روضة من رياض الجنة ، وهذا جانب كبير من هذه البلدة .

الخامسة والثلاثون : حديث « أَحَدُ عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرْعِ الْجَنَّةِ » وحديث « أَحَدُ جَبَلٍ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .

السادسة والثلاثون : حديث « إِنْ بَطَّخَانَ عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرْعِ الْجَنَّةِ » .

السابعة والثلاثون : وصف العقيق بالوادي المبارك ، وأنه صلى الله عليه وسلم يحبه ، وفي رواية « يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .

الثامنة والثلاثون : حثه صلى الله عليه وسلم على الإقامة بها .

التاسعة والثلاثون : حثه على اتخاذ الأصل بها .

الأربعون : حثه على الموت بها ، والوعد على ذلك بالشفاعة أو الشهادة أوها .

(١) يشير إلى قوله تعالى : (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) من سورة الحجرات من الآية ٢ .

الحادية والأربعون : حرصه صلى الله عليه وسلم على موته بها .
الثانية والأربعون : كون أهلها أول من يشفع لهم ، واختصاصهم بمزيد
الشفاعة والإكرام كما تقدم .

الثالثة والأربعون : بعث الميت بها من الأمنين على ماسياتي .
الرابعة والأربعون : أنه يبعث من بقيعها سبعون ألفاً على صورة القمر
يدخلون الجنة بغير حساب ، ومثله في مقبرة بنى سامية ، وتوكل ملائكة بمقبرة
البقيع كلما امتلأت أخذوا بأطرافها فكفّفوها في الجنة .

الخامسة والأربعون : بعث أهلها من قبورهم قبل سائر الناس .
السادسة والأربعون : شهادته - أو شفاعته - صلى الله عليه وسلم لمن صبر
على لأوائها وشِدَّتِها .

السابعة والأربعون : وجوب شفاعته صلى الله عليه وسلم لمن زاره بها .
الثامنة والأربعون : استجابة الدعاء بها عند القبر الشريف ، ويقال : إنه
مستجاب عند الأسطوان الخلق ، وعند المنبر ، وفي زاوية دار عقيل بالبقيع ،
وبمسجد الفتح بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء ، واستجابة الدعاء بمسجد الإجابة
ومسجد السقيا وبالمصلى عند القدوم ، وعند بركة السوق في يوم العيد ، وعند
أحجار الزيت وبالسوق ، لما سيأتى عند ذكر هذه الأماكن من ورود ذلك عنه
صلى الله عليه وسلم بها .

التاسعة والأربعون : كونها تنفي خبثها .
الخمسون : كونها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة .
الحادية والخمسون : الوعيد الشديد لمن ظلم أهلها أو أخافهم .
الثانية والخمسون : مَنْ أرادها وأهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء ،
وفي رواية أذابه الله في النار ، ويؤخذ من ترتيب الوعيد على الإرادة مساواة
المدينة لحرم مكة في هذا ، وفيه قال تعالى : «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ»^(١) الآية ،

(١) من سورة الحج من الآية ٢٥ .

ويتمسك للمساواة أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » فقول ابن مسعود : ما من بلدة يؤاخذ العبد فيها بالهم قبل الفعل إلا مكة وتلا الآية مُشْكِلٌ ، وأيضاً فالهم العارض الوارد من غير عزم لا مؤاخذة به مطلقاً بالاتفاق ، وأما الثابت الذي يصحبه التضميم فالعبد مؤاخذ به بمكة وبغيرها ، وإنما خصوصية الحرم تعظيم العذاب لمن هم فيه لجراته ؛ ولذا روى أحد في معنى الآية بإسناد صحيح سرفوعاً « لو أن رجلاً هم فيه بالحداد وهو بعدن أبيين^(١) لأذاقه الله عذاباً ألياً » .

الثالثة والخمسون : الوعيد الشديد لمن أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً ، وتقديم تفسير الحديث بالإثم مطلقاً ، وأنه دال على أن الصغيرة بها كبيرة ؛ وللوعيد الشديد في ذلك ؛ لأنها حاضرة أشرف المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وسوء الأدب على بساط الملك ليس كالإساءة في أطراف المملكة .

قال بعض السلف : إياك والمعصية فإن عصيت ولا بد فليكن في مواضع الفجور ، لا في مواضع الأجور ؛ لئلا يتضاعف عليك الوزر ، أو تعجل لك العقوبة . فإن قيل : ههنا قول بتضعيف السيئات في الحرم ، والراجح خلافه ؛ لقوله تعالى « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا^(٢) » .

قلنا : تحرير النزاع أن القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها : أى عظمها ، لا العدد ، فإن السيئة جزاؤها سيئة ، لكن السيئات قد تتفاوت عقوبتها باختلاف الأشخاص والأماكن ، كما أن تقدير كل أحد بما يليق به في الزجر ، فجزاء السيئة مثلها ، ومن المماثلة رعاية ما اقترن بها مما دل على جرأة مرتكبها ، ولا تكتب إلا واحدة ، والله أعلم .

الرابعة والخمسون : الوعيد لمن لم يسكن أهلها ، وأن إكرامهم وحفظهم حتى على

(١) عدن أبيين - على الإضافة - جزيرة باليمن ، أقام بها أبيين ، وعدن لاعة : قرية بقرية .
(٢) من سورة الأنعام من الآية ١٦٠

الامة ، وأنه صلى الله عليه وسلم شفيح — أو شهيد — لمن حفظهم فيه .
الخامسة والخمسون : حديث « من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي » .

السادسة والخمسون : حديث « من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مشرب جفوة ^(١) » وإنه « لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله تعالى فيها خير آمنه » كما في حديث مسلم ، قال الحب الطبري : فيه إشعار بدم الخروج منها ، وذهب بعضهم إلى أنه مخصوص بمدة حياته صلى الله عليه وسلم ، فأما بعد وفاته فقد خرج نفر كثير من كبار الصحابة ، وذهب آخرون إلى أنه عام أبداً ، قال الطبري : وهو ظاهر اللفظ ، نعم هو مخصوص بالمستوطن ، لا من نوى الإقامة بها مدة ثم ينقلب ^(٢) إلى وطنه .

السابعة والخمسون : إكرام الله لها بنقل وبائها وتحويل حجاجها .

الثامنة والخمسون : الاستشفاء بترابها ، وما تقدم في ثمارها .

التاسعة والخمسون : عصمتها من الطاعون .

الستون : عصمتها من الدجال ، وخروج الرجل الذي هو خير الناس — أو من خير الناس — إليه منها ، وقوله له : أشهد أنك الدجال ، وأنه لا يسلب عليه بأخرة الأمر ، وبهذا تتميز على مكة ، والسرف فيه أن سيد المرسلين — وهو حجة الله على العباد — بالمدينة .

الحادية والستون : ما في حديث الطبراني من قوله صلى الله عليه وسلم « وحق على كل مسلم زيارتها » .

الثانية والستون : سماءه صلى الله عليه وسلم سلام من سلم وصلاة من صلى عليه عند قبره الشريف ، وردده عليه .

الثالثة والستون : اختصاصها بملك الإيمان والحياء ، كما تقدم في الأسماء .

(١) مشرب جفوة — على زنة اسم المفعول — أى خالطه الجفاء .

(٢) ينقلب : يرجع ويعود

الرابعة والستون : كون الإيمان يَأْزُرُ إليها .
الخامسة والستون : اشتبا كها بالملائكة وحِراستهم لها .
السادسة والستون : كونها أولَ أرضٍ اتخذ بها مسجد لعامة المسلمين في هذه الأمة .

السابعة والستون : كون مسجدها آخرَ مساجد الأنبياء ، وآخر المساجد التي تُشَدُّ إليها الرِّحالُ ، وكونه أحق المساجد أن يزار كما سيأتى .
الثامنة والستون : كثرة المساجد والمُشَاهِدِ والآثار بها ، بل البركة عامة منبثة بها ، ولهذا قيل للمالك : أيما أحب إليك المقام هنا يعنى المدينة أو بمكة ؟ فقال : ههنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟ .
التاسعة والستون : ما يوجد بها من راحة الطيب الزكية ، على ما تقدم فى الأسماء

السبعون : طيبُ العيش بها ، على ما تقدم هناك أيضاً .
الحادية والسبعون : استحقاق مَنْ عاب تربتها للتعزير ؛ فقد أفتى مالك فيمن قال « تربة المدينة رديئة » بأن يضرب ثلاثين دِرَّةً ، وأمر بحبسه ، وكان له قَدْر ، وقال : ما أَحْوَجَه إلى ضرب عنقه ، تربةٌ دُفِنَ فيها النبي صلى الله عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة ؟

الثانية والسبعون : الوعيد الشديد لمن حلف يميناً فاجرة عند منبرها .
الثالثة والسبعون : استحبابُ الدخول لها من طريق والرجوع فى أخرى ، لمساياتى فى مسجد المعرّس ^(١) .

الرابعة والسبعون : استحباب الاغتسال لدخولها .
الخامسة والسبعون : استحباب الدعاء والطلب من الله الموتَ بها .

(١) المعرّس - بزنة المكرم - هو والتعريس بمعنى النزول ليلا .

السادسة والسبعون : أنها دار إسلام أبداً ؛ لحديث ، «إن الشياطين قد يُئسَّت أن تعبد ببلدى هذا » .

السابعة والسبعون : أنها آخر قرى الإسلام خرابا ، رواه الترمذى وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ « آخر قرية في الإسلام خرابا المدينة »
الثامنة والسبعون : تخصيص أهلها بأبعد المواقيت وأفضلها ؛ تعظيما لأجورهم .
التاسعة والسبعون : ذهب بعض السلف إلى تفضيل البداءة بالمدينة قبل مكة ، وهى مسألة عزيزة ، وممن نص عليها ابن أبى شيبة فى مُصنّفه فروى عن علقمة والأسود وعمرو بن ميمون أنهم بدؤوا بالمدينة قبل مكة ، وأن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤن بالمدينة ، وفى المناسك الكبير للإمام أحمد رواية ابنه عنه : سُئل عن يبدأ بالمدينة قبل مكة ، فذكر بإسناده عن عبد الرحمن بن يزيد وعطاء ومجاهد قالوا : إذا أردت مكة فلا تبدأ بالمدينة وأبدأ بمكة ، فإذا قضيت حجتك فامرر بالمدينة إن شئت ، وعن إبراهيم النخعى ومجاهد : إذا أردت مكة للحج والعمرة فاجعل كل شيء لها تبعاً ، ثم روى أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤن بالمدينة إذا حجّوا ، يقولون : نبدأ من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وهذا أرجح ؛ لتفضيل ميقات المدينة ، وإتيان المدينة أولاً وُصلةً إليه ، مع ما فيه من البداءة بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وإيثارها ، ولعله السبب عند من بدأ بالمدينة ممن تقدم ذكره من التابعين كما قال السبكي . ونقل الزركشى عن العبدى شارح الرسالة من المالكية أنه قال : المشى إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس ، انتهى . والخلاف فيما إذا لم تكن المدينة على طريقه ؛ لأن مأخذ من رجّح البداءة بمكة المبادرة إلى قضاء الفرض ، ولهذا قال الموفق ابن قدامة : قال أحمد : وإذا حج الذى لم يحج قط — يعنى من غير طريق

الشام - لا يأخذ على طريق المدينة ؛ لأنى أخاف أن يحدث به حدث ، فينبغى أن يقصد مكة من أقصر الطرق ولا يتشاغل بغيره ، قال السبكي : وهو فى العمرة متجه ؛ لإمكان فعلها متى وصل ، وأما الحج فله وقت مخصوص فإذا كان متسعا لم يفت بمروره بالمدينة شىء . قلت : ومع ذلك فهو فى الفرض ، ولهذا قال فى الفصول : نقل صالح وأبو طالب : إذا حيج للفرض لم يمر بالمدينة ؛ لأنه إن حدث به حدث الموت كان فى سبيل الحج ، وإن كان تطوعا بدأ بالمدينة ، انتهى . ومن نص على المسألة أيضا الإمام أبو حنيفة على ما نقله أبو الليث السمرقندى ، وقال : إن الأحسن البداءة بمكة .

الثمانون : اختصاص أهلها فى قيام رمضان بستة وثلاثين ركعة ، على المشهور عند الشافعية ، قال الرافعى والنوى : قال الشافعى : رأيت أهل المدينة يقومون بتسع وثلاثين ركعة ، منها ثلاث للوتر ، قال أصحابنا : وليس لغير أهل المدينة ذلك ؛ لشرفهم بمهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره ، ثم قال الرافعى : وسبب فعل أهل المدينة ذلك أن الركعات العشرين خمس تروى حات ، وكان أهل مكة يطوفون بين كل تروى تحتين أسبوعا^(١) ، ويصلون ركعتى الطواف أفرادا ، وكانوا لا يفعلون ذلك بين الفريضة والتراوىح ولا بين التراوىح والوتر ، فأراد أهل المدينة أن يساووهم فى الفضيلة ، فجعلوا مكان كل أسبوع - أى مع كل ركعتيه - تروىحة ؛ فحصل أربع تروىحات هى ستة عشر ركعة ، انتهى .

ونقل الرويانى فى البحر هذا السبب عن الشافعى . وقال القاضى أبو الطيب الطبرى : قال الشافعى : لا يجوز لغير أهل المدينة أن يماروا أهل مكة ولا ينافسهم لأن الله فضّلهم على سائر البلاد ، انتهى . وحاصل التوجيه أن الحسد فى الخير مطلوب ، وهو فى الحقيقة غبطة كما حسد المهاجرون - لما لم يكن لهم ما يتصدقون به - الأنصار فقالوا : ذهب أهل الدُّنُور بالأجور^(٢) ، فأثبت أهل المدينة هذا العدد

(١) يريد سبعة أشواط
(٢) يعنى ذهب الأغنياء بالثواب ؛ لأنهم يتمكنون من الصدقة بسبب مالهم ، وهى مستوجبة للأجر ، ولا يستطيعها الفقراء .

بضرب من الاجتهاد ليلحقوا بأهل مكة ، وقد تشارك البلدان في الفضائل حتى اختلف في تفضيل كل منهما على الأخرى ، وجعل لأهل المدينة ما يحصل به ثواب الاعتمار والحج ، وامتازت المدينة بالمهاجر والقبر ، فجعل لأهلها طريق إلى تحصيل تلك الفضيلة السابقة مع إقامتهم بها ، ولعله لو لم يشرع لهم ذلك لحلتهم الرغبة في الخير على الانتقال إلى مكة ، وسكنى المدينة مطلوباً ، وأما غيرهم فليس له شيء من هذا الفضل ، فكيف يتأتى له مساواة أهل مكة ؟ فلم يشرع لهم ذلك ، هذا ، وإجماع أهل المدينة حجة عندمالك ، والقيام بهذا العدد بالمدينة باقٍ إلى اليوم إلا أنهم يقومون بعشرين ركعة عقب العشاء ، ثم يأتون آخر الليل فيقومون بستة عشر^(١) ركعة ، فوقع لهم خلل في أمر الوتر نبهنا عليه في كتاب « مصابيح القيام ، في شهر الصيام » وكنت قد ذكرت لهم ما يحصل به إزالة ذلك ، ففعلوه مدة ، ثم غلبت الحظوظ النفسية على بعضهم فعاد الأمر كما كان .

الحادية الثمانون : زيادة البركة بها ، على مكة المشرفة ، وقد قدمنا حديثاً يشير إلى أن المدعوبه لها ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، والمصرح به في الأحاديث « ضعفى ما جعلت بمكة من البركة » وفي بعضها « مثل ما جعلت بمكة من البركة ومع البركة بركتين » .

الثانية والثمانون : نقل عن مالك أن خبر الواحد إذا عارضه إجماع أهل المدينة قدم إجماعهم ، ولهذا روى حديث خيار المجلس ثم قال : وليس لهذا عندنا حدم معلوم ولا أمر معمول به ؛ لما اختص^(٢) به أهل المدينة من سكنهم منهيّط الوحي ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ ، فمخالفتهم تقتضى علمهم بما أوجب ترك العمل من ناسخ أو دليل راجح ، والمحققون على أن البقاع لا أثر لها في ذلك ، وقد بلغ ابن أبي ذئب - وهو من أقران مالك - مخالفته للحديث فأغلظ في ذلك لأن العصمة إنما

(١) كذا ، وحق العربية أن يقول « بست عشرة ركعة » .

(٢) هذا تعليل لتقديم إجماع أهل المدينة .

ثبتت في إجماع جميع الأمة ، ويؤخذ من كلام مالك اختصاص ذلك بعمل أهل ذلك العصر من أهل المدينة^(١) .

الثالثة والثمانون : حديث النسائي والبخاري واللفظ له « يوشك الناس أن يضر بوا أ كباد الإبل فلا يجدوا عالماً أعلم من عالم المدينة » وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقد كان ابن عيينة يقول : نرى هذا العالم مالك بن أنس ، انتهى . قال الزركشي : وفيما حكاها عن سفيان نظر ؛ لما في صحيح ابن حبان أن إسحاق بن موسى قال : بلغني عن ابن جريح أنه كان يقول : نرى أنه مالك ابن أنس ، فذكرت ذلك لسفيان بن عيينة فقال : إنما العالم من يخشى الله ، ولا نعلم أحداً كان أخشى لله من العمرى ، قال النور بشتي في شرح المصابيح : يعني عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ، كان من عباد الله الصالحين المشائين في بلاده وعباده بالنصيحة . بلغنا أنه كان يخرج إلى البادية ليمتقده أهلها شفقة عليهم وأداء لحق النصيحة فيهم ، وقد أخرج الترمذي الحديث وحسنه ، وتكلم ابن حزم فيه ، ثم قال : ولم يتعين هذا في مالك ؛ لأنه كان في عصره جماعة لا يفضل على واحد منهم ، وكان بالمدينة من هو أجل منه كسعيد بن المسيب ؛ فهذا الحديث أولى به . وقال ابن عيينة : لو سئل : أي الناس أعلم ؟ لقالوا : سفيان الثوري ، قال ابن حزم : وإن صح هذا الحديث فإنما يكون إذا قرب قيام الساعة وأرير الإيمان إلى المدينة وغلب الدجال على الأرض خلا مكة والمدينة ، وأما حتى الآن فلم يأت صفة ذلك الحديث ؛ لأن الفقه انقطع من المدينة جملة ، واستقر في الآفاق ، انتهى . ولا يخلو عن نزاع .

الرابعة والثمانون : تحريم نقل أحجار حرمها وترابه كما سيأتي بيانه .

(١) لأن أهل ذلك العصر هم الذين شاهدوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوا ما يفعلون وما يتكلمون ؛ فإذا اتفقوا على فعل شيء أو تركه دل على أنه لم يكن في الصحابة من يخالف ذلك ، وإلا لوجد من يعمل على غرار عمل المخالف من الصحابة .

الخامسة والثمانون : لو نذر تطيبَ مسجد المدينة وكذا الأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين ؛ لأننا إن نظرنا إلى التمتع بالحقنهما بالكعبة ، أو إلى امتياز الكعبة بالفضل فلا ، وكلام الغزالي في آخر باب النذر يقتضى اختصاصه بالمسجدين كما فرضناه ، لافي غيرهما من المساجد ، والإمام طَرَدَهُ في الكل ، وحيث كان الملحظ ما ذكر فينبغي أن لا يتوقف فيما لو نذر تطيب القبر الشريف .

السادسة والثمانون : إذا نذر زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم لزمه الوفاء بذلك وجهاً واحداً ، وفي وجوب الوفاء في زيارة قبر غيره وجهان ، قاله ابن كَجَّجْ ، وأقره عليه الرافعي والنووي وغيرهما .

السابعة والثمانون : قيامُ مسجدِها مقام المسجد الأقصى كالمسجد الحرام فيما لو نذر الصلاة أو الاعتكاف في الأقصى ؛ فإن الأصح لزومه به ، وأجزأ مسجد المدينة لزيادة فضله ، ولو نذرهما بمسجد المدينة لم يحزه فعل ذلك بالأقصى ويحزيه بالمسجد الحرام .

الثامنة والثمانون : الاكتفاء بزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن نذر إتيان مسجد المدينة ، كما قال الشيخ أبو علي تفریعاً على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعي والبُؤنَيطي وعلى أنه لا بد من ضم قرْبَةٍ إلى الإتيان كما هو الأصح تفریعاً على اللزوم ، وعلمه الشيخ أبو علي بأن زيارته صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات ، وتوقف في ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد وتعظيمه ، قال : وقياه أنه لو تصدق في المسجد أو صام يوماً كفاه ، وفيه نظر ، على أن الصحيح ما نص عليه في المختصر من عدم لزوم الإتيان ، وإن كان اللزوم أرجَحَ دليلاً ، ورجح الرافعي تفریعاً على اللزوم ضم صلاة أو اعتكاف ، وكذا إذا نذر إتيان الأقصى ، فإن نفس المرور لما لم يكن في نفسه مزية انصرف النذر إلى ما يقصد فيه من القُرب وبهذا يرجح ما قاله الشيخ أبو علي ؛ لأن إتيان مسجد المدينة يقصد للصلاة والاعتكاف والزيارة بخلاف غيره

التاسعة والثمانون : قال ابن المنذر: إذا نذر أن يمشى إلى مسجد الرسول والمسجد الحرام لزمه الوفاء به لأنه طاعة ؛ ومن نذر أن يمشى إلى بيت المقدس كان بالخيار: إن شاء مشى إلى المسجد الأقصى ، وإن شاء مشى إلى المسجد الحرام ؛ لحديث أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني نذرت إن فُتِحَ الله عليك مكة أن أصلى في مسجد بيت المقدس ، قال صلى الله عليه وسلم «صَلِّ هُنَا ، ثَلَاثًا» انتهى . ويعلم مما تقرر في أجزاء مسجد المدينة عن الأقصى في الإتيان والصلاة إجزاؤه هنا كالمسجد الحرام ، والذي اقتضاه كلام البغوى تصحيح عدم لزوم المشى في مسجد المدينة والأقصى ، وهو الذى رجحوه .

التسعون : قوله صلى الله عليه وسلم في أحاديث تحريمها « ولا يُحْمَلُ فيها سلاح لقتال » .

الحادية والتسعون : قوله فيها أيضاً « ولا تلتقط لقطته إلا لمن أشاد بها ^(١) » .
الثانية والتسعون : إذا قلنا بضمان صيدها وقطع شجرها فالصحيح أنه يُسَلَبُ الصائد كما يسلب قَتِيلُ الكفار ، وهذا أبلغ في الزجر من الجزاء ^(٢) .
الثالثة والتسعون : جواز نقل ترابها للتداوى .

الرابعة والتسعون : ظهور نار الحجاز التى أخبر بها صلى الله عليه وسلم ، ما حولها ؛ لأنها للإنذار ، فاختصت ببلد النذير ، ثم لما بلغت الحرم وكان مُحَرَّمَةً المبعوث بالرحمة خدت وطفئت ، على ماسياتى .

الخامسة والتسعون : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بالبركة في سوقها .
السادسة والتسعون : ماسياتى في سوقها من أن الجالب إليه كالجاهد في سبيل الله .

السابعة والتسعون : أن المحتكر فيه كالمحدد في كتاب الله .
الثامنة والتسعون : ماسياتى في بئر غرس من أنه صلى الله عليه وسلم « رأى

(١) أشاد بها : عرفها ونوه بها ، والمراد أنه لا يجوز التقاطها للتملك .

(٢) قد شرع الله جزاء لمن قتل صيد مكة وهو محرم .

أنه أصبح على بئر من آبار الجنة، فأصبح على بئر غرس، ورؤيا الأنبياء حق، عليهم الصلاة والسلام ! .

التاسعة والتسعون : ما سبق في ثمارها من أن العجوة من الجنة ؛ فقد اشتملت المدينة على شيء من أرض الجنة ومياهها وثمارها ، والله أعلم .

الفصل الثامن

في الأحاديث الواردة في تحريمها ، وهي كثيرة

روينا في الصحيحين منها حديث عبد الله بن زيد : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها » ، وفي لفظ « ودعا لأهلها ، وإن حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة » الحديث .

وفي البخاري حديث أبي هريرة رضي الله عنه « حرم ما بين لابتي^(١) المدينة على لسانى » قال : وأتى النبي صلى الله عليه وسلم بنى حارثة فقال : « أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم ، ثم التفت فقال : بل أتم فيه » وسيأتى بيان منازلهم^(٢) ، وفيه أيضاً عنه : لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرت^(٣)ها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين لابتيها^(١) حرام » وهو في مسلم بزيادة ، ولفظه « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتي^(١) المدينة » قال أبو هريرة : فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها^(١) ما ذعرت^(٣)ها ، وجعل اثني عشر ميلاً حول المدينة حرم .

وفي مسلم أيضاً عن عاصم الأحول : « سألت أنسا أحرمت رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ؟ قال : نعم ، هي حرام : لا يُختلى خلالها^(٣) ، فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وفيه أيضاً حديث رافع بن خديج رضي الله عنه « إن إبراهيم حرم مكة ، وإنى أحرمت ما بين^(١) لابتيها » يريد المدينة .

(١) : اللابتان : مثني لابة ، وهي الحرة على ماسياتى المؤلف (ص ٩١) .

٢ انظر ص ٩١ .

(٣) لا يختلى : أى لا يجز ولا يقطع ، والختلى : الرطب من النبات .

وفيه أيضاً حديث جابر « إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ما بين لا بئنيها : لا تقطع عِصَاهُهَا ، ولا يصاد صيدها » .

وفيه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري « ألهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً ، وإني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها ، أن لا يهرأق فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يخبط^(١) فيها شجرة إلا لعلف » الحديث .
وفيه أيضاً من حديث أنس « ألهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم إبراهيم عليه السلام مكة » .

قلت : المراد بجبليها عَيْر وثَوْر ، وهما المعبر عنهما في الحديث قبله بمأزميها على ما صوّبه النووي ، ونسبة تحريم مكة لإبراهيم عليه السلام دليل لما ذهب إليه جماعة من أنها لم تزل حلالاً كغيرها إلى زمن إبراهيم عليه السلام ، فحرمت ، والثاني — وصححه النووي ، ونقل عن الأكثرين — أنها لم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض ، ثم أظهر الله تعالى ذلك على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام . قال الزركشي : وفيه جمع بين الأحاديث . قلت : الأحكام قديمة ؛ لأنها خطاباته تعالى ، والحادث إنما هو تعلقاتها بالمكلفين ، فإذا كان ظهور تحريمها على لسان إبراهيم عليه السلام فذلك أول تعلق الحكم التكليفي ، فما معنى ما يقوله الثاني من تحريمها يوم خلق الله السموات والأرض مع انتفاء التعلق التكليفي حينئذ ؟ ويجوز أن يكون بمعنى أن الله تعالى أظهر ذلك للملائكته يوم خلق السموات والأرض وعرفهم به ، وتأخر تعلق التكليف به حتى ظهر على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام وهذا لا ياباه القول الأول ، بل يسلمه ، وهو حسن ، وبه يجتمع معنى الأحاديث ، ولا يخفى أن خطاب الله تعالى بتحريم المدينة قديم أيضاً ، وتأخره من حيث التكليف إلى أن أظهره النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيه حط لرتبتها ، بل دليل كمالها حيث ادّخر الله ذلك حتى جعله على لسان أشرف المرسلين صلوات الله

(١) لا يخبط شجرها : أي لاتشد أغصانها وينفض ورقها .

وسلامه عليه ، مع أنهم ذكروا في معنى تحريم إبراهيم لها احتمالين : أحدهما : أنه بأمر الله تعالى له ، والثاني : أنه دَعَا لها فحرمها الله بدعوته ، ويقال مثله في تحريمه صلى الله عليه وسلم للمدينة .

وقوله : « ما بين لا بَتَّيْهَا » أى حَرَّتَيْهَا الشرقية والغربية والمدينةُ بينهما ، ولها أيضاً حَرَّةٌ بالقِبْلَةِ وَحَرَّةٌ بالشَّامِ ، لكنهما يرجعان إلى الشرقية والغربية لاتصالهما بهما ، ولهذا جمعها صلى الله عليه وسلم كلها في اللابتين كما نبه عليه الطبري .

قال النووي : وهو حد الحرم من جهة المشرق والمغرب ، وما بين جبلَيْها بيان لحدّه من جهة الجنوب والشمال ، قال : ومعنى قوله « ما بين لا بَتَّيْهَا » اللابتان وما بينهما ، والمراد تحريم المدينة ولا بَتَّيْها .

قلت : ويؤيده أن اللابتين شرقاً وغرباً في محاذاة أحد الجبلين الآتي ببيانهما ، وأن منازل بنى حارثة في محاذاة اللابة الغربية على ما اقتضاه كلام المطرّى فيما قدمناه عنه من الباب الأول في ترجمة أثرب ، والذي ترجح عندي أن منازلهم كانت باللابة الشرقية ممّا يلي العُريض وما قارب ذلك ؛ لأن الإسماعيلي روى الحديث المتقدم بلفظ « ثم جاء بنى حارثة وهم في سَنَدِ الحرة » أى الجانب المرتفع منها ، وسيأتى في منازلهم ما يبين أن المراد الحرة الشرقية ، وليس الموضع الذي ذكره المطرّى في سَنَدِ واحدة من الحرتين ، والله أعلم . ويؤيد أيضاً ما قاله النووي أن البيهقي روى في المعرفة حديثَ الصحيفة عن علي بلفظ « إن إبراهيم حرم مكة ، وإنى أحرم المدينة ما بين حرتيها وجَمَامِهَا^(١) : لا يُحْتَمَلُ خَلَاها ، ولا ينفرد صيدها ، ولا يلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها » يعنى أنشد « ولا يقطع شجرها إلا أن يعلن

(١) جَمَامِ المدينة - بكسر الجيم في أوله - هى ثلاثة أجبل في وادى العقيق على يمين الناهب إلى مكة ويسار الناهب في المسيل إلى جهة القبليتين والجرف ، وهى مشهورة بالجمّوات (مكى) .

رجل بعيرا ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال » الحديث ، ورواه أحمد كذلك أيضاً ، وهو حديث صحيح ، وجمام المدينة ثلاثة كما سيأتى ، وهى مما يلى حرمتها الغربية من جهة المغرب والحرّة بين الجمام والمدينة .

وروى مسلم حديثَ الصحيفة بلفظ « المدينة حَرَم ما بين عَيْر إلى ثَوْر » والبخارى بلفظ « المدينة حرم ما بين عاير إلى كذا » وأبو داود بلفظ « المدينة حرام ما بين عاير إلى ثور » ثم زاد فيه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يَحْتَلَى خَلَاها ، ولا يَنْفِر صيدها ، ولا يَلْقَط لِقْطتها إلا من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره » ورواه الطبرانى رجال موثّقين مختصرا ، ولفظه عن أبى جُحيفة أنه دخل على علىّ رضى الله عنه فدعا بسيفه ، فأخرج من بطن السيف أدما عربيا ، فقال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا غير كتاب الله الذى أنزل إلا وقد بلغته غير هذا ، فإذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله قال : « لكل نبي حَرَم وحرى المدينة » .

الفصل التاسع

فى بيان عَيْر وثور

وهما المراد بجبليهما كما تقدم .

أما عَيْر — بفتح العين المهملة وسكون الياء آخر الحروف بلفظ العير مرادف الحمار ، ويقال : عاير — فجبل كبير مشهور فى قبلة المدينة بقرب ذى الحليفة ميقات المدينة .

موقع
جبل عير

وأما ثور — بالثلاثة بلفظ الثور فَحْل البقر — فجبل صغير خاف أحد كاسنحقيقه ، فإنه خفى على جماعة من فحول العلماء فاستشكلوا الحديث ، وقالوا : ليس بالمدينة ثور ، إنما هو بمكة ، ولهذا فى أكثر روايات البخارى من عاير إلى كذا ، وفى بعضها من عير إلى كذا ، ولم يبين النهاية ، فسكانه يرى أن ذكر ثور وهم فأسقطه ،

موقع
جبل ثور

وترك بعض الرواة موضع ثور بياضا ليتبين الوهم ، وضرب آخرون عليه .
وقال المسازري : نقل بعض أهل العلم أن ذكر ثور هنا وهم من الراوى ؛ لأن
الافتلاف
في وجود جبل
ثور بالمدينة
ثورا بمكة ، والصحيح « إلى أحد » .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : غير وثور جبلان بالمدينة ، وأهل المدينة
لا يعرفون بها جبلا يقال له ثور ، وإنما ثور بمكة ، قال : فإذا نرى أن الحديث
أصله « ما بين غير إلى أحد » .

قلت : وكذا رواه الطبراني برجال ثقات ، بلفظ « ما بين غير وأحد حرام ،
حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وهو كذلك في رواية لابن زبالة .

وقال الحازمي : الرواية الصحيحة « ما بين غير إلى أحد » وقيل : « إلى ثور »
وليس له معنى ، وتكلف بعضهم فقال : إلى بمعنى مع ، كأنه جعل المدينة مضافة
إلى مكة في التحريم لأن ثورا بها .

وقال الموفق بن قدامة : يحتمل أن المراد تحريم قدر ما بين ثور وغير الذين
بمكة ، أو سمى النبي صلى الله عليه وسلم الجبّائين الذين بطرفي المدينة عيرا وثورا
ارتجالا ، انتهى . وهو يقتضى إنكار وجود غير بالمدينة أيضا .

وقد قال الزركشي : نقل عياض عن بعضهم أنه ليس بالمدينة ولا ما يقرب
منها جبل يعرف بأحد هذين الاسمين ، أعنى عيرا وثورا . قال ياقوت في معجمه :
وهذا وهم ، فإن عيرا جبل مشهور بالمدينة ، وقال ابن السّيد : غير جبل بقرب
المدينة ، وعبارة عياض في المشرق : غير وعائر المذكوران في حرّم المدينة في أكثر
الروايات غير ، وفي حديث عليّ عاير ، قال الزبير بن بكار : هو جبل بالمدينة ،
وقال عمه مصعب : لا يعرف بالمدينة غير ولا ثور ، انتهى .

وقال في المطالع : أكثر رواة البخارى ذكروا عيرا ، وأما ثور فمنهم من كنى
عنه بكذا ، ومنهم من ترك مكانه بياضا ، والأصل في هذا التوقف قول

مصعب الزبيرى : ليس بالمدينة عير ولا تور ، وأثبت غيره عيرا ، وواقفه على إنكار تور . قلت : سيأتى فى ترجمة عير من فصل البقاع عن مصعب الزبيرى ما يقتضى إثباته له ، وشهرة عير غير خافية بين العلماء ، إما الغرابة فى تور .

وقال النووى عقب نقل الحازمى المتقدم : ويحتمل أن ثورا كان اسما لجبل هناك : إما أحد ، وإما غيره ، خفى اسمه .

وقال صاحب البيان والانتصار : قد صحت الرواية بلفظ تور ؛ فلا ينبغى الإقدام على توهيم الرواة بمجرد عدم العرفان ، فإن أسماء الأماكن قد تتغير ، أو تنسى ولا يعلمها كثير من الناس ، قال : وقد سألت بمكة عن وادى مُحَسَّر وغيره من أماكن تتعلق بالنسك ، فلم أخبر عنها مع تكرر مجيء الناس إليها ، فما ظنك بغيرها ؟ وأيضا فقد يكون للشىء اسمان فيعرف أحدهما دون الآخر .

وقال المجد : لا أدرى كيف وقعت المسارعة من هؤلاء الأعلام إلى إثبات وَهَم فى الحديث المتفق عَلَى صحته ، بمجرد ادعاء أن أهل المدينة لا يعرفون جبلا يسمى ثورا ، وذكر احتمال طرق التغير فى الأسماء والنسيان لبعضها ، قال : حتى إنى سألت جماعة من فقهاء المدينة وأمرائها وغيرهم من الأشراف عن فَدَك^(١) ومكانها فكلهم أجابوا بعدم معرفة موضع يسمى بذلك فى بلادهم ، مع أن هذه القرية لم تبرح فى أيدي الأشراف والخلفاء يتداولونها إلى أواخر الدولة العباسية ، فكيف بجبل صغير لا يتعلق به كبير أمر ، مع أنه معروف بين أهل العلم بالمدينة ، ونقل بعض الحفاظ وَصْفَه بذلك خلفا عن سلف ؟ اهـ .

قلت : قد حكى البيهقى فى المعرفة قول أبى عبيد : أهل المدينة لا يعرفون جبلا يقال له ثور ، ثم قال البيهقى : وبلغنى عن أبى عبيدة أنه قال فى كتاب الجبال : بلغنى أن بالمدينة جبلا يقال له ثور ، انتهى .

(١) فدك : قرية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى طالبت فاطمة الزهراء أبا بكر الصديق بأن يورثها إياها ؛ فروى لها حديث « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة » .

وتقل المجد في ترجمة عير عن نصر أنه قال : عير جبل يقابل الثنية المعروفة بشعب الجوز ، وثور جبل عند أحد ، انتهى . فدل على أن ما اشتهر في زماننا وقبله من وجود ثور بالمدينة له أصل في الزمن القديم ، وإن خفى على بعضهم ، وقد أخبرني بوجوده جماعة كثيرة من الخواص ، وأروني إياه خلف أحد ، ونقل جماعة عن المحدث أبي محمد عفيف الدين عبد السلام بن مزروع البصري نزيل المدينة المشرفة أنه رآه غير مرة ، وأنه لما خرج رسولا من صاحب المدينة إلى العراق كان معه دليل يذكر له الأماكن والأجبل ، فلما وصلا إلى أحد إذا بقُرْبِهِ جبل صغير ، فسأله : ما اسم هذا الجبل ؟ فقال له : يسمى ثورا ، وقد حكى عنه نحو هذا القطب الحلبي في شرح البخاري ، وقال الحب الطبري : أخبرني الثقة الصدوق الحافظ العالم المجاور بحرم رسول صلى الله عليه وسلم عبد السلام البصري أن حذاء أحد عن يساره جانحا إلى ورائه جبل صغير يقال له ثور ، وأخبر أنه تكرر سؤاله عنه لطوائف من العرب العارفين بتلك الأرض وما فيها من الجبال ، فكل أخبر أن ذلك الجبل اسمه ثور ، قال الطبري : فعلمنا بذلك أن ما تضمنه الحديث صحيح ، وعدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه ، انتهى .

وقد رد الجبال المطرى في تاريخه على من أنكر وجود ثور ، وقال : إنه خلف أحد من شماليه ، صغير مدور ، يعرفه أهل المدينة خلف عن سلف . وقال الأقسهري : وقد استقصينا^(١) من أهل المدينة تحقيق خبر جبل يقال له ثور عندهم ، فوجدنا ذلك اسم جبل صغير خلف جبل أحد يعرفه القدماء دون المحدثين من أهل المدينة ، والذي يعلم حجة على من لا يعلم ، اه . وقال العلامة أبو العباس بن تيمية : عير جبل عند الميقات يشبه العير ، وهو الحمار ، وثور جبل في ناحية أحد ، وهو غير جبل ثور الذي بمكة .

وروي بعض شراح المصايبح أن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام على الجبل

(١) استقصينا : تتبعنا ، يريد أنه بالغ في سؤالهم عنه فلم من أجوبتهم أن القدامى هم العارفون بموضعه .

تقطع سِتَّ قطع ، فصارت ثلاث بمكة : حراء ، ومبِير ، وثور ، وثلاث بالمدينة : عير ، وثور ، ورضوى ، وكان ثورا سمى باسم فَحْلِ البَقَرِ لشبهه به ، وهو إلى الحمرة أقرب ، وقد صحَّ بما قدمناه أن أحداً من الحرم ؛ لأن ثورا حده من جهة الشام كما أن عيرا حده من جهة القبلة ، ويقوم ذلك على الرواية التي فيها ذكر أحد بدل ثور ، لما في ذلك من الزيادة عليها ، وأنها من باب ذكر فَرْدٍ مما شمله ذلك العموم بحكم العموم فلا تخصص ، مع إفادتها لإدخال ما حاذى أطراف أحد شرقا وغربا ، وما وقع في الشرحين والروضة وغيرهما من التحديد بما بين اللاتين وبما بين عَيْرٍ وأحد مبنى على ما تقدم من أن الرواية الصحيحة «أحد» لعدم وجود ثور ؛ فقد اتضح الحال ، والله الحمد .

الفصل العاشر

في أحاديث تقتضى زيادة الحرم

على ذلك التحديد ، وأنه مقدر بريد

أعلم أن قوله في حديث مسلم « وجعل اثني عشر ميلا حول المدينة حَتَّى » ظاهر في التحريم لذلك القدر ؛ إذ حول المدينة إنما هو حرما ، وحى النبي صلى الله عليه وسلم الذى ليس بحرم لم يكن حول المدينة على ما سيأتى بيانه ، ولأن التقي السبكي قال : إن في سنن أبي داود تحديد حرم المدينة بريد من كل ناحية ، قال : وإسناده ليس بالقوى ، والذى رأيته في أبي داود عن عدى بن يزيد « حَتَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ناحية من المدينة بريدا بريدا ، لا يُحْبَطُ شجره ، ولا يُعْضَدُ إلا ما يساق به الجمل » رواه البزار بنحوه ، ورواه ابن زبالة بلفظ « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم شجر المدينة بريدا في بريدها ، وأذن في المسد^(١) والمنجدة ومنازع الناضح أن يقطع منه » والمنجدة : عصا الناضح^(٢)

وروى الفضل الجندى عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أنه قال ، في

(١) المسد : مرود البكرة ، وسيفسره المؤلف بهذا في الفصل التالى .

(٢) المنجدة : عصا صغيرة تحث بها الدابة على السير ، أو ينفش بها الصوف ، وعود يحشى به حقيية الرجل .

قصة العبد الذي وجده يعضد - أو يخبط - أعضاها بالعقيق : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ وجد من يعضد أو يخبط ^(١) شيئاً من عِصَاهِ المدينة يريد أن يبريد فله سَلْبُهُ ، فلم أكن لأرد شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وروى البزار عن جابر قال : « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بريدا من نواحيها » .

وفي الأوسط للطبراني - وفيه ضعيف - عن كعب بن مالك قال : « حَرَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الشجر بالمدينة بريدا في بريد ، وأرسلني فأعلمت على الحرم : على شرف ذات الجيش ، وعلى شريب ، وعلى أشرف نخيض » . ورواه ابن النجار بلفظ « حَرَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بريدا في بريد ، وأرسلني فأعلمت على الحرم : على شرف ذات الجليس ، وعلى مشريب ، وعلى أشرف المجتهر ، وعلى تيم » ورواه ابن زبالة بهذا اللفظ ، إلا أنه أسقط أشرف المجتهر ، وأبدل تيم بثيب ، وزاد « وعلى الحفيا ، وعلى ذى العشيرة » . وروى أيضا عن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم « حَمَى الشجر ما بين المدينة إلى وعيرة ، وإلى ثنية المحدث ، وإلى أشرف نخيض ، وإلى ثنية الحفيا ، وإلى مضرب القبة ، وإلى ذات الجيش : من الشجر أن يقطع ، وأذن لهم في متاع الناضح أن يقطع من حَمَى المدينة »

وروى أيضا عن سلمان بن كعب الديناري أن النبي صلى الله عليه وسلم « نَزَلَ بِمَضْرِب القبة وقال : ما بيني وبين المدينة حَمَى لَا يُعْضَدُ ، فقالوا : إلامسد ، فأذن لهم في المسد » . وروى أيضا من طريق مالك بن أنس عن أبي بكر بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الحَمَى : « إلى مضرب القبة » قال مالك : وذلك نحو من بريد ^(٢) .

(١) يعضد : يقطع ويحز ، ويخبط : يؤخذ ورقه ، وهذا هو الفرق بين اللفظين في المعنى ، والعضاء : كل شجر عظيم له شوك .

(٢) سيتكلم المؤلف في الفصل التالي عن أسماء الأماكن التي في هذه الأحاديث

وروى أيضا عن جابر مرفوعا « كل دافعة دفعت علينا من هذه الشَّعَابِ فهي حرام أن تعضد - أو تخبط ، أو تقطع - إلا لعصفورٍ قَتَبٍ أو مَسَدٍ مَحَالَةٍ أو عصا حديدية »^(١) .

وفي الأوسط للطبراني بإسناد حسن عن الحسن بن رافع أنه سأل جابر بن عبد الله فقال : لنا غنم وغللمان ، ونحن وهم بئرير ، فهم يخبطون على غنمهم هذه الثمرة ، يعنى الحُبْلَةَ - قال خارجة : وهى ثمر السَّمَرِ - قال جابر : لا يخبط ولا يعضد لحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هشوا هشا ، ثم قال جابر : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمنع أن يقطع المَسَدَ ، قال خارجة : والمسد مرود البكرة .

وروى ابن زبالة عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنى عمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنه فى مَسَدٍ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ عمك السلام ، وقل لها : لو أذنت لكم فى مَسَدٍ طلبتم ميزابا ، ولو أذنت لكم فى ميزاب طلبتم خشبة » ، ثم قال : حَمَى من حيث استأذنت^(٢) بنو فزارة لقاحى .

الفصل الحادى عشر

فى بيان ما فى هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ، ومَنْ ذهب إلى مُقْتَضَاهَا قوله : « شرف ذات الجيش » قال ابن زبالة : ذات الجيش : لقب ثنية الحفيرة من طريق مكة والمدينة ، وقال المطرى : هى وسط البيداء ، والبيداء هى التى إذا رَحَلَ الحُجَّاج من ذى الحُلَيْفَةِ استقبلوها مُصْعِدِينَ إلى جهة الغرب ، وهى على جَادَةِ الطريق . قلت : ويؤيده قول ياقوت : ذات الجيش موضع بعقيق المدينة ، أراد بقربه ، أولأن سَيَّلَهَا يدفع فيه كما سيأتى ، وقد رأيتَه يُطْلَقُ ذلك على

ت الجيش

(١) القتب : رحل البعير ، وعصفوره : أحد أعواده ، والمسد : مرود البكرة كما قال المؤلف ، وأوحبل مفتول من لحاء الشجر ، وعصا الحديدية : مثل خشبة الفأس والقُدوم (٢) فى المطبوعات هنا « من حيث اتسقت » وفيما يأتى (ص ١٠١) « من حيث اتسقت » وكلاهما تطبيع فيما نرى .

ما يدفع في العقيق وإن بُعد عنه . وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأسدي في وصف الطريق بين مكة والمدينة : إن من ذى الحليفة إلى الحفيرة ستة أميال ، قال : وهي متعشا ، وبها بئر طيبة وحوض ، وعمر بن عبد العزيز هو الذى حفر البئر ، وبها أبيات ومسجد ، اه . ومقتضاه أن يكون ثنية الحفيرة بعد البئر ، فلعلها ثنية الجبل المسمى اليوم بمفرح ، وهناك وادٍ قبل وادى تربان يسمونه سُهمان ينطبق عليه الوصف المذكور ، وهو موافق لقول من قال : ذات الجيش وادٍ بين ذى الحليفة وتربان . فأطلق اسمها على الوادى التى هى فيه ، ولقول عياض : ذات الجيش على بريد من المدينة ، وهو ظاهر رواية الطبرانى المتقدمة ، لكنه مخالف لما سيأتى فى معنى التحديد بالبريد ، وهناك حُبس النبي صلى الله عليه وسلم فى ابتغاء عقد عائشة رضى الله عنها ، ونزلت آية التيمم ، والترديد فى حديث عائشة « حتى إذا كنا بالبهاء [أو] بذات الجيش » كأن سببه قرب الموضعين ، وهو ظاهر فى المغايرة بينهما . وقال أبو على الهجرى : ذات الجيش : شعبة على يمين الخارج إلى مكة بمذاء الحفيرة ، قال : وصدر الحفيرة وما قبل من الصُّلُصُلين يدفع فى بئر أبى عاصية ، ثم يدفع فى ذات الجيش ، وما دبر منها يدفع فى البطحاء ، ثم تدفع البطحاء من بين الجبلين فى وادى العقيق ، وذات الجيش تدفع فى وادى أبى كبير ، وهو فوق مسجد الحرم والمعرس ، وطرف أعظم الغربى يدفع فى ذات الجيش ، وطرفه الثانى يدفع فى البطحاء .

قلت : وأعظم - ويقال عظم كاسيأتى - جبل معروف اليوم على جادة مكة ، قال المطرى : وهو فى شامى ذات الجيش ، ويشهد له ما سبق عن الهجرى . قوله « شريب » الظاهر أنه مشرب تصغير مشرب كما فى الرواية الأخرى ، وهو ما بين جبال فى شامى ذات الجيش ، بينها وبين خلائق الضبوعة ، والضبوعة منزل عند يَلِيل^(١) .

(١) يليل - بنتح الياءين بينهما لام ساكنة - موضع قرب وادى الصفراء .

أشراف مخيض قوله : « أشراف مخيض » بلفظ الخيض من اللبن - هي جبال مخيض من طريق الشام ، قاله ابن زبالة ، وقال الهجرى : مخيض وادٍ يصب في أضم على طريق الشام من المدينة ، انتهى ؛ فكأنه يطلق على الجبال ووداياها ، وقال المطرى : جبل مخيض هو الذى على يمين القادم من طريق الشام ، حين يُفْضَى من الجبال إلى البركة التى هى مَوْرِدُ الحجاج من الشام ، ويسمونها عيون حمزة .

أشراف المجهر قوله : « أشراف المجهر » كذا رواه ابن النجار ، وتبعه المطرى ، ولم يبيناه ، وقال الجدي : هكذا وقع بالجيم والهاء المفتوحة ، فإن صح فهو اسم موضع بالمدينة ، وإلا فيحتمل أن يكون تصحيف « المحيصر » بالحاء والصاد المهملتين تصغير « المحصر » موضع قريب من المدينة . قلت : الأقرب أنه تصحيف الخيض ؛ لحيثه بدله فى بقية الروايات .

الحفيا قوله « الحفيا » قال ابن زبالة : هى بالغصابة فى شامى المدينة ، وقال الهجرى : وراء الغابة بقليل ، وسيأتى فى ترجمتها أن بينها وبين المدينة نحو ستة أميال .

ذوالعشيرة قوله : « ذى العشيرة » تصغير عشرة من العدد ، قال ابن زبالة : شرق الحفيا ، وقال المطرى : نقب فى الحفيا .

ثيب قوله : « ثيب » بفتح المثناة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم موحدة - كذا فى النسخة التى وقعت عليها من ابن زبالة ، وقال : إنه جبل فى شرق المدينة ، وكذا هو فى العقيق للزبير بن بكار ، وكذا رأيته مضبوطاً بالقلم فى أصل معتمد من تهذيب ابن هشام ؛ فإنه قال فى غزوة السويق : فخرج أبو سفيان حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب من المدينة على بريد أو نحو ، وكذا هو فى العقيق لأبى على الهجرى ، إلا أنه قال عقبه : ثيب كتيعب ، فاقضى أن الياء الساكنة بعدها همزة ، ويشهد لذلك ما سيأتى فى أسماء البقاع فى ترجمة الشظاة من شعر عباس بن مرداس ، وفى كتاب ابن شبة فى حديث سلمة الآتى أول الباب السابع : فقلت يارسول

الله ، تباعد الصيد ، فأنا أصيد بصدور قناة نحو تَيْب ، كذا رأيته مضبوطاً بالقلم من غير همزة ، لكنه بالمشناة من فوق ، ووقع في كتاب ابن النجار وتبعه المطري تيم بفتح المشناة الفوقية والتحتية وبالميم . قلت : وفي شرق المدينة جبل يعرف اليوم بهذا الاسم ، وقال الجرد : إنه تصحيف ، والصواب يتيب ، بلفظ مضارع تاب^(١) إذا رجع ، فهو بالناء المشناة من فوق ، ولذا ذكره في مادتها من القاموس ، وقال في مادتها أيضاً تيأب كفعّل موضع . ولم يتعرض لذلك في الشاء المثناة .

قوله : « وَعِيرة » - بفتح أوله من الوعورة ، وهي خشونة الأرض - جبل شرق^٢ وعيرة نور ، وهو أكبر من ثور وأصغر من أحد .

وقوله : « ثنية المحدث » لم أر من تكلم عليه من مؤرخي المدينة وغيرهم ، ثنية المحدث والعجب من الجرد كيف أهمله مع إيراد الحديث في كتابه .

قوله : « مضرب القبة » قال الجرد كالمطري : ليس اليوم معروفاً ، ولا تُعلم مضرب القبة جهته ، قال : والذي يظهر [أنه] ما بين ذات الجيش من غربى المدينة إلى مخيض . قلت : قال أبو على الهجرى : مضرب القبة بين أعظم وبين الشام نحو ستة أميال ، أى من المدينة ، وقد تقدم قول مالك عقب التحديد به : وذلك نحو من بريد ، ولعله يريد مجموع الحرم .

قوله : « بئر » لم أر من تكلم عليه حتى الجرد .

قوله : « من حيث استأقت^(١) بنو فزارة لقاحى » كانت لقاحه صلى الله عليه غزوة ذى قرد وسلم ترعى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى يوم ذى قرد ، واتفق لسامة بن الأكوع ما اتفق من استنقاذ اللقاح ووصول الفرسان إليه وهو يقاتلهم ويرميهم بالنبل ، وسميت غزوة ذى قرد بالموضع الذى كان فيه القتال .

والتحديد بهذه الأما كن مؤيد لكون مجموع الحرم بريداً ، ولذلك قال

(١) لو كان مضارع تاب بمعنى رجع لقليل « يتوب »

(٢) في المطبوعات هنا « ابتسقت » تطبيع ، وانظر (ص ٩٨)

ابن زبالة عقب ما تقدم عنه : وذلك كله يشبه أن يكون بريداً في بريد ، انتهى .
ويحمل عليه قول أبي هريرة في حديث مسلم « وجعل اثني عشر ميلاً حول
المدينة حياً » لأن ذلك هو البريد : أى ستة أميال من جهة قبلتها ، وستة أميال
من جهة شاميتها ، وكذلك في المشرق والمغرب ، ومثله حديث « حى كل ناحية
من المدينة بريداً » أى من القبلة إلى الشمال بريداً ، ومن المشرق إلى المغرب بريداً ،
وقد أخذ بذلك مالك رحمه الله ، لكن فرق بين حرم الشجر وحرم الصيد ، وجعل
البريد حرم الشجر ، وما بين اللابتين حرم الصيد .

قال عياض في الإكمال : قال ابن حبيب : تحريم ما بين اللابتين مخصوص
بالصيد ، قال : وأما قطع الشجر فبريد في بريد في دور المدينة كلها ، بذلك أخبرني
مطرف عن مالك ، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن وهب ، انتهى . وحكى
الباجي في المنتقى مثله عن ابن نافع ، ونقل ابن زبالة عن مالك أنه قال : الحرم
حرمان ؛ فحرم الطير والوحش من حرة واقم - أى وهى الحرة الشرقية - إلى
حرة العقيق - أى وهى الغربية - وحرم الشجر بريد في بريد ، وقال البرهان
ابن فرحون : حرم الصيد ما بين جرارها الأربع ، وسماها أربعا لوجود الحرتين
المذكورتين في الجهات الأربع ؛ لانعطاف بعض الشرقية والغربية من جهة الشمال
والقبلة ، ولم يُعَوَّل أصحابنا في تحديد الحرم على البريد مع ما فيه من الزيادة ؛ لأن
أدلتها ليست بالقوية ، فعولوا على ما اشتملت عليه الأحاديث الصحيحة من الجبلين
واللابتين ، على أن إطلاق أحاديث التحريم مقتضى لعدم الفرق بين حرم الشجر
وحرم الصيد ، سواء كان الحرم بريداً أو دونه ، غير أن فى أحاديث البريد ما يشعر
بأنه للشجر ، مع أن ابن زبالة - ومجّله من الضعف معلوم^(١) - روى عن ابن بشير
المازنى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَرِّم ما بين لابتيهما - يعنى المدينة - من

(١) انظر ما تقدم لنا عنه في (ص ٨ هـ ٣)

الصيد ، وعن أبي هريرة وغيره نحوه ، وفي رواية له « من الطير أن يُصَادَ بها » وقد يقال : هو من باب أفراد فردٍ مما حرم بالذكر .
فإن قيل : قوله في حديث مسلم « حرم ما بين لا بَتَيْنِها ، وجَعَلَ اثني عشر ميلا حول المدينة حَتَّى » دال على الفرق المذكور .

قلنا : ممنوع ؛ لأن غايته أن يراد بالحي الحرم ، فكأنه قال : وجعل اثني عشر ميلا حولها حرماً ؛ إذ ليس فيه أنه جعله حي الشجر .

مقدار
البريد
والفرسخ
والميل

تنمى : البريد أربع فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع بذراع اليد على الأصح ، كما صححه ابن عبد البر وغيره ، وهو الموافق لاختيار ما ذكره من المسافات في الحرم المكي وغيره ، وذراع اليد — على ما ذكره الحب الطبراني والنووي وغيرهما — أربعة وعشرون أصبعاً ، كلُّ أصبع ست شعيرات مضمومة بعضها إلى بعض ، وغلظ النووي القلعي في قوله « ثلاث شعيرات » ومقدار الذراع المذكور من ذراع الحديد المستعمل في القماش بمصر الآن ذراع إلا ثمن ذراع ، كما اعتبرته أنا وغيري ، ومشى عليه التقي الفاسي في تاريخ مكة المشرفة ، وليكن ذلك على ذُكْرٍ منك إذا مررت بشيء مما ضبطناه في المسافات في كتابنا هذا ، وقيل : الميل ستة آلاف ذراع ، ومشى عليه النووي ، وهو بعيد ، ولعل قائله هو الذي يجعل الإصبع في الذراع ثلاث شعيرات فقط ، وقيل : الميل ألفا ذراع ، والصواب ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل الثاني عشر

في حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم

حكمة
التخصيص

اعلم أن المفهوم من تحريم ذلك تشريفُ المدينة الشريفة وتعظيمها به لحلول أشرف المخلوقين صلوات الله وسلامه عليه ، وانتشار أنواره وبركاته بأرضها ، وكما

أن الله تعالى جعل لبيته حرماً تعظيماً له جعل لحبيبه وأكرم الخلق عليه ما أحاط بمحله حرماً : تلتزم أحكامه ، وتُنال بركاته ، ويوجد فيه من الخير والبركة والأنوار المنتشرة والسلامة العاجلة والآجلة ما لا يوجد في غيره ، ولهذا حث النبي صلى الله عليه وسلم بني حارثة على الكون به كما أشار إليه بقوله « أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم » ثم التفت فقال « بل أنتم فيه » وذلك لخصوصية الكون فيه على الكون خارجه ، وتخصيص ذلك المقدار إما أن يكون لما شاهده صلى الله عليه وسلم فيه من أمر ربّاني ، وسر روحاني بثه الله فيه إلى تلك الحدود المتقدمة ، وقد ذكر أهلُ الشهود أنهم يشاهدون الأنوار مُنبثّة في الحرم وأهله إلى حدوده ، ولها منابع تفيض عنها ، وذلك في الحرمين جميعاً ، فترتبت الأحكام الظاهرة على تلك الحقائق الباطنة ، ولهذا لما بلغت النار الآتي ذكرها طرفَ هذا الحرم الشريف طَفِئَتْ كما سيأتي ، وإما أن يكون بمقتضى أمر إلهي ، ووحى ربّاني لا ندرکه نحن ؛ إذ العقول البشرية قاصرة عن إدراك معاني الأحكام المتلَقَّاة عن النبوة ، وإِنما يظهر لها لايحه من شوارق مطالعها عند التأييد والتسديد ، هادانا الله لإدراكها بمنه وكرمه .

وقد قيل في حكمة تعديد الحرم المسكى أشياء يمكن مثلها هنا ؛ فقيل : لما أهبط آدم إلى الأرض أرسل الله ملائكة حَفَّوا بمكة من كل جانب ووقفوا في موضع أنصاب الحرم يَحْرُسُون آدم عليه السلام ، فصار ذلك حرماً . وقيل : لما وضع الخليل عليه السلام الحجرَ الأسود في الكعبة حين بناها -- وهو من أحجار الجنة -- أضاء الحجر من الجهات الأربع ، فحرم الله تعالى الحرم من حيث انتهى النور . وقيل : إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن ينزل بياقوته من الجنة ، فنزل بها ، فمسح بها رأس آدم ، فتناثر الشعر منه ، فحيثُ بَلَغَ نورها صار حرماً ، وهو من جنس ما قبله . وقيل غير ذلك ؛ وحينئذ فيحتمل أن تكون الملائكة الموكلة بحراسته صلى الله عليه وسلم وحراسة بلده الشريف قائمة بتلك الحدود ، فانتهى الحرم

وجوه
تذكر في حكمة
التحديد

إليها ، ويحتمل أن درته الشريفة التي خلق منها لما كان مأخذها موضع قبره الشريف ، وهو أعظم رياض الجنة ، واشتمل مسجده أيضاً على روضة من رياض الجنة ، انبثت الأنوار من ذلك إلى ما لا يعلم غايته إلا الله ، ولكن أبصارنا ظنينا لها غايات ؛ فقد يكون انتهاءها إلى تلك الحدود فانتهى الحرم إليها ، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم يوم قدومه إلى المدينة انتشرت الإضاءة ، وشوهد وصولها إلى تلك الحدود ، وسيأتى قول أنس بن مالك في وصف يوم قدومه صلى الله عليه وسلم : ما رأيت مثل ذلك اليوم قط ، والله لقد أضاء منها كل شيء ، يعنى المدينة ، والله أعلم .

الفصل الثالث عشر

القول في
تحريم الصيد
وقطع الشجر

في أحكام هذا الحرم الشريف ، وفيه مسائل

الأولى : اتفق الشافعى ومالك وأحمد على تحريم صيد حرم المدينة ، واصطياده ، وقطع شجره . وقال أبو حنيفة : لا يحرم شيء من ذلك ، والأحاديث الصحيحة الهريجة حجة عليه ، وقد قدمنا جملة منها ، ولو لم يكن إلا قوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » لكان كفاية ؛ فإنه يتمسك به في كل ما لم يقيم دليل على افتراق الحرمين فيه . وروى أبو داود^(١) — وسكت عليه ، قال النووي : وهو صحيح أو حسن ، أى كما هو قاعدته فيما يسكت عليه — أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أخذ رجلاً يصيد في حرم المدينة الذى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلبه ثيابه ، فجاء مواله فكلموه فيه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم « حرّم هذا الحرم » ، وقال : من أخذ أحداً يصيد فيه فلْيَسْلُبْهُ فلا أورد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن إن شئتم

(١) قد أثر المؤلف حديث سعد رضى الله تعالى عنه عن المفضل الجندى ، (وانظر ص ١٠٦ وما بعدها) .

دفعت إليكم ثمنه » وسيأتى عنه نحوه فى قطع الشجر ، وفى الموطأ عن أبى أيوب الأنصارى أنه وجد غلماناً قد أُلجئوا ثعلباً إلى زاوية ، فطردهم عنه ، قال مالك : لا أعلم إلا أنه قال : أفى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع^(١) هذا ؟ وروى الطبرانى برجال الصحيح مثله عن زيد بن ثابت بدل أبى أيوب ، وفى الموطأ أيضاً أن رجلاً قال : دخل على زيد بن ثابت وأنا بالأسواف^(١) ، وقد اصطدت نُهساً^(٢) فأخذه من يدي ، فأرسله^(١) . ورواه الطبرانى أيضاً مع تسمية المبهم ، ولفظه : عن شرحبيل بن سعيد قال : أخذت نُهساً^(٢) - يعنى طائراً - بالأسواف ، فأخذه منى زيد بن ثابت فأرسله ، وقال : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّم ما بين لابتئها . وفى رواية له «أنا زيدا بن ثابت ونحن فى حائط لنا ، ومعنا فيخاخ ننصب بها ، فصاح وطرّدنا ، وقال : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها . ورواه أحمد أيضاً - وكذا الشافعى فى حرملة - عن شرحبيل بن سعد ، وقد وثقه ابن حبان وضعفه غيره ، ولفظه : دخل علينا زيد بن ثابت حائطاً ونحن غلمان ننصب فيخاخاً للطير ، فطرّدنا وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها . ورواه ابن زبالة بلفظ : كنت مع بنى زيد بن ثابت بالأسواف^(١) ، فأخذوا نُهساً^(٢) ، فاستفتح زيد بن ثابت وهوى أيديهم ، فدفعوه فى يدي وفرّوا ، فدخل زيد ، فأخذه من يدي فأرسله ، ثم لطم فى قفأى وقال : لا أم لك ، ألم تعلم ، وذكر الحديث المتقدم . وروى الطبرانى عن حاجب مولى زيد بن ثابت قال : دخل على زيد بن ثابت وأنا بالأسواف^(١) قد اصطدت نُهساً^(٢) ، فأخذ بأذنى من قفأى وقال : تصيد هاهنا وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتئها ؟ . والنهس ، كصرد : طائر يشبهه^(٢) وليس بالصرّد ، وقيل : إنه اليمام .

وفى الكبير للطبرانى برجال ثقات عن عبد الله بن عباد الزرقى - قال الهيثمى :

(١) انظر موطأ الإمام مالك (٨٩٠ ط الحلبي) والأسواف : موضع بيع بعض أطراف المدينة بين الحرتين . (٢) النهس : هو أبو براقش .

ولم أجد من ترجمه — قال : كنت أصيد العصفير في بئر أهاب ، وكانت لهم ، قال : فرآني عبادة بن الصامت وقد أخذت العصفور ، فبرزه مني فبرسه ، ويقول : أي بُنيّ ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم ما بين لابتينها كما حرم إبراهيم مكة .

وروى ابن زبالة ومن طريقه البزار عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : اصطدت طيرا بالقنبلة^(١) ، فلقيني أبي عبد الرحمن ، فعرّك أذني ، ثم أخذه مني فأرسله ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيد ما بين لابتينها . وفي أبي داود عن مولى لسعد ، أن سعداً وجد غبيداً من عبيد المدينة يقطعون شجراً من شجر المدينة ، قال : فأخذ متاعهم ، وقال يعني لمواليهم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَنْهَى أَنْ يُقَطَعَ مِنْ شَجَرِ الْمَدِينَةِ شَيْءٌ » ، وقال : مَنْ قَطَعَ شَيْئاً فَلَمْ يَأْخُذْهُ سَلْبُهُ » ورواه مسلم عن إسماعيل بن محمد بن عامر بن سعد ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قصره بالعقيق ، فوجد عبداً يقطع شجراً ، أو يخطه ، فسلّبه ، فلما رجع سعد جاءه أهل العبد فكلّموه أن يرد على غلامهم — أو عليهم — ما أخذ من غلامهم ، فقال : « معاذ الله أن أرد شيئاً نفلني رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورواه المفضل الجندی عنه ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قصره بالعقيق ، فوجد عبداً يقطع شجرة ، فأخذ سلبه ، وذكره بنحوه . ورواه أيضاً عن عبد الله بن عمر ، ولفظه : أن سعداً وجد إنساناً يَعْضِدُ ، أو يخط ، عَصَاهُ بالعقيق ، فأخذ فأسه ونِطْعَهُ وشيئاً سوى ذلك ، فاطلع العبد إلى ساداته فأخبرهم الخبر ، فركبوا إلى سعد فقالوا : الغلام غلامنا ، فاردد إليه ما أخذت منه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما قدمناه عنه في الفصل العاشر ، وقال في آخره « فلم أكن لأرد شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورواه ابن زبالة من طرق بنحوه . وفي بعضها أن سعد بن أبي وقاص وجد جارية لعاصية السامية تقطع الحصى

(١) القنبلة — بضم القاف والباء بينهما نون ساكنة — مصيدة يصطاد بها النمس

— بوزن صرد — وهو أبو براقش .

فضربها وسلبها شملة لها وفأسا كانت معها ، فدخلت عاصية السامية إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستعدت على سعد ، فقال : اردد إليها يا أبا إسحاق شملتها وفأسها ، فقال : « لا والله لا أرد إليها غنيمة غنمناها رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول : مَنْ وجدتموه يقطع الحى فاضربوه واسلبوه » واتخذ من فأسها مسحة فزال يعمل بها حتى لقي الله . وفي بعضها : أخذ سعد بن أبى وقاص جارية لعاصيه السامية تقطع شجراً بالعقيق ، فنزع سلبها ، وذكر نحوه . وروى أيضا عن سعد قال : غَنَمْنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ وجدناه يقطع من شجر حرم المدينة الرطب منه . وعن زيد بن أسلم نحوه . وروى الجندى عن عبد الكريم بن أبى الحارق قال : أتى عمر بن الخطاب ناحية من المدينة فوجد غلاما لبعضهم في حائط ، فقال : هل يأتيك ههنا أحد يخطب ؟ قال : نعم ، فقال له عمر : إن رأيت منهم أحدا فخذ فأسه وحبله ، قال : وثوبه ؟ قال : فأبى ، وفي نسخة فأفتى ، وفي رواية عنه : أن عمر قال لغلام قدامة بن مظهر : أنت على هؤلاء الخطابين ، فمن وجدته احتطب فيما بين لابتي المدينة فلك فأسه وحبله ، قال : وثوباه ؟ قال عمر : ذلك كثير . وقد اختلف القائلون بالتحريم في حرم المدينة بالنسبة إلى الضمان بالجزاء ، فعن أحمد روايتان ، وللشافعى أيضا قولان كالروايتين : الجديدُ منهما عدمُ الضمان وهو قول مالك ؛ لأنه ليس بمحل نُسك ، فأشبهه مواضع الحى ووج الطائف (١) ، والقديمُ الضمان ، وهو المختار كما قاله النووى وغيره ؛ لحديث سعد المتقدم ، والجواب عنه مشكل ، وعلى هذا فالأصح أنه يسلب الصائد وقاطع الشجر والكلاء كما يسلب القاتل من الكفار حتى يؤخذ فرسه وسلاحه ، وقيل : الثياب فقط ، ويكون ذلك للسلب على الأصح ، وقيل : لفقراء المدينة كما أن جزاء صيد مكة لفقرائها ، وقيل : يوضع في بيت المال وسبيله سبيل السهم المرصَد للمصالح . قال الشيخ أبو محمد : ويعطى المسلوبُ إزاراً يستر به عورته ، فإذا قدر على ما يستر به

(١) وج : واد بالطائف ، كما قاله المجد ، وقيل : هو الطائف نفسه ، وقيل : واد بينه وبين مكة .

عورته أخذ منه ، واختار الروياني أنه يترك له ، وصوبه النووى . قال الرافعى :
والذى يسبق إلى الفهم من الحديث وكلام الأئمة أنه يسلب إذا اصطاد ، ولا يشترط
الإتلاف ، ولفظ الغزالي فى الوسيط : لا يسلب حتى يصطاد أو يرسل الكلب ،
ويحتمل التأخير إلى الإتلاف ، انتهى . ولا فرق فى هذا بين صيد وصيد ، ولا بين
شجرة وشجرة ، وكان السلب فى معنى العقوبة لمعطى ذلك . قال السراج
البلقينى : ولو كان الصائد أوقاطع الشجر فى حرم المدينة عبداً هل يسلب ثيابه كما
اتفق لسعد بن أبى وقاص ؟ قال : والذى يقتضيه النظر أنه لا يسلب العبد ؛ فإنه
لا ملك له ، وكذلك لو كان على الصائد ثوب مستأجر أو مستعار فإنه لا يسلب ،
ولم أر من تعرض له ، انتهى . قلت : التحقيق التفصيل بين ما إذا أمره السيد أو من
فى معناه بذلك وبين ما إذا لم يأمره ، ويُحتمل ما اتفق لسعد على الأول ، ولو كان على
الصائد والمحتطب ثياب مغصوبة لم تسلب بىلأخلاف ، كما نقله فى شرح المذهب ،
ونقله فى المطلب عن البحر ، ثم قال : وينبغى أن تكون المستعارة كذلك ، ولو لم
يشاهده أحد يصطاد فالظاهر أنه يجب عليه حمل السلب إلى نائب الإمام ، ولو
تحدث بحضرة أحد فسمعه فهل يجوز له أن يسلبه ؟ الظاهر عندى لا ، انتهى . ولو
أدخل إلى حرم المدينة صيدا لم يلزمه إرساله ، وله ذبحه به اتفاقا ، وكذا حرم مكة
عندنا . وقد روى البيهقى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقدمون
مكة فيرون بها فى الأفاص القمارى^(١) واليماقيب^(٢) ، وهذا محمل حديث «يا أبا عمير ،
ما فعل النغير^(٣)» أو أنه كان قبل تحريم المدينة ؛ لأنه فى أول الهجرة ، وتحريم
المدينة كان بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من خيبر ، كما أوضح ذلك الحافظ ابن
حجر . وقد تمسك أبو حنيفة بقصة أبى عمير فيما ذهب إليه من عدم تحريم صيد
المدينة ؛ لذهابه فى حرم مكة إلى وجوب الإرسال على من أدخل إليه صيدا من
خارجه ، قال : فلو حرم النبى صلى الله عليه وسلم صيد المدينة لما أقر التغير فى يد أبى
الحجل^(٤) (١) القمارى : جمع قمرى ، وهو ضرب من الحمام ، واليماقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر
وأبو عمير : أخو أنس .

عمير . وجوابه ما تقدم ، قال البيهقي : والذاهب إلى عدم تحريم الصيد وغيره بالمدينة زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد بقاء زينة المدينة وبهجتها لتستوطن كما منع من هدم آطام المدينة لذلك ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هدم آطام المدينة ، وقال : إنها زينة المدينة ، أى فالنهي للتنزيه . قال البيهقي : والنهي عندنا على التحريم حتى تقوم دلالة على التنزيه ، قال : واستدل الخالف بحديث سلامة « أما إنك لو كنت تصيد بالعقيق لشيّعتك إذا ذهبت وتلقيتك إذا جئت ، فإني أحب العقيق » قال البيهقي : وهو حديث ضعيف ، ومن يدعى العلم بالآثار لا ينبغي له أن يعارض الأحاديث الثابتة في حرم المدينة لهذا الحديث الضعيف ، وقد يجوز أن يكون الموضع الذى كان سلامة يصيد فيه خارجاً من حرم المدينة ، والموضع الذى رأى فيه سعد بن أبى وقاص غلاماً يقطع شجراً من حرم المدينة داخله ، حتى لا يتنافيان ، ولو اختلفا كان الحكم لرواية سعد لصحة حديثه وثقة رجاله ، دون حديث سلامة . قلت : مع أن الذى فى الصحيح من حديث سعد لا تعرض فيه لأن القطع كان بالعقيق ، وركوبه إلى قصره بالعقيق لا يقتضى أن القطع كان به ، بل يقتضى أن القطع فى موضع من الحرم خارج ، على أن ما يلى ذا الحليفة من العقيق ليس من الحرم عندنا لخروجه عما بين اللابتين ، والمالكية وإن اعتبروا البريد فحرم الصيد عندهم ما بين اللابتين كما تقدم ، مع امتداد العقيق إلى النقيع^(١) ؛ فبعضه خارج عن الحرم بكل حال ، فصح ما قاله البيهقي ، وقصر سعد مع قصور العقيق فى الطرف الداخل منه فى الحرم عندنا ؛ لكونه بالحرة الغربية . هذا ، مع احتمال حديث سلامة لكونه كان قبل تحريم المدينة ، والله أعلم .

الثانية — استثنى المطرى تبعاً لابن النجار جواز أخذ ما تدعو الحاجة إليه للرحل — بالحاء المهملة — والوسائد ، من شجر حرم المدينة ، وما تدعو الحاجة

ما يستثنى
مما يحرم

(١) النقيع : موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء أى يجتمع ، وقد حمى عمر رضى الله عنه غرز النقيع لنعم النعم وخيل المجاهدين فلا يرعاه غيرها .

ليه من حشيشه للعلف ، بخلاف مكة ، هكذا قالاه ، وسبقتهما إليه ابن الجوزى من الحنابلة فقال في منسكه : إن المدينة تفارق مكة في أنه يجوز أن يؤخذ من شجر المدينة ما تدعو الضرورة إليه للرحل وشبهه ، انتهى ، ومأخذهم في ذلك ما تقدم في الفصل العاشر في بعض تلك الأحاديث المشتملة على الترخيص في ذلك ومحوه ، مع ما رواه ابن زبالة من حديث : يا رسول الله ، إنا أصحاب عمل ونَصَح ، وإنا لا نستطيع أن ننتاب أرضاً ، فرخص لهم في القامتين والوسادة والعارضة والأسنان ، فأما غير ذلك فلا يعضد ولا يخبط ، والكلامُ أولاً في توجه الاستدلال بذلك من حيث الإسناد ، مع أننا قدمنا في غضون تلك الأحاديث ما يقتضى المنع ، سيما حديث الطبراني بإسناد حسن إذ فيه قول جابر : لا يخبط ولا يعضد حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هُشوا هشا ، ثم قال جابر : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لينع أن يقطع المسد . قال خارجه : والمسد مرود البكرة ، ومن تأمل كلام أصحابنا الشافعية لا يفهم منه سوى استواء الحرمين في ذلك ؛ لقولهم : إنه يجوز أخذ حشيش حرم مكة لعلف الدواب على الأصح . وقد قال النووي في الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم المتقدم « ولا يخبط شجره إلا لعلف » : إن فيه جواز أخذ أوراق الشجر للعلف ، بخلاف خبط الأغصان وقطعها فإنه حرام ، انتهى . وقد قال هو وغيره في شجر مكة : إنه يجوز أخذ أوراقها لكنها لا تهش حاذراً من أن يصيب لحاها . وفي شرح المذهب : يجوز أخذ ورقها والأغصان الصغيرة للسواك ونحوه ، انتهى ؛ فقد استوى الحرمان في ذلك . وقد قال الغزالي في البسيط والوسيط في حرم مكة : إنه لو قطع منه للحاجة التي يقطع لها الإذخر^(١) كتسقيف البيوت ونحوه ففيه الخلاف في قطعه للدواء : أى والأصح جوازه ، وتبعه على ذلك صاحب الحاوى الصغير ؛ فجوز القطع للحاجة مطلقاً ، ولم يخص الدواء ، وقل من تعرض للمسألة ، ومنه يؤخذ جواز ما استثناه المطرى ، لكن

(١) الإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب .

مع استواء الحرمين في ذلك . وقال القاضي عياض : قال المهلب : قَطَعَ النبي صلى الله عليه وسلم النخل من المدينة حين بنى مسجده ، وذلك يدل على أن النهى لا يتوجه لقطع شجرها للعمارة وجهة الإسلام ، وأن يقطع شجرها ليتخذ موضعه جنازاً وعمارة ، وأب توجه النهى إنما هو لقطع الإفساد واستبقاء بهجة المدينة^(١) وخضرتها في عين الوارد إليها ، انتهى . ونحوه ما روى ابن زبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني حارثة في طرف من الحى « أعطاكم على أنه مَنْ قَطَعَ شجرة غرس مكانها نخلة » ومحل ابن زبالة من الضعف معروف ، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما قطع النخل وهو شجر يستنبته الآدميون ، وفيه خلاف ؛ فالذى ذهب إليه المالكية والحنفية جواز قطعه في حرم مكة فضلاً عن المدينة ، وهو أحد القولين عندنا ، لكن الأصح إلحاقه بالذى ينبت بنفسه ، والجواب عنه باحتمال كونه قبل تحریم المدينة ، أو أنه قطعه لحاجة العمارة ؛ فإن المتجه جوازه كما تقدم عن الغزالي ، ولم يزل أهل المدينة يسقفون بيوتهم بما يقطعون من نخلها . وقد نقل الواقدي في الحرم المكي عن ابن الزبير الترخيص في قطع شجر الحرم المكي للعمارة لكن مع الفداء ، على أن الماوردي قال فيما يستنبته الآدميون : محل الخلاف فيما أنبت في مَوَات الحرم ، فإن أنبت في أملاكه لم يحرم بلا خلاف ، انتهى . وأما ما يستنبت من غير الشجر كالحنطة والخضرَوَات فيجوز قطعه بلا خلاف ، وكذا ما يتغذى به مما ينبت بنفسه كالرجلة المسماة بالبقلة الحقاء ونحو ذلك ؛ لأنه في معنى الزرع ، صريح باستثنائه المحب الطبري في شرح التنبيه ، وهو ظاهر ؛ لأنه إذا جاز الأخذ لإطعام البهائم فالآدمي أولى .

الثالثة — ما ذكره في الأخذ للدواء ونحوه يتناول تحصيله وادخاره لذلك الغرض ، وإن لم يكن السبب قائماً ، إلا أن عبارة الروضة : ولو احتيج إلى شيء من نبات الحرم للدواء . وفي شرح المهذب أنه يجوز أخذ النبات للعلف ، ولو

(١) في المطبوعات « واستبقاء لهجة المدينة — إلخ » تطبيع

أخذه لبيعه ممن يعلف به لم يجز ، ومقتضاه أن الدواء كذلك ، وظاهر إطلاق الماوردي الجواز مطلقاً ، وهو ظاهر استناد بعضهم إلى نقل السنن المكي من غير تكثير .

الرابعة — تُغْلَظُ الدية في الخطأ على القاتل في حرم المدينة كمكة في وجهه الصحيح خلافه ، ومأخذُه عموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » .

دية القتل
الخطأ في المدينة
مغلظة

وقد اختار السراج البلقيني هذا الوجه ، قال : لأن الخلاف في ذلك مبنى على الخلاف في ضمان صيدها ، والختار عند النووي ضمان صيدها بسلب الصائد . قلت : وما قاله متبجه ؛ لعموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » وإنما اختصت مكة بمنع الكافر من دخولها مطلقاً ، بخلاف المدينة فيجوز أن يدخلها بإذن الإمام أو نائبه للمصلحة ؛ لأن المشركين أخرجوا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاقبهم الله بالمنع من دخولها بكل حال تعظيماً لرسوله صلى الله عليه وسلم ، واستحسن الروائي في البحر التسوية بين مكة والمدينة في أن من مات من الكفار بهما يخرج ويدفن خارجهما ، وعلى القول باختصاصه بمكة موجبُهُ ما قدمناه .

حكم
لقطة حرم
المدينة

الخامسة — سوى صاحب الانتصار من أصحابنا بين حرم مكة والمدينة في أن لقطتهما لا تحل للتملك ، بل للحفظ أبدأً ، وقال الدارمي : لا تلحق لقطة حرم المدينة بحرم مكة في ذلك . قلت : والذي يقتضيه الدليل ترجيح الأول ؛ لأن نص على ذلك في الأحاديث المتقدمة في الفصل الثامن ، وإن كان الأصحاب خصوا مكة بالذكر .

السادسة : مقتضى قوله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث المتقدمة أيضاً « ولا يحمل فيها سلاح لقتال » أن يأتي فيها ما نقل من الخلاف في حرم مكة من أن المقاتلة الجائزة في غيره تحرم فيه كقتال البغاة به ^(١) ، بل يُصَيِّقُ عليهم إلى أن يخرجوا (١) البغاة : جمع باغ ، والبغاة : جماعة من المسلمين لهم شوكة خرجوا عن طاعة الإمام على تأويل لهم .

أوفيتوا^(١) كما ذهب إليه جماعة . وقال الجمهور: يقاتلون ؛ لأن هذا القتال من حقوق الله ، وحفظها في الحرم أولى ، والحرم لا يعيد عاصيا . وذهب الحسن البصري إلى أنه لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة ؛ للنهي عن القتال فيه ، فلا يحمل ما هو من أسبابه ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم .

حكم الاستنجاء السابعة : حكى الماوردي وجهين في جواز الاستنجاء بحجارة الحرم ، قال : بحجارة الحرم ظاهر المذهب سقوط الفرض بذلك مع تأنيمه . قلت : ينبغي حملة على مَنْ نقله من الحرم ليستنجى به في الحل مثلا ، وإلا فهو مشكل ؛ إذ لا خلاف في إباحة البول في الحرم ، فلا استنجاء بالحجارة كذلك ، وعبارة شرح المذهب في النقل عن الماوردي بعد حكاية الوجهين في سقوط فرض الاستنجاء بالذهب والديباج : وطردهما الماوردي في الاستنجاء بحجارة الحرم ، انتهى . وهي محتملة لما قررناه ، وقد نقل النووي عدم جواز الأكل في الأواني المعمولة من تراب الحرم ، على ما قاله الدميري ، ولا شك أنه إنما عني به المنع منه لمن أخرجها من الحرم كما لا يخفى .

الثامنة : جزم النووي بتحريم نقل تراب الحرم المديني وأحجاره ، اكتفاء بما ذكره من الخلاف في الحرم المكي ، وصحح فيه التحريم ، والرافعي الكراهة ، ونقلها النووي عن كثيرين أو الأكثرين ، ونقلها القاضي أبو الطيب عن نص الشافعي في القديم ، ونقل التحريم عن نصه في الجامع الكبير ؛ وقال في الأم في حجارة الحرم وترابه : لا خير في أن يخرج منها شيء إلى الحل ، لأن له حرمةً بآيَنَ بها ما سواها من البلدان ، فلا أرى - والله أعلم - أن جائزا لأحد أن يزيله من الموضع الذي بآيَنَ به البلدان ؛ إذ يصير كغيره .

وروى الشافعي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما كراهة ذلك . قال الشافعي : وقال غير واحد من أهل العلم : لا ينبغي أن يُخرج من الحرم شيء إلى (١) يفيثوا : يرجعوا إلى الطاعة .

حكم
نقل تراب
لحرم المديني

غيره . وحكى الشافعى عن أبى يوسف أنه قال : سألت أبا حنيفة عن ذلك فقال : لا بأس به . قال أبو يوسف : وحدثنا شيخ عن رُزَيْن مولى على بن عبد الله بن عباس أن :لميا كتب إليه أن يبعث إليه بقطعة من المروة^(١) فيتخذها مُصَلًى يسجد عليه ، ونقل القاضى أبو الطيب عن الشافعى أنه قال : رخص بعضُ الناس فى ذلك ، واحتج بشراء البرام من مكة ، وهو غلط ؛ فإن البرام ليست من حجارة الحرم ، بل تحمل من مسيرة يومين وثلاثة من الحرم ، وحكى فى شرح المذهب اتفاق الأصحاب على أن الأولى أن لا يحمل تراب الحِلِّ وأحجاره إلى الحرم ؛ لئلا يحدث لها حرمة لم تكن ، قال : ولا يقال « إنه مكروه » مع إطلاقه فى الروضة والمناسك كراهته ، فكأنه أراد بهما معنى خلاف الأولى . وقولُ صاحب البيان « قال الشيخ أبو إسحاق : لا يجوز إدخالُ شئ من تراب الحل وأحجاره إلى الحرم » محمولٌ على نفي الإباحة بمعنى استواء الطرفين ، كما وقع مثله فى مواضع ، وبناء آدم البيت من أجبُلٍ ليست من الحرم كلبُنان وطور سيناء : إما لأن تحريم الحرم إنما تعلق حكمه وظهر على لسان إبراهيم عليه السلام ، وإما لأن شرعه اقتضى ذلك ، مع أن الظاهر استثناء نقل حجارة الحل لمصلحة يقتضيها الحال ، وما نقله أهل السير من أنهم كانوا يأخذون من تراب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرت عائشة رضى الله عنها بجدارٍ فُضِرَ عليهم ، لا مُتَمَسَكَ فيه ؛ إذ لم يعرف الفاعل ، بل الظاهر أنه بمن لا يحتاج بفعله ، وأمرُ عائشة بضرب الجدار يقتضى المنع من ذلك ، على أنه ليس فيه أنه كان يؤخذ للنقل من الحرم ، وقد نقل أبوالمعلى السبتي - وكذا خليل والتادلى المالكيون - كلامَ النووى فى المنع من نقل تراب الحرم وأقرُّوه ؛ فالظاهر أنه جارٍ على قواعدهم ؛ إذ منها سدُّ الذرائع . وقد قيل فى سبب عبادة الأصنام : إن بعضَهم كان يصحب معه الحجر من الحرم ليتبرك به ، واستشكله البرهان بن فرحون بأمور : منها ما تقدمت الإشارة إلى جوابه ، ومنها

(١) المرو : الحجارة البيض البراقة ، واحدها مروة .

الإجماع على نقل ماء زمزم واستهداء النبي صلى الله عليه وسلم له من سُهَيْل بن عمرو فبعث إليه منه ، وجوابه أن ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم ، مع أنه يخلف ؛ فأشبهه الحشيش الذي يخلف ، ولهذا قول الشافعي : فأما ماء زمزم فلا أكره الخروج به ، والماء ليس بشيء يزول ولا يعود ، انتهى . مع أن المحذور المتقدم في الأحجار لا يتوقع مثله في الماء ؛ إذ المقصود من نقله شُرْبُهُ وهو ظاهر ، بخلاف الحجر وشبهه ؛ فإن القصد التبرك به ، وهو شيء لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذا أقول : إن من نقل من فخار الحرم كالكراريز^(١) لحاجة استعمالها جاز له ، ويحمل كلام من أطلق المنع على ما يراد للتبرك أو مع عدم الحاجة إليه ، وإذا جاز أخذ حشيش الحرم للتداوى فهذا أولى ، وإذا كان الاحتياج إلى آنية الذهب والفضة يجوز استعمالها فهذا أولى ، فإن أريد نقل ذلك لحاجة متوقعة في المستقبل فينبغي تخريجه على ما تقدم في أخذ نبات الحرم للدواء ونحوه ، وقد قدمنا فيما جاء في تراها استثناء تربة صُعَيْب لما جاء فيها من التداوى ، وأن الزركشي استثنى تربة حمزة رضى الله عنه لإطباق الناس على نقلها للتداوى بهامن الصُّدَاع ، وحكى البرهان ابن فرحون عن الإمام العالم أبي محمد عبدالسلام بن إبراهيم بن ومصال الحاحاني ، قال : نقلت من كتاب الشيخ العالم أبي محمد صالح الهزميري قال : قال صالح بن عبدالحليم : سمعت أبا محمد عبدالسلام بن يزيد الصنهاجي يقول : سألت أحمد بن يَكُوت عن تراب المقابر الذي كان الناس يحملونه للتبرك هل يجوز أو يمنع؟ فقال : هو جائز ، وما زال الناس يتبركون بقبور العلماء والشهداء والصالحين ، وكان الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب في القديم من الزمان . قال ابن فرحون عَقِبَهُ : والناس اليوم يأخذون من تربة قريبة من مشهد سيدنا حمزة ، ويعملون منها خرزا يشبه السبج ، واستدل ابن فرحون بذلك على جواز نقل تراب المدينة ، وقد علمت مما تقدم أن نقل تربة حمزة رضى الله عنه إنما هو للتداوى ؛

(١) الكراريز : جمع كراز - بزنة رمان ، ويقال بتخفيف الراء أيضا بزنة دخان - وهو القارورة ، وقيل : كوز ضيق الرأس ، قال ابن دريد : تكلموا به ولا أدري أعربي أم عجمي .

ولهذا لا يأخذونها من نفس القبر ، بل من المسيل الذي عنده المسجد^(١) ، ولئن صح مشروعية التبرك بتراب قبور الصالحين فهو أمر خاص بها لا دلالة فيه على جواز نقل مطلق تراب الحرم ، وهو أمر لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخير كله في الاتباع ، وقد قالت الحنابلة أيضاً : يكره نقل حصي الحرم وترابه إلى غيره ، ولا يدخل غيره إليه ، ونقلوا عن أحمد أنه قال : الإخراج أشد ، انتهى . ويجب على من أخرج شيئاً من تراب الحرم أو حجره أن يرده إليه ، ولا ضمان عليه في ترك الرد ، قال السكال الدميري : وإذا نقل تراب أحد الحرمين إلى الآخر هل يزول التحريم — أى فينقطع وجوب الرد — أو يفرق بين نقله للأشرف وعكسه ؟ فيه نظر ، والله أعلم .

الفصل الرابع عشر

في ذكر بدء شأنها ، وما يؤل إليه أمرها

روى ابن لهيعة بسنده إلى عائشة مرفوعاً « إن مكة بلد عظمه الله ، وعظم حرمة ، خلق مكة وحققها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض كلها بألف عام ، ووصلها بالمدينة ، ووصل المدينة ببيت المقدس ، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقاً واحداً » قال العلامة المقدسي في بعض تأليفاته : هذا حديث غريب جداً ، بل منكر .

وعن سليمان عن أبي عمرو الشيباني عن علي رضي الله عنه : كانت الأرض ماء ، فبعث الله ريحاً فمسحت الأرض مسحاً ، فظهرت على الأرض زبدة ، فقسمها أربع قطع ، خلق من قطعة مكة ، والثانية المدينة ، والثالثة بيت المقدس ، والرابعة الكوفة . وهو أثر واهٍ .

وروي في الكبير للطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله

(١) المسيل الذي كان به مصرع حمزة رضي الله عنه هو المسيل الذي من جهة أحد ، لا من القبلة (مكي) .

عز وجلّ اطلع إلى أهل المدينة وهى بطحاء قبل أن تعمر ليس فيها مَدَرٌ ولا بَشَرٌ ،
 فقال : يا أهل يثرب ، إني مشترط عليكم ثلاثاً وسائق إليكم من كل الثمرات :
 لا تَغْصِي ، ولا تَعْلِي ، ولا تَكْبَرِي ، فإن فعلت شيئاً من ذلك تركتك كالجزور
 لا يمنع من أكله .

وأخرج النسائي من رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس في حديث الإسراء
 قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُتِيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل »
 الحديث ، وفيه « فركبت ومعى جبريل ، فسرت فقال : انزل فصلّ ، ففعلت ،
 فقال : أتدرى أين صليت ؟ صليت بطيبة وإليها المهاجرُ » بمعنى بفتح الجيم .
 ووقع في حديث شداد بن أوس عند البزار والطبراني أنه [قال] « أول ما أُسْرِيَ
 به صلى الله عليه وسلم مرّ بأرض ذات نخل ، فقال له جبريل : انزل فصلّ ، فنزل
 فصلى ، فقال : صليت يثرب » الحديث .

وروى رزين عن أنس يرفعه « لما تجلّى الله لجبل طور سيناء تشظى ستة
 أشظاظ^(١) » وفي رواية غير رزين « شظايا ، فنزلت بمكة ثلاثة : حِراء ، وثَبِير ،
 وثَوْر ، وفي المدينة : أحد ، وعَير ، وورقان » وفي رواية « ورَضْوَى » بدل عير ،
 ولا يشكل ذلك بكون رَضْوَى يمينع ؛ لأن اليمينع من توابع المدينة ومضافاتها
 كما سيأتى ، ورواه بعضُ شراح المصابيح بلفظ « عير ، وثور ، ورضوى » ومنه
 يؤخذ حكمة أخرى في تحديد الحرم بعير وثور ، وسيأتى بيان أول من سكنها
 بعد الطوفان في أخبار سكانها .

وروي في الأم للشافعي حديث « أسكنت أقل الأرض مطرا ، وهى بين
 عيني السماء عين الشام وعين اليمن » ورواه ابن زبالة بزيادة « فاتخذوا الغنم على
 خمس ليال من المدينة » .

وروى أيضاً حديث « يامعشر المهاجرين إنكم بأقل الأرض مطرا ، فأقلوا
 من الماشية ، وعليكم بالزرع ، وأكثروا فيه من الجحاجم » .

(١) تشظى : تفرق شظايا ، والأشظاظ : الفلق كل فلق شظ أو شظية كقضية .

وروى الشافعي أيضاً حديث «توشك المدينة أن تمطر مطراً لا يُكِنُّ أهلها»^(١)
البيوتُ ، ولا يكنهم إلا مظالُّ الشعر .
وروى أيضاً «توشك المدينة أن يصيبها مطر أربعين ليلة لا يكنُّ أهلها»^(٢)
بيت من مدر .

وروى ابن زبالة حديث « كيف بك يا عائشة إذا رجع الناسُ بالمدينة
وكانت كالرمانه المحشوة ؟ قالت : فمن أين يأكلون يا نبي الله ؟ قال : يطعمهم الله من
فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جنات عدن .

وأورد المرجاني في كتابه أخبار المدينة عن جابر مرفوعاً « ليعودنَّ هذا
الأمر إلى المدينة كما بدأ منها ، حتى لا يكون إيمان إلا بها » الحديث .

وروى أحمد برجال ثقات « يوشك أن يرجع الناسُ إلى المدينة حتى يصير
مسألهم بسلاج » ومسألهم : جمع مسألح ، وهم القوم الذين يحفظون الثغور .
وسلاج - كقطام - موضع بقرب خيبر^(٣) .

وفي مسلم حديث ، « تبلغ المساكن أهاب أو يهاب » بكسر المثناة التحتية .
وروى أحمد في حديث طويل أنه صلى الله عليه وسلم « خرج حتى أتى بئر
الأهاف ، قال : يوشك البنيان أن يأتي هذا المكان » وبئر أهاف : سياقي أنها
بالخرة الغربية .

وروى أبو يعلى عن زيد بن وهب قال : حدثني أبو ذر رضي الله عنه قال :
قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ البناء - أي بالمدينة - سلعاً فارتحل
إلى الشام » فلما بلغ البناء سلعاً قدمت الشام .

وروى ابن زبالة حديث « ليوشكنَّ الدينُ أن ينزوى إلى هذين المسجدين ،
ويوشكن أن يتشاحوا على موضع الوتد بالحجي كشح أحدكم أن ينقص من داره

(١) لا يمكنهم : لا يستترهم ولا يقيهم .

(٢) والمعنى على ذلك : حتى يصير القوم الذين يرقبون عدوهم مقيمين في هذا
الموضع ؛ لاتساع رقعة المدينة وكثرة أهلها .

إلى جانب المسجد ، وليوشكن أن يبلغ بنيانهم يهيقاً « قالوا : يا رسول الله ، فمن أين يأكلون ؟ قال « من هنا وههنا » يشير إلى السماء والأرض .

ويهيقاً أوله آخر الحروف : موضع بقرب المدينة على ماسياتى عن المجد آخر الباب السابع وذكر ابن زبالة الشجرة التي يضاف إليها مسجد ذى الحليفة ، ثم روى عن أبي هريرة رضى الله عنه « لاتقوم الساعة حتى يبلغ البناء الشجرة » .
وروى أيضاً عنه « أَرَيْتَكَ شَرَفَ السَّيَالَةِ وشرف الروحاء ؛ فإنه منازل أهل الأردن إذا أجزئ الناس إلى المدينة » .

وفي الكبير للطبراني حديث « سيبليغ البناء سلماً ، ثم يأتي على المدينة زمان يمر السَّقْمُ^(١) على بعض أقطارها فيقول : قد كانت هذه مدة عامرةً من طول الزمان وعفوا الأثر » .
وروى النسائي عن أبي هريرة حديث « آخر قرية من قرى الإسلام خرابا المدينة » ورواه الترمذى بنحوه ، وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ « آخر قرية في الإسلام خرابا المدينة » .

وروى أبو داود عن معاذ مرفوعاً « عُمَرَانُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرِبُ ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » .

وروى أبو داود أيضاً عنه مرفوعاً « الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر » .

وفي ابن شبة عن أبي هريرة « ليخرجنَّ أهلُ المدينة من المدينة خير ما كانت ، نصفاً زهواً^(٢) ، ونصفاً رطباً ، قيل : مَنْ يخرجهم منها يا أبا هريرة ؟ قال : أمراء السوء » .

وفيه أيضاً عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً نحوه ، وأن عبد الله بن عمر كان يردُّ عليه ، فقال له أبو هريرة : لِمَ تَرُدُّ عَلَى ؟ فوالله لقد كنت أنا وأنت في

(١) السفر : الجماعة المسافرين ، ونظيره ركب وتجر وشرب

(٢) الزهو : البسر الملون .

بيت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم « يخرج منها أهلها خير ما كانت » فقال ابن عمر : أجل ، قد كنتُ أنا وأنت في بيت ، ولكن لم يقله ، إنما قال «أمر ما كانت » ولو قال « خير ما كانت » لكان ذلك وهو حي وأصحابه ، فقال أبو هريرة : صدقت والذي نفسى بيده ، وفيه عنه أيضاً « ليحييَنَّ الثعلبُ حتى يقيلَ في ظل المنبر ، ثم يروح لا ينهنه^(١) أحد » .

وفي رواية عنه « لا تقوم الساعة حتى يحمي الثعلبُ قبرَ بضع على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينهنه أحد^(١) » وفيه أيضاً عن شريح بن عبيد أنه قرأ كتابا لكعب « ليغشينَّ أهلَ المدينة أمرُهم يفزعهم حتى يتركوها وهي مُدَّة^(٢) ، وحتى يبول السنائيرُ على قطايف الخز ما يروعاها شيء ، وحتى يحرق الثعالب في أسواقها ما يروعاها شيء » .

وفي الصحيحين حديث « لتتروك المدينة » ولفظُ مسلم « لتتركنَّ المدينة » على خير ما كانت مذلة^(٢) ثمارها لا يغشاها إلا العوافي « يريد عوافي الطير والسباع » وآخر من يحشُرُ منهار عيان من مُزينة يُريدان المدينة ينعانان بغنمهما فيجدانها وحوشاً » ولفظُ مسلم « حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما » وهو في الموطأ بلفظ « لتتركنَّ المدينة على أحسن ما كانت حتى يدخل الكلبُ أو الذئب فيغذى على بعض سوارى المسجد » .

ورواه ابن شعبة ولفظه « فيغذى على سوارى المسجد أو المنبر » ويغذى - بالغين والذال المعجمتين - أى يبول عليها دفعة دفعة ، يقال : غذت المرأة ولدها بالتشديد ، إذا أبالته ، وبالتخفيف إذا أطعمته .

وفي ابن زبالة - وتبعه ابن النجار - حديث « لا تقوم الساعة حتى يغلب على مسجدي هذا الكلابُ والذئبُ والضباع فيهر الرجل ببابه فيريد أن يصلى فيه فما يقدر عليه » .

(١) ما ينهنه : ما يخيفه وما يفزعه وما يردعه .

(٢) مذلة : سهلة لا شقة في المعيشة بها .

وفي ابن شبة بسند صحيح حديث « أما والله لَتَدْعُهَا مَذَلَّةُ أَرْبَعِينَ عَامًا لِلْعَوَافِي ، أَتَدْرُونَ مَا الْعَوَافِي ؟ الطَّيْرُ وَالسَّبَاعُ » ورواه ابن زبالة بنحوه .
وروى أحمد برجال الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم « صَعَدَ أُحُدًا ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَ : وَيْلَ أُمِّهَا قَرْيَةٍ ، يَدْعُهَا أَهْلُهَا كَأَن يَسْمَعُ مَا تَكُونُ » الحديث ، وفي رواية له « وَيْلَ أُمِّكَ قَرْيَةٍ ، يَدْعُكَ أَهْلُكَ وَأَنْتَ خَيْرُ مَا تَكُونُ » وروى أيضاً بإسناد حسن حديثٌ للبشير بن رாகب في حب وادي المدينة « فليقولنَّ لقد كان في هذه مرة حاضرة من المؤمنين » .
وروى أيضاً برجال ثقات حديث « المدينة يتركها أهلها وهي مُرْطِبة ، قالوا : فمن يأكلها ؟ قال : السباع والعائف » .

الفصل الخامس عشر

فما ذكر من وقوع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من خروج أهلها وتركها ، وذكر كائنة الحرة المقتضية لذلك قد اختلف الناس : متى يكون هذا الترك ؟ فقال القاضي عياض : إن هذا جرى في العصر الأول ، وإنه من المعجزات ^(١) ، فقد تركت المدينة على أحسن ما كانت حين انتقلت الخلافة إلى الشام والعراق ، وذلك أحسن ما كانت من حيث الدين والدنيا : أما الدين فلكثرة العلماء بها ، وأما الدنيا فلعمارتها واتساع حال أهلها ، قال : وذكر الأخباريون في بعض الفتن التي جرت بالمدينة وخاف أهلها أنه رحل عنها أكثر الناس ، وبقيت ثمارها للعوافي ^(٢) ، وخلت مدة ، ثم تراجع الناس إليها .
وحكى البدر ابن فرحون في شرح الموطأ ، ومن خطه نقلت ، عن القاضي أيضاً أنه قال : وقد حكى قوم كثيرون أنهم رأوا ما أنذر به النبي صلى الله عليه وسلم من تغذية الكلاب على سَوَاري مسجدها ، انتهى .

(١) أى لكونه إخباراً من النبي صلى الله عليه وسلم عما سيكون من بعده بإعلام الله تعالى إياه .

(٢) العوافي : المراد الطير ، كما في الأحاديث التي مرت قريباً .

وقال النووي : الظاهر المختار أن الترك للمدينة يكون آخر الزمان عند قيام الساعة ، ويوضحه قصة الراعيين من مُزَيِّنَةٍ ، فإنهما يَحْرَانِ على وجوههما حين تدركما الساعة ، ولفظ مسلم واضح في ذلك ؛ فإنه قال « ثم يحشر راعيان » ويؤيده كونها آخر قرى الإسلام خرابا .

قلت : ويؤيده رواية ابن شبة المتقدمة « لَيَدْعُنَّهَا مذلة أربعين عاما للعوافي » وهذا لم يقع اتفاقا ، على أنه ورد ما يقتضى أن الترك للمدينة يكون متعديدا ، فاعل ما ذكره القاضى هو المرة الأولى ، وبقي الترك الذى يكون آخر الزمان ؛ لأن ابن شبة روى حديث « ليخرجنَّ أهلُ المدينة من المدينة ، ثم ليعودنَّ إليها ، ثم ليخرجنَّ منها ، ثم لا يعودنَّ إليها ، وليدْعُنَّهَا وهى خير ما يكون مونة^(١) » . وروى أيضا عن عمر مرفوعا « يخرج أهلُ المدينة منها ثم يعودون إليها فيعمرونها حتى تمتلى وتبنى ، ثم يخرجون منها فلا يعودون إليها أبدا »

وروى ابن شبة عن أبي هريرة قال : « آخر من يحشر رجلان رجلٌ من جَهَنمة وآخر من مُزَيِّنَةٍ فيقولان : أين الناس ؟ فيأتيان المدينة فلا يرَيان إلا الثعلب ، فينزل إليهما مَلَكٌ فيسحبانهما على وجوههما حتى يلحقاهما بالناس » وروى أيضا عن حذيفة بن أسيد قال : « آخر الناس محشرا رجلان من مُزَيِّنَةٍ يفقدان الناس ، فيقول أحدهما لصاحبه : قد فَقَدْنَا الناس منذ حين ، انطلق بنا إلى شخص من بنى فلان ، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا^(٢) ، ثم يقول : انطلق بنا إلى المدينة ، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا ، ثم يقول : انطلق بنا إلى منزل قريش ببيقع الغرقَد ، فينطلقان فلا يران إلا السباع والثعالب ، فيوجهان نحو البيت الحرام » .

قلت : وكأنهما إذا توجهتا نحو البيت الحرام ينزل إليهما المَلَكُ قبل ذهابهما ؛ فلا يخالف ما تقدم ، فالظاهر أن ما ذكره القاضى هو الترك الأول ، وسببه فيما

(١) مونة : اسم الفاعل من « أُنِعَ الزرع » إذا أدرك وطاب وحن قطافه .

(٢) كذا ، ولعل كلمة « بها » مقحمة في هذا الموضع .

يظهر كائنة الحرة ، وقد تقدم من حديث أبي هريرة أنه قيل له : مَنْ يخرجهم منها يا أبا هريرة ؟ قال : أمراء السوء ، وروى الشيخان — واللفظ لمسلم — عن أبي هريرة مرفوعاً « يهلك أمتي هذا الحى من قریش ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم » .

وروى مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال : « قام فبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ » الحديث ، وفي رواية عنه : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن إلى أن تقوم القيامة ، فما من شيء إلا قد سألته ، إلا أنى لم أسأله . ما يخرج أهل المدينة من المدينة ، وروى الترمذي حديثاً « إذا مشيت أمتي المطيطة ، وخدمتهم بنات فارس والروم ، ردَّ الله بأسهم بينهم ، وسلَّط شِرَارهم على خيارهم » . وروى ابن شبة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « والذي نفسى بيده ليكوننَّ بالمدينة مَلَحَمَةٌ يقال لها الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولكن حالقة الدين ، فأخرجوا من المدينة ولو على قدر بريد » .

وروى ابن أبي شيبة عنه أنه قال : اللهم لا تدركنى سنة ستين ، ولا إمرة الصبيان ، يشير إلى أن أول الأغيمة كان في سنة ستين ، وهو كذلك ، كما قاله الحافظ ابن حجر ؛ فإن يزيد بن معاوية استُخْلِفَ فيها ، فأشار إلى دولة يزيد وفيها كانت وقعت الحرة ، وتسمى حرَّة واقم ، وحررة زهرة

وروى الواقدي في كتاب الحرة عن أيوب بن بشير المعادى أن النبي صلى الله عليه وسلم « خرج سَفَرًا من أسفاره ، فلما مر ببحرة زهرة وقف واسترجع ، فسئى بذلك مَنْ معه ، فظنُّوا أن ذلك من أمر بسفرهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ما الذى رأيت ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما إنَّ ذلك ليس من سفرهم هذا ، قالوا : فما هو يا رسول الله ؟ قال : يُقْتَلُ في هذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي » .

(١) المطيطة — بفتح الميم وكسر الطاء ممدودا — والمطيطة — بضم ففتح ممدودا أو مقصورا — التبخر ومد اليدين في المشى .

وروى أيضا عن سفيان بن أبي أحمد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أشرف على بني عبد الأشهل أشار بيده ، فقال : « يقتل بهذه الحرة خيار أمتي » وروى أيضا عن كعب قال : نجد في التوراة أن في حرة شرقي المدينة مقتلة تضيء وجوههم يوم القيامة صنعا » وروى أيضا أنه ذكر عند ابن عباس قتلى الحرة ، فقال ابن عباس : يرحمهم الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقتل بحرة زهرة خيار أمتي » .

وروى البيهقي في الدلائل خبر أيوب بن بشير المتقدم ، ثم قال : هذا مرسل وقد روى عن ابن عباس في تأويل قوله تعالى « وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَطْطَارِهَا ثُمَّ سُلِئُوا اللَّفْتَنَةَ لَآتَوْهَا ^(١) » قال : لَأَعْطَوْهَا ، يعني إدخال بني حارثة أهل الشام على أهل المدينة . ورواه بالسند إلى ابن عباس وقال : إنه مؤكد لمرسى ابن بشير ، وسيأتي في حرة واقم ما رواه ابن زبالة من أن السماء مطرت على عهد عمر رضي الله عنه ، فخرج مع أصحابه حتى أتوا حرة واقم وشراحها تطرد ، فقال كعب : أما والله يا أمير المؤمنين لتسيل هذه الشرايح بدماء الناس كما تسيل بهذا الماء ، فدنا منه ابن الزبير فقال : يا أبا إسحاق ومتى ذلك ؟ فقال : إياك أن تكون على رجلك أويديك ! .

وروى ابن زبالة عن كعب أيضا : إنا نجد في كتاب الله : حرة شرقي المدينة يُقتل بها مقتله تضيء وجوههم يوم القيامة كما يضيء القمر ليلة البدر .

قلت : وسياق كلام القرطبي يقتضى أنها هي السبب في خروج أهل المدينة المذكور في كلام عياض ؛ فإنه ذكر نحو كلام عياض ، وقال : فلما انتهى حالها — يعنى المدينة — كمالا وحسنا تناقص أمرها إلى أن أقفرت جهاتها ، وتوالت الفتن فيها ؛ فخاف أهلها ، فارتحلوا عنها ، ووجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري في جيش عظيم من أهل الشام ، فنزل بالمدينة ، فقاتل أهلها ، فهزمهم

تلهم بحرة المدينة قتلا ذريعا^(١)، واستباح المدينة ثلاثة أيام، فسميت وقعة الحرة لذلك، ويقال لها: حرة زهرة، وكانت الوقعة بموضع يعرف بواقم على ميل من المسجد النبوي، فقتل بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وقتل بها من حمالة القرآن سبعمائة رجل، ومن قريش سبعة وتسعون قتلوا ظلما في الحرب صبرا، قال: وقال الإمام الحافظ ابن حزم في المرتبة الرابعة: وجالت الخيل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالت، ورائت بين القبر والمذبر أدام الله تشريفها وأكرهوا الناس أن يبايعوا ليزيد على أنهم عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق، وذكر له يزيد بن عبد الله بن زعفة البيعة على حكم القرآن والسنة، فأمر بقتله، فضربت عنقه صبرا، وذكر الأخباريون أنها خلعت من أهلها، وبقيت ثمارها للعوافي كما قال صلى الله عليه وسلم، وفي حال خلاؤها غزت الكلاب على سوارى المسجد، انتهى كلام القرطبي.

وروى الطبراني في خبر طويل عن عروة بن الزبير قال: لما مات معاوية سبب نقعة يزيد بن معاوية على أهل المدينة رضى الله عنه تشاغل عبد الله بن الزبير عن طاعة ابنه يزيد، وأظهر شتمه، فبلغ ذلك يزيد، فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولاً، وإلا أرسل إليه، فقبل لابن الزبير: ألا نصنع لك أغلالاً من فضة تلبس عليها الثوب وتبر قسمه فالصلح أجمل بك؟ قال: فلا أبرأ الله قسمه، ثم قال:

ولا أَلينُ لغير الحق أسأله * حتى يَلينَ لِضَرِّسِ الماضِغِ الحَجَرُ
ثم دعا إلى نفسه، فوجه إليه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري في جيش أهل الشام، وأمرهم بقتال أهل المدينة، فإذا فرغ من ذلك صار إلى مكة، قال: فدخل مسلم بن عقبة المدينة، وهرب منه يومئذ بقايا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاث فيها^(٢)، وأسرف في القتل، ثم خرج منها، فلما كان في بعض

(١) قتلا ذريعا: شديدا كثيرا مع فظاعة (٢) عاث: أفسد

الطريق مات واستخلف حصين بن نمير الكندي ، ثم ذكر حصاره ابن الزبير ،
ورمّيه بالمنجنيق ، واحترق الكعبة ، قال : وبلغ حصين بن نمير موت يزيد
ابن معاوية فهرب .

قلت : وسبب أمر يزيد بقتال أهل المدينة ما ذكره الإمام ابن الجوزي
قال : لما دخلت سنة اثنين وستين ولّى يزيد عثمان بن محمد بن أبي سفيان المدينة ،
فبعث إلى يزيد وفداً من المدينة ، فلما رجع الوفد أظهروا شتم يزيد ، وقالوا :
قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ، ويلعب
بالكلاب ؛ ولما نشهدكم أنا قد خلعناه . وقال المنذر : أما والله لقد أجازني مائة
ألف درهم ، ولا يمنعني ما صنع أن أصدقكم عنه ؛ والله إنه يشرب الخمر ، وإنه
ليسكر حتى يدع الصلاة ؛ ثم بايعوا لعبد الله بن حنظلة الغسيل ؛ وأخرجوا عثمان
ابن محمد عامل يزيد ؛ وكان ابن حنظلة يقول : يا قوم ؛ ما خرجنا على يزيد حتى
خفت أن نرْمى بالحجارة من السماء ؛ والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت
الله فيه بلاء حسناً ؛ وكانت قصة الحرة سنة ثلاث وستين ؛ وفي هذه السنة أخرج
أهل المدينة عامل يزيد المتقدم ذكره .

قلت : وفي كتاب الحرة للواقدي ما ملخصه : أن أول ما هاج أمر الحرة أن ابن
ميناء كان عاملاً على صوّافي^(١) المدينة - وبها يومئذ صواف كثيرة - حتى كان معاوية
يحد بالمدينة وأعراضها مائة ألف وسق وخمسين ألف وسق ، ويحصدها مائة ألف
وسق حنطة ، واستعمل يزيد على المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان ؛ وأن ابن
ميناء أقبل بشرح له من الحرة يريد الأموال التي كانت لمعاوية ؛ فلم يزل يسوقه
ولا يصدّه عنه أحد حتى انتهى إلى بلحارث بن الخزرج ، فنقب النقيب فيهم ،
فقالوا : ليس ذلك لك ، هذا حدث وضرر علينا ، فأعلم الأمير عثمان بن محمد بذلك ،
فأرسل إلى ثلاثة من بلحارث ، فأجابوه إلى أن يمر به ، فأعلم ابن ميناة فقدا بأصحابه
(١) الصوافي : جمع صافية ، وهي النخلة الكثيرة الحمل ، لكن المستعمل
المنصوص عليه في كتب اللغة الصفية وجمعها الصفايا . مثل قضية وقضايا .

فَذَبُّهُمْ^(١)، فرجع إلى الأمير فقال: اجمع لهم مَنْ قَدَّرْتَ، وبعث معه بعض جند، وقال: مر به ولو على بطونهم، ففدا ابن ميناء مُتَطَاوِلًا عليهم، وعدا من يذهبهم من الأنصار، ورفدتهم قريش^(٢) فَذَبُّهُمْ حتى تفاسم الأمر؛ فرجع ولم يعمل شيئاً. وكتب عثمان بن محمد إلى يزيد يخبره بذلك، ويحرضه على أهل المدينة جميعاً؛ فاستشاط غضباً؛ وقال: والله لأبعثن إليهم الجيوش، ولأوطئنها الخيل: انتهى. وقال ابن الجوزي: قال أبو الحسن المدايني — وكان من الثقات —: أتى أهل المدينة المنبر فخلعوا يزيد، فقال عبد الله بن أبي عمرو بن حفص الخزرجي: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي، ونزعها عن رأسه، إني لأقول هذا وقد وصَلتني وأحسنَ جأزتي، ولكن عدو الله سَكَّير. وقال آخر: قد خلعته كما خلعت نعلي؛ حتى كثرت العمام والنعال.

ثم ولَّوْا على قريش عبد الله بن مطيع؛ وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة. ثم حاصر القوم مَنْ كان بالمدينة من بني أمية في دار مروان. فكتب مروان ومن معه إلى يزيد: إنا قد حَصِرْنَا ومُنِعْنَا العذب، فيأغوثناه. فوصل الكتاب إليه. فبعث إلى مسلم بن عقبة — وهو شيخ كبير — فجاء حتى دخل عليه، وقال له: اخرجْ وسِرْ بالناس، فخرج مناديه، فنادى: أن تسيروا إلى الحجاز على أخذ أعطيائكم كَمَلًا ومعمونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته. فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل. وكتب يزيد إلى ابن مَرْجَانَةَ^(٣) أن اغزُ ابن الزبير، فقال: لا والله لا أجمعها للفساق أبداً قَتَلَ ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإغزاه البيت وقال يزيد لمسلم: إن حَدَّثَ بك حادث فاستخلف حُصَيْن بن نمر السكوني. وقال له: ادعُ القوم ثلاثاً، فإنهم أجابوك وإلا فقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبْحِهَا ثلاثاً بما فيها من مال أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف

(١) ذبهم: منعهم وطردهم. (٢) رفدتهم: أعانهم.

(٣) ابن مرجانة: هو عبيد الله بن زياد بن أبيه، وكان على الجيش الذي قتل الحسين بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عنهم ، وانظر على بن الحسين فاستَوْص به ؛ فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه ، فلما بلغ أهل المدينة إقبالُ الحصين وثبوا على من كان محصوراً من بنى أمية ، وقالوا : لا نكف عنكم حتى نضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه ألا تبغوا غائلة^(١) ، ولا تدلُّوا لنا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فأعطوهم العهد على ذلك ، فأخرجوهم من المدينة ، فخرجوا حتى لَقُوا مسلم بن عقبة ، وأرسل إليه مروان ابنه عبد الملك فأشار عليه أن يأتيهم من ناحية الحرة ، وأن ينتظرهم ثلاثاً ففعل ، فلما مضت الثلاث قال : يا أهل المدينة ، ماتصفون؟ قالوا : نحارب ، قال : لا تفعلوا وادخلوا في الطاعة ، قالوا : لا نفعل ، وكانوا قد اتخذوا خندقاً ، فنزل منهم جماعة ، وحمل ابنُ الغسل^(٢) على الخيل حتى كشفها ، وقتلوا قتلاً شديداً ، وجعل مسلم يحرّض أصحابه ، وكان به مرض ؛ فنصب له سرير بين الصفيين وقال : قاتلوا عن أميركم ؛ وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون الأموال ، ورفعوا على النساء ؛ وقاتل عبد الله بن مطيع حتى قتل هو وبَنُو له سبعة ؛ وبعث برأسه إلى يزيد ؛ فأفزع ما جرى من المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونقل الواقديُّ أن القوم لما تروا تشاور أهل المدينة في الخندق خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وشكُّوا المدينة بالبنين من كل ناحية ؛ وعملوا في الخندق خمسة عشر يوماً ، وكان لقريش ما بين راتج إلى مسجد الأحزاب ، والأَنْصار ما بين مسجد الأحزاب إلى بنى سلمة ، وللموالى ما بين راتج إلى بنى عبد الأشهل ، فلما وصل القوم عسكروا بالجرف ، وبعثوا رجالاً من رجالهم ، فأحدقوا بالمدينة من كل ناحية ، فما يجدون مدخلاً ، والناس متلبسون السلاح قد قاموا على أفواه الخنادق يرمون بالنبل والحجارة ، وجلس مسلم بناحية واقم ، فرأى أمراً هائلاً ، فاستعان بمروان وكان وعده بوجه في ذلك لما لقيه بوادي القرى ؛ فخرج مروان

(١) الغائلة : الداهية والفساد والشر . (٢) في المطبوعات كلها « وحمل ابن

القتيل » تطبيع ، وابن الغسيل : هو عبد الله بن حنظلة الذي ولاه الأنصار عليهم .

(٩ — وفاة ١)

حتى جاء بنى حارثة ، فكلّم رجلا منهم ورغبه في الصنيعة^(١) ، وقال : تفتح لنا طريقا فأكتب بذلك إلى يزيد فيصّل أرحامكم ، ففتح لهم طريقاً من قبلهم حتى أدخل له الرجال من بنى حارثة إلى بنى عبد الأشهل ، وجاء الخبرُ عبد الله بن حنظلة وكان بناحية الصورين في أصحابه ، وأقبل عبد الله بن مطيع وكان من ناحية ذباب ، وأقبل ابن هريرة في الموالى يطوف بهم على الخنادق ، وأقبل ابن ربيعة وكان من ناحية بطحان ، فاجتمعوا جميعاً من حيث يدخل أهل الشام ، قال محمود ابن لبيد : قد حضرت يومئذ ، فإنما أتينا من قومنا بنى حارثة ، وكان مروان حين أخرج عمل به عمل قبيح ، فكلّم رجلا فأدخله ومعه فارس ثم جعلت الخيل تتحدر على أثره ، وقد وقفنا ببني عبد الأشهل فقاتلنا ما وجدنا حتى عاينا الموت وكثرت القوم وتفرق الناس فقتلوا في كل وجه .

وروى الواقدي أيضاً أن قصر بنى حارثة كان أماناً لمن أراد أهل الشام أن يؤمنوه ، وكانت بنو حارثة آمنين ، وأول دار انتهيت والحرب بعد لم ينقطع دار بنى عبد الله الأشهل ، انتهى .

وأخرج ابن أبي خيثمة بسند صحيح إلى جارية بن أسماء : سمعت أسيان أهل المدينة يتحدثون أن معاوية رضى الله عنه لما احتضر دعا يزيد فقال له : إن لك من أهل المدينة يوما ، فإن فعلوا فأرهم بمسلم بن عقبة فإني عرفت نصيحته ، فلما ولي يزيد وفد عليه عبد الله بن حنظلة وجماعة ، فأكرمهم وأجازهم ، فرجع ففرض الناس على يزيد ، وعابه ، ودعاهم إلى خلع يزيد ، فأجابوه ، فبلغ ذلك يزيد ، فجهز إليهم مسلم بن عقبة ، فاستقبلهم أهل المدينة بمجموع كثيرة ، فهابهم أهل الشام وكرهوا قتالهم ، فلما نشب القتال سمعوا في جوف المدينة التكبير ؛ وذلك أن بنى حارثة أدخلوا قوماً من الشاميين من جانب المدينة ، فترك أهل المدينة القتال ، ودخلوا المدينة خوفاً على أهلهم ، فكانت الهزيمة ، وقتل من

(١) الصنيعة : أصلها الإحسان ، ويقال « فلان صنيعة فلان » أى أنه هو الذى

خرجه ورياه واختصه بالجميل .

قتل ، وباع مسلم الناس على أنهم خول^(١) ليزيد يحكم في دماءهم وأموالهم وأهلهم بما شاء ، انتهى .

وأخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند صحيح عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه الآية^(٢) على رأس ستين سنة « ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سُئِلُوا الفتنَةَ لآتَوْهَا » يعنى إدخال بنى حارثة أهل الشام على أهل المدينة في وقعة الحرّة ، قال يعقوب : وكانت وقعة الحرّة سنة ثلاث وستين ، اهـ .

قالوا : وكلت امرأة مسلم بن عقبة في ولدها ، وقالت : أنا مولاتك ، وابنى في الأسر ؛ فقال : عجلوه لها ؛ ف ضربت عنقه وقال : أعطوها رأسه ، أمارتُ ضيّن أن لا تقتلى حتى تسلمى في ابنك ؟ ! .

قلت : وسموه مُسْرِفًا لإسرافه في القتل .

ونقل الواقدي في كتاب الحرّة أن يزيد دخل على مُسْرِف وكان قد جعله في عِلِّيَّةٍ لمرضه ؛ فقال له : لولا مرضك لكنت أنت صاحب هذا الأمر ، لما أعرف نصيحتك ، قال مسرف : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا^(٣) تولى أمرهم غيرة ؛ فإني والله أنا صاحبهم ، رأيت في النوم شجرة غرقيد تصيح بأغصانها : يا ثارات عثمان ، فأقبلت وجعلت الشجرة تقول : على يدى مسلم بن عقبة ، حتى جثتها فأخذتها ، فعبّزت ذلك أنى أكون القائم بأمر عثمان ؛ فهم قتلته ، قال يزيد : فسر إليهم على بركة الله ، فأنت صاحبهم ، وانظر إذا قدمت المدينة ، فمن عاقلك عن دخولها أو نصّب لك حرًا بالسيف السيف ، لا تُتَبَقِ فيهم ، وأنهبها ثلاثا ، وأجهز على جريحهم ، واقتل مدبرهم ، وإياك أن تُتَبَقِ عليهم ، وإن لم يعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير . وروى ابن الجوزى من طريق المداينى عن جويرية أن مسلما نظر إلى قتلى الحرّة فقال : لئن دخلت النار بعدها إني لَشَقِيٌّ^(٤) ، وأسر أسرى فحبسهم ثلاثة

(١) الخول — بالتحريك — الخدم والعبيد .

(٢) من سورة الأحزاب من الآية ١٤ (٣) في المطبوعات « أن تولى أمرهم غيرة » تطبيع (٤) في المطبوعات « لأن دخلت النار بعدها ولا إني لَشَقِيٌّ » تطبيع وانظر ص ١٣٦ .

أيام لم يطعموا ، وجاءوا بسعيد بن المسيب^(١) فقالوا : بايع ، فقال : أباع على سيرة أبي بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهد رجل أنه مجنون ، فخلى عنه .
عدد القتلى
في وقعة الحرة كانت القتلى يوم الحرة ؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس قریش والأنصار والمهاجرين ، ومن وجوه الموالى ومن لا يعرف من عبيد وحر وامرأة عشرة آلاف ، وكانت الوقعة ثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

وفي كتاب الحرة للواقدي قال : حدثني عبد الله بن جعفر قال : سألت الزهري : كم قتل من الناس يومئذ ؟ قال : أما من وجوه الناس فأكثر من سبعمائة من قریش والأنصار ووجوه الموالى ، ثم عدّ عليّ من قتل حتى ما كنت أرى أنه بقي أحد إلا قتل يومئذ ، ثم قال الزهري : ولقد قتل ممن لا يعرف من الموالى والعبيد والصبيان والنساء أكثر من عشرة آلاف ، ودخلوها ثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

قلت : وقال القرطبي لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، وعن الأقطم عن أبي معشر والواقدي أنها يوم الأربع لليلتين خلتا من ذى الحجة ، قلت : ولم أره في كتاب الواقدي ، ولعله سبق قلم ، والله أعلم .

وذكر الجحد أنهم سبوا الذرية ، واستباحوا الفروج ، وأنه كان يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتي حملن : أولاد الحرة ، قال : ثم أخضر الأعيان لمبايعة يزيد ، فلم يرض إلا أن يبايعوه على أنهم عبيد يزيد ، فمن تلكا أمر بضرب عنقه ، وجاءوا بعلي بن عبد الله بن عباس ، فقال الحصين بن نمير : يا معشر اليمين عليكم ابن أختكم ، فقام معه أربعة آلاف رجل ، فقال لهم مسلم : أخلعتم أيديكم من الطاعة ؟ فقالوا : أما فيه فنعم ، فبايعه على أنه ابن عم يزيد ، انتهى .

وعن المدايني أيضاً عن محمد بن عمر قال : قال ذكوان مولى مروان : شرب

(١) سعيد بن المسيب : رأس علماء التابعين وفردهم وقيهم ، مات في سنة ٩٣ ، وقال الواقدي : في سنة ٩٤ من الهجرة .

مسلم بن عقبة دواء بعد ما أنهب المدينة ، ودعا بالغداء ، فقال له الطيب : لا تَعَجَلْ
فإني أخاف عليك إن أكلت قبل أن تكمل الدواء ، قال : ويحك ! إنما كنت
أحبُّ البقاء حتى أشفى نفسي من قَتْلَةِ عثمان ، فقد أدركت ما أردت ، فليس شيء
أحب إلي من الموت على طهارتي ؛ فإني لا أشك أن الله قد طَهَّرَنِي من ذنوبي
بقتل هؤلاء الأرجاس .

قلت : هذا من عظيم حُقه ، قاتله الله وأشقاه ! فإن هذا مما يزيد في عظيم جرمه .
ومن قتل صبرا يومئذ من الصحابة : عبدُ الله بن حنظلة الغسيل - قال ابن
حزم : قتل مع ثمانية من بنيهِ - وعبد الله بن زيد حاركي وضوء النبي صلى الله
عليه وسلم ، ومقل بن سنان الأشجعي - وكان شهد فتح مكة ، وكان معه راية
قومه يومئذ - وفيه يقول الشاعر :

ألا تلكمُ الأنصارُ تبكي سَرَاتِهَا وَأَشْجَعُ تبكي مَقِيلَ بنِ سِنَانِ
ومحمد بن عمرو بن حَزْمِ الأنصاري ، وقد ذكر ابن جرير الطبري الإمام أن
عبد الله بن الغسيل كان يقول :

بعداً لمن رام الفسادَ وطَفَى وجانبَ القصدِ وأسبابَ الهدى
لا يبعدِ الرحمنُ إلا مَنْ عَصَى

ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن
شماس الأنصاري ، وأبوه كان خطيبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وَرَدَ
وَفُدُّ تميم ، وجعل مسلم بن عقبة يطوف على القتلى ومعه مروان بن الحكم ، حتى
مر على عبد الله بن الغسيل وهو ماذُ أَصْبَمَهُ السَّبَابَةُ ، فقال مروان : أما والله
لئن نَصَبْتَهَا ميتاً لاطلما نَصَبْتَهَا حياً .

وروى عن محمد بن كعب القرظي^(١) قال : قال مروان لعبد الله بن حنظلة

(١) في المطبوعات «محمد بن كعب القرظي» تطبيع ، ومحمد بن كعب القرظي ،
أحد العلماء الأكابر ، مدني ، كوفي ، قال ابن سعد : كان ثقة ورعا كثير الحديث ،
مات في سنة ١١٩ ، وقيل : في سنة ١٣٠ من الهجرة .

الغسيل وقد رآه مشيراً بأصبعه وقد يبست : لئن أشرتَ بها ميتاً لاطلما دَعَوْتَ وتضرعتَ بها إلى الله تعالى ، فقال رجل من أهل الشام : إن كان هو^(١) كما تقول فما دعوتنا إلا لقتل أهل الجنة ، فقال مروان : خالفوا ونكثوا .

وفي الذيل على ابن النجار للعراقى : ذكر محمد بن سعد فى الطبقات أن مروان ابن الحكم كان يُحرِّضُ مسلم بن عقبة على أهل المدينة ، وجاء معه معيناً له حتى ظفر بهم ، وانتهبت المدينة ، فلما قدم مروان على يزيد شكر له ذلك وأدناه .

وروى ابن الجوزى بسنده إلى سعيد بن المسيب قال : ما أصلى لله تعالى صلاة إلا دعوت على بنى مروان

وبسنده أيضاً إليه قال : لقد رَأَيْتُ لِيَالِي الحرة ما فى المسجد أحدٌ من خَلْقِ الله غيرى ، وإن أهل الشام لَيَدْخُلُونَ زُمرًا يقولون : انظروا إلى هذا الشيخ المجنون ، ولا يأتى وقت صلاة إلا سمعتُ أذاناً من القبر ، ثم أقيمت الصلاة فتقدمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى .

وبسنده أيضاً إلى المداينى عن أبى قرّة قال : قال هشام بن حسان : وَلَدَتْ بعد الحرة ألف امرأةٍ من غير زوج .

وعن المداينى أيضاً عن أبى عبد الرحمن القرشى عن خالد السكندى عن عمته أم الهيثم بنته يزيد قالت : رأيت امرأة من قریش تطوف ، فعَرَضَ لها أسودُ فعانقته وقبلته ، فقلت : يا أمة الله ، أتفعلين هذا بهذا الأسود ؟ فقالت : هو ابنى ، وَقَعَ على أبوه يوم الحرة .

ونقل العراقى فى ذيله عن شيخه أبى المظفر السمعانى أنه روى بسنده إلى أبى غزيرة الأنصارى قال : كان قوم من أهل المدينة يجتمعون فى مجلس لهم بالليل يسهرُونَ فيه ، فلما قتل الناس قتلوا ونجا منهم رجل فجاء إلى مجلسه فلم يحسَّ منهم أحداً ، ثم جاء الليلة الثانية فكذلك ، ثم جاء الثالثة فكذلك ، فتمثل بهذا البيت :

(١) فى المطبوعات « إن كان مولا كما تقول » تطبيع لا معنى له .

أَلَا ذَهَبَ الْكُمَاةُ وَخَلَفُونِي كَفَى حَزَنًا بِذِكْرِي لِلْكَمَاةِ

قال : فنودي من المجلس :

فَدَعُ عَنْكَ الْكُمَاةَ فَقَدْ تَوَلَّاتُ وَنَفْسَكَ فَأَبِكِمَا قَبْلَ الْمَاتِ

فَكُلُّ جَمَاعَةٍ لَا بَدَّ يَوْمًا يُفَرِّقُ بَيْنَهَا شَعْبُ الشَّتَاتِ

وروى الطبراني عن أبي هارون العبدى قال : رأيت أبا سعيد أخذرى رضى الله عنه مُمَعِّطَ اللحية ^(١) ، فقلت : تعبت بلحيتك ؟ قال : لا ، هذا ما لقيتُ من ظِلْمَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، دَخَلُوا مِنْ الْحَرَّةِ ، فَأَخَذُوا مَا كَانَ فِي الْبَيْتِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ خُرْقَةٍ ^(٢) ، ثُمَّ دَخَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى فَلَمْ يَجِدُوا فِي الْبَيْتِ شَيْئًا فَاسْفُؤُوا أَنْ يَخْرُجُوا بِغَيْرِ شَيْءٍ ، فَقَالُوا : اضْجَعُوا الشَّيْخَ ، فَجَعَلَ كُلُّ يَأْخُذُ مِنْ لِحْيَتِي خَصْلَةً .

وروى أيضا عن محمد بن سعيد خبرا قال فيه : فلما جاء يزيد خلافاً ابن الزبير ودعاؤه ^(٣) إلى نفسه دعا مسلم بن عقبة المري وقد أصابه الفالج وقال : إن أمير المؤمنين — يعنى أباه — عهد إلىّ في مرضه إن رآبني من أهل الحجاز ريبٌ أن أوجهك إليهم ، وقد رابني ، فقال : إني كما ظنّ أمير المؤمنين ، أعقذ لي وعَبَّ الجيوش ، قال : فورد المدينة فأباحها ثلاثاً ، ثم دعا إلى بيعة يزيد على أنهم أعبد له قن في طاعة الله ومعصيته ، فأجابوه إلى ذلك ، إلا رجلاً واحداً من قریش أمه أم ولد ، فقال له : بايع ليزيد على أنك عبد في طاعة الله ومعصيته ، قال : بل في طاعة الله ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، فقتله ، فأقسمت أمه قسمًا لأن أمكنها من مسلم حياً أو ميتاً أن تحرقه بالنار ، فلما خرج مسلم بن عقبة من المدينة اشتدّت علته فمات ، فخرجت أم القرشى بأعبد لها إلى قبر مسلم ، فأمرت به أن يُنْبَشَ من عند رأسه فلما وصلوا إليه إذا بشعبان قد التوى على عنقه قابضاً بأرنبته أنفه يمضها ، قال : فَسَكَعَ ^(٤) القوم عنه ، وقالوا : يا مولانا انصرفي فقد كفأك الله شره ، وأخبروها ، فقالت : لأوفين الله بما وعدته ، ثم قالت : أنبشوه من عند الرجلين ، فنبشوا ، فإذا

(١) ممعط اللحية : ساقط شعرها (٢) الخُرْقَى : أردأ المتاع .

(٣) في المطبوعات « ودعاه إلى نفسه » تطبيع (٤) كاعوا : نكصوا وتأخروا

حرق
مسلم بن عقبة
والخلاف فيه

بالثعبان لاو ذنبه برجليه ، قال : فتذججت وصليت ركعتين ، ثم قالت : اللهم إنك تعلم [أنى] إنما غضبت على مسلم بن عقبة اليوم لك فخل بيني وبينه ، ثم تناولت عوداً فمضت إلى ذنب الثعبان فأنسل من مؤخر رأسه فخرج من القبر ، ثم أمرت به ؛ فأخرج من القبر ثم أحرق بالنار .

قلت : وفي كتاب الحرة للواقدي أن الثابت بالبلد عندنا أن مُسْرِفاً لما دفن بثنية المشلل^(٢) وكانت أم ولد ليزيد بن عبدالله بن ربيعة تسير وراء العسكر بيومين أو ثلاثة حتى جاءها الخبر بذلك ، فاتته إليه ، فنبشته ثم صلبته على المشلل^(١) ، قال الضحاك : لحدثني من رآه مصلوباً يُرمى كما يرمى قبر أبي رغال^(٣) .

وحدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث قال : والله ما خلصت إليه ، ولقد نبشت عنه ولكنها لما انتهت إلى لحده وجدت أسوداً من الأسود منطوياً على رقبته فأتحافاه ، فانصرفت عنه .

وقال ابن الجوزي : لما دخلت سنة أربع وستين - وقد فرغ مسلم من قتال أهل المدينة - سار متوجهاً إلى مكة ، واستخلف على المدينة روح بن زنباع ، وسار إلى ابن الزبير ؛ فمات في الطريق .

قلت : وذلك مصداق ما جاء في من يقصد أهل المدينة بسوء ؛ فأهلكه الله سريعاً . قال القرطبي : أهلكه الله مُنْصَرَفَهُ عن المدينة ، ابتلاه الله بالماء الأصفر في بطنه ؛ فمات بقديد بعد الوقعة بثلاث ليال .

وقال الطبري : مات بهرشي بعد الوقعة بثلاث ليال ، وكان لحاقته الموفرة يقول عند موته : اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله أحب إلي من قتال أهل المدينة ، ولئن دخلت النار بعدها إني لشقي ، ثم دعا حصين ابن نخير السكوني وقال له : أمير المؤمنين ولأك بعدى ، فأسرِع السير ، ولا تؤخر

(١) المشلل : جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر .

(٢) في المطبوعات «أبي دغال» تطبيع ، وقبر أبي رغال في طريق الطائف ، وانظر القاموس (رغل - غمس) وفي شعر جرير يهجو الفرزدق :
إذا مات الفرزدق فارجوه كما يرمون قبر أبي رغال

ابن الزبير ، وأمره أن يَنْصِبَ الجانيق على مكة ، وقال : إن تَعَوَّذُوا بالبيت
فَأَرْمِهِ ، وحاصر مكة أربعة وستين يوماً جرى فيها قتال شديد ، وقذفت الكعبة
بالجانيق يوم السبت ثالث ربيع الأول ، وأخذ رجل قَبَسًا في رأس رُمح فطارت
به الريح فاحترق البيت ، فجاءهم نعي يزيد بن معاوية إهلالاً ربيع الآخر ،
وكان بين الحرّة وبين موته ثلاثة أشهر ، وقال القرطبي : دون ثلاثة أشهر ؛ لأنه
توفى بالدبحه وذات الجنب في نصف ربيع الأول ، فلقد ذاب ذَوْبُ الرصاص ،
واجترأ أهلُ المدينة وأهلُ الحجاز على أهل الشام ، فذلوا حتى كان لا ينفرد منهم
رجل إلا أخذ بلجام دابته فنكس عنها ، فقال لهم بنو أمية : لا تبرحوا حتى
تحمّلونا معكم إلى الشام ، ففعلوا ، ومضى ذلك الجيش حتى دخلوا الشام
وكانت وقعة الحرّة ، وقتل الحسين ، ورمى الكعبة بالمنجنيق من أشنع شيء جرى
في أيام يزيد .

وقال عبد الرحمن بن سعيد بن زيد أحد العشرة رضى الله عنهم :
فإن تَقْتُلُونَا يوم حَرَّةٍ وَأَقِمِ
ونحن قَتَلْنَاكُمْ بِيَدِ أَذَلَّةٍ وَأُبْنًا بِأَسْلَابٍ لَنَا مِنْكُمْ نَفَلٌ
فإن يَنْجُ مِنْهَا عَائِدُ الْبَيْتِ سَالِمًا فَكُلُّ الَّذِي قَدْ نَابَنَا مِنْكُمْ جَلَلٌ^(١)
يعنى بعائذ البيت عبد الله بن الزبير .

وهذه الكائنة غير الإغزاء المذكور في حديث البيداء ؛ ولهذا روى ابن شبة
عن أبي المهزم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : يحىء جيش من قِبَلِ الشام حتى
يدخل المدينة ، فيقتلون المقاتلة ، وَيَقْرُونَ بطون النساء ، ويقولون : الحبلى في
البطن : اقتلوا صُبَابَةَ الشر ، فإذا عَلَوْا البيداء من ذى الحُلَيْفَةِ خسف بهم فلا يدرك
أسفلهم أعلام ولا أعلام أسفلهم ، قال أبو المهزم : فلما جاء جيشُ ابن ذُبْحَةَ
قلنا : هم ، فلم يكونوا هم^(٢) .

(١) جلال ، هنا : بمعنى يسير سهل ، وهو من الأضداد .

(٢) في هذا الخبر ألفاظ لم يستقم لى أمرها .

قلت : وقد جاء في بعض الأخبار ببيان أن ذلك الجيش جيش السفيناني ،
يبعثه لقتال المهدي .

وقال يحيى بن سعيد : لم تترك الصلاة في هذا المسجد منذ كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة أيام : يوم قتل عثمان ، ويوم الحرة ، قال مالك : ونسيت
الثالث ، وفي العتبية عن مالك أنه بلغه ذلك عن سعيد بن المسيب بمعناه ، قال
ابن رشد : واليوم الثالث الذي ذكر مالك أنه نسيه ، قال محمد بن عبد الحكم :
هو يوم خرج به أبو حمزة الخارجي ، وكان خروجه - فيما ذكروا - في دولة مروان بن
محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية .

قال خليفة بن خياط^(١) : سار أبو حمزة في أول سنة ثلاثين ومائة ، يُريدُ
المدينةَ ، واستخلف على مكة إبراهيم بن الصباح الحنظلي ، وجعل على مُقَدَّمته
فلح بن عقبة السعدي ، وخرج أهل المدينة والتقوا بقُدَيْد يوم الخميس لتسع خلون
من صفر سنة ثلاثين ومائة ، وفلح في ثلاثين ألف فارس ، فقال لهم : خَلُّوا طَرِيقَنَا
فَنَأْتِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيْنَا وَجَارُوا فِي الْحُكْمِ فَإِنَّا لَا نُرِيدُ قِتَالَكُمْ ، فَأَبَوْا ؛ فَقَاتَلُوهُمْ
فَانْهَزَمَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ، وَجَاءَهُمْ أَبُو حَمْزَةَ فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحَصِينِ : اتَّبِعْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ،
وَأُنْخِزْ عَلَى جَرِيحِهِمْ ، فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ حَكْمًا ، وَالْإِخْتَانُ فِي مِثْلِ هَؤُلَاءِ أُمَثَلُ ،
قال : مَا أَرَى ذَلِكَ ، وَمَضَى أَبُو حَمْزَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَدَخَلَهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ثَلَاثَ عَشَرَ
خَلَّتْ مِنْ صَفَرٍ ، فِي يَوْمٍ دَخُولِهِ إِيَّاهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - خَلَّى مَسْجِدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ يَجْمَعَ فِيهِ ، وَأَصِيبَ مِنْ قَرِيشٍ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثُمِائَةَ رَجُلٍ ، وَمِنْ آلِ الزُّبَيْرِ
اِثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَمَا سَمِعَ النَّاسَ بَوَازِكِيٍّ أَوْ جَعَ لِلْقُلُوبِ مِنْ بَوَاكِئٍ قُدَيْدٍ ، مَا بَقِيَ
بِالْمَدِينَةِ أَهْلُ بَيْتٍ إِلَّا فِيهِمْ بَكَاءٌ ، وَقَالَتْ نَائِمَةٌ تَبْكِيهِمْ :

مَا لِلزَّمَانِ وَمَا لِيَّهِ أَفْنَى قَدِيدِ رِجَالِيهِ
فَلَا بَكِينَ سَرِيرَةً وَلَا بَكِينَ عَلَانِيَةً

(١) انظر خبر هذه الواقعة في تاريخ الطبري (١٠٦/٩ ط الحسينية) وتاريخ
ابن الأثير (١٥٧/٥) والبداية لابن كثير (٣٥/١٠) والنجوم الزاهرة (٣١١/١) .

مسير
أبي حمزة
إلى المدينة

قلت : وذكر الذهبي عن خليفة بن خياط في خبر أبي حمزة هذا ما ملخصه :
أن عبد الله بن يحيى الأعور الكندي المسمى طالب الحق - بعد أن ملك حضرموت
وصنعاء - بعث إلى مكة أبا حمزة الخارجي الأباضي المذكور ، فخاف عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك - وكان والياً على مكة والمدينة - وخذله أهل مكة ،
ففارقها في النفر الأول ، وقصد المدينة ، فغلب أبو حمزة على مكة ، ثم سار منها
بعد أن استخلف عليها ، فلقى بقديد الجيش الذي أرسله عبد الواحد بن سليمان
لقتاله ، فظفر أبو حمزة ، وسار إلى المدينة فدخلها ، وقتل فيها جماعة منهم أربعون
رجلاً من بني عبد العزى ، وجهز إليه مروان عسكراً ، فلقى بوادي القرى فاجأ ،
وهو على مقدمة أبي حمزة ، فاقتلوا ، فقتل فلح وعامة أصحابه ، ثم أدركوا
أبا حمزة بمكة ، فقتلوه في خلق من أصحابه ، ثم ساروا لطالب الحق فقتلوه ،
انتهى ملخصاً .

قلت : ويحتمل أن ما نقل عن الأخباريين في الخروج من المدينة إنما كان
في هذه الكائنة أو قبل ذلك كله في كائنة بُسر^(١) بن أرطاة ، فإن القرطبي قال :
وذكر أبو عمرو الشيباني قال : لما وجه معاوية رضي الله عنه بسر بن أرطاة لقتل
شيعة على رضي الله عنه سار إلى أن أتى المدينة ، فقتل ابني عبيد الله بن العباس
رضي الله عنهما ، وفر أهل المدينة حتى دخلوا الحرة حرة بني سليم ، ولسكنه بعيد ،
والأقرب ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل السادس عشر

في ظهور نار الحجاز التي أنذر بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فظهرت بأرض
المدينة وأطفأها الله تعالى عند وصولها إلى حرمة ، كما سنوضحه .

الأحاديث
الواردة في
هذه النار

روينا في مسند أحمد برجال ثقات عن أبي ذر قال : أقبلنا مع رسول الله صلى

(١) في المطبوعات كلها «بسر بن أرطاة» بالشين المعجمة - تطبيع .

الله عليه وسلم ، فرأينا ذا الحليفة ، فتعجل رجالٌ إلى المدينة ، وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبتنا معه ، فلما أصبح سأل عنهم ، فقيل : تعجلوا إلى المدينة ، فقال : « تعجلوا إلى المدينة والنساء ، أما إنهم سيدعونها أحسن ما كانت » ثم قال : « ليت شعري متى تخرج نار بأرض اليمن من جبل الوراق تضئ منها أعناق الإبل ببُصرى بروكا كضوء النهار » ورواه ابن شبة من غير ذكر « بأرض اليمن » ولفظه « ليركُنْها أحسن ما كانت ، ليت شعري متى تخرج نار من جبل الوراق تضئ لها أعناق الإبل ببُصرى بروكا كضوء النهار » .

وأخرج الطبراني في آخر حديث لحذيفة بن أسد : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان - أو ركوبة - تضئ منها أعناق الإبل ببُصرى » .

قلت : وركوبة كما سيأتى: ثنية قريبة من ورقان ، ولعل المراد بجبل الوراق ، قال الحافظ ابن حجر : ورومان لم يذكره البكري ، ولعل المراد رومة البئر المعروفة بالمدينة ، ثم نقل عن البكري أن ركوبة بين المدينة والشام ، وسيأتى رده .

وهذه النار المذكورة في الصحيحين في حديث « لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز » ، ولفظ البخاري : « تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الإبل ببصرى » .

وروى الطبراني بسند فيه ضعف عن عاصم بن عدي الأنصاري قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حَدَّثَنَا مَا قَدِمَ ، فقال : « أين حُبْسُ سَيْل^(١) ؟ » قلنا : لا ندري ، فمر بي رجل من بني سليم ، فقلت : من أين جئت ؟ فقال : من حُبْسِ سَيْل^(١) ، فدعوت بنعلي ، فالتحدرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، سألتنا عن حبس سَيْل^(١) ، فقلنا : لا علم لنا به ، وإنه

(١) في المطبوعات كلها كما في خلاصة الوفا « حبس وسيل » تطبيع ، والصواب بغير واو كما في مجمع البحار ، ومعجم البلدان ، ونهاية ابن الأثير ، وقع فيما سيأتى (في ص ١٤٢) على الصواب ، وقرأ الهامشة الآتية في ص ١٤١ .

مرَّ بي هذا الرجل فسألته فزعم أن به أهله ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أين أهلك » ؟ فقال : بحبس سيل^(١) ، فقال : « أخرجْ أهلكَ منها ؛ فإنه يُوشِكُ أن تخرج منه نار تضيء أعناق الإبل ببصرى » .

وحديث « يوشكُ نار تخرج من حبس سيل^(١) تسير سَيْرَ بطيئةِ الإبل ، تسير النهار وتقيم الليل » الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية رافع بن بشير السلمي عن أبيه . قال الحافظ الميثمي : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير رافع ، وهو ثقة ، انتهى .

وفي مسند الفردوس عن عمر حديث « لا تقوم الساعة حتى يسيل وادٍ من أودية الحجاز بالنار يضيء له أعناق الإبل ببصرى » وأخرجه ابن عدي في كامله من طريق عمر بن سعيد التنوخي عن ابن شهاب عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رفعه ، وعمر بن سعيد ذكره ابن حبان في الثقات ، وكتبه ابن عدي والدارقطني . وقد ظهرت هذه النار بالمدينة الشريفة كما سنبينه ، ولا إشكال في كون المدينة

بيان أن المدينة
يمانية كما أنها
حجازية

حجازية ، وأما كونها يمانية فقد نص عليه الشافعي . قال البيهقي في المعرفة : قال الشافعي : ومكة والمدينة يمانيتان . قلت : وقد ذكر الشافعي في الأم حديث « أتاكم أهلُ اليمن هم أَلْبَنُ قلوبا » الحديث ، ثم روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على ثنية تبوك فقال : ما ههنا شام ، وأشار بيده إلى جهة الشام ، وما ههنا يَمَنٌ ، وأشار بيده إلى جهة المدينة » هكذا نقلته من الأم بهذا اللفظ ، وهو في مسند الشافعي بلفظ « ما ههنا شام ، وأشار بيده إلى الشام ، ومن ههنا يَمَنٌ ، وأشار بيده إلى جهة المدينة » قال ابن الأثير في شرحه : الغرض منه بيانُ حد الشام واليمن ، وقد جعل المدينة من اليمن ، اهـ . والعجب أن النووي قال في فتاويه :

(١) في المطبوعات « حبس وسيل » والصواب « حبس سيل » بغير واو ، قال ياقوت : قال الزمخشري : الحبس - بالضم - جبل لبني قرة ، وقال غيره : الحبس بين حرة بن سليم والسوارقية ، وفي حديث عبدالله بن حبشي : تخرج نار من حبس سيل ، قال أبو الفتح نصر : حبس سيل - ورواه بالفتح - إحدى حربي بن سليم ، وهما حرتان بينهما فضاء كلتاهما أقل من ميلين ، اهـ . وانظر أيضا النهاية لابن الأثير (١/١٩٦) .

مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست يمانية ولاشامية ، بل هي حجازية ، قال : وهذا لا خلاف فيه بين العلماء ، وكأنه لم يقف على هذا

وأما حبس سيل فقد قيل : إن حبس - بالضم ثم السكون - بين حرة بنى سليم والسوارقية ، وقد كان إقبال هذه النار من المشرق في جهة طريق السوارقية كما سيأتي ، وقال نصر : حبس سيل - بالفتح - إحدى حرتي بنى سليم . قلت : وأهل المدينة اليوم يسمون السد الآتي وصفه فيما أحدثته هذه النار بالحبس . وفي كلام ياقوت ما يقتضى أنه كان يسمى بالسد قبل هذه النار ؛ فإنه لم يذكرها ، ومع ذلك قال : إن أعلى وادى قناة عند السد يسمى بالشظاة ، اهـ .

وظهور النار المذكورة بالمدينة الشريفة قد اشتهر اشتهاراً بلغ حد التواتر عند أهل الأخبار ، وكان ظهورها لإندار العباد بما حدث بعدها ؛ فلهاذا ظهرت على قرب مرحلة من بلد النذير صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدمها زلازل مهولة ، وقد قال تعالى : « وما نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ الْإِتْخَويفاً ^(١) » وقال تعالى : « ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ^(٢) » ولما ظهرت النار العظيمة الآتية وصفها ، وأشفق منها أهل المدينة غاية الإشفاق ، والتجؤوا إلى نبيهم المبعوث بالرحمة ، صُرِفَتْ عنهم ذات الشمال ، وزاحت عنهم الأوجال ، وظهرت بركة تربته صلى الله عليه وسلم في أمته ، ولعل الحكمة في تخصيصها بهذا الحل - مع ما قدمناه من كونه حضرة النذير - الرحمة لهذه الأمة فإنها لو ظهرت بغيره وسلطان القهر والعظمة التي هي من آثاره قائم لربما استولت على ذلك القطر ولم تجد صارفاً ؛ فيعظم ضررها على الأمة ، فظهرت بهذا الحل الشريف لحكمة الإنذار ، فإذا تمت قابلتها الرحمة فجعلتها برءاً وسلاماً ، إلى غير ذلك من الأسرار

وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة الشريفة مُسْتَهْلَ جُمَادَى الآخرة أو آخر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وستائة ، لكنها كانت خفيفة لم يذكرها بعضهم مع تكررها بعد ذلك ، واشتدت في يوم الثلاثاء على ما حكاها القطب القسطلاني ،

ابتداء الزلزلة
التي حدثت
بالمدينة

(١) من سورة الإسراء من الآية ٥٩ (٢) من سورة الزمر من الآية ١٦ .

وظهرت ظهوراً عظيماً اشتراك في إدراكه العام والخاص ، ثم لما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر أو رابعه في الثالث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشفق الناس منها ، وانزعجت القلوب لهيبتها ، واستمرت تزلزل بقية الليل ، واستمرت إلى يوم الجمعة ولها دوى أعظم من الرعد ، فتموج الأرض ، وتحرك الجدران ، حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثمانية عشر حركة على ما حكاه القسطلاني

وقال القرطبي : قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة ، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد القعدة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستائة ، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت ، وظهرت بقريظه بطرف الحوة ، ترى في صفة البلد العظيم ، عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج وموان ، وترى رجال يقودونها ، لا تمر على جبل إلا دكته وأذاخته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوى كدوى الرعد ، يأخذ الصخور بين يديه ، وينتهي إلى محط الركب العراقي ، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم ، فأنهت النار إلى قرب المدينة ، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد ، وشوهد لهذه النار غلمان كغليان البحر ، وقال لى بعض أصحابنا : رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى ، اه .

وقال النووي : تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة الشريفة وغيره أن في ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة في الثالث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت في تلك الليلة تزلزل ، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشر مرات - وفي كتاب بعضهم أربع عشرة^(١) مرة - قال : والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلى أن سمعنا منه صوتاً للحديد الذى فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، زاد القاشانى : ثم في اليوم الثالث - وهو يوم الجمعة - زلزلت الأرض زلزلة عظيمة ، إلى أن اضطربت منام

(١) في الأصل «أربعة عشر مرة» والعريية تقتضى ما أثبتناه .

المسجد، وسمع اسقف المسجد صرير^(١) عظيم، قال القطب : فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار ، فثار من محل ظهورها في الجودُ خان متراكم غشى الأفق سواده ، فلما تراكت الظلمات وأقبل الليل سَطَعَ شعاعُ النار، فظهرت مثل المدينة العظيمة في جهة المشرق ، والجسكة في ظهورها في يوم الجمعة غير خافية ، ففي الحديث « من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على » الحديث ، وفي الحديث أيضاً « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه تيبَ عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مُصِيخة^(٢) حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة ، إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » رواه أبو داود ، وهو اليوم الذي أدخره الله لهذه الأمة ، وأكمل فيه دينهم ؛ فأراد الله أن يخوف عباده فيه بذلك ليردهم إليه ، فتلك النار نعمة في صورة نقمة ، ولهذا وجِلَّت^(٣) منها القلوب وأشفتت ، وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم . قال القاضي سنان : وطلعت إلى الأمير - وكان عز الدين منيف بن شيحة - وقلت له : قد أحاط بنا العذاب ، أرجع إلى الله ، فأعْتَقَ كلَّ مَماليك ، وردَّ على الناس مظالمهم - زاد القاشاني : وأبطل المكس - ثم هبط الأمير للنبي صلى الله عليه وسلم ، وبات في المسجد ليلة الجمعة وليلة السبت ، ومعه جميعُ أهل المدينة حتى النساء والصغار ، ولم يبق أحد في النخل إلا جاء إلى الحرم الشريف ، وبات الناس يتضرعون ويبكون ، وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤوسهم مُقرِّين بذنوبهم مبتهلين مستنجرين بنبيهم صلى الله عليه وسلم . قال القطب : ولما عين أميرُ المدينة ذلك أُلْقِعَ عن الخالفة ، واعتبر ، ورجع عما كان عليه من المظالم وانزجر ، وأظهر التوبة والإنابة ، وأعتق جميع مَماليك ، وشرع في رد المظالم ، وعزم أهلُ المدينة

(١) الصرير : الصوت (٢) مصيخة : منصتة .

(٣) وجِلَّت القلوب توجل : خافت أشد الخوف .

على الإقلاع عن الإصرار وارتكاب الأوزار ، وفَرَعُوا إلى التضرع والاستغفار ، وهبط أميرهم من القلعة مع قاضيه الشريف سنان وأعيان البلد ، والتجؤوا إلى الحجرة الشريفة ، وباتوا بالمسجد الشريف بأجمعهم حتى النساء والأطفال ؛ فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال ، ونجوا من الأوجال ، فسارت تلك النار من مخرجها وسالت ببحر عظيم من النار ، وأخذت في وادى أخيليين وأهل المدينة يشاهدونها من دورهم كأنها عندهم ، ومالت من مخرجها إلى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكره المؤرخون .

وذكر القطب القسطلاني^(١) في كتابه أفرده لهذه النار ، وهو من أدركها ، مدة النار لكنه كان بمكة فلم يشاهدها : أن ابتداءها يوم الجمعة السادس من شهر جمادى الآخرة ، وأنها دامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب ، ثم خمدت ، فجعل ما أقامت اثنان وخمسون يوماً ، لكنه ذكر بعد ذلك أنها أقامت منطفية أياماً ، ثم ظهرت ، قال : وهي كذلك تسكن مرة وتظهر أخرى ؛ فهي لا يؤمن عودُها ، وإن طفيء وقودها ، انتهى ؛ فكان ما ذكره المؤرخون من المدة باعتبار انقطاعها بالكلية ، وطالت مدتها ليشتهر أمرها فينجزر بها عامة الخلق ويشهدوا من عظمها عنوان النار التي أنذرهم بها حبيب الحق .

وذكر القسطلاني^(٢) عن يثيق به أن أمير المدينة أرسل عدة من الفرسان إلى هذه النار للاتيان بخبرها ، فلم تجسر الخيل على القرب منها ، فترجّل أصحابها وقربوا منها ، فذكروا أنها ترمى بشرّ كالقصر ، ولم يظفروا بجلية أمرها ، فجرد عزمه للاحاطة بخبرها ، فذكر أنه وصل منها إلى قدر غلوتين بالحجر ولم يستطع

(١) من نافلة القول أن ننبه هنا إلى أن قطب الدين القسطلاني الذي ينقل عنه المؤلف غير شهاب الدين القسطلاني شارح البخاري ؛ فإن شارح البخاري متأخر عن المؤلف ؛ إذ وفاة شارح البخاري في سنة ٩٢٣ - ويقال : ٩٢٢ من الهجرة - وذلك بعد وفاة السهمودي بأحد عشر ، أو - اثني عشر - عاماً ، ثم إن النار كانت في سنة ٦٥٤ ، والقسطلاني المنقول عنه قد أدركها ، والمؤلف يصرح في غير موضع بذلك .

أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله ما يتصاعد من اللهب ، فعين ناراً كالجبال الراسيات ، والتلال المجتمعة السائرات ، تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج ، وعقد لهيبها في الأفق قتاما حتى ظن الظان أن الشمس والقمر كسفا إذ سلبا بهجة الإشراف في الآفاق ، ولولا كفاية الله كفتها لأكلت ما تقدم عليه من الحيوان والنبات والحجر ، انتهى .

وذكر الجمال المطرى ما يخالف بعض هذا ؛ فإنه قال : أخبرني علم الدين سنجر العزثي من عتقاء الأمير عز الدين منيف بن شيعة صاحب المدينة قال : أرسلني مولاي الأمير عز الدين بعد ظهور النار بأيام ، ومعى شخص من العرب ، وقال لنا ونحن فارسان : أقربا من هذه النار ، وانظرا هل يقدر أحد على القرب منها ، فإن الناس يهابونها لعظمها ، فخرجت أنا وصاحبي إلى أن قربنا منها ؛ فلم نجد لها حراً ، فنزلت عن فرسي ، وسرت إلى أن وصلت إليها ، وهى تأكل الصخر والحجر ، فأخذت سهماً من كنانتي ، ومددت به يدي إلى أن وصل النصل إليها فلم أجد لذلك ألماً ولا حراً ، فعرق النصل ولم يحترق العود ، فأدّرت السهم وأدخلت فيها الريش فاحترق الريش ولم يؤثر في العود .

وذكر المطرى قبل ذلك أنها كانت تأكل كل ما مرت عليه من جبل وحجر ، ولا تأكل الشجر ، قال : وظهر لي في معنى ذلك أنه لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم شجر المدينة ؛ فمنعت من أكل شجرها لوجوب طاعته صلى الله عليه وسلم على كل مخلوق .

قلت : وذكر القسطلاني أن هذه النار لم تزل مارة على سبيلها حتى اتصلت بالحرة ووادي الشطاة ، وهى تسحق ما والاها^(١) ، وتذيب ما لا فاه من الشجر الأخضر والحصى من قوة اللظى ، وأن طرفها الشرقى أخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت ، وأن طرفها الشامى — وهو الذى يلي الحرم — اتصل بجبل يقال له وعيرة

(١) والاها : دنا منها ، وفي المطبوعات « ماوالها » تطبيع .

على قرب من شرق جبل أحد ، ومَضَتْ في الشَّطَاةَ الذي في طرفه وادى حمزة رضى الله عنه ، ثم استمرت حتى استقرت نُجْمَاهُ حرم النبي صلى الله عليه وسلم فطفئت ، قال : وأخبرني شخص أعتمد عليه أنه عاين حجراً ضخماً من حجارة الحرة كان بعضه خارجاً عن حد الحرم ، فعلمت بما خرج منه ، فلما وصلت إلى ما دخل منه في الحرم طفئت وخذت ، انتهى .

وهذا أولى بالاعتماد من كلام المطرى ؛ لأن المطرى لم يدرك هذه النار وإن أدرك مَنْ أدركها ، بخلاف القطب فإنه أدركها ، واعتنى بجمع أخبارها ، وأفردها بالتصنيف ، ولم يقف عليه المطرى ، وهذا أبلغ في الإعجاز ، حيث لم تدخل هذه النار حرمه الشريف ؛ إذ هي للأنذار والتخويف وهو نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم .

وقد نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب القاضي سنان الحسيني أن سبيل النار ضوء النار انحدر مع وادى الشَّطَاةَ حتى حاذى جبل أحد ، وكادت النار تقارب حرة العريض وخاف الناس منها خوفاً عظيماً ، ثم سكن قَئِيرُهَا الذي يلي المدينة ، وطفئت مما يلي العريض بقدرة الله تعالى ، فرجعت تسير في الشرق ، وهو مؤيد لما ذكره القطب ، ومشاهدة آثارها اليوم تقضى بذلك .

قال المطرى : وأخبرني بعض من أدركها من النساء أنهم كن يغزلن على ضوئها بالليل على أسطحة البيوت بالمدينة الشريفة .

وقال القسطلاني : إن ضوءها استوى على ما بَطَّن من القيعان^(١) ، وظهر من القلاع ، حتى كأن الحرم النبوي عليه الشمس مشرقة ، وجملة أما كن المدينة بأنوارها محدقة ، ودام على ذلك لها حتى تأثر له النيران ، وصار نور الشمس على الأرض تعتريه صُفْرَةٌ ، ولونها من تصاعد الالتهاب يعتريه حمرة ، والقمر كأنه قد كسف من اضمحلال نوره ، قال : وأخبرني جمع ممن توجه للزيارة على طريق

(١) القيعان : جمع قاع ، وهو أرض سهلة مطمئنة .

للشيان أنهم شاهدوا ضوءها على ثلاثة مراحل للمجدد ، وآخرون أنهم شاهدوها من جبال ساية .

قلت : نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة أن هذه النار رؤيت من مكة ومن الفلّة جميعها ، وراها أهل ينبع .
قال أبو شامة : وأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدوها بالمدينة أنه بلغه أنه كتب بتيما على ضوءها الكتب .

وقال المجدد : وانشمس والقمر في المدة التي ظهرت بها ما يطلعان إلا كاسفين .

قال أبو شامة : وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الحيطان ، وكنا حيارى من سبب ذلك ، إلى أن بلغنا الخبر عن هذه النار ، وكل من ذكر هذه النار يقول في آخر كلامه : وعجائب هذه النار وعظمتها يكل عن وصفها البنان والأقلام^(١) ، وتجل عن أن يحيط بشرحها البيان والكلام ؛ فظهر بظهورها معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لوقوع ما أخبر به وهي هذه النار ؛ إذ لم تظهر من زمنه صلى الله عليه وسلم قبلها ولا بعدها نار مثلها .

هل رؤيت النار ببصرى
وقال القسطلاني : إن جاء من أخبر برؤيتها ببصرى فلا كلام ، وإلا فيحتمل أن يكون ذكر ذلك في الحديث على وجه المبالغة في ظهورها ، وأنها بحيث تُرى ، وقد جاء من أخبر أنه أبصرها بتيما ، وبصرى منها مثل ما هي من المدينة في البعد .

قلت : قد تقدم عن القرطبي أنه بلغه أنها رؤيت من جبال بصرى ، وصرح الشيخ عماد الدين بن كثير بما يقتضى أنه أضاءت من هذه النار أعناق الإبل ببصرى ، فقال : أخبرني قاضي القضاة صدر الدين الحنفي قال : أخبرني والدي الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غير واحد من الأعراب

(١) يكل : يضعف ويعجز .

صبيحة الليلة التي ظهرت فيها هذه النار من كان يحضره ببلد بصرى أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم في ضوء تلك النار ، فقد تحقق بذلك أنها الموعود بها ، والحكمة في إنارتها بالأماكن البعيدة من هذا المظهر الشريف حصول الإنذار ، ليتم به الانزجار ، كما اتفق لأهل المدينة ، وفي هذا المعنى يقول قائلهم :

يا كاشف الضرر صفحاً عن جرائنا	لقد أحاطت بنا يا رب بأساء
نشكو إليك خطوباً لا نطيق لها	تحملًا ونحن بها حقا أحقاء ^(١)
زلازلاً تخشع الصم الصلاب لها	وكيف تقوى على الزلزال شماء ^(٢)
أقام سباع يريج الأرض فانصدعت	عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجرى فوقه سفن	من الهضاب لها في الأرض إرساء
ترمي لها شرراً كالفطر طائشة	كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها بيوت الصخر إن زفرت	رعباً ، وترعد مثل السعف أضواء
منها تكائف في الجو الدخان إلى	أن عادت الشمس منه وهى دهاء
قد أثرت سعة في البدر لفحتها	فليلة التم بعد النور عمياء
تحدث النيرات السبع السنها	بما تلاقي بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج إلى	أن صار يلفحها بالأرض أهواء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت	منا الذنوب وساء القلب أسواء
فانتمح وهب وتفضل بالرضى كرما	وارحم فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا كشف التعذيب عنهم وعمم القوم نعاء	
ونحن أمة هذا المصطفى ، ولنا	منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذى لولاه ما سلكت	محجة في سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ما خطبت	على علا منبر الأوراق ورفقاء

(١) أحقاء : جمع حقيق ، ومعناه مستحق

(٢) شماء : أراد الجبال .

مبدأ
ظهور النار
قال المؤرخون : وكان ظهور هذه النار من صدر وادٍ يقال له وادى الأحيليين
وقال البدر ابن فرحون : إنها سالت فى وادى أحيليين ، وموضعها شرق المدينة على
طريق السوارقية مسيرة من الصبح إلى الظهر .

قال القطب القسطلانى : ظهرت فى جهة المشرق على مرحلة متوسطة من
المدينة فى موضع يقال له قارع الهيلاء على قرب من مساكن قريظة شرق قباء ،
فهى بين قريظة وموضع يقال له أحيليين ، فثارت من هذا القاع ، ثم امتدت فيه
أخذةً فى الشرق إلى قريب من أحيليين ، ثم عرجت واستقبلت الشام سائلة
إلى أن وصلت إلى موضع يقال له قرين الأرنب بقرب من أحدٍ ، فوقفت وانطفت
وانصرفت ، انتهى .

من فوائد
هذه النار
قال المؤرخون : واستمرت هذه النار مدة ظهورها تأكل الأحجار والجبال ،
وتسيل سيلاً ذريعاً فى وادٍ يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال
وعمقه قائمة ونصف ، وهى تجرى على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل
الأنك^(١) ، فإذا خمد اسودَّ بعد أن كان أحمر ، ولم يزل يجتمع من هذه الحجارة
المدّابة فى آخر الوادى عند منتهى الحرة حتى قطعت فى وسط وادى الشّطّاة إلى
جهة جبل وعيرة ، فسدتّ الوادى المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار
ولا كسد ذى القرنين ، يعجز عن وصفه الواصف ، ولا مَسَلَكَ لإنسان
فيه ولا دابة .

قلت : وهذا من فوائد إرسال هذه النار ؛ فإن تلك الجهة كثيراً ما يطرق
منها المفسدون لكثرة الأعراب بها ؛ فصار السلوك إلى المدينة متعسراً
عليهم جداً .

قال القسطلانى : أخبرنى جمع ممن أركنُ إلى قولهم أن النار تركت على
الأرض من الحجر ارتفاع رمح طويل على الأرض الأصلية .

(١) الآنك - بمد الهمزة وضم النون - الرصاص ، وهو مفرد وليس بجمع

قال المؤرخون : وانقطع وادى الشظاة بسبب ذلك ، وصار السيل إذا سال
ينحبس خلف السد المذكور حتى يصير بحراً ممدّاً البصر عرضاً وطولاً^(١) ، فانخرق من
تحتة في سنة تسعين وستمائة لتكاثر الماء من خلفه ، فجرى في الوادى المذكور
سنتين كاملتين ، أما السنة الأولى فكان قد ملأ ما بين جانبي الوادى ، وأما الثانية
فدون ذلك ، ثم انخرق مرة أخرى في العشر الأول بعد السبعائة فجرى سنة كاملة
أو أزيد ، ثم انخرق في سنة أربع وثلاثين وسبعائة وكان ذلك بعد تواتر أمطار
عظيمة في الحجاز ، فسكث الماء وعلا من جانبي السد ومن دونه مما يلي جبل وعيرة
وتلك النواحي ، فجاء سيل طام لا يوصف ، ولوزاد مقدار ذراع في الارتفاع وصل
إلى المدينة ، وكان أهل المدينة يقفون خارج باب البقيع على التل الذى هناك
فيشاهدونه ويسمعون خيراً توجّل القلوب دونه ، فسبحان القادر على ما يشاء ! .

ومن العجائب أن في السنة التى ظهرت فيها هذه النار احترق المسجد
الشرىف النبوى^(٢) بعد انطفائها كما سيأتى ، وزادت دجلة زيادة عظيمة فغرق أكثر
بغداد وتهدمت دار الوزير ، وكان ذلك إنذاراً لهم ، وليتهم اتّعظوا .

النذر الحادثة
في عام النار
والذى يليه

ثم في أول السنة التى تلى هذه السنة وقعت الطامة الكبرى ، وهى أخذ
التار لبغداد وقتل الخليفة المستعصم وبعده المساهون ، وبذل السيف ببغداد نيفاً
وثلاثين يوماً ، وأخرجت الكتب فألقيت تحت أرجل الدواب ، وشوهد بالمدرسة
المستنصرية معالف الدواب مبنية بالكتب موضع اللبن^(٣) ، وخلت بغداد من أهلها ،
واستولى عليها الحريق على ما ذكره سعيد الدهلى ، واحترقت دار الخلافة ، وعم
الحريق أكثر الأماكن حتى القصور البرانية وترب الرصافة مدفن ولاية الخلافة ،
وشوهد على بعض حيطان منها مكتوب :

(١) وهو اليوم غدير يسمى بالعاقول (مكى) .

(٢) هذا هو الحريق الأول

(٣) اللبن - بفتح اللام وكسر الباء - الطوب النبىء .

إن تُرِدْ عِبْرَةً فِهْذِي بنو العباس دارت عليهم الدائراتُ
استُبيحَ الحريمُ إذ قتل الأحياء منهم وأُحْرِقَ الأمواتُ
ثم كثر الموت والفناء ببغداد ، وطوى بساط الخلافة منها من ذلك الزمان ،
فَلله الخلق والأمر ! .

وقد نظم بعضهم خروج هذه النار وغرق بغداد ، وأصلحه أبو شامة منها على
أن الأمرين في سنة بقوله :

سبحان من أصبحت مشيئته جارية في الوري بمقدار
في سنة أغرق العراق ، وقد أحرق أرض الحجاز بالنار
قال المجد : وما يناسب هذه النار ويضاهيها ما حكاه ابن جبير أنه رأى من
أخبره أن في بحر رومية جزيرتين يخرج منهما النار دائماً ، قال : وأبصرنا الدخان
صاعداً منهما ، وتظهر بالليل نار حمراء ذات ألسن تصعد في الجو ، قال : وأعلمنا
أن خروجها من جبلين يصعد منهما نفس ناري شديد ، وربما قذف فيها الحجر
فتملئ به مسوداً إلى الهواء بقوة ذلك النفس ، وتمنعه من الانتهاء إلى القمر ، قال :
وأما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه أيضاً عجيب ، وذلك
أن ناراً تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرم ؛ فلا تمر بشيء إلا أحرقته ، حتى
تنتهي إلى البحر فتتركب ثباجه^(١) طائفة على صفحته حتى تغوص فيه .

بعض
ما يناسب
هذه النار

قلت : وأقرب من ذلك في مناسبة هذه النار ما ذكره ابن شبة في أخبار
المدينة - عند ذكر خالد بن سنان العبسي الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءته
بنته « هذه ابنة نبي ضيعه قوم » - فروى ابن شبة في خبره من طرق ما ملخصه
أنه كان بأرض الحجاز نار يقال لها نار الحدثان (حرة بأرض بني عبس) تعشى
الإبل^(٢) بضوئها من مسيرة ثمانى ليال ، وربما خرج منها العنق فذهب في الأرض

شأن
خالد بن سنان
العبسي

(١) ثبج البحر - بفتح الثاء والباء جميعاً - معظمه ، وأراد موجه

(٢) تعشى : مضارع من العشا ، وهو ضعف البصر

فلا يُبْقِي شَيْئًا إِلَّا أَكَلَهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ حَتَّى يَعُودَ إِلَى مَكَانِهِ ، وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ إِلَيْهَا خَالِدَ بْنِ سَنَانٍ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَطْلِقَ هَذِهِ النَّارَ الَّتِي قَدْ أَضْرَتْ بِكُمْ فَلْيَتَّقُمْ مَعِيَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلًا ، فَخَرَجَ بِهِمْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى النَّارِ فَخَطَّ عَلَيْهِمْ خَطَانِمَ قَالَ : إِيَّاكُمْ أَنْ يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ هَذَا الْخَطِّ فَيَحْتَرِقَ ، وَلَا يَنْوَهَنَّ بِاسْمِي فَأَهْلَكَ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ النَّارَ وَيَقُولُ : بَدْءًا بَدْءًا^(١) كُلُّ هَدَى لِلَّهِ مَوْدًّا ، حَتَّى عَادَتْ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ ، وَخَرَجَ يَتَّبِعُهَا حَتَّى الْجَاهَا فِي بَثْرِ فِي وَسْطِ الْحَرَّةِ مِنْهَا تَخْرُجُ النَّارُ ، فَانْحَدَرُ فِيهَا خَالِدٌ . وَفِي دَرَةِ الْغَوَاصِ : فَإِذَا هُوَ بِكَلَابِ تَحْتَهَا فَرَضَهُنَّ بِالْحَجَارَةِ ، وَضَرَبَ النَّارَ حَتَّى أَطْلَفَهَا اللَّهُ عَلَى يَدِهِ ، وَمَعَهُمُ ابْنُ عَمٍّ لَهُ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : هَلَاكَ خَالِدٌ ، فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ بَرْدَانُ يَنْطَفِئَانِ^(٢) مِنَ الْعَرَقِ وَهُوَ يَقُولُ : كَذَبَ ابْنُ رَاعِيَةِ الْمُعْزَى لِأَخْرَجَنِّ مِنْهَا وَثِيَابِي تَنْدَى ، فَسَمَوْا بَنِي ذَلِكَ الرَّجُلِ « بَنِي رَاعِيَةِ الْمُعْزَى » إِلَى الْيَوْمِ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ قَوْمَهُ سَالَتْ عَلَيْهِمْ نَارٌ مِنْ حَرَّةِ النَّارِ فِي نَاحِيَةِ خَبِيرٍ ، وَالنَّاسُ فِي وَسْطِهَا ، وَهِيَ تَأْتِي مِنْ نَاحِيَتَيْنِ جَمِيعًا ، فَخَافَهَا النَّاسُ خَوْفًا شَدِيدًا . وَفِي رِوَايَةٍ : وَهِيَ تَخْرُجُ مِنْ شَقِّ جَبَلٍ مِنْ حَرَّةٍ يُقَالُ لَهَا حَرَّةُ أَشْجَمَ ، فَقَالَ لَهُمُ خَالِدُ بْنُ سَنَانٍ : ابْعَثُوا مَعِيَ إِنْسَانًا حَتَّى أَطْلِفَهَا مِنْ أَصْلِهَا ، فَخَرَجَ مَعَهُ رَاعِي غَنَمٍ ، وَهُوَ ابْنُ رَاعِيَةٍ ، حَتَّى جَاءَ غَارًا تَخْرُجُ مِنْهُ النَّارُ . وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهَا كَانَتْ تَخْرُجُ مِنْ بَثْرِ ، ثُمَّ قَالَ خَالِدٌ لِلرَّاعِي : أَمْسِكْ ثَوْبِي ، ثُمَّ دَخَلَ فِي الْغَارِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهُ انْطَلَقَ فِي نَاسٍ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى أَتَوْهَا ، وَقَالَ لَهُمْ : إِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكُمْ فَلَا تَدْعُونِي بِاسْمِي ، فَخَرَجَتْ كَأَنَّهَا خَيْلٌ شُقْرٌ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَاسْتَقْبَلَهَا خَالِدٌ فَجَعَلَ يَضْرِبُهَا بِعَصَاهُ وَيَقُولُ : هَدِيَا هَدِيَا^(٣) ، كُلُّ نَهْبٍ مَوْدِي ، زَعَمَ ابْنُ رَاعِيَةِ الْمُعْزَى ، أَنِّي لَا أَخْرُجُ مِنْهَا وَثِيَابِي تَنْدَى ، حَتَّى دَخَلَ مَعَهَا الشَّعْبُ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ كَانَ حَيًّا لَخَرَجَ إِلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ ، قَالَ :

(١) بَدْءًا بَدْءًا : مَصْدَرُ يَرَادُ بِهِ الْأَمْرُ ، أَيْ تَبَدَّدِي وَتَفَرَّقِي

(٢) يَنْطَفِئَانِ : يَسِيلَانِ مَاءً ، وَهُوَ الْعَرَقُ . (٣) كَذَا ، وَلَعَلَّهُ « هَدَا هَدَا »

ادعوه باسمه ، فوالله لو كان حياً لخرج إليكم بعد ، فدَعَوْهُ باسمه ، فخرج وهو آخذ برأسه ؛ فقال : ألم أنْهَكُمُ أن تدعوني باسمي ؟ قد والله قتلتموني ، احمأوني وادفونني ، فإذا مرت بكم حُجْرٌ معها حار أبتَر ، وفي رواية فإذا دفنتموني وأتى على ثلاثة أيام فأتوا قبري ، فإذا عرضت لكم عانة^(١) من حُجْرٍ وحشٍ وبين يديها عَيْرٌ فانبشوني فإني أقوم فأخبركم ماهو كائن إلى يوم القيامة ، فأتوا القبر بعد ثلاث وسَنَحَت لهم الحمر ، فأرادوا نبشه ، فمنعهم قوم من أهل بيته ، وقالوا : لا ندْعُكم تنبشون صاحبنا فنغير بذلك ، وفي رواية : فيكون سبة علينا ، فتركوه .

وفي رواية لابن القعقاع بن خليلد العبسي عن أبيه عن جده ، قال : بعث الله خالد بن سنان نبياً إلى بني عبس ، فدَعَاهم فكذبوه ، فقال قيس بن زهير : إن دعوت فأسيل علينا هذه الحرة ناراً اتبعناك ؛ فإنك إنما تخوفنا بالنار ، وإن لم تَسِلْ ناراً كذبتناك ، قال : فذلك بيني وبينكم ؟ قالوا : نعم ، قال : فتوضأ ثم قال : اللهم إن قومي كذَّبوني ولم يؤمنوا برسالتى إلا أن تسيل عليهم هذه الحرة ناراً ، فأسلها عليهم ناراً ، قال : فطلع مثل رأس الحريش^(٢) ، ثم عظمت حتى عرضت أكثر من ميل ، فسالت عليهم ، فقالوا : يا خالد أَرُدُّها فإنا مؤمنون بك ، فتناول عصاً ثم استقبلها بعد ثلاث ليال فدخل فيها فضر بها بالعصا ، فلم يزل يضربها حتى رجعت ، قال : فرأيتنا نعشى الإبل على ضوء نارها ضلعاً الرَبْذة^(٣) وبين ذلك ثلاث ليال .

وروى له ابن شبة أخباراً أخرى مع قومه ، وروى البيهقي في دلائل النبوة في باب « ماجاء في الكرامة التي ظهرت على تميم الداري شرفاً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وتنويعها باسم من آمن به ، عن معاوية بن حرملة ، وذكر خبراً في قدومه

قف
على كرامة
تيمم الداري

(١) العانة : الجماعة من حمر الوحش ، والعير - بفتح العين - الحمار

(٢) الحريش - بفتح الحاء - دويبة قدر الإصبع بأرجل كثيرة ، وهي التي يسميها العامة « أم أربعة وأربعين » (٣) لم تستقم لي هذه العبارة

المدينة ، وقول عمر له : اذهب إلى خير المؤمنين فانزل عليه ، ثم قال : فبينما نحن ذات يوم إذ خرجت نار بالحَرَّة ، فجاء عمر رضى الله عنه إلى تميم الدارى رضى الله عنه ، فقلل : قم إلى هذه النار ، فقال : يا أمير المؤمنين ومن أنا ؟ وما أنا ؟ قال : فلم يزل به حتى قام معه ، قال : وتبعتهما فانطلقا إلى النار ، فجعل تميم يَحُوشها^(١) بيده حتى دخلت الشعب ، ودخل تميم خلفها ، فجعل عمر يقول : ليس من رأى كمن لم يرَ ، قالها ثلاثا ، والله أعلم .

(١) يحوشها : أصله قولهم « حاش فلان الصيد يحوشه حوشاً » إذا جاءه من حواله ليصرفه إلى الحباله ، وقولهم « حاش فلان الإبل » إذا جمعها وساقها

الباب الثالث

في أخبار سكانها في سالف الزمان ، ومقدمه صلى الله عليه وسلم إليها ،
وما كان من أمره بها في سنين الهجرة^(١) ، وفيه اثنا عشر فصلا
الفصل الأول

في سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر في سبب نزول اليهود بها ، وبيان منازلهم
أسند الكلبي عن ابن عباس أن مخرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل ،
وكانوا ثمانين نفساً ، فسمى الموضع سوق الثمانين ، قال : وطولُ بابل مسيرة عشرة
أيام واثني عشر فرسخاً ، فمكثوا بها حتى كثروا ، وصار ملكهم نمرود بن كنعان
ابن حام ، فلما كفروا ببليلوا ، فنفرت ألسنتهم على اثنين وسبعين لساناً ،
ففهم الله العربية منهم عمليق وطشم ابني لودا بن سام ، وعادا وعييل ابني عوص
ابن أرم بن سام ، ونمود وجديس ابني جائق بن أرم بن سام ، وقنطور بن عابر
ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، فنزلت عييل يثرب ، ويثرب اسم ابن عييل ،
ثم أخرجوا منها فنزلوا الجحفة ، فجاءهم سيل أجحفهم فيه ، فلهاذا سميت جحفة ،
فرثاهم رجل منهم فقال^(٢) :

نزول
عييل يثرب

عين جودي على عييل وهل ير جمع من فات ييضها بالسحام ؟
عمرؤا يثربا وليس بها شفر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام
وقال أبو القاسم الزجاجي : أول من سكن المدينة عند التفرق يثرب بن قانية^(٣)
ابن مهلائيل بن أرم بن عييل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ،
وبه سميت يثرب ، وروى عن ابن عباس ما يدل له .

ول من
سكن يثرب

(١) كذا ، والعربية الفصحى أن يقال « في سني الهجرة » ولكن ما بالأصل لغة
(٢) أقنامل هذه الأبيات بعد أن كانت محرفة وناقصة في الأصول
(٣) في ياقوت « قانية »

وقال ياقوت : كان أول من زرع بالمدينة ، واتخذ بها النخل ، وعمر بها ^{سكنى العماليق} ^{المدينة} الدور والآطام ، واتخذ بها الضياع ، العماليق ، وهم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ، وكانت العماليق ممن انبسط في البلاد ، فأخذوا ما بين البحرين وعمان والحجاز كله إلى الشام ومصر ، وجبابة الشام وفراغة مصر منهم ، وكان منهم بالبحرين وعمان أمة يسمون جاسم ، وكان ساكن المدينة منهم بنوهف ^(١) وبنو مطرويل ، وكان ملكهم بالحجاز الأرقم بن أبي الأرقم .
وأُسند ابن زباله عن زيد بن أسلم أن ضُبعا رُويت وأولادها رابضة في حِجَاجٍ عَيْنِ رجلٍ من العماليق — والحِجَاجُ ، بكسر أوله وفتح هـ : العَظْمُ الذي ينبت عليه الحَاجِبُ — قال زيد بن أسلم : وكان تمضي أربعمائة سنة وما يُسَمَّعُ بِمِجَازَةٍ .

وأُسند رزين عن أبي المنذر ^(٢) الشرقى قال : سمعت حديث تأسيس المدينة من قوم من اليهود سليمان بن عبيد الله بن حنظلة الغسيل ، قال : وسمعت أيضاً بعض ذلك من رجل ينزلون المدينة من قریش عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر ^(٣) ، قال : فجمعت حديثهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه ، قالوا : بلغنا أنه لما حجَّ موسى صلوات الله عليه حج معه أناس من بني إسرائيل ، فلما كان في انصرافهم أتوا على المدينة ، فرأوا موضعها صفة بلد نبى يمدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين ، فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، فنزلوا في موضع سوق بني قَيْنُقَاع ، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم ، فكانوا أول من سكن موضع المدينة . وذكر بعض أهل التواريخ أن قوما من العماقة سكنوه قبلهم ، قلت : وهو الأرجح .

(١) عبارة ياقوت ٤٢٧/٧ : « وكان ساكنو المدينة منهم بنو هفان وسعد بن هفان وبنو مطرويل ، وكان بنجد منهم بنو بديل بن راحل وأهل تيماء ونواحيها . وكان ملك الحجاز الأرقم بن أبي الأرقم » .

(٢) في المطبوعات « عن ابن المنذر الشرقى » وسيأتى على الصواب في ص ١٧٠

(٣) كذا ، وأبو عبيدة اسمه محمد وأبوه محمد بن عمار

داود النبي
يغزو سكان
المدينة

وأَسَدُ ابن زبالة مُصَدِّراً به كتابَه في بدء مَنْ سَكَنها عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : كان ساكن المدينة في سالف الزمان صعل وفالج ، فغزاهم داود النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخذ منهم مائة ألف عذراء ، قالوا : وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فمَلَكَوا ، فقبورهم هذه التي في السهل والجبل ، وهي التي بناحية الجرف ، وبقيت امرأة منهم تعرف بزهرة ، وكانت تسكن بها ، فأُكثرت من رجل وأرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد ، فلما دنت لتركب غشيها الدود ، فقيل لها : إنا نرى دودا يغشاك ، فقالت : بهذا هلك قومي ، ثم قالت : رَبِّ جسد مَصُون ، ومال مدفون ، بين زهرة ورائون ، قالوا : وقتلها الدود . قلت : وداود بعد موسى عليهما السلام ، وكان يدعو إلى شريعته .

وقد عبر ابن النجار عما سبق بقوله : قال أهل السير : أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قومٌ يقال لهم صعل وفالج ، وذكر قصة داود ملخصة ، ثم قال : قالوا : وكان قومٌ من الأمم يقال لهم بنو هف وبنو مطر وبنو الأزرق فيما بين نخيض إلى غراب الضائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد ؛ فتلك آثارهم هنالك . وروى ابن زبالة عند ذكر جاء أم خالد بوادي العقيق عن عثمان بن عبد الرحمن قال : وجد قبر في الجلاء عليه حجر مكتوب فيه فهبط بالحجر فقرأه رجل من أهل اليمن ، فإذا فيه : أنا عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان بن داود إلى أهل يثرب ، وأنا يومئذ على الشمال .

وروى أيضاً عن عمر بن سليم الزرقى قال : رقينا الجلاء فوجدنا قبراً لإرمياً على رأسها عنده حجران مكتوبان لا تقرأ كتابتهما ، فحملناهما ، فنقل علينا أحدهما فرميناه في الجلاء ، وأخذت الآخر ، فكان عندي ، فعرضته على أهل التوراة من يهود فلم يعرفوه ، ثم عرضته على أهل الإنجيل من النصارى فلم يعرفوه ، فأقام عندي حتى دخل المدينة رجلاً من أهل ماه ، فسألتها : هل كان لكم كتاب ؟ قالوا : نعم ، فأخرجت إليهما الحجر ، فقرأه فإذا فيه : أنا عبد الله الأسود رسول

رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل قرى عريضة ، وقالوا : نحن كنا أهل هذه القرية في أس^(١) الدهر ، وسيأتى بقية ما جاء في ذلك في رابع فصول الباب السابع .

وأُسند ابن زبالة أيضاً عن عروة بن الزبير قال : كانت العماليق قد انتشروا مهلك العماليق في البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله ، وَعَتَوْا عُنُوتًا كَبِيرًا ، فلما أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطيء الشام وأهلك مَنْ بها ، يعنى من الكنعانيين وقيل : بعث إليهم بعثًا ، فأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثًا آخر إلى الحجاز للعماليق ، وأمرهم أن لا يَسْتَبِقُوا أَحَدًا مِنْهُمْ بِلُحْمٍ ، فقدموا عليهم ، فأظهرهم الله فقتلهم ، حتى انتهوا إلى ملكهم الأرقم بن أبى الأرقم فقتلوه ، وأصابوا ابنًا له — وكان شابًا من أحسن الناس — فضنوا به عن القتل ، وقالوا : نستحييه حتى نقدم به على نبي الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم ، فقبض الله موسى قبل قدوم الجيش ، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم فأخبروهم بالفتح ، وقالوا : لم نستبق منهم إلا هذا الفتى ، فإننا لم نر شابًا أحسن منه ، فتركناه حتى نقدم به على نبي الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فقالت لهم بنو إسرائيل : إن هذه لمعصية منكم لما خالفتم أمر نبيكم ، لا والله لا تدخلون علينا بلادنا أبدًا ، فقال الجيش : ما بلد إذ منعم بلادكم بخير من البلد الذى خرجتم منه ، وكان الحجاز إذ ذاك أشجَرَ بلاد الله وأظهره ماء ، قال : وكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق .

وفى الروض الأثْنِ عن أبى الفرج الأصبهاني أن السبب فى كون اليهود بالمدينة — وهى وسط أرض العرب — أن بنى إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز ، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة ، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى ، فوجه إليهم جيشًا ، وذكر نحو ما تقدم ، ثم قال : وأصح من

سبب نزول
اليهود المدينة

(١) الأس — بضم الهمزة وتشديد السين — الأصل ، يريد فى قديم الزمان

هذا ما ذكره الطبري أن نزول بني إسرائيل بالحجاز كان حين وطئ بجننتصر بلادهم بالشام وخرب بيت المقدس ، انتهى .

وحكى ابن النجار عن بعض العلماء أن سببه أن علماءهم كانوا يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، وأنه يهاجر إلى بلده فيه نخل بين حرتين ، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة ، فلما رأوا تيماء وفيها النخل نزلها طائفة منهم ، وظن طائفة أنها خير فزولوها ، ومضى أشرفهم وأكثرم فلما رأوا يثرب سبخة وحره وفيها النخل قالوا : هذه البلد التي تكون مهاجرة النبي العربي عليه الصلاة والسلام ، فنزل النصير بطحان ، ثم حكى ماسياني من نزول قريظة والنصير بمذنيب وموزور .

وحكى ياقوت عن بعض علماء الحجاز من يهود أن سبب نزولهم الحجاز أن ملك الروم حين ظهر على بني إسرائيل وملك الشام خطب إلى بني هرون ، وفي دينهم أن لا يزوجوا النصارى ، فخافوه وأنعموا له ؛ وسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم ، فأتاهم ، ففتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز فأقاموا بها ، وزعم بنو قريظة أن الروم لما غلبوا على الشام خرج قريظة والنصير وهذل هاربين من الشام يريدون أن كان بالحجاز من بني إسرائيل ، فوجه ملك الروم في طلبهم ؛ فأعجزوا رسله ، وانتهى الرسل إلى ثمد^(١) بين الحجاز والشام فأتوا عنده عطشا ، فسمى الموضع « ثمد الروم » وهو معروف بذلك ، والله أعلم أى ذلك كان .

وروى بعض أهل السير عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : بلغنى أن بني إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بجننتصر عليهم وفرقتهم وذلتهم تفرقوا ، وكانوا يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم منعوفا في كتابهم ، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية في قرية ذات نخل ، ولما خرجوا من أرض الشام كانوا يعبرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعمتها نعت يثرب ، فينزل بها طائفة منهم ، ويرجون أن ياقوا محمدا فيتبعونه ، حتى نزل من بني

(١) أصل الثمد - بفتح الثاء وميمه مفتوحة أو ساكنة - ماء المطر يبقى محقونا تحت رمل ، فإذا كشف عنه أدته الأرض ، وقيل : هو الماء القليل لامادة له .

هرون ممن حمل التوراة يثرب منهم طائفة ، فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء ، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء ، فأدركه من أدركه من أبنائهم فكفروا به وهم يعرفونه : أى حسداً للأنصار حيث سبقوهم إليه .

وقال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه من عود الجيش من بنى إسرائيل إلى الحجاز وسكنهم المدينة : فركحوا منها حيث شاؤا — أى تفسحوا وتبوؤا — فكان جميعهم بزهرة ، وكانت لهم الأموال بالسافلة ، وزهرة ثبرة — أى أرض سهلة بين الحرة والسافلة مما يلي القف — ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجتمع السيول مما يلي زغابة ، قالوا : وكانت يثرب سقيفة طويلة فيها بغايا يضرب إليهن من البلدان ، وكانوا يروحون في قرية يثرب ثمانين جملاً ^(١) سوى سائر الألوان .

ثم أسند عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذل وعمر وأبناء الخزرج بن الصريح بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوى ابن جبر بن النحام بن عازر بن عيرز بن هرون بن عمران عليه السلام والنضير بن النحام بن الخزرج بن الصريح بعدهؤلاء ، فتبعوا آثارهم ، فنزلوا بالعالية على واديين يقال لهما مذيئيب ومهزور ^(٢) ، فنزلت بنو النضير على مذيئيب واتخذوا عليه الأموال فكانوا أول من احتفر بها — أى بالعالية — الآبار وغرس الأموال ، قال : ونزل عليهم بعض قبائل العرب فكانوا معهم ، فاتخذوا الأموال ، وابتنوا الآطام والمنازل .

وأسند هو وابن شبة أيضاً عن جابر مرفوعاً : أقبل موسى وهارون حاجين فمرا بالمدينة ، فخافا من يهود ، فخرجا مستخفين ، فنزلا أحداً ، فغشى هارون

(١) الجون : الأسود .

(٢) قال ياقوت (٣٤٧/٧) : «مذيئيب واد بالمدينة ، وقيل : مذيئيب يسيل بماء المطر خاصة ، وقد روى مالك في موطنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في سيل مهزور ومذيئيب : يمسك حتى السكبين ثم يرسل الأعلى على الأسفل» اهـ . وقد ذكرنا أن مذيئيبا يصدر من جبلين كبيرين بخذاء جبل الأغوات على نحو سبعة أميال من المدينة ، ويصب في زغابة ، وكانت عليه مساكن بنو النضير ، فلما غدروا بالرسول أجلاهم بعد الخندق ، ثم قسم أملاكهم على المهاجرين . وأما مهزور فمصدره من حرة واقم . ويعرف اليوم باسم «الغاوى» (١١ — وفاء)

الموت ، فقام موسى لخنفر له ولحد ، ثم قال : يا أخى إنك تموت ، فقام هارون فدخل فى لحد ، فقبض ^(١) عليه موسى التراب .

قلت : وإسناد ابن شبة لا بأس به ، غير أن فيه رجلا لم يُسم ، وسماء ابن زبالة ، وذلك المسمى لا بأس به أيضا ، لكن ابن زبالة لا يُعتمد عليه فى ذلك ، وهو دال على أن اليهود نزلوا المدينة فى زمن موسى عليه السلام ، وطالت مدتهم بها فى حياته ، حتى وقع منهم ما يقتضى خوفه منهم عند مروره ، وهو إنما يتأنى على ما قدمناه من أنه لما حجَّ ومعه ناس من بنى إسرائيل فرأوا موضع المدينة صفة بلد خاتم النبيين ، فاشتدَّت طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، ويكون ما اتفق لموسى وهارون عليهما السلام فى حجة أخرى بعد ذلك ، وسيأتى فى مسجد عرق الظبية بالروحاء حديث « ولقد مرَّ به موسى بن عمران حاجا ومعتمرا فى سبعين ألفا من بنى إسرائيل » ومن الغريب ما نقل الحافظ ابن حجر عن كتاب الأنواء لعبد الملك بن يوسف قال : إن قربطة كانوا يزعمون أنهم من ذرية شعيب بنى الله عليه السلام ، وإن ذلك محتمل ؛ فإن شعيبا كان من بنى جذام القبيلة المشهورة - قال الحافظ ابن حجر : وهو بعيد جداً - ونقل ابن زبالة ما حاصله أن من كان من العرب مع يهود قبل الأنصار بنو أنيف خي من بلى ، ويقال : إنهم بقية من العماليق ، وبنو مريد حى من بلى ، وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم ، وبنو الجذماء حى من اليمن ، وكانت الآطام عزَّ أهل المدينة ومنعتهم التى كانوا يتحصنون فيها من عدوهم ، وروى حديث النهى عن هدم آطام المدينة ، قال : وكان لبني أنيف بقاء : الأجدش عند البئر التى يقال لها لاوة ، وأطمان فيما بين المال الذى يقال لها المائة والمال الذى يقال له القاسم ، وآطام عند بئر عذق وغيرها ، قال شاعرهم فيها :

.. وَلَوْ نَطَقَتْ يَوْمَ قَبَاءَ لَخَبَرْتُ بِأَنَا نَزَلْنَا قَبْلَ عَادٍ وَتُبِعْ

(١) يقال : حشا التراب يحشوه ، وحشاه يحشيه ، إذا صبه وأهاله .

بقايا اليهود
بالمدينة

وَأَطَامَنَا عَادِيَّةٌ مُشْمَخِرَّةٌ تُلَوِّحُ فِتْنَتُكِي مِنْ نَعَادَى وَتَمْنَعُ
وَكَانَ مِمَّنْ بَقِيَ مِنَ الْيَهُودِ — حِينَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الْأَوْسُ وَالْخُزُرْجُ —
جَمَاعَاتٌ مِنْهَا بَنُو الْقُصَيْصِ وَبَنُو نَاعِصَةَ كَانُوا مَعَ بَنِي أَنْيْفَ بَقْبَاءَ ، وَكَانَ بَقْبَاءَ
رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ « إِيَّاهُ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ » كَانَ لَهُ أُطُمٌ يُقَالُ لَهُ « عَاصِمٌ » كَانَ
فِي دَارِ ثَوْبَةِ بْنِ حُسَيْنِ بْنِ السَّائِبِ بْنِ أَبِي لُبَابَةَ ، وَفِيهِ الْبُتْرُ الَّذِي يُقَالُ لَهَا قَبَاءَ ،
وَقِيلَ : إِنَّ بَنِي نَاعِصَةَ حَتَّى مِنَ الْيَمَنِ كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ فِي شُعْبِ بَنِي حَرَامٍ حَتَّى
نَقَلَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى مَسْجِدِ الْفَتْحِ ، وَمِنْهَا بَنُو قُرَيْظَةَ فِي دَارِهِمُ الْمَعْرُوفَةِ بِهِمْ
الْيَوْمَ ، وَكَانَ لَهُمْ بِهَا أَطَامٌ : مِنْ ذَلِكَ أُطُمُ الزَّيْدِ بْنِ بَاطَا الْقُرَظِيُّ ، كَانَ مَوْضِعُهُ فِي
مَوْضِعِ مَسْجِدِ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَأُطُمُ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ يُقَالُ لَهُ بِلْحَانِ الْمَالِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ
الشَّجَرُ ، وَلَهُ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

مِنْ سِرِّهِ رَطْبٌ وَمَاءٌ بَارِدٌ فَلَمِيَّاتٍ أَهْلَ الْمَجْدِ مِنْ بِلْحَانِ

وَكَانَ مَعَ قُرَيْظَةَ فِي دَارِهِمْ إِخْوَتُهُمْ بَنُو هَدَلٍ وَبَنُو عَمْرِو الْمُقَدِّمِ ذَكَرَهُمْ ، وَإِنَّمَا
سَمِيَ هَدَلًا بِهَدَلٍ كَانَ فِي شَفْتِهِ ، وَمِنْ وَلَدِهِ ثَعْلَبَةُ وَأَسَدٌ ابْنَا سَمِيَّةٍ وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ
وَرَفَاعَةُ بْنُ سَمُوَالٍ وَسُخَيْتٌ وَمِنْهُ ابْنَا هَدَلٍ ، وَمِنْهَا بَنُو النَّضِيرِ فِي النُّوَاعِمِ ، وَمِنْهُمْ
كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ ، وَكَانَ لَهُمْ عَامَّةُ أُطُمٍ فِي الْمَالِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ فَاضِجَةٌ ، وَأُطُمٌ
فِي زَقَاقِ الْحَارِثِ دُبُرِ قَصْرِ ابْنِ هِشَامٍ دُونَ بَنِي أُمِيَّةَ بْنِ زَيْدٍ كَانَ لِعَمْرِ بْنِ جِحَاشٍ ،
وَأُطُمُ الْبُوَيْلَةِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ زُبَالَةَ

وَنَقَلَ ابْنُ عَسَاكَرٍ عَنِ الْوَاقِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ : كَانَتْ مَنَازِلُ بَنِي النَّضِيرِ بِنَاحِيَةِ الْغُرْسِ
قُلْتُ : وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا بِالنُّوَاعِمِ ، وَتَمْتَدُّ مَنَازِلُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَى نَاحِيَةِ
الْغُرْسِ وَإِلَى يَاحِيَةِ الصَّافِيَةِ وَمَا مَعَهَا مِنْ صَدَقَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَعْضُ
مَنَازِلِهِمْ كَانَتْ بِجَنَافٍ ؛ لِأَنَّ فَاضِجَةَ بِهِ ، وَرَأَيْتُ بِالْحَرَةِ فِي شَرْقِيِّ النُّوَاعِمِ آثَارَ
حِصُونٍ وَقَرْيَةٍ بِقَرَبِ مَذِينِيبٍ يَظْهَرُ أَنَّهَا مِنْ جَمَلَةِ مَنَازِلِهِمْ ، وَأَنَّ مَا فِي قَبْلَةِ ذَلِكَ
فِي شَرْقِيِّ الْعَهْنِ مِنْ مَنَازِلِ بَنِي أُمِيَّةَ بْنِ زَيْدٍ كَمَا سَيَأْتِي ، وَمِنْهَا بَنُو مَرِيدٍ فِي بَنِي

خطمة وناعمة إبراهيم بن هشام ، وكان لهم أطم يعرف بهم فيه بئر ، ومنها بنو معاوية في بني أمية بن زيد ، ومنها بنو ماسكة بقرب صدقة مروان بن الحكم مما يلي صدقة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لهم الأطمان اللذان في القف في القرية ، ومنها بنو محم في المكان الذي يقال له بنو محم ، وكان لهم المال الذي يقال له خنافة ، معروف اليوم ، وكان رجل منهم قَطَعَ يد رجل في الجاهلية فقال المقطوع : أُعْطِيَ خنافة عَقْلًا بيدي ، فأبى ، وحفر للذي قطعه كوة في خنافة ، ثم أخرج يده منها من وراء الحائط وقال : اقطع ، فقطع يده ، فقال حين قطع يده :

الآن قد طابت ذرى خنافة طابت فلا جوع ولا مخافة

ومنها بنو زُغُوراء عند مشربة أم إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم الأطم الذي عندها ، وكان الأطم الذي في مال جحاف لبعض من كان هناك من اليهود ، ومنها بنو زيد اللات ، قال ابن زبالة : وهم رهط عبد الله بن سلام ، كانوا قريباً من بني غصينة ، ومنها بنو قَيْنُقَاع عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية ، وكان هناك سوق من أسواق المدينة ، وكان لهم الأطمان اللذان عند منقطع الجسر على يمينك وأنت ذاهب من المدينة إلى العالية إذا سلكت الجسر ، وغير ذلك ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن بني قَيْنُقَاع هم رهط عبد الله بن سلام ، خلاف ما تقدم عن ابن زبالة ، قال الحافظ ابن حجر : وهم من ذرية يوسف الصديق عليه السلام ، ومنها بنو حُجْر عند المشربة التي عند الجسر ، ولهم أطم يعرف بهم ، ومنها بنو ثعلبة وأهل زهرة بزهرة ، وهم رهط الفُطَيُون ، وهو ملكهم الذي كان يقتضئ نساء أهل المدينة قبل أن يدخان على أزواجهن ، وكان لهم الأطمان اللذان على طريق العريض حين يهبط من الحرة ، وكانت زهرة جُماع من اليهود وكانت من أعظم قرى المدينة ، وقد بادوا ، ومنها ناس كانوا بالجوانية - بفتح الجيم وتشديد الواو والياء المثناة من تحت : موضع بقرب أحد في شمالي

المدينة كما سيأتى - ولهم أطمان صارا لبني حارثة بن الحارث وهما صرار والريان ،
ولذلك يقول نهيك بن سيف :

لعل صراراً أن تعيش بياره ويسمع بالريان تبنى مشاربه

وكانت بنو الحزماء المتقدم ذكركم - وهم حى من اليمين - مابين مقبرة بنى
عبد الأشهل وبين قصر ابن عراك ، ثم انتقلوا إلى راتج ، ومنها بنو عكوة فى
يمانى بنى حارثة ، ومنها بنو مرابة فى شامى بنى حارثة ، ولهم الأطم الذى يقال له
الشبعان فى ثمغ صدقة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومنها ناس براتج ، وهو
أطم سميت به الناحية ، وهو الذى يقول له قيس بن الخطيم :

ألا إنا بين الشرعى وراتج ضراباً كتخديم السبال للعضد

ومنها ناس بالشوط والعنابس والواج وزبالة إلى عين فاطمة حيث كان يطبخ
الآجر لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لأهل الشوط الأطم الذى يقال
له الشرعى ، وهو الأطم الذى دون ذباب ، وقد صار لبني جشم بن الحارث بن
الخرزج أى الأصغر يعنى إخوة بنى عبد الأشهل ، وكان لأهل الواج أطم بطرفه
مما يلي قناة ، وكان لبعض من هناك من اليهود الأطمان اللذان يقال لهما الشخان
بمفضاهما المسجد الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى أحد ،
وكان لأهل زبالة الأطمان عند كومة أبى الحمراء الرابض الذى دونهما ، ومنها
أهل يثرب ، وكانوا أجماعاً من اليهود بها ، وقد بادوا فلم يبق منهم أحد .

قلت : ونقل رزين عن الشرقى أن يهود كانوا نيفاً وعشرين قبيلة ، وقال
ابن النجار : إن أطامهم كانت تسعة وخمسين أطماً ، وللعرب النازلين عليهم قبل
الأنصار ثلاثة عشر أطماً ، وقد ذكر ابن زبالة أسماء كثير منها حذفناه لعدم معرفته
فى زماننا .

فهذا علم من سكن المدينة بعد الطوفان إلى قدوم الأوس والخرزج .

الفصل الثانى

فى سبب سُكْنَى الْأَنْصَارِ بِهَا

قصة مأرب وسيل العرم
نقل ابن زباله وغيره أن اليهود لم تزل هى الغالبة بالمدينة ، الظاهرة عليها ، حتى كان من أسر سَيْلِ الْعَرَمِ ما كان وما قص الله من قصته فى مائِهِ يعنى قصة أهل مأرب ، ومأرب مهموز: أرض سبأ المعنية بقوله تعالى : « بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ »^(١) عن ابن عباس أنها كانت أخصب البلاد وأطيبها ، تخرج المرأة وعلى رأسها المِكَتَل فتعمل بيديها أى بمغزلها وتسير بين ذلك الشجر ، فيمتلىء مما يتساقط فيه من الثمر ، فطغوا ، وقيل : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعوهم إلى الله ، ويذكرونهم نعمة الله عليهم ، فكذبوهم ، وقالوا : ما نعرف لله نعمة ، قال المسعودى : وكان طول بلدهم أكثر من شهرين للراكب المجد ، وكذلك عَرْضُهَا ، وكان أهلها فى غاية السكثرة مع اجتماع الكلمة والقوة ، وكانوا كما قص الله من خبرهم بقوله : « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » يعنى قرى الشام « قُرًى ظَاهِرَةً »^(٢) يعنى متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فكانوا آمنين فى بلادهم ، تخرج المرأة لا تتزود شيئاً ، تبيت فى قرية ، وتَقِيلُ فى أخرى حتى تأتى الشام ، فقالوا : « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا »^(٣) لأنهم يَطْرُوا النعمة ومَلَوْهَا ، وقالوا : لو كان جَنَى جَنَاتِنَا أبعد كان أجدر أن نشتهيهِ ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوزاً ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة كما قال : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ »^(٤) وعن الضحاك أنهم كانوا فى الفترة التى بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فسلط عليهم سَيْلُ الْعَرَمِ ، قيل : العرم : المطر الشديد ، وقيل : جُرْدٌ^(٥) أعْمى فنقب عليهم السد ، وكان فرسخاً فى فرسخ بناء لقمان الأكبر العادى ، وكان بناء للدهر على زعمه ، وكان يجتمع إليه مياه الين ثم تتفرق فى مجارى على قدر حاجة جناتهم ، وقيل : بناء سَبَأَ بْنَ يَشْجُبَ

(١) من سورة سبأ من الآية ١٥ (٢) من سورة سبأ من الآية ١٨

(٣) من سورة سبأ من الآية ١٩ (٤) من سورة سبأ من الآية ١٩

(٥) الجرد - بضم الجيم - ضرب من الفئران

ابن يعرب بن قحطان ، وساق إليه سبعين وادياً ، ومات قبل أن يكمله فأكله بعده ملوك حير ، وكان أولاد حمير بن سبأ وأولاد كهلان بن سبأ سادة اليمن في ذلك الزمان ، وكان كبيرهم وسيدهم جد الأنصار عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ^(١) ابن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، ويقال : الأسد ، بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ذكر نسبه كذلك ابن هشام وابن حزم وابن الكلبي فيما نقله عنه ابن عبد البر ، ونقل غيره عنه أنه جعل ثعلبة بين حارثة وبين امرئ القيس ، وكانت الأنصار تقول : سمي عمرو مزيقياء لأنه كان يلبس في كل يوم حُلَّتَيْنِ ثم يمزقهما لثلاً يلبسهما أحدهُ بعده ، وقيل لأبيه « ماء السماء » لجوده وقيامه عند الجذب مقام الغيث ، وكان لعمر مزيقياء أخٌ كاهن لم يُعَقِّبْ يسمي عمران ، وكانت زوجة عمرو مزيقياء يقال لها طريفة من حير ، وكانت كاهنة ، فولدت له ثلاثة عشر رجلاً ، ولدت ثعلبة وهو الذي أخرج جُرُهم من مكة هو وأخوته ، ومن انخرع معه من الأزد على ما نقله رزين ، ونقل أن والد ثعلبة — وهو عمرو بن عامر — توفي قبل غلبة ثعلبة لجرهم ، وثعلبة أبو الأوس والخزرج ، وولدت له أيضاً حارثة والد خُرَاعَة على ما سيأتي ، وقيل غير ذلك ، وولدت له أيضاً جَفْنَة والد غَسَّان ، سُمُوا باسم ماء نزلوا عليه يقال له غَسَّان ، والأشهر أنهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث ، وولدت له أيضاً وداعة ، وأبا حارثة ، والحارث ، وعوفا ، وكعبا ، ومالكا ، وعمران ، هؤلاء أعقبوا كلهم ، والثلاثة الباقون لم يعقبوا .

غسان

وقال ابن حزم : إن غسان هم بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب بن عمرو مزيقياء ، شربوا كلهم من ماء غسان ، بخلاف بقية ولد عمرو مزيقياء فلم يشربوا من ذلك الماء ، فليسوا غسان ، وكان لعمر بن عامر بمأرب من القصور والأموال ما لم يكن لأحد .

(١) في الطبوعات « ماء السماء مزيقياء بن حارثة » تطبيع ، وفيه وفي ماء السماء يقول شاعرهم : أنا ابن مزيقيا عمرو ، وجدى أبوه عامر ماء السماء

أول خبر
سيل العرم

ونقل رزين أنه كان أول شيء وقع بمأرب من أمر سيل العرم أن عمران بن عامر رأى في كهايته أن قومه سيمزقون ويبدأعد بين أسفارهم ، وأن بلادهم ستخرب ، فذكر ذلك لأخيه عمرو بن عامر ؛ فكان بين التصديق والتكذيب ، فبينما طريفة امرأته ذات يوم نائمة إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، فذُعِرَت دُعْراً شديداً ، فسكنوها ، فقالت : يا عمرو بن عامر ، الذي رأيت في الغيم ، أذهب عني النوم ، رأيت غيماً أرعد وأبرق ، طويلاً ثم أصعق ، فما وقع على شيء إلا احترق ؛ فما بعده إلا الفرق^(١) ، فلما رأوا ما بها خفصوها^(٢) حتى سكنت ، ثم إن عمرو بن عامر دخل حديقة ومعه جاريثان له ، فبلغ ذلك طريفة فخرجت نحوه ، فلما خرجت من بيتها عارضها ثلاث المناجد - وهي دواب تشبه اليرابيع - منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن ، فلما رأتهم طريفة وضعت يدها على عينها وقعدت على الأرض ، فلما ذهبت المناجد خرجت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التي فيها عمرو وثبت من الماء سلحفأة فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب^(٣) وتستعين بيدها فلا تستطيع ، فتحذف التراب على نفسها ، وتقذف بالبول من تحتها ، فلما رأت طريفة ذلك جلست على الأرض حتى عادت السلحفأة إلى الماء ، ثم مضت طريفة حتى دخلت الحديقة التي فيها عمرو بن عامر حين انتصف النهار في ساعةٍ شديدة حرّها ، وإذا الشجرة من غير ريح تتسكفاً ، فمرت حتى دخلت على عمرو ، فلما رآها قال : هلمي يا طريفة ، فقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الماء لغائر ، وإن الشجر لهالك ، فقال عمرو : ومن أخبرك بذلك ؟ قالت : أخبرتنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد ، وسلحفأة تحذف بالتراب حذفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، ورأيت الشجر من غير ريح ولا مطر تسكفاً ، قال : وما ترين ذلك ؟ قالت : داهية وكيمة^(٤) ، وأمور جسيمة ، قال : أما إن كان ذلك فلك الويل . قالت : أجل ، وما لعمرو

(١) الفرق : الخوف ، ولعله « الفرق » بالغين المعجمة والراء المهملة .

(٢) خفصوها : هداؤها وسكنوا خوفها وأزالوا ما نزل بها من هم .

(٣) تروم : تطلب

(٤) وكيمة : محزنة

فيها من نيل ، مما يحىء به السيل ، فألقى بنفسه على الفراش وقال : ما هذا الذى تقولين إلا أمر جليل ، وخلف قليل ، وأخذُ القليل خيرٌ من تركه ، قال عمرو : وما علامة ما تذكريين ؟ قالت : إذا رأيت جُرَذاً يكثر فى السد الحفر ، ويقلب منه بيديه الصخر ، فاعلم أن قد وقع الأمر . فانطلق عمرو إلى السد ينظر فإذا جُرَدٌ يقلب بيديه ورجليه الصخرة ما يقلها^(١) خمسون رجلاً من أسد ، فرجع إلى طريقته فأخبرها . ثم رأى عمرو رؤيا أنه لا بد من سيل العرم ، وقيل : إن آية ذلك أن ترى الحصى قد ظهرَ فى شربِ النخل ، فذهب فرأى ذلك ، فعرف أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتّم ذلك وأخفاه ، وأجمع على أن يبيع كل شىء له بأرض سبأ ويخرج منها هو وولده ، فخشى أن يستنكر الناسُ ذلك ، فاحتال فى الأمر ، فأمرَ بابل فنهرت ، وبغتم فذبحت ، وصنع طعاماً واسعاً ، وبعث إلى أهل مأرب بأجمعهم ، وكان فيمن دعا يتيماً كان ربّاه وأنكحه ، وقال له فيما بينه وبينه : إذا أنا جلستُ أُطعمُ الناسَ فاجلس بجنبى ثم نازعني الحديث وارِدْ علىّ مثل ما أقول لك ، وافعل بى مثل ما أفعل بك ، فكلّمه عمرو فى شىء ، فردّ عليه ، فضرب عمرو وجهه وشتمه ، ففعل اليتيم به مثله ، فصاح عمرو : واؤلّاه ، اليوم ذهب فخر عمرو ومجده ، فحلف ليقنتلنه ، فلم يزالوا به حتى تركه ، وقال : والله لا أقيم ببلدة صنع بى هذا فيه أبداً ، ولأبيعنّ أموالى كلها وأرحلُ عنكم ، فاغتنم الناسُ غضبه واشتروا منه أمواله ، فباع جميع عقّاره ، وتبعه ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، ولما كثّر البيع استنكر الناسُ ذلك ، فأمسكوا ، فلما اجتمع عند عمرو بن عامر اثمانُ أمواله أخبر الناس بأمر سيل العرم ، فخرج من مأرب ناس كثير ، وأقام بها من قُضى عليه بالهلاك ، هذا ما نقله رزين فى تاريخه وقد اقتفيت أثره فى ذلك فى كتابى .

وذكر ابن هشام فى سيرته نحوه ، وقال : إن الأسد يعنى الأزد قالوا : لا تتخلف

(١) ما يقلها : ما يستطيع أن يرفعها .

عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، وقيل : كانت طريفة زوجة ثعلبة ، وإنه صاحب القصة والاحتال في بيع ماله .

وقال ياقوت : إن عمرو بن عامر مات قبل سيل العرم ، وصارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن ، وكان عاقراً لا يُؤلد له ، وإنه صاحب القصة مع طريفة الكاهنة ، وإنها أقبلت عليه يوماً وقالت : والظلمة والضياء ، والأرض والسماء ، ليقبلن إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فیدع أرضكم فلا يسف عليها الصبا ، وذكر القصة ، وأنه احتال لبيع أمواله بأن قال لخاتمة أحد أولاد أخيه عمرو بن عامر : إذا اجتمع الناس إلىّ فأني سأمرّك بأمرٍ فأظهر فيه العصيان فإذا ضربت رأسك بالعصا فقم إلىّ والطمّنى ، فقال : وكيف يلطم الرجل عمه ؟ فقال : افعل يا بني فإن في ذلك صلاحك وصلاح قومك ، وذكر القصة ، قال : فجاء بعد رحيلهم بمديدة^(١) السيل وقد خرب الجرذ السد فلم يجد مانعاً ، ففرق البلاد حتى لم يبق من جميع الأرضين والكروم إلا ما كان في رؤس الجبال والأمكنة البعيدة مثل ذمار^(٢) وحضرموت وعدن ، وذهبت الضياع والحدائق والجنان ، وجاء السيل بالرمل وطمها ، فمضى على ذلك إلى اليوم ، وبعاد الله بين أسفارهم كما سألوا .

ونقل رزين أن عمرو بن عامر الكاهن قال لهم عند خروجهم : سأصيف لكم البلاد ، فقال : مَنْ كان منكم ذا هم بعيد ، وجل شديد ، ومراد حديد ، فليلحق بقصر عُمان المشيد ؛ فسكنها أزد عمان . قال : ومن كان منكم ذا هم غير بعيد ، وجل غير شديد ، ومراد غير حديد ؛ فليلحق بالشعب من كرود - وهى من أرض كهمدان - فسكان الذين سكنوه وداعة بن عمرو بن عامر فانتسبوا في همدان . قال : ومن كان منكم ذا هم مدن ، وجل مَعْن^(٣) ، فليلحق بالثنى من شن ، وهو بالسراة ، فسكنه أزد شنؤة . قال : وَمَنْ كان منكم ذا جَلَد وبصر ، وإه صبر على أزमत الدهر ، فليلحق ببطن مر ، فسكنته خزاعة . قال : ومن كان منكم يريد

عمرو بن عامر
يصف البلاد
لقومه

(١) في المطبوعات « بهديدة » تطبيع .

(٢) ذمار - بوزن قطام - قرية على مرحلتين من صنعاء .

(٣) في المطبوعات « جمل معنى » .

الراسخات في الوَحْل ، المَطْعَمَات في المَحْل ، فليَلْحَق بالْحَرَّة ذات النخل ؛ فكَان الذين سكنوها الأوس والخزرج . قال : ومن كان يريد الخمر والخمير ، والديباج والحريز ، والأمر والتأخير ، فليَلْحَق بِبُصْرَى وسَدِير - وهما من أرض الشام - فكان الذين سكنوه آل جَفَنَةَ بن غَسَّان . قال : ومن كان يريد الثياب الرِّقَاق ، وأُخْيُول العِتَاق ، والسكنوز من الأرزاق ، فليَلْحَق بالعراق ؛ فكان الذين لحقوا بالعراق جَذِيمَةَ الأبرش ومن كان بالحيرة من غَسَّان .

قلت : وقيل : إن الذي سَجَّعَ لهم بذلك طريفة الكاهنة ، وإنها قالت : ومن كان منكم يريد الراسخات في الوَحْل ، المَطْعَمَات في المَحْل ، فليَلْحَق بيثرب ذات النخل . وروى ابن زبالة سَجَّعَ عمرو بن عامر في المدينة بلفظ : من كان يريد الراسيات في الوَحْل ، المَطْعَمَات في المَحْل ، المدركات بالذَّحْل^(١) ، فليَلْحَق بيثرب ذات النخل ؛ فلما سمعوا ذلك القول خرج عمرو بن عامر بجميع ولده ومن معه من الأزد يريد أرضاً يقيمون بها ، ففارقهم وداعة بن عامر فسكن همدان ، ثم سار عمرو حتى [إذا] كان بين السراة^(٢) ومكة أقام هنالك ناس من الأزد ، وأقام معهم عمران بن عمرو بن عامر ، ثم سار عمرو في باقي ولده وفي ناس من بني مازن من الأزد حتى نزلوا ماء يقال له غسان ، وغلب عليهم اسمه حتى قال شاعرهم :
إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرُ نَجْبٍ الْأَزْدُ نَسَبَتَهَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ^(٣)

قال أبو المنذر الشمرى : ومن ماء غسان أُخْزَعَ لُحَى - واسمه ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن حارثة - فأتى مكة فتزوج بنت عامر الجرهمي ملك جرهم ، فولدت له عمرو بن لُحَى الذي غَيَّرَ دين إبراهيم ، فسمى ولده خزاعة لأن أباهم أُخْزَعَ من غسان وقال غيره ما يخالف ذلك ؛ فروى الأزرق أن عمرو بن عامر سار هو وقومه لَا يَطْوُونَ بِلْدًا إِلَّا غَلَبُوا عَلَيْهِ ، فلما انتهوا إلى مكة - وأهلها جرهم قد قهرها الناس

(١) الذحل - بالفتح - الثأر

(٢) في المطبوعات « السراة » تطبيع ، وإنه ليقال « أزد السراة »

(٣) حفظى « الأزد نسبتنا والماء غسان »

نزل خزاعة
في مكة

وحازوا ولاية البيت على بنى إسماعيل وغيرهم أرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر يقول : يا قوم إنا خرجنا من بلادنا ، فلم نزل بلدا إلا فسح أهلُه لنا فنقيم معهم حتى نرسل رُؤادنا إلى الشام والمشرق ، فحيث ما قيل لنا إنه أمثل لحقنا به ، فأبَت جرم ذلك ، فأرسل إليهم ثعلبة : إنه لا بد لي من المقام ، فإن تركتموني نزلت وحدثكم وواسيتكم في الماء والمَرْعى ، وإن أبيتم أمت على كرهكم ثم لم ترتعوا معي إلا فضلا ولا تشر بوا إلا رَنقا - يعنى الكدر - فإن قاتلتكموني قاتلتكم ، ثم إن ظهرت عليكم سَبَيْت النساء وقتلت الرجال ، ولم أترك أحداً منكم ينزل الحرم أبداً ، فأبَت جرمهم ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، ثم انهزمت جرمهم ، فلم ينفلت منهم إلا الشريد ، وأقام ثعلبة بمكة وما حولها بعساكره حولا ، فأصابتهم الحمى ، وكانوا يبلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فدَعَوْا طريفة الكاهنة فشكَّوْا إليها الذى أصابهم ، فقالت : قد أصابني الذى تشكون ، ثم ذكر الأزرق سَجَمَها في أمر الدلالة على البلاد في هذا المحل [و] ^(١) هو غير سبع عمران بن عامر عند تفرقهم من سبأ ، ثم ذكر لحوق كل فرقة منهم ببلدها على النحو الذى قدمناه ، وأن الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر - وهم الأنصار - نزلوا بالمدينة ، ثم قال : وانخرعت خزاعة بمكة ، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لَحِيٌّ ، فولى أمر مكة ، فهذا يقتضى أنهم إنما افترقوا من مكة ، ولا شك أن منها افترق الذين وصلوا إليها .

وقال ياقوت : إنهم لما ساروا من اليمن عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السما بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن الراد ^(٢) بن الغوث نحو الحجاز ، فأقام ما بين الثعلبية إلى ذى قار ، وباسمه سميت الثعلبية ، فنزلها بأهله وولده ومن تبعه ، فأقام هناك يتبع مواقع القطر ، فلما كثر ولده وقوى ركنه سار بهم نحو المدينة وبها يهود فاستوطنوها ، فأقاموا بها بين قريظة والنضير وخيبر وتيما ووادي القرى ، ونزل أكثرهم بالمدينة .

نزل ثعلبة
ابن عمرو
في المدينة

(١) زيادة يُلْتَم بها الكلام .

(٢) كذا ، وفي التاج «مازن البراح» وليس في ياقوت لقب مازن .

الفصل الثالث

في نسبهم

قد قدمنا انتسابهم إلى عمرو مُزَيْقِيَاءَ ، وانتساب عمرو إلى قحطان .
وقال ابن رزين نقلاً عن الشرقي : أصل الأنصار الأوس والخزرج وهما من
ولد ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن
الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان ، وكأنه سقط
من النسخة بعد الغوث « بن نبت » فإنه بين مالك والغوث كما قدمناه ، وجماع قبائل
اليمن تنتهي إلى قحطان ، وقحطان اختلف في نسبه ، فالأكثرون قالوا : إنه عابر نسب قحطان
ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل : هو من ولد هود نفسه ، وقيل :
ابن أخيه ، ويقال : قحطان أول من تكلم بالعربية ، وهو والد العرب المتعربة ،
وأما إسماعيل فهو والد العرب المستعربة ، وأما العرب العاربة فكانوا قبل ذلك
كما د وثمود وطسّم وجديس وعليق وغيرهم ، وقيل : إن قحطان أول من قيل له :
أَبَيْتَ اللَّعْنَ^(١) ، وعِمَّ صَبَاحًا . وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية
إسماعيل عليه السلام ، وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل عليه
السلام ، ويدل له تبويب البخاري بأن نسبة اليمن إلى إسماعيل ، وأورد فيه
الحديث المتضمن للخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بنى أسلم بأنهم من بنى إسماعيل ،
وأسلم هو ابن أفضى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس
صاحب النسب المتقدم ، فدل على أن اليمن بنى قحطان من بنى إسماعيل ، وهو
ظاهر قول أبي هريرة في الصحيحين في قصة هاجر « فتلك أمكم يا بنى ماء
السماء » يخاطب الأنصار ؛ لأن جدهم عامراً والد عمرو كان يلقب بذلك ، كما

(١) هي من تحايا المولود ، ومعناها : أبيت أن تفعل شيئاً تسب به .

تقدم ، أو أراد أبو هريرة رضى الله عنه العرب كلهم ؛ لسكثرة ملازمتهم الفلوات
التي بها مواقع القطر ، وهذا مُتَمَسِّكٌ مَنْ ذهب إلى أن جميع العرب من ولد
إسماعيل عليه السلام .

قال ابن حبان في صحيحه : كل من كان من ولد إسماعيل يقال له «ابن ماء
السماء» لأن إسماعيل ولد هاجر ، وقد ربي بماء زمزم وهى من ماء السماء، ورجح
عياض أن مراد أبي هريرة الأنصار خاصة ، ونسبتهم إلى جدهم المعروف بماء
السماء ، انتهى . ودلالته على أن قبائل اليمن كلها من ولد إسماعيل ظاهرة .^(١)

قال الحافظ ابن حجر : وهو الذى يترجح فى نقدى ، وقد ذكر ابن عبد البر من طريق
القعقاع بن أبى حذرر أن النبى صلى الله عليه وسلم «مرَّ بناس من أسلم وخزاعة وهم يتناضلون
فقال : ازمؤوا بنى إسماعيل» وأسلم وخزاعة قد تقدم نسبهما فى قبائل اليمن التى جماع
نسبتها قحطان ، ومما يؤيد ذلك قول المنذر بن عمرو جد حسان بن ثابت الأنصارى :

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر وحارثة الغطريف سمجداً مؤثلاً
مآثر من آل ابن نبت بن مالك ونبت بن إسماعيل ما إن تحوَّلا

وأول ذلك كله الخلفون بتأويلات بعيدة ، بل الذى أميل إليه أن العرب
كلهم من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، وإن لم يتم ذلك فالعرب الذين
لهم الشرف بالتقديم فى الكفاءة وغيرها شرعاً هم بنو إسماعيل ، ويدل له قول
بعض أصحابنا فى الإمامة : إذا لم يوجد قرشى مستجمع للشروط نصيب كنانى ،
فإن لم يكن فرجل من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، فإن تعذر انتقلنا
إلى العجم ، ولم يقولوا انتقلنا إلى بقية العرب ، لكن فى التتمة للمتولى : فإن لم
يوجد من ولد إسماعيل عليه السلام يولّى جرهمى ، وجرهم أصل العرب ، فإن
لم يوجد فرجل من ولد إسحاق عليه السلام ، اه . وهو مخالف لقول البغوى فى

(١) خلاصة هذا الكلام أن كلمة «ماء السماء» قد تطلق ويراد بها معنى النعم ، وهو
لقب عامر بن حارثة خاصة ، وقد تطلق ويراد بها اسم الجنس على معنى يابى الماء ، سواء كان
ماء المطر أم كان ماء زمزم ، وعلى الإطلاق الأول لا يقال إلا ما اتصل نسبه به عامر بن الحارث ،
على الثانى تطلق على كل عربى ، بل ويجوز أن تطلق على كل من يعيش عيش البدو .

التهذيب : فإن لم يوجد ولد لإسماعيل فمن العجم ، وأيضاً فالتولى جعل جرهما متأخرين عن ولد إسماعيل ، وجعل لهم فضلاً في الجملة على العجم ، كذا قدم بعض العجم على بعض ، وإسماعيل أبو العرب الذين شَرَفَ نسبهم بمشاركة نسبة أشرف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، وهو الأسُّ في ذلك ، وعربي اللسان لا عبرة به ، على أن في مستدرک الحاكم من حديث ابن عباس «أول من نطق بالعربية إسماعيل» لكن في الصحيح أن إسماعيل تعلم العربية من جرهم الذين نزلوا مع أمه .

قال ابن إسحاق : وكان جرهم وأخوه قطورا ابنا قحطان أول من تكلم بالعربية أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسن .

قلت : وهو جارٍ على رأى من يقول : إن العرب كلها ليست من ولد إسماعيل .

وروى الزبير بن بكار في النسب من حديث عليّ بإسناد حسن قال : أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل ؛ فهذا التقيّد يجمع بين الخبر المتقدم وبين ما في الصحيح ، فيكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان ، لا الأولية المطلقة ، فيكون بعد تعلم أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة ؛ فعلى تقدير تسليم أن العرب كلهم ليسوا من ولد إسماعيل فالمستحق للشرف إنما هو عربية إسماعيل ، فيمتاز بنوه بما تقدم .

وقال ابن دريد في الوشاح : أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ، ثم إسماعيل ، ونقل ابن هشام عن الشرقى أن عرييه إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم ، وكله جارٍ على خلاف ما قدمناه من أن العرب كلها من ولد إسماعيل ، والله أعلم .

وأم الأنصار في قول الكلبي : قَيْلَة بنت عمرو بن جَفْنَة ، وقال ابن حزم : أم الأنصار هي بنت الأرقم بن عمرو بن جَفْنَة بن عمرو مَزَيْقياء ، ويقال : بنت كاهل بن ونسبها

عذرة من قُضَاعَة ، وقضاعة من حمير عند الأكثر ، واشتهرت الأنصار ببنى قَيْلَة ولهم يقول القائل :

بِهَآئِلُ من أولاد قَيْلَة ، لم يَجِدْ عليهم خَلِيطٌ من مَخَالِطِ عَتَبَا
مَطَاعِيمُ في المَقَرَى ، مطاعين في الوغَى ، يَرَوْنَ عليهم فَعْلَ آبَائِهِمْ نَجْبًا ^(١)
وذكر رزين عن الشرقي عقب ما قدمناه عنه من أن الأنصار أصلهم الأوس
والخزرج وهما من ولد ثعلبة بن عمرو ، فقال : فولد لثعلبة بن عمرو بن حارثة
الأوس والخزرج ، وأمه قَيْلَة ؛ فولد الأوس مالكا ، ومن مالكا قبائل الأوس
كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم أوس الله ، وهم الجعادر ، سموها
بذلك لقصر فيهم .

قلت : وسيأتي ما يخالف هذا مع بيان قبائل الأوس المنتشرة من هؤلاء .
وروى الخرائطي أنه لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو الوفاة
اجتمع عليه قوم — ٤ — ، فقالوا : قد حضر من أسر الله ما ترى ، وقد كنا نأمرك في
شبابك أن تتزوج فتاة ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين وليس لك ولد غير
مالك ، فقال : لن يهلك هالك ، ترك مثل مالك ، إن الذي يخرج النار من الرينة ^(٢)
قادر أن يجعل لمالك نسلا ، ورجالا بُسْلا ، وكل إلى موت ، ثم أقبل على مالك
فقال : أي بُنَى ، المنية ولا الدَّيْية ، وذكر حكما سجع بها ، قال : ثم
أنشأ يقول :

شَهِدْتُ السَّبَايا يوم آلٍ مُحَرَّقِ وَأَدْرَكَ عُمرِي صَيْحَةَ الله في الحِجْرِ
فلم أر ذا مُلْكٍ من الناس واحداً ولا شوقه إلا إلى الموت والقبْرِ
فعلَّ الذي أَرْدَى ثموداً وجُرُّها سَيِّقِبُ لي نسلا على آخر الدهر
تقر بهم من آل عمرو بن عامر عيون لدى الداعي إلى طلب الوترِ
فإن تكن الأيام أَبْلَيْنَ جِدَّتِي وشيين رأسي والمشيبُ مع العمرِ

(١) المَقَرَى : اسم مكان من القَرَى ، وهو الضيافة ، والنجب ، بالفتح ، النذر
أراد أنهم يرون الاقتداء بآبائهم نذراً يجب الوفاء به . (٢) كذا

فإن لنا ربًّا علا فوق عرشِهِ عليا بما يأتي من الخير والشر
 ألم يأت قومي أن الله دَعَا دَعْوَةً يفوز بها أهلُ السعادة والبرِّ
 إذا بُعِثَ المبعوث من آل غالب بمكة فيما بين زمزم والحِجْر
 هنالك فابغُوا نصرَه ببلادكم بنى عامر؛ إن السعادة في النصر^(١)
 ثم قضى من ساعته .

وقال ابن حزم : إن بنى عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس كانوا كلهم بعمان
 لم يكن منهم بالمدينة أحد ؛ فليسوا من الأنصار .
 قال الشرقى : وولد الخزرج بن حارثة أخو الأوس أيضاً خمس بنين ، وتفرقوا
 بطوناً كثيرة .

قلت : وهم عمرو ، وعوف ، وجُشم ، وكعب ، والحارث ، وسيأتي بيان
 ما انتشر من قبائلهم .

وقال ابن حزم : إن عقب السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج لم يكن
 منهم أحد بالمدينة ، كانوا بعمان ؛ فليسوا من الأنصار ، وذكر نحو ذلك في بعض
 بنى الحارث بن الخزرج الأكبر كما سيأتي ، وذكر أيضاً أن بعض بنى جَفَنَةَ بن
 عمرو مزيقياء كانوا بالمدينة في عداد الأنصار ، والله أعلم .

الفصل الرابع

في تمكنهم بالمدينة ، وظهورهم على يهود ، وما اتفق لهم مع تبع
 قال الشرقى : لما قدمت الأوس والخزرج المدينة تفرقوا في عالياتها وسافلتها ،
 ومنهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل في قراهم ، ومنهم من نزل وحده لا مع
 بنى إسرائيل ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى بنى إسرائيل ، وكانت
 الثروة في بنى إسرائيل ، كانوا نيقاً على عشرين قبيلة ، ولهم قُرَى أعدوا بها
 الأظام ، فنزلت الأوس والخزرج بينهم وحواليهم .

(١) ابغوا : اطلبوا ، يأمرهم إذا بعث النبي العربي أن ينصروه ويؤيدوه .

إقامة الأوس والخزرج مع اليهود
وقال ابن زبالة عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : أقامت الأوس والخزرج بالمدينة ، ووجدوا الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثت الأوس والخزرج ما شاء الله ، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به من سواهم ، فتعقدوا وتحالفوا واشتركوأوتعاملوا ، فلم يزالوا على ذلك زمناً طويلاً ، وأميرت^(١) الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، فلما رأيت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم ، وكانت قريظة والنضير أعداء^(٢) وأكثر ، وكان يقال لهما الكاهنان ، وبنو الصريح ، وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم مُثنياً عليهم :

كنا إذا رامنا قومٌ بمظامة شدت لنا الكاهنان الخيل واعتزموا
نسوا الرهون وآسونا بأنفسهم بنو الصريح فقد عفوا وقد كرموا
فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم خائفين أن تجلبهم يهود ، حتى نجم^(٣) منهم مالك بن العجلان أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج وسودده^(٤) الحيان الأوس والخزرج ، وكان الفطيون — أى بالفاء للكسورة ، وقال ياقوت : الفيطون — ملك اليهود بزهره ، وكانت لا تهدي عروس بيثرب من الحيين الأوس والخزرج حتى تدخل عليه فيكون هو الذي يفتضها قبل زوجها ، فترزجت أخت مالك بن العجلان رجلاً من قومها ، فبينما مالك في نادى قومه إذ خرجت أخته فضلاً ، فنظر إليها أهل المجلس ، فسق ذلك على مالك ، ودخل فعنفها وأنبها ، فقالت : ما يصنع بي غداً أعظم من ذلك ، أهدى إلى غير زوجي ، فلما أمسى مالك اشتمل على السيف ودخل على الفطيون متكرراً مع النساء ، فلما خف من^(٥) عنده عدا عليه فقتله وانصرف إلى دار قومه ، ثم بعث هو

قصة الفطيون
ملك اليهود
الطاغية

(١) أمرت - بكسر الميم - زادت وكثرت . (٢) أعد : أكثر عدداً
(٣) نجم : ظهر . (٤) سودده : صيره سيداً عليهم . (٥) خف من عنده : ذهبوا

وجاعة من قومه إلى مَنْ وقع بالشام من قومهم يخبرونهم بحالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود ، وكان رسولهم الرمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج ، وكان قبيحاً دميماً شاعراً بليغاً ، فمضى حتى قدم على أبي جُبَيْلَة أحد بني جُشَم بن الخزرج الذين ساروا من يثرب إلى الشام ، وقال بعضهم : كان أبو جُبَيْلَة من ولد جَفْنَة بن عمرو بن عامر قد أصاب ملكاً بالشام وشرقاً . قلت : قد تقدم أن أبناء جَفْنَة من غَسَّان ، وكانوا بالشام ملوكاً . ولم ذكر ابن حزم^(١) بني جُشَم بن الخزرج قال : فولد جُشَم غضب ، فولد غضب مالك ، فولد مالك عبد حارثة ، فولد عبد حارثة حبيب ، فولد حبيب عبد الله ، فولد عبد الله أبا جُبَيْلَة الملك الغساني الذي جَلَبَه مالكُ بن العجلان لقتل اليهود ، انتهى .

وفيه نظر ؛ إذ ليس من بطون الخزرج غساني كما يؤخذ مما قدمناه عن ابن حزم أيضاً ، والمشهور ما قدمناه ، قالوا : فشكا إليه حالهم وغلبة اليهود عليهم ، وما يتخوفون منهم ، وأنهم يخشون أن يخرجوهم . وأنشده من شعره . فتعجب من شعره وبلاغته وقبحه ودمايته ، وقال : عَسَل طيب في وعاء خبيث . فقال الرمق : أيها الملك ، إنما يُحْتَاج من الرجل إلى أَصْغَرِيهِ لِسَانِهِ وقلبه . فقال : صدقت ؛ وأقبل أبو جُبَيْلَة في جمع كثير لنصرة الأوس والخزرج . كذا قاله ابن زبالة .

وقد نقل رزين عن الشرق ما يقتضي أن مالك بن العجلان هو الذي توجه بنفسه ، وأن ما ذكر من سيرة الفُطَيَّوْن في افتضاض الأبقار إنما كانت في غير الأوس والخزرج ، وأنه أراد أن يسير فيهم بذلك ، فقتله مالك بن العجلان ، فإنه قال : إن الفُطَيَّوْن كان قد شَرَطَ أن لا تدخل امرأة على زوجها حتى تدخل عليه ، فلما سكن الأوس والخزرجُ المدينةَ أراد أن يسير فيهم بتلك السيرة ؛ فتزوجت أخت مالك بن العجلان رجلاً من بني سليم ، فأرسل الفُطَيَّوْنُ رسولا في ذلك

(١) انظر جهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٣٦

وكان مالك أخوها غائباً ، فخرجت تطلبه ، فمرت بقوم أخوها فيهم ، فنادته ، فقال أخوها : لقد جئت بسببة يا هنتاه ، تناديني ولا تستحي ؟ فقالت : الذي يراد بي أكبر ، فأخبرته ، فقال لها : أ ك ف ي ك ذلك ، فقالت : وكيف ؟ فقال : أنزياً بزى النساء وأدخل معك عليه بالسيف فأقتله ، ففعل ، ثم خرج حتى قدم الشام فنزل على أبي جبيلة ، وكان نزها حين نزلوا هم المدينة ، فجيش جيشاً عظيماً ، وأقبل كأنه يريد اليمن واختفى معهم مالك بن العجلان ، فجاء فنزل بذى حرض ، وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم وأعطاهم ، ثم أرسل إلى بنى إسرائيل — يعنى اليهود — وقال : مَنْ أراد الحباء^(١) من الملك فليخرج إليه ، وإنما فعل ذلك خيفة أن يتحصنوا فى الحصون فلا يقدر عليهم ، فخرج إليه أشراف بنى إسرائيل كلهم ، فأمرهم بطعام حتى اجتمعوا ، فقتلهم من عند آخرهم ، فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة ؛ ففى ذلك يقول البَلَوَى يمدح مالكا فيما فعل :

فليشهدنَّ بما أقولُ عصابةً بَلَوِيَّةٌ وعصابة من سالم
هل كان للافطيوين عُقرنساكم حكم النصيب وليس حكم الحاكم
حتى حباه مالكٌ عن عرسه حمراء تضحك عن نجيع قائم

ثم ذكر أرباباً نسبها إلى أبى يزيد بن سالم أحد بنى سالم بن عوف بن الخزرج مدح بها أبا جبيلة ونسبها ابن زبالة للرمق فإنه قال : إن الأوس والخزرج قالوا لأبى جبيلة لما قدم لنصرهم : إن علم القوم ما تريد تحصنوا فى آطامهم فلم تقدر عليهم ، ولكن ادعهم للقائك وتلفظهم حتى يأمنوك ويطمئنوا فتستمكن منهم ، فصنع لهم طعاماً وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم ، فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه ، وجعل الرجل منهم يأتى بحامته وحشمه^(٢) رجاء أن يحبهم ، وكان قد بئى لهم حيزاً وجعل فيه قوماً فأمرهم أن يقتلوا مَنْ دخل عليهم منهم ، ففعلوا حتى أتوا على

(١) الحباء — بزة الكتاب — العطاء

(٢) حامة الرجل : خاضته من أهله وولده ، والحشم : كالخدم وزنا ومعنى

وجوهم ورؤسائهم ، فعزت الأوس والخزرج بالمدينة ، واتخذوا الديار والأموال والآطام ، فقال الرميثي على أبي جُبَيْلَة :

لم تقض دينك من حسان وقد عنيت وقد عنينا
قضيت همك في الحسان فقد عنيت وقد عنينا

وفي رواية رزين :

الراشقات المرشقات تالجات بماجزينا
أمثال غزلان الصَّرا ثم يأنزرن ويرتدنا
الرَّيْطَ والدَّيْبَاجَ والْحَلَى المِفْصَلَ والْبُرَيْنَا^(١)
وأبو جُبَيْلَة خير من يمشى ، وأوفاه يمينا
وأبرَّهُمُ برأ وأعلمهم يَهْدِي الصالحينا
القائد الخليل الصوا نع بالكَمَاة المَعْلَمِينَا
أبقت لنا الأيام والْحَرْبُ المَلْمَة تَعْرِينَا
كَبْشًا له در يغفل متونها الذكر السمينَا
ومَعَاقِلًا سُتْمًا وأسيفًا يقمن وينحنينا
ومحالة زوراء تَجْحَف بالرجال الظالمينا

وفي بعض الروايات أن مالك بن العَجْلان لما قتل الفِطْيُون قصد اليمن إلى تَبَع الأصغر ؛ فشكا إليه ما كان الفِطْيُونُ يسير فيهم ، فعاهد أن لا يقرب امرأة ولا يمس طيباً ولا يشرب خمرًا حتى يسير إلى المدينة ويذل من بها من اليهود ؛ ففعل ذلك .

وذكر ابن قتيبة في معارفه تَبَع بن حسان ، قال : وهو تبع الأصغر آخر التبابعة ، وذكر أنه صار إلى الشام وملوكها غسان فأطاعته ، قال : وصار إلى ابن أخيه الحارث وهو المستقر من ناحية هَجَرَ فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن

(١) البرين : جمع برة - بضم الباء وفتح الراء مخففة - كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال ، وتجمع أيضاً على برى مثل مدى

خرج مع عمرو مُزَيَّقِيَاءَ وَحَاكُفُوا الْيَهُودَ يَبْثِرُ - أَيْ وَهُمْ الْأَنْصَارُ - فَشَكَّوْا
اليهود ، وذكروا سوء مجاورتهم ، وَنَقَضَهُمُ الشَّرْطَ الَّذِي شَرَطُوهُ لَهُمْ عِنْدَ نَزْوِهِمْ ،
وَمَثُّوا^(١) إِلَيْهِ بِالرَّحِمِ ، فَأَخْفَظَهُ ذَلِكَ^(٢) ، فَصَارَ إِلَى يَثْرَبٍ وَنَزَلَ فِي سَفْحِ أَحَدٍ ، وَبَعَثَ
إِلَى الْيَهُودِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ رَجُلًا صَبْرًا ، وَأَرَادَ خَرَابَهَا ، فَقَامَ إِلَيْهِ
رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ سَنَةً فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، مِثْلُكَ
لَا يَقْتُلُ عَلَى الْغَضَبِ ، وَأَمْرُكَ أَكْثَمُ مِنْ أَنْ يُطِيرَ بِكَ بَرْقٌ أَوْ يُسْرِعَ بِكَ الْجَاحُ ،
فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْرِبَ هَذِهِ الْقَرْيَةَ ، قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ : لِأَنَّهَا مُهَاجَرٌ نَبِيٌّ مِنْ
وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ يُخْرِجُ مِنْ عِنْدِ هَذِهِ الْبَيْتَةِ ، يَعْنِي الْبَيْتَ الْحَرَامَ ، فَكَفَّ تَبِعَ وَمَضَى وَمَعَهُ
هَذَا الْيَهُودِيُّ وَرَجُلٌ آخَرٌ مِنَ الْيَهُودِ عَالِمٌ ، وَهُمَا الْخَبْرَانُ ، فَأَتَى مَكَّةَ ، وَكَسَا الْبَيْتَ
ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْيَمَنِ وَمَعَهُ الْخَبْرَانُ وَقَدْ دَانَ بَيْنَهُمَا وَأَمَّنَ بِمُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، اه .
فَلَعَلَ مَالِكُ بْنُ الْعَجْلَانَ كَانَ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى جِهَةِ مَلِكِ غَسَّانَ وَبِهَا تُبْعُ الْمَذْكُورُ
فَوَقَعَ مِنْ كُلِّ مَنَهُمَا نَصْرُهُ ، فَأَضَافَهُ قَوْمٌ إِلَى تَبِعٍ ، وَقَوْمٌ إِلَى أَبِي جُبَيْلَةَ الْغَسَّانِي .
قَالُوا : وَلَعْنَتُ الْيَهُودُ مَالِكُ بْنُ الْعَجْلَانَ فِي كِنَائِهِمْ وَبُيُوتِ عِبَادَتِهِمْ ،
فَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

تَحَامَى الْيَهُودُ بَتَّلَاعَانِيَا تَحَامَى الْحَجِرُ بِأَبُو الْهَلَا^(٣)
وَمَاذَا عَلَى بَأْنٍ يَلْعَنُوا وَتَأْنِي الْمَنَايَا بِإِذْلَالِهَا

وَقَالَتْ سَارَةُ الْقُرْظِيَّةُ تَرْتِي مِنْ قَتْلٍ مِنْ قَوْمِهَا :

بِأَهْلِي رِمَّةٌ لَمْ تَغْنِ شَيْئًا بِذِي حَرَضٍ تَعْفِيهَا الرِّيحُ
كَهَوْلٍ مِنْ قَرِيظَةٍ أَتْلَفْتَهُمْ سَيُوفُ الْخَزْرَجِيَّةِ وَالرَّمَا حُ
وَلَوْ أَذْنُوا بِأَمْرِهِمْ خَلَّاتِ هُنَالِكَ دُونَهُمْ حَرْبُ رَدَّاحٍ^(٤)

قَالَ أَهْلُ السَّيْرِ : ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو جُبَيْلَةَ رَاجِعًا إِلَى الشَّامِ ، وَقَدْ ذَلَّلَ الْحِجَازَ
وَالْمَدِينَةَ ، وَمَهَّدَهَا لِلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ .

(١) تقول : مَثُّ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ بِأَصْرَةٍ ، تَرِيدُ أَنْهُ وَصَلَ نَفْسَهُ بِهِ (٢) أَخْفَظَهُ : أَغْضَبَهُ

(٣) التَّلْعَانُ : اللَّعْنُ (٤) حَرْبُ رَدَّاحٍ - بَزْنَةُ سَحَابٍ - ثَقِيلَةٌ تَضُمُّ كِتَابَةَ جَرَارَةٍ

ونقل المجد عن ياقوت أن تُبْعَا كان بالمدينة ، فإنه قال : وعكس ياقوت قصة افتضاض الأبقار ؛ فجعل أنها كانت باليمامة ، وأن أهل المدينة مع تُبْع هم الذين أزالوا هذه الفضيحة من اليمامة ، ثم أورد كلام ياقوت ، وليس مضمونه ما ذكره ؛ بل مضمونه أن مَنْ كان يُفْعَلُ فيهم هذه الفضيحة باليمامة احتالوا في دفعها وقتلوا من كان يفعل بهم ذلك وغلبوا عليهم ، فهرب منهم شخص ولحق بتبع فنصره تبع مع أهل المدينة ، وهو خبر ممتنع فلمورده تبع المجد ، قال ياقوت : إن طسما وجد يسا من ولد لاوذ بن إرم بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام أقاموا باليمامة ، وكثروا بها ، حتى ملكوا عليهم عمليق الطسمى - وكان جبارا غشوما ، وكان قد قضى بقضاء جائر بين امرأة وزوجها من جديس ، فأنشدت المرأة أبياتا بلغته ، فأمر ألا لا تُزَوَّجَ بكر من جديس حتى تدخل عليه فيكون هو الذي يفتريها^(١) - ولقوا منه ذلا ، حتى زوجت منهم أخت الأسود بن غفار سيد جديس ، وكان جلدًا ، فلما كانت ليلة الإهداء خرجت والقيان^(٢) حولها لتُحْمَلَ إلى عمليق وهن يضربن بمعاظهن ويَقْلُن :

أَبْدَى بِعَمَلِيْق وَقُوْرِيْ فَارَكِيْ وَبَادِرِي الصَّبْحَ بِأَمْرِ مَعْجَبِ
فَسَوْفَ تَلْقَيْنَ الَّذِي لَمْ تَطْلُبِيْ وَمَا لِبَكْرٍ دُونَهُ مِنْ مَهْرَبِ
ثُمَّ أَدَخَلْتَ عَلَى عَمَلِيْق فَافْتَرَعَهَا ، وَقِيلَ : كَانَتْ أَيْدَةً^(٣) ، فَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ ،
فَخَافَ الْعَارَ فَوَجَّأَهَا^(٤) بِحَدِيدَةٍ فِي قُبْلِهَا فَأَدَمَاهَا ، فَخَرَجَتْ وَقَدْ تَقَاصَرَتْ إِلَيْهَا نَفْسُهَا
فَشَقَّتْ ثَوْبَهَا مِنْ خَلْفِهَا وَدَمَاوَهَا تَسِيلَ ، فَفَرَّتْ بِأَخِيهَا فِي جَمْعٍ مِنْ قَوْمِهِ وَهِيَ
تَبْكِي وَتَقُول :

لَا أَحَدٌ أَذَلَّ مِنْ جَدِّيسَ أَهْلَكَذَا يَفْعَلُ بِالْعُرُوسِ^(٥)

فِي أَبِيَات ، فَأَغْضَبَ ذَلِكَ أَخَاهَا ، وَوَقَفَهَا عَلَى نَادَى قَوْمِهِ ، وَهِيَ تَقُول :

(١) يفتريها : يفتضها ويزيل بكارتها (٢) القيان : جمع فينة ، وهي الجارية المعنية

(٣) أيدة : شديدة قوية (٤) وجأها : ضربها ووخزها

(٥) ذكر ياقوت مع هذا البيت بيتين آخرين (٥١٧/٨)

أَيَجْمَلُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى فَتَيَاتِكُمْ
أَيَجْمَلُ تَمْشِي فِي الدِّمَا فَتَيَاتِكُمْ
فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَقْضُوا بِعَدِّ هَذِهِ
وَدُونَكُمْ ثَوْبَ الْعُرُوسِ فَإِنَّهَا
فَلَوْ أَنْتُمْ كُنَّا رِجَالًا وَكُنْتُمْ
فَقَمُونُوا كِرَامًا أَوْ أَمِيَّتُوا عَدُوَكُمْ
وَلَا فَخْلًا بَطْنُهَا وَتَحَمَّلُوا
فَلَمُوتٍ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى أَذَى
فَدَبُّوا إِلَيْهِ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَاقِنِ
وَلَا تَجْزَعُوا لِلْحَرْبِ قَوْمِي فَإِنَّمَا
فِيهِلِكَ فِيهَا كُلُّ وَغْلٍ مَوَاكِلِ
فَامْتَلَأَتْ جَدِيسٌ غِيظًا ، وَنَكَسُوا رُءُوسَهُمْ حَيَاءً ، وَتَشَاوَرُوا فِي الْأَمْرِ ، فَقَالَ
الْأَسْوَدُ : أَطِيعُونِي فَإِنَّهُ عِزُّ الدَّهْرِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَصْنَعَ الْمَلِكَ طَعَامًا ثُمَّ أَدْعُوهُ
وَقَوْمَهُ ، فَإِذَا جَاءُونَا قَتَلْتُ الْمَلِكَ ، وَقَامَ كُلُّ مَنْكُمُ إِلَى رَأْسِ مَنْهُمْ فَقَتَلَهُ ، فَلَا يَبْقَى
لِلْبَاقِينَ قُوَّةٌ ، فَتَنَبَّهْتُمْ أُخْتُ الْأَسْوَدِ عَنِ الْغَدْرِ ، وَقَالَتْ : نَاجِزْهُمْ فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ
يَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ لظلمهم ؛ فَعَصَوْهَا فَقَالَتْ :
لَا تَغْدُرْنَ فَإِنَّ الْغَدْرَ مَنَقَصَةٌ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ تِلْكَ غَدَاةٍ
حُشُّوا سَعِيرًا لَهُمْ فِيهَا مُنَاجَزَةٌ
فَأَجَابَهَا أَخُوهَا :
شَتَانُ بَاغٍ عَلَيْنَا غَيْرُ مَثْدٍ
إِنَّا لَعَمْرُكَ لَا نَبْدِي مُنَاجَزَةً
يُخْشَى الظَّلَامَةُ لَا يَبْقَى وَلَنْ يَذْأَ
نَخَافُ مِنْهَا صُرُوفَ الدَّهْرِ مِنْ ظَفَرٍ

- (١) حفظي من عهد الطلب « أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم »
(٢) حفظي « وتصبح تمشي في الدماء عفيرة » (٣) في ياقوت « وللهزل خير من مقام على ثكل »
(٤) حش النار : أوقدها ، وفي المطبوعات « جيشوا » وفي ياقوت « حسوا »
وكلاهما تطبيع .

إني زعيم بطسم حين تحضرنا عند الطعام بضرب يهتك الفقرا^(١)
وصنع الأسود الطعام ، ودفن كل منهم سيفه تحته في الرمل مجرّدا ، فلما
جلس الملك وقومه للأكل وثبت عليهم جديس حتى أبادوهم ، ثم قتلوا باقيهم ،
فهرب رجل من طنسم حتى لحق بتبع تبان أسعد بن كلكيكرب ، وقيل :
بحسان بن تبع الجيرى وكان بالمدينة ، فاستغاثه ، وذكر أبياتا فيها غدر جديس
بهم ، فوعده بنصره ، ثم رأى منه تباطؤا فقال :

إني طلبت لأوتارى ومظلمتي بآل حسان آل العز والكرم
المنعمين إذا ما نعمة ذكرت والواصلين بلا قرّبي ولا رجم

قصة
زرقاء اليمامة

في أبيات أخرى ، فسار تبع من المدينة في جيوشه ، حتى [إذا] كان عند جبل على
ليلة من اليمامة قال له الطسمى : توقف أيها الملك فإن لى أختا متزوجة في جديس
يقال لها يمامة أبصر خلق الله على بعد ، وإني أخاف أن ترانا فتندّرهم بنا ، فأقام
تبع ، وأمر رجلا فصعد الجبل ليرى ما هناك ، فدخل في رجليه شوكة بالجبل ،
فأكب يستخرجها ، فأبصرته اليمامة ، وكانت زرقاء العين ، فقالت لهم : إني أرى
على الجبل الفلاني رجلا وما أظنه إلا عينا^(٢) ، فقالوا : ما يصنع ؟ فقالت : إما يخرّص^(٣)
نعلًا أو ينهش كتفًا ، فكذبوها ، ثم قال الطسمى لتبع : إن بصرها بالليل أنفذ
فر أصحابك ليقطعوامن الشجر أغصانا ليستتروا بها فيشبها^(٤) عليها الأمر ، ففعلوا ،
حتى إذا دنوا من اليمامة ليلا ؛ فنظرت اليمامة فقالت : يا جديس سارت إليكم
الشجر ، أو جاءكم أوائل خيل حمير ، فكذبوها ، فصعبحتهم حمير ، فهرب
الأسود في نفر من قومه لجبل طيء وفتح أهل المدينة حصون اليمامة ، وامتنع
عليهم حصن زرقاء اليمامة ؛ فصابره تبع حتى افتتحه ، وقبض عليها ، وسأها :
كيف أبصرتهم ؟ فأخبرته بخبر الذى صعد الجبل ، فسأله تبع ، فقال : صعدت
فانقطع شراك نعلي وأصابتني شوكة ؛ فعاجلت إصلاحها وإصلاح قبالي بقمى ،

(١) الفقر : جمع ققرة ، وهى الواحدة من خرزات الظهر

(٢) العين ، هنا : الجاسوس (٣) يخرّص : يرقع (٤) يشبهوا عليها : يلبسوا عليها الأمر.

فقال لها: أنى لك هذا^(١)؟ قالت: كنت أخذ حَجَرًا أسود فأدقّه وأكثحل به؛ فكان يقوى بصرى، فيقال: إنها أول من اكتحل بالإثمد، فأمر تبع بقلع عينيها ليرى ما فيهما، فوجد عروقهما كلها محشوة بالإثمد، وخربت اليمامة يومئذ؛ لأن تبعًا قتل أهلها، ولم يخلف بها أحدا، ورجع إلى المدينة.

هذا ما ذكره المجد عن ياقوت باختصار، وليس فيه عكس القضية؛ فيجوز أن يقع بكل من اليمامة والمدينة مثل هذا، والظاهر أن قصة اليمامة كانت بعد قصة المدينة.

ونقل رزين عن الشرق أن أباجبيلة لما فرغ من نصر أهل المدينة رجع إلى الشام؛ فأقبل تبع الأخير - وهو كرب بن حسان بن أسعد الحميري، والتبابعة كلهم من حمير - يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل؛ فمرّ بالمدينة، فخلف فيها ابنا له ومضى حتى قدم الشام، ثم سار حتى قدم العراق، فلما كان بالعراق قُتِلَ ابنه بالمدينة غيلة^(٢) فأقبل راجعا يريد تخريب المدينة، فنزل بسفح أحد، فاحتفر بئرا ثم أرسل إلى أشراف المدينة، فلما جاءهم الرسول قال بعضهم: إنما أراد أن يملكنا على قومنا، وقال أحبيحة: والله ما دعاكم لخير، وكان لأحبيحة رُئي من الجن^(٣) فخرجوا وخرج أحبيحة معه بقينة وخمر وخباء، فضرب الخباء وجعل فيه القينة والخمر، ثم دخل على تبع أول الناس. فتحدث معه، ففطن بالشر، ثم قال: إن أصحابي يصلونك إلى الظهر، فاستأذن في الخروج إلى الخيمة، فأذن له، فشرب وجعلت القينة تُغنيه بأبيات صنّعها لها تقول:

-
- (١) أنى لك هذا: من أين لك هذا، وفي القرآن الكريم: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال: يا صريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله)
 (٢) قتله غيلة: أى غدرًا من غير أن يظهر القاتل له ويناجزه
 (٢) كان أهل الجاهلية يعتقدون أن لسلك كاهن صاحبًا من الجن يسترق له السمع ويلقى عليه ما يسمعه، وقد حكى القرآن الكريم استراق السمع على لسان الجن.

لتبكي قينة ومزهرها وتبكي قهوة وشاربها
وتبكي عصبه إذا اجتمعت لا يعلم الناس ما عواقبها

وهو يقل من الشراب ، وجاء أصحابه قريبا من الليل ، فأمرهم تبع بضيافة ، فلما كان في جوف الليل أرسل إليهم ليقتلهم ، ففطن أحبيحة ، فقال للقينة : أنا سائر إلى أهلي ، فإذا طلبني الملك فقل : هو نائم ، فإذا ألحوا فقل : يقول لك : أما أحبيحة فقد ذهب فأغدر بقينته أو دغ ، وانطلق فتحصن في حصنه ، فحاصروه ثلاثا يقاتلهم بالنهار ، وإذا كان بالليل يرى إليهم يتمر ويقول : هذا ضيافتكم . فأخبروا تبعا أنه في حصن حصين ، فأمرهم أن يحرقوا نخله ، واشتعلت الحرب بين تبع وأهل المدينة من اليهود والأوس والخزرج ، وتحصنوا في الآطام ، فخرج رجل من أصحاب تبع حتى جاء بني عدي بن النجار ، فدخل لهم حديقة ، فرقى على عذق منها . فأخذ يجده^(١) ، فنزل إليه صاحب العذق فقتله وجره إلى بئر وألقاه فيها ، وهو يقول :

جانا يجده نخيلا وكان الجداد لمن قد أبره^(٢)

فزاد ذلك تبعا حنقا^(٣) ، وجرى إلى بني النجار خيلا ، فقاتلهم بنو النجار ورئيسهم يومئذ عمرو بن طلحة أخو بني معاوية بن مالك بن النجار ، ورمى عسكر تبع حصون الأنصار بالنبل ، فلقد جاء الإسلام والنبل فيها ، وجرى في القتال فرس تبع خلف لا يبرح حتى يخر بها بزعمه ، فسمع بذلك أحبار من اليهود فنزلوا إليه وقالوا : أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة ، فإننا نجد اسمها في الكتاب طيبة ، وإنها مهاجرة^(٤) بني إسماعيل من الحرم ، وهي تكون قراره فلن تسلط عليها ، فأعجب تبع بقولهم ، فصرف تبع نيته عنها ، وأمر أهل المدينة فتبايعوا مع العسكر ، وكان تبع قد استوبا

(١) يجده : يقطعه ، والعذق ، بالكسر : سباطة النخل

(٢) أبر النخل بأبره - من باب ضرب - أصلحه ، والبيت لا يستقيم صدره مع عجزه

(٣) الحنق - بالتحريك - الغضب (٤) مهاجرة بني : مكان هجرته

بثره^(١) التي حفر، فرض، فجاءته امرأة من بنى زريق اسمها فكهة براوية^(٢) من بثر رؤومة فأعجبه فاستلذه، فلما كان رحيله قال لها: يافكهة مانترك في موضعنا من شيء إذا رحلنا فهو لك، فأخذت ذلك، فاستغنت منه، وخرج تبع يريد اليمن ومعه من الأخبار الذين نهوه عن خراب المدينة رجلان أو ثلاثة، فقال لهم: تسيرون معي أياما آانسُ بحديثكم، فكانوا يحدثونه عن الكتاب وعن قصة النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يتركهم حتى وصلوا معه إلى اليمن؛ فهم كانوا أول يهودي دخل اليمن، واتفق في مسيره قصة إكسائه الكعبة.

وقد قدمنا في بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل ملك اليهود قصد اليمن إلى تبع الأصغر، وأنه الذي نصرهم على يهود، ولعل هذا مراد ياقوت لقوله «إن يهود كانوا أهل المدينة حتى أتاهم تبع فأزل معهم بنى عمرو بن عوف» لكن نقل المجد وغيره عن المبتدأ لابن إسحاق أنه قال في بيت أبي أيوب الذي نزل به النبي صلى الله عليه وسلم مَتمدَمَه^(٣) المدينة: إن تبعاً الأول بناه لما سر بالمدينة، قال في المبتدأ: واسمه تبان أسعد بن كلـكـيكرب، وكان معه أربع مائة عالم، فتعاقدوا على أن لا يخرجوا منها، فسألهم تبع عن سر ذلك، فقالوا: إنا نجد في كتبنا أن نبياً اسمه محمد هذه دار مهاجرة؛ فنحن نقيم لعل أن نلقاه، فأراد تبع الإقامة معهم، ثم بنى لكل واحد من أولئك دارا واشترى له جارية وزوجها منه وأعطاه مالا جزيلا، وكتب كتاباً فيه إسلامه، ومنه:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم^(٤)
فلو مدَّ عمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

وختمه بالذهب ودفعه إلى كبيرهم، وسأله أن يدفعه إلى النبي صلى الله عليه

(١) استوباه: وجده وبثا (٢) الراوية: المازدة مملوءة ماء

(٣) مقدمة المدينة: يعني في وقت قدومه إليها.

(٤) الباري: أصله الباريء، ومعناه الخالق، والنسم: جمع نسمة

وسلم إن أدركه ، وإلا فَمَنْ أدركه من ولده أو ولد ولده ، وَبَنَى للنبي صلى الله عليه وسلم دارا لينزلها إذا قدم المدينة ، فتداول الدارَ الملاكُ إلى أن صارت لأبي أيوب وهو من ولد ذلك العالم ، وأهل المدينة الذين نصره كلهم من أولاد أولئك العلماء ، انتهى .

زاد غير المجد : ويقال : إن الكتاب الذى فيه الشعر كان عند أبي أيوب حين نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فدفعه له ، وهو غريب ، وكتب التواريخ متظاهرة^(١) على ما قدمناه في أمر الأنصار ونسبهم .
وقد ذكر السهيلي إيمان تَبَعَ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر البيتين ، وروى حديث « لَا تَسُبُّوا تَبِعًا فَإِنَّهُ كَانَ مَوْئِنًا » .

وروى عبد الرزاق عن وَهْب بن منبه قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سب أسعد وهو تبع . قال وهب : وكان على دين إبراهيم .
وروى أحمد من حديث سَهْل بن سعيد رفعه « لَا تَسُبُّوا تَبِعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ » وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس مثله ، وإسناده أصلح من إسناد سهل ، وأما مارواه عبد الرزاق عن أبي هريرة مرفوعا « لَا أَدْرِي تَبِعٌ كَانَ لَعِينًا أَمْ لَا » فمحمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم بحاله .

وقال المرجاني : إن أبا كرب بن أسعد الحميري آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعائة سنة ، وقال : * شهدت على أحمد — البيتين المقدمين *
وإن أباه أسعد هو تَبِعُ الذى كسا الكعبة ، ونقله عن حكاية ابن قتيبة ، والذى رأيته في المعارف^(٢) لابن قتيبة أن أسعد أبا كرب الحميري هو الموصوف بما ذكره ..

(١) متظاهرة : متساندة يقوى بعضها بعضا ؛ لأنها متفقة في هذا الذى يذكره .

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة (طبع الإسلامية في سنة ١٣٥٣ ص ٢٧٤) وقد

أشار إلى خلاف فيمن كسا البيت أهو تبع الأوسط أم تبع الآخر ، ولكنه لم يذكر خلافا في أن الذى آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم هو أسعد أبو كرب بن كليكرب ، كما ذكر أن الذى ذهب إلى جديس هو حسان بن تبع

وروى ابن زبالة أن تبعاً لما قدم المدينة وأراد إخراجها جاءه حَبْرَان من قَرْيَظَة يقال لهما سحيت ومنبه فقالا : أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوفة ، وإنها مهاجر نبي من بني إسماعيل اسمه أحمد يخرج في آخر الزمان ، فأعجبه ما سمع منهما ، فصدقهما وكف^(١) عن أهل المدينة .

الفصل الخامس

في منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود ، وشيء من آطامهم ، ومادخل بينهم من الحروب ، وهو نافع في معرفة جهات المساجد التي لا تعرف اليوم ، وغير ذلك .
اعلم أن ابن زبالة نقل ما حصله أن الأوس والخزرج بعد انصراف أبي جُبَيْلَة ونصره لهم تفرقوا في عالية المدينة وسافلتها ، واتخذوا الأموال والآطام ، فنزل بنو عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج الأصغر وبنو حارثة بن الحارث ابن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة فكلاهما من الأوس دَارَ بنى عبد الأشهل قبلى دار بنى ظفر مع طرف الحرة الشرقية ، قاله المطرى ، والذي يظهر لى أن منازلهم كانت قريبة من منازل بنى ظفر في شاميها وتمتد إلى الحرة المعروفة اليوم بدشم وما حولها ، بل سيأتى في ترجمة الخندق ما يقتضى أن منازلهم كانت بالقرب من الشيخين^(٢) . وابتنى بنو عبد الأشهل أطماً يقال له « واقم » وبه سميت الناحية واقما ، وكان الحضير بن سمالك ، وله يقول شاعرهم :
نحن بنينا واقماً بالحرة بلأزب الطين وبالأصرة
وله يقول خُفَاف بن نَدْبَة :

(١) كف عنهم : تركهم

(٢) قال ياقوت (٣١٩/٥) : « شيخان بلفظ ثنية شيخ : كان فيه معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة خرج لقتال المشركين بأحد ، وهناك عرض الناس فأجاز من رأى ورد من رأى ، قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت ممن رد من الشيخين يوم أحد ، وقيل : هما أطمان ، سميا به لأن شيخنا وشيخة كانا يتحدثان هناك » اهـ .

لَوْ أَنَّ الْمَنَایَا جُزْنَ عَنْ ذِي مَهَابَةٍ لَهُنَّ حَضِيرًا يَوْمَ أُغْلِقَ (١)
يَطِيفُ بِهِ حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ جَنَّتْهُ تَبَوَّأَ مِنْهُ مَضْجَعًا مَتْنَانًا
وَأُطْمَأِئِنَّ لَهُ « الرَّعْلُ » بِالْمَالِ الَّذِي يَقَالُ لَهُ وَاسْطَ لَصَخْرَةٍ أُمِّ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ،
وَلَهُ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ يَوْمَ بُعَاثَ :

* نحن بنو صخرة أرباب الرعل *

وَأَطْمَأِئِنَّا غَيْرَ ذَلِكَ ، وَابْتَنَى بَنُو حَارِثَةَ أُطْمَأِئِنَّا اسْمُهُ « الْمَسِيرُ » صَارَ لِبَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ
بَعْدَ خُرُوجِ بَنِي حَارِثَةَ مِنْ دَارِهِمْ ؛ فَإِنَّ بَنِي حَارِثَةَ تَحَوَّلُوا مِنْ دَارِهِمْ هَذِهِ إِلَى
غَرْبِيٍّ مَشْهُودٍ سَيِّدِنَا حَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ الْيَوْمَ بِبَثْرَبِ ؛ فَكَانَتْ
بِهَا مَنَازِلُهُمْ عَلَى مَا قَدَّمَاهُ عَنْ الْمَطَرِيِّ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ . وَالَّذِي تَحَوَّلَ مِنْ
مَجْمُوعِ كَلَامِ الْوَاقِدِيِّ وَابْنِ زُبَالَةَ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي اسْتَقَرُّوا بِهَا وَجَاءَ الْإِسْلَامُ
وَهُمْ فِيهَا كَانَتْ فِي شَأْمِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ بِالْحَرَةِ الشَّرْقِيَّةِ . وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا سَيَأْتِي
فِي تَرْجُمَةِ الْخُنْدَقِ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَّهُ مِنْ أَجْمَةِ الشَّيْخِينَ طَرَفَ
بَنِي حَارِثَةَ كَمَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ .

وَقَدْ قَالَ الْمَطَرِيُّ كَمَا سَيَأْتِي عَنْهُ : الشَّيْخَانِ : مَوْضِعٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَبَيْنَ جَبَلِ
أَحَدَ ، عَلَى الطَّرِيقِ الشَّرْقِيَّةِ مَعَ الْحَرَةِ إِلَى جَبَلِ أَحَدَ . وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا أَنَّ الْمَطَرِيَّ قَدْ
ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَا إِلَى أَحَدَ يَوْمَ وَقَعَتْهُ عَلَى الطَّرِيقِ الشَّرْقِيَّةِ
الْمَذْكُورَةِ ، وَسَيَأْتِي أَنَّهُ بَاتَ بِالشَّيْخِينَ .

وَفِي الْمَعَارِفِ لِابْنِ قَتَيْبَةَ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ : فَلَمَّا سَارَتْ قَرِيْشُ لِحَرْبِ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى نَزَلُوا
بِیُوتِ بَنِي حَارِثَةَ ، فَأَقَامُوا بِقِيَةِ يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ . ثُمَّ خَرَجَ فِي غَدٍ ، وَذَكَرَ
الْخَزَالُ (١) عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي ؛ فَتَحَرَّرَ أَنَّ بِيُوتِ بَنِي حَارِثَةَ عِنْدَ الشَّيْخِينَ
وَفِي نَاحِيَّتَيْهِمَا .

(١) جَزَنَ عَنْهُ : تَجَاوَزَهُ وَلَمْ يَنْزِلْ بِهِ ، وَذُو الْمَهَابَةِ : الَّذِي يَهَابُهُ النَّاسُ وَيَخَافُونَهُ ،
وَهُنَّ حَضِيرًا : خَفْنَهُ ، وَوَقَعَ فِي الْمَطْبُوعَاتِ « لَهُنَّ حَضِيرًا » تَطْيِيعٌ .

(٢) الْخَزَلُ : تَخَاذُلَ وَرَجَعَ عَنِ الْحَرْبِ

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز ذلك اليوم في حائط لمربع بن قيط ، واتفق له معه ماسياتى ذكره : ومربع هذا من بنى حارثة وأيضاً فقد قدمنا في الفصل الرابع في تحريمها قول أبي هريرة في رواية الإسماعيلي : ثم جاء — يعنى النبي صلى الله عليه وسلم — بنى حارثة وهم في سَنَد الحرة . اهـ . وليس الموضع الذى ذكره المطرى في سَنَد الحرة ، بخلاف الموضع الذى قدمناه ، مع أنه يحتمل أن بعض منازل بنى حارثة كانت بالموضع الذى ذكره المطرى أيضاً .

قال ابن زباله : وابتنوا بها — أى بدارهم الثانية — أطما يقال له « الريان » عند مسجد بنى حارثة كان لبنى مجذعة بن حارثة ، وسبب خروج بنى حارثة من دار بنى عبد الأشهل حرب كانت بينهم وبين بنى عبد الأشهل ، ووالى بنو ظفر بنى عبد الأشهل ، ثم هزمهم بنو حارثة وقتلوا سمالك بن رافع وكان باغياً ، قتله مسعود أبو محيصة الحارثى ، وظفرت بهم بنو حارثة فأجلّوهم أولاً ؛ فلحقوا بأرض بنى سليم ، فسار حضير بن سمالك بنى سليم حتى قاتل بنى حارثة ، فقتل منهم ، واشتد عليهم الحصار بأطمهم المسير المتقدم ذكره في دار بنى عبد الأشهل ، فسارت بنو عمرو بن عوف وبنو خطمة إليهم ، وقالوا : إما أن تُخلّوا سبيلهم ، وإما أن تأخذوا عقل^(١) صاحبكم ، وإما أن تصالحوهم ، فاخترأوا أن يُجْلّوهم ، فخرج بنو حارثة إلى خيبر فكانوا بها قريباً من سنة ، ثم رَقَّ لهم حضير وطلب صلحهم ، فخرجت الشفراء في ذلك حتى اصطلحوا ، وأبّت بنو حارثة أن ينزلوا دارهم مع بنى عبد الأشهل ، ونزلوا الدار المعروفة بهم اليوم ، اهـ .

ونزل بنو ظفر وهو كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس دارهم شرق البقيع عند مسجدهم : أى المعروف بمسجد البغلة بجوار بنى عبد الأشهل .

(١) العقل : الدية ، سموها بذلك لأنها كانت تؤخذ من الإبل ونحوها ، وكانت قبيلة القاتل تأتى بالإبل فتعقلها بفناء دار القتيل أو حولها ، ومعنى تعقلها تربطها

وذكر ابن حزم في الجمهرة أن بطون بني عمرو بن مالك بن الأوس [وهم] ^(١) النبيت : منهم ظفر ، وحارثة ، وبنو عبد الأشهل ، وبنو زُعُورَا بن جُشَم ابن الحارث أخى عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك ابن الأوس .

ولم يذكر ابن زبالة بنى زُعُورَا في هذه البطون ، بل ولا في بطون الأنصار كلها .

وذكر ابن حزم أن منهم مالك بن التيهان وبنى أوس بن عتيك وغيرهم ، وقال في موضع آخر : فولد جُشَم عبد الأشهل ، بطن ضخم ، وزُعُورَا بطن ، وهم أهل راتج .

ونزل بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس قباء ؛ فابتنوا أطما يقال له « الشُّنَيْف » عند دار أبي سفيان بن الحارث بين أحجار المراء وبين مجلس بنى الموالي ، كان لبني ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف ، وأطما في دار عبد الله بن أبي أحمد ، كان لـكُثُوم بن الهدم من بنى عبید بن زيد بن أظلم أخى بنى عبید ابن زيد بن مالك ، وأطما يقال له واقم كان بقاء لأحيحة بن الجلاح الجحجي ثم صار لبني عبد المنذر بن رفاعه في دية جدهم رفاعه بن زربن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف ، وله يقول كعب بن مالك :

فلا تتهدد بالوعيد سَفَاهَةً وَأَوْعِدْ شُنَيْفًا إِن عَصَيْتَ وَوَأَقِمَا

وكان في رحبة بنى زيد بن مالك بن عوف أربعة عشر أطما يقال لها الصِّيَاصَى ، وكان لهم أطم بالمسكة شرقى مسجد قباء ، وأطم يقال له « المستظل » كان موضعه عند بئر غرس ، كان لأحيحة ثم صار لبني عبد المنذر في دية جدهم رفاعه ، ثم خرجت بنو جحججا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف من قباء حين قتلوا

(١) هذه الكلمة عن جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٣١٩) وظفر عنده ابن الخزرج بن عمرو بن مالك ، واسمه كعب ، وأما جُشَم وحارثة فمن ولد الحارث ابن الخزرج ، وزُعُورَا وعبد الأشهل ابنا جُشَم بن الحارث بن الخزرج

رفاعة بن زر وغنما أخا بنى عمرو بن عوف فسكنوا العصبه ، وهى غربى مسجد
قبا ، قال سعد بن عمرو الجعفي لبشر بن السائب : تدرى لم سكنا العصبه ؟
قال : لا ، قال : لأننا قتلنا قتيلا منكم فى الجاهلية ، فقال بشر : والأمانة لوددت
أنكم قتلتم منا آخر وأنكم وراء عير ، يعنى الجبل الذى غربى العصبه .

وابتنى أحيحة بن الجلاح بالعصبه أطما يقال له «الضحيان» وهو الأطم الأسود
الذى بالعصبه ، وكان عرضه قريبا من طوله ، بنّاه أولا من بثرة بيضاء^(١)
فسقط ، يعنى من حجارة الحرار البيض . وكان يُرى من المكان البعيد ، وفيه
يقول أحيحة :

وقد أعددتُ للجدّثانِ حصنا لو أنّ المرءَ تنفعه العقول

طويل الرأس أبيض مُشْمَخِرٌ يلوح كأنه سيف صقيل

وابتنواهم وبنو مجدعة أطما يقال له «الهجيم» عند المسجد الذى صلى فيه
النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم أن بنى أنيف كانوا مع اليهود بقبا ، وأنهم
حى من بلى ؛ فلذلك لم يذكر ابن زبالة منازلهم هنا ، وسيأتى فى المساجد عن
المطرى وتبعه الجعد أن بنى أنيف بطن من الأوس ، وأن منازلهم كانت بين
بنى عمرو بن عوف وبين العصبه ، ومأخذ المطرى فى نسبتهم إلى الأوس قول أهل
السيرة فى المغازى : شهد من الأوس كذا وكذا رجلا ، ثم يذكر فىهم بعض
بنى أنيف ؛ وذلك لأنهم حلفاء الأوس ، لا لأنهم منهم ، نبه عليه ابن إسحاق
حيث قال : شهد بدرًا من الأوس بضع وستون رجلا ، فذكر من بنى جعجبا
جاعة ، ثم قال : ومن حلفائهم من بنى أنيف أبو عقيل ، ثم نسبته إلى بلى بن عمرو
ابن الحاف بن قضاة ، لكن استفدنا من كلام المطرى أن منازلهم بين العصبه
وقبا ، ويستفاد ما قدمناه عن ابن زبالة أن من منازلهم بثر عذق وما حولها والمال
الذى يقال له القائم ، وذلك معروف بقبا .

(١) بثرة بيضاء : أى حجارة بيض ، كما سيصرح به .

وخرجت بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف فسكنوا دارهم التي وراء بقيع الفرقد المعروفة بهم ، ولا يشكل عليه ما سيأتي في دور بني النجار من الخزرج من أن حُدَيْلَةَ^(١) لقب لمعاوية بن عمرو بن مالك بن النجار للاشتراك في الاسم ، ولسكن الشجرة ببني معاوية لهؤلاء ، وأولئك يعرفون ببني حُدَيْلَةَ^(١) ، وقد اشتبه ذلك على المطري فقال في مسجد بني معاوية - وهو مسجد الإجابة - ما لفظه : هو مسجد بني معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ثم قال في دور بني النجار : إن بني حُدَيْلَةَ^(١) هم بنو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ودارهم عند بئر حاء . ثم قال : ودار بني دينار بين دار بني معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أهل مسجد الإجابة ، ودار بني حُدَيْلَةَ^(١) ، فذكر أولاً أنهم هم ، ثم غاير بينهما ، والصواب المغايرة ، وأن بني حُدَيْلَةَ^(١) من الخزرج ، وبني معاوية من الأوس ، وقد صرح بتغايرهما أهل السير ، ونسبهما كما ذكرنا ، ومسجد الإجابة لبني معاوية من الأوس ، والذي أوقع المطري في هذا ما سيأتي عن عياض في بني حُدَيْلَةَ^(١) إن شاء الله تعالى .

ومن بني معاوية هؤلاء حاطبُ بن قَيْسٍ ، وفيه كانت حرب حاطب كما ذكره ابن حزم .

وخرجت بنو السميعة - وهم بنو لوزان بن عمرو بن عوف - فسكنوا عند زقاق ركيح ، وابتنوا أطماً يقال له « السعدان » وموضعه في الربيع (حائط هناك) ذكره ابن زبالة ، ولعل الربيع هو الحديقة المعروفة اليوم بالربيع ، وكان بنو السميعة يدعون في الجاهلية بنو الصماء ، فسماهم النبي صلى الله عليه وسلم بني السميعة . ونزل بنو واقف والسلم ابنا امرئ القيس بن مالك بن الأوس عند مسجد الفضائح ، فكانا هنالك وولدهما .

وابتني بنو واقف أطماً يقال له « الزيدان » وله يقول قيس بن رفاعه :

(١) وقع في المطبوعات « بنو جديلة » بالجم - في كل المواضع ، وهو كذلك في الخلاصة ، والصواب أنه بالحاء المهملة المضمومة ، على زنة المصغر

وكيف أرجو لذيذ العيش بعدهمُ وبعد مَنْ قد مَضَى من أهل زيدان
كان لهم عامة موضعه في قبلة مسجد الفضيخ ، وأطما كان موضعه عند بئر
عائشة الواقفي ، وغير ذلك ، ثم كان بين السَّلم وواقف كلام ، فلطم واقف وهو
الأَكْبَرُ عَيْنَ السَّلم - وكان شرساً - خلف لا يساكنه ، فنزل السَّلم على بني عمرو
ابن عوف ، فلم يزل ولده فيهم ، (ومن بقيتهم سعد بن خيثمة بن الحارث) ثم
انقرضوا سنة تسع وتسعين ومائة .

وكان لبني السلم حصن شرقي مسجد قباء ، ذكره ابن زباله ، وقد ذكر ابن
حزم انقراض جميع بني السلم ، قال : وكان قد بلغ عددهم في الجاهلية
ألف مقاتل .

قلت : وفي قبلة مسجد الفضيخ عند الحديقة المعروفة بالأشرفية والسابور آثار
آطام وقرية وحصن عظيم ، فهي منازل بني واقف .

ونزل بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس في
دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا أطما يقال له « الموجا » كان موضعه في مسجد بني وائل
ونزل بنو أمية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس في
دارهم المعروفة بهم التي بها الكبا يمر فيها سيل مذيئيب بين بيوتهم ثم يلتقي هو
وسيل بني قُرَيْظَة بفضاء بني خطمة ، ويؤخذ مما ذكره ابن زباله في منازل بني
النضير بالنواغم قرية منزل بني أمية بن زيد منهم .

وفي صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه قال : كنت أنا وجار لي من
الأَنْصار في بني أمية بن زيد ، وهي من عوالى المدينة ، تتناوب النزول على رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن زباله : وابتنوا أطما يقال له « أطم العذق » كان عند الكبا المواجهة
مسجد بني أمية ، وأطما كان في دار آل رُوَيْفَع التي في شرقي مسجد بني أمية .
ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس

بَصْفَنَةَ فوق بنى الحُبْلَى ، وصفنة - كجفنة - بإهمال أوله سميت بذلك لارتفاعها عن السيول فلم تشرب بشيء منها ، وابتنوا فيها أطما اسمه « شاش »^(١) كان لشاس بن قيس أخى بنى عطية بن زيد ، وهو الذى على يسارك فى رَحْبَةِ مسجد قباء مستقبل القبلة ، ورائل وأمىة وعطية بنو زيد هم الجعادر^(٢) ، سموا به لأنهم [كانوا] إذا أجاروا جاراقالواله : جعدر حيث شئت : أى اذهب حيث شئت ، فلا بأس عليك ، فقال الرmq بن زيد :

وإن لنا بين الجوارى وليدة مقابلة بين الجعادر والكسر
متى تدعُ فى الزيد بن مالك وزيد بن قيس تأتها عزة النصر
قالوا : والكسر أمىة وعبيد وضُبَيْعة بنو زيد بن مالك بن عوف ، كان يقال لهم كسر الذهب وذلك أراد الرmq بقوله « والكسر » كذا قاله ابن زبالة ، ونقل رزين أن الجعادرة الأوس كلهم فإنه قال فيما نقل عن الشرقى : فولد الأوس مالكا ومن مالكا قبائل الأوس كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم : أوس الله ، وهم الجعادر ، سموا بذلك لقصر فيهم ، اه .

قلت : وسيأتى عن ابن إسحاق فى آخر الفصل السابع ما يقتضى أن أوس الله هم بنو أمىة بن زيد ورائل وواقف وخطمة ، والله أعلم .
ونزل بنو خطمة - وخطمة هو عبد الله بن جُشم بن مالك بن الأوس - دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا بها الآطام ، وغرسوا النخيل ، فابتنوا بها أطما يقال له « صع ذرع » ليس فيه بيوت ، جعلوه كالحصن الذى يتحصنون فيه للقتال ، وكان لخطمة كلها ، وكان موضعه عند مهران بنى خطمة ، وإنما سمى « صع ذرع » لأنه كان عند بئر بنى خطمة التى يقال لها ذرع ، وابتنى أمىة بن عامر بن خطمة أطما كان موضعه فى مال الماجشون الذى يلى صدقة أبان بن أبى حدير .

(١) فى خلاصة الوفا « شاش » بشينين معجمتين

(٢) فى المطبوعات « الجعادر » بالدال المعجمة ، وفى القاموس « والجعادره :

بنو مرة بن مالك بن الأوس » بالدال مهملة

قلت : والظاهر أنه المسمى اليوم « بالمجشونية » فإن اسمه الأصلي « الماخشونية » على ما تقدم في تربة صُعَيْب .

وقال المطري : منازل بني خطمة لا يعرف مكانها اليوم ، إلا أن الأظهر أنهم كانوا بالعوالي شرقي مسجد الشمس ؛ لأن تلك النواحي كلها ديار الأوس ، وما سفلَ من ذلك إلى المدينة ديار الخزرج ، اهـ .
وفي قوله « وما سفل إلخ » نظر ، والذي يظهر أن أول منازل الخزرج في هذه الجهة منازل بني الحارث كما سيأتي ، وفوقها بنو خطمة ، وسيأتي في وادي بَطْحَانَ ووادي مهزور ما يؤيد ذلك .

وكان بنو خطمة متفرقين في أطامهم ، لم يكن في قصبة دارهم منهم أحد ، فلما جاء الإسلام اتخذوا مسجدهم ، وابتنى رجل منهم عند المسجد بيتاً سكنه ، فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عدّاً عليه ، ثم كثروا في الدار حتى كان يقال لهم غزاة ، تشبيهاً بغزاة الشام من كثرة أهلها وقد انتهى الكلام في منازل الأوس وهذه منازل الخزرج .

قال ابن زبالة : ونزل بنو الحارث بن الخزرج الأَكْبَر بن حارثة وهم بلحارث دارهم المعروفة بهم بالعوالي : أي شرقي وادي بَطْحَانَ وتربة صُعَيْب ، يعرف اليوم بالحارث بإسقاط بني ، وابتنوا أطماً كان لبني امرئ القيس بن مالك وخرج جشم وزيد ابنا الحارث بن الخزرج وهما التوءمان فسكننا السنج ، وهذا المراد بقول ابن حزم : كان سكنى بني الحارث بالسُّنْح^(١) على ميل من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال ابن زبالة : وابتنوا أطماً يقال له « السُّنْح^(١) » وبه سميت الناحية ، ويقال

(١) قال ياقوت (١٤٨/٥) « سنح : يضم أوله وسكون ثانية وآخره حاء مهملة ، إحدى محال المدينة ، كان بها منزل أبي بكر الصديق حين تزوج مليكة - وقيل جبيلة - بنت خارجة بن زيد بن زهير بن مالك بن امرئ القيس » اهـ .

بل اسمه « الريان » انتهى . وبالسُّنَح كان منزل أبي بكر الصديق رضى الله عنه بزوجه بنت خازجة بن زيد ، قاله عياض ، قال : وهو منازل بنى الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة ، وبينه وبين منزل النبی صلى الله عليه وسلم ميل ، انتهى . فكان السُّنَح - وهو كما قال عياض وغيره بالسین المهملة ثم النون - بالقرب من منازل بنى الحارث بالعوالى ^(١) . وخرج عتبة بن عمر بن خديج بن عامر بن حُشم بن الحارث بن الخزرج فسكن الشوط وكوم الكومة يقال لها « كومة أبي الحمراء » ثم رجع في السُّنَح . وخرجت بنو خُدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج حتى سكنوا الدار التي يقال لها « جرار سعد » مما يلي سوق المدينة ، وخرجت بنو الأبحر وهو خُدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج وهم بنو خُدرة أخوة بنى خُدرة فسكنوا دارهم المعروفة ببني خُدرة ، وابتنوا أطما يقال له « الأجرد » وهو الأطم الذي يقال لبثرة البصة ، كان لمالك بن سنان جد أبي سعيد الخُدري ، وذكر ابن حزم للحارث بن الخزرج الأكبر ابناً اسمه الخزرج بن الحارث ، وقال فيه : فولد الخزرج كعباً ، فسار بعض بنيهِ إلى الشام مع غسان ، فليس من الأنصار ، ثم سمي مَنْ بقي منهم الأنصار .

ونزل سالم وغنم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدار التي يقال لها « دار بنى سالم » على طرف الحرة الغربية غربى الوادى الذى به مسجد الجمعة ببطن رانونا ، وابتنوا أطاما : منها « المزدلف » أطم عتبان بن مالك ، قاله المطري ، وقال : المزدلف هو الأطم الذى بناه عتبان بن مالك ، كان لمالك بن العجلان السالمى ، وله يقول مالك * إني بنيتُ للحروب المزدلف * ومنها « الشماخ » كان خارجاً عن بيوت بنى سالم من جهة القبلة ، ومنها أطم « القواقل » وهو الذى في طرف بيوت بنى سالم مما يلي ناحية العصبة ، كان لبنى سالم بن عوف ، وتسميته بذلك يرجح ما ذكره ابن سيد الناس من أن القواقل ^(٢) بنو غنم

(١) في الخلاصة « أول العالية »

(٢) في القاموس « القواقل : اسم أبي بطن من الأنصار لأنه كان إذا أناه إنسان يستجير به أو يثرب قال له : قو قل في هذا الجبل وقد أمنت ، أى ارتق ، وهم القواقل »

وبنو سالم ابني عوف ، سموا بذلك لأنهم كانوا إذا أجاروا جارا قال له : قوئل
حيث شئت ، وأفهم سياقُ بعضهم أن القواقل بعضُ بني سالم بن غنم ، وهم
بنو الحبلى ، وما قدمناه هو الظاهر ؛ لما سيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاءَ
إلى المدينة . وقال ابن حزم : ولدُ عوف بن عمرو سالم بطن ، وغنم بطن ، وعنز بطن ،
وهو قوئل ، وذكر من ولده عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة
ابن قوئل بن عوف بن عمرو :

ونزل بنو غصينة حَيٍّ من بلى حُلَفَاءَ لبني سالم عند مسجد بني غصينة .
ونزل بنو الحبلى — بلفظ المرأة الحبلى — واسمه مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن
عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدارَ المعروفةَ بهم بين قباء وبين دار ابني الحارث بن
الخزرج التي شرقى وادى بطنان وصُعَيْب ، كذا قاله المطرى ، وأظن مستنده
ما تقدم فى منازل الأوس من قول ابن زبالة : ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس
بصَفْنَةَ فوق بني الحبلى إلى آخره ، وقال ابن حزم : كانت دار بني الحبلى بين دار
بني النجار وبين بني ساعدة .

قلت : وسيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاءَ إلى المدينة ما يؤيده ،
وكذلك مروره صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبيّ فى ذهابه لعيادة سعد بن عبادة ،
وما ذكره من أن الحبلى اسمه مالك بن سالم ذكره ابن زبالة ، وقال ابن هشام :
الحبلى سالم بن غنم بن عوف ، وإنما سُمى الحبلى لعظم بطنه ، انتهى .

وذكر ابن حزم نحوه ، والظاهر أن الحبلى كان يطلق على سالم والد مالك
المذكور ، ثم اشتهر به ابنه هذا من بين بنيهِ ، وحينئذ فيحمل ما تقدم عن ابن
زبالة فى نزول بني عطية بن زيد بصَفْنَةَ فوق بني الحبلى ، على أن المراد دار سالم
ابن غنم فى دار بني سالم ؛ لكونه ذكر فى آطام بني الحبلى هؤلاء ما يوافق كلام
ابن حزم فى نزولهم قرب دار بني ساعدة ، فقال : وابتنوا آطاماً منها « مزاحم »
بين ظهران بيوت بني الحبلى ، وهو لعبد الله بن أبيّ بن سُلَول . ومنها أطم كان

بين مال عمار بن نعيم البياضى وبين مال ابن زمانة . ومنها أطم كان في جوف بيوتهم . انتهى . وسيأتى في منازل بنى ساعدة ذكر الحمضة ، وهى مذكورة في منازل بنى يياضة ، وقد صرح ابن حزم وغيره من أهل السير وعلماء النسب بأن عبد الله بن أبي من بنى الخُبلى من الخزرج ؛ فالظاهر أن ما وقع للحافظ ابن حجر في حديث زوجة ثابت بن قيس بن شماس^(١) في الخلع من أن عبد الله بن أبي من بنى مَغالة من بنى النجار وهم . نعم داره غربى المسجد قريبة من دار بنى مَغالة فيما يظهر . والله أعلم .

ونزل بنو سلمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة بن يزيد (بالمشناة سن فوق) بن جُشم بن الخزرج الأكبر ما بين مسجد القبلتين إلى المذاد أطم بنى حرام في سَنَد تلك الحرة ، وكانت دارهم هذه تسمى خُرْبى . قال ابن زبالة : فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلحة » كذا هو في نسخة ابن زبالة بالطاء ، ونقله عنه الزين المراغى أيضاً كذلك كما رأيته بخطه . ولعل الصواب ما ذكره المجد في تاريخه أن النبی صلى الله عليه وسلم سماها « صَلْحَة » بضم الصاد المهملة وسكون اللام ، وقال في قاموسه : خُرْباً كحبل : منزلة كانت لبني سلمة غَيْرَها صلى الله عليه وسلم وسماها صلحة .

ونزل بنو سواد بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد القبلتين إلى أرض ابن عبيد الدينارى ، ولهم مسجد القبلتين ، قاله ابن زبالة ، وهو يرد ماسياتى عن المطرى وغيره من أن المسجد لبني حَرَام ، وابتنوا أطماً يقال له « الأغلب » كان على المهد الذى عليه الأحجار التى يستريح عليها السقاؤن حين يُفَيضُونَ من زقاق رُومَة إلى بُطْحَان ، وأطماً يقال له « خيط » في شرقى مسجد القبلتين على شرف الحرة وعند منقطع السهل من أرض بنى سلمة ، وأطماً يقال له « منيع » في يمانى مسجد القبلتين على ظهر الحرة يمين الحزن الذى في أرض ابن أبان أو دوف ذلك قليلاً .

(١) في المطبوعات « بن شماس » بشينين معجمتين - تطبيع

ونزل بنو عبید بن عدی بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد الخربة إلى الجبل الذى يقال له الدويخل جبل بنى عبید ، ولهم مسجد الخربة ، وابتنوا « الأشنق » وهو المواجه لمسجد الخربة ، كان للبراء بن مَعْرُور صخر بن حسان ابن سنان بن عبید ، وابتنوا « الأطول » عند قِيلة مسجد الخربة أو عن يسارها . ونزل بنو حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد بنى حرام الصغير الذى بالقاع بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك والأرض التى كانت لمعبد بن مالك ، وكانوا بين مقبرة بنى سلمة إلى المذاد ، والمذاد : هو الذى يقول له كعب بن مالك :

فليأت مأسدةً تسن سيوفها بين المذاد وبين جزع الخندق وهو أطم لهم سميت به الناحية ، وابتنوا أطما يقال له « جاعس » كان فى السهل بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك وبين العين التى عملها معاوية بن أبى سفيان ، كان لعمر بن الجُمُوح جد جابر بن عبد الله بن عمرو . قلت : وهذه العين لعلمها التى ذكر ابن النجار أنها تأتى إلى النخل الذى بأسفل المدينة حوالى مسجد الفتح ، يعنى فى غربيه ، ويعرف ذلك الموضع بالسَّيِّح — بالسَّين المهملة والمنشأة التحتية — كما قال المطرى ، والله أعلم . وابتنى بنو مر^(١) بن كعب بن سلمة — وهم حلفاء بنى حرام — أطما يقال له « أخنس » وهو الأسود القائم فى بنى سلمة فى غربى الحائط الذى كان لجابر بن عتيك مما إلى جبل بنى عبید ، ذكره ابن زبالة .

وقوله « عند مسجد بنى حرام الصغير » يفهم أن لهم مسجداً آخر كبيراً ، وهو الآتى فى منزلهم الثانى بشعب سلع ، وسيأتى فى المساجد وصف مسجد بنى حرام الذى صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم بأنه بالقاع ، وأنه لم يصل فى مسجدهم الأكبر . وكل هؤلاء بنو سلمة ، وكانوا بهذه الدور ، وكلتهم واحدة ، وملكوا عليهم

(١) فى المطبوعات كلها « بنو مري بن كعب » تطبيع

أمة بن حرام ، فلبث فيهم زماناً حتى هلك رجل من بنى عبيد ذو أموال كثيرة ، له ولد واحد اسمه صخر ، فأراد أمة أن ينزع طائفة من أمواله فيقسمها في بنى سلمة ، فعظم ذلك على صخر ، وشكا ذلك على بنى عبيد و بنى سواد ، وقال : إن فعل أمة ذلك لأضر بنه بالسيف ، وسألهم أن يمنعه إن هو فعل ، فأطاعوا له ، فلما فعل أمة ذلك ضرب به صخر فقطع حبل عاتقه ، وقامت دونه بنو عبيد و بنو سواد ، فنذر أمة أن لا يؤويه ظل بيت ماعاش حتى يقتل بنو سلمة صخرأ أو يأتوه به فيرى فيه رأيه ، وجلس أمة عند الضرب الذى فوق مسجد الفتح مما يلي الجرف في الشمس ، فمرت به وليدة حطابة فقالت : مالك يا سيدى هنا في الشمس ؟ فقال :

إن قومي أجمعوا إلى أمرهم ثم نادوا إلى صخرأ فضرب
إني آليت لا يسئرنى سقف بيت من حرور ولهب
أبدا مادام صخر آمناً بينهم يمشى ولا يخشى العطب

فذهبت الجارية ، فأخبرتهم ، فربطوا صخرأ ثم أتوه به ، فعفا عنهم وأخذ الذى كان يريد أن يأخذ من أمواله ؛ فهذا خبر ما دخل بين بنى سلمة .
وروى ابن شبة عن جابر بن عبد الله أن بنى سلمة قالوا : يا رسول الله ، نبيع دورنا ونحول إليك ؛ فإن بيننا وبينك واديا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اثبتوا فإنكم أوتادها ، وما من عبد يخطو إلى الصلاة خطوة إلا كتب الله له أجراً » .

وروى أيضاً عن يحيى بن عبد الله بن أبي قتادة قال : شكا أصحابنا - يعنى بنى سلمة - و بنى حرام - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السبيل يحول بينهم وبين الجمعة ، وكانت دورهم مما يلي نخيلهم ومزارعهم في مسجد القبلتين ومسجد الخربة ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « وما عليكم لو تحوّلتم إلى سفح الجبل » يعنى سلماً ، فتحولوا ؛ فدخلت حرام الشعب^(١) ، وصارت سواد وعبيد إلى السفح .

(١) قال المؤلف في الخلاصة : والمعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم « اثبتوا فإنكم أوتادها » وإنما نقل بنى حرام إلى الشعب المعروف بهم عمر بن الخطاب اهـ

قلت : وشعب بنى حرام معلوف بسلم؁ وهنالك آثار منازلهم وآثار مسجدهم فى غربى جبل سلم على يمين السالك إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية؁ وعلى يسار السالك إلى المدينة وعلى مقربة من محاذاته فى جهة المغرب حصن خل .

وروى ابن زباله ويحيى من طريقه عن جابر بن عبد الله قال : كان السيلُ يحول بين بنى حرام وبين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؁ فنقلهم عمر بن الخطاب إلى الشعب؁ وكلّم قوما كانوا فيه من أهل اليمن يقال لهم بنو ناغضة؁ فانتقلوا إلى الشعب الذى تحت مسجد الفتح؁ فأثارهم هناك؁ واشترت بنو حرام غلاما روميا من أعطياتهم؁ وكان ينقل الحجارة من الحرة وينقشها؁ فبنوا مسجدهم الذى فى الشعب وسقفوه بخشب وجريد؁ وكان عمر بن عبد العزيز زاد فيه مدماكين من أعلاه؁ وطابق سقفه؁ وجعل فيه ذيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وآثار خرز أساطينه وما تكسر منها موجود اليوم فيه؁ يعرف محله بالشعب المذكور .

وقد روى المجدى فى فضل المساجد الخبر المتقدم؁ إلا أنه قال : وجعل فيه ذيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؁ ثم قال : والذيت الساج الذى يظهر على الحائط؁ انتهى . ولم يضبطه غير أنه بالذال فى كتابه؁ والذى فى كتاب ابن زباله ويحيى ما قدمناه؁ والله أعلم .

ونزل بنو بياضة وزريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ابن جشم بن الخزرج الأكبر؁ وبنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب؁ وبنو عذارة^(١) وهم بنو كعب بن مالك بن غضب؁ وبنو اللين وهم بنو عامر بن مالك ابن غضب؁ وبنو أجدع^(٢) وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب دار بنى بياضة .

(١) فى الخلاصة « بنو عذارة »

(٢) فى الخلاصة « وبنو جدع » بغير ألف هنا . وبألف فما يأتى .

قال المطري : فيما بين دار بنى سالم بن عوف بن الخزرج التي عند مسجد الجمعة إلى وادي بُطحان قبليّ دار بنى مازن بن النجار .

قلت : الذى يترجّح عندى أن دارهم كانت فى شامى دار بنى سالم بن عوف وقبلى دار بنى مازن ، ممتدة فى الحرة الغربية ، حتى إن فى كلام ابن زباله ما يقتضى أن بعض منازلهم تمتد إلى منازل بنى ساعدة لما سذكروه .

وابتنوا بدارهم الآطام ، وروى ابن زباله أنه كان بدارهم تسعة عشر أطما ، وأن الذى أحصاه لبنى أمية بن عامر بن بياضة خاصة ثلاثة عشر أطما : منها أطم أسود فى يمانى أرض فراس بن ميسرة ، كان فى الحرة ، ومنها « عقرب » كان فى شامى المزرعة المسماة بالرحابة فى الحرة على الفقارة ، ومنها « سويد » كان فى شامى الحائط الذى يقال له الحماسة ، وأصاحبه كانت الحماسة ، وسيأتى ذكر الحماسة فى منازل بنى ساعدة ، لكن يبعد أن يكون هى المراد هنا ، ومنها « اللواء » كان موضعه فى حد السرارة بينه وبين زاوية الجدار الشامى الذى يحيط على الحماسة عشرون ذراعا ، ومنها أطم كان فى السرارة ، والسرارة : ما بين أرض ابن أبى قليع إلى منتهى الحماسة ، وما بين الأطم الذى يقال له اللواء إلى الجدار الذى الذى يقال له بيوت بنى بياضة ، والجدار الذى بناه زياد بن عبيد الله لبركة السوق وسط السرارة ، قاله ابن زباله ، وهو يقتضى أن السرارة قرب سوق المدينة ، ويؤيده ذكر الحماسة فى منازل بنى ساعدة ، لكن الظاهر أن المراد ببركة السوق هنا بركة كانت مما يلي سيل بُطحان ورائونا ؛ لأن ابن شَبَّه قال فى سيل رائونا : إنه يقترب بنى صلب ، يعنى موضع مسجد الجمعة ، ثم يستبطن السرارة حتى يمر على قمر البركة ، ثم يفترق فرقتين ، إلى آخر ما سيأتى عنه .

ونقل رزين أن السرارة بين بنى بياضة والحماسة . ثم ذكر ابن زباله بقية آطامهم ، وذكر ما يقتضى أن ما حول السرارة هو أقصى بيوت بنى بياضة .

ثم قال : وابتنى بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأظم الذى فى أدنى بيوت بنى بياضة الذى دونه الجسر الذى عند ذى ريش .
ثم قال : فلبث بنو غضب بن جشم بن الخزرج - أى الفرق المذكورين كلهم - فى دار بنى بياضة ، وأمرهم جميعاً ، ثم إن زريق بن عامر هلك فأوصى بينيه إلى عمه حبيب بن عبد حارثة ، فكان حبيب يكلفهم النصح بأيديهم ، فلما اشتد عليهم عدواؤه عليه فقتلوه ، فحالف بنو حبيب بنى بياضة على نصرهم على بنى زريق ، فخافت بنو زريق أن يكثروهم^(١) . وكانت بنو بياضة حينئذ أثرى من بنى زريق ، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى حلوا دارهم المعروفة بهم قبل المصلّى وسور المدينة الموجود اليوم وداخله بالموضع المعروف بذروران وما والاها ، وابتنوا آطاما منها أطم فى زاوية دار كبير بن الصلت بالمصلّى ، وأطما يقال له « الريان » عند سقيفة آل سراقاة التى يقال لها « سقيفة الريان » وأقام بنو عمرو بن عامر بن زريق مع بنى بياضة ، ولهم الأظم الذى فى شامى أرض فراس بن ميسرة فى أدنى بيوت بنى بياضة مما يلى السبخة ، فلبثوا هناك حتى انتقل رافع بن مالك هو وولده قبيل الإسلام فسكنوا طرف السبخة ما بين الأساس إلى طرف السبخة إلى الدار التى فيها يسكن إسحاق بن عبيد بن رفاع ، وكان يقال لرافع بن مالك « الكامل » لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون لمن كان كاتباً شاعراً « الكامل » وانتقل سائر بنى عمرو بن عامر بعد ذلك ، فاشتروا من بنى عوف بن زريق بعض دورهم وحقوقهم ، وخرجت بنو عوف بن زريق قبيل الإسلام إلى الشام ؛ فيزعمون أن هنالك ناساً منهم ، ولبت بنو بياضة وبنو حبيب زماناً لا يقاتلون بنى زريق ، والرسل تجرى بينهم ، وبنو زريق يدعونهم إلى الصلح والدّية ، وعرضوا على بنى حبيب أن يقطعوا لهم طائفة من ديارهم ، فقبلوا ذلك ، ووضعوا الحرب ، وسمى الزقاق الذى دفعوه لهم « زقاق الدية »

(١) يكثروهم: يزيدوا عليهم فى العدد .

وانتقل بنو مالك بن زيد بن حبيب بن عبدحارثة من بنى بياضة ، ونزلوا الناحية التي ودَّت بنو زريق ، وابتنوا أطمًا كان لبني المعلى بن لوزان ، وتخلف بنو الصَّمة ابن حارثة بن الحارث بن زيد بن حبيب في بنى بياضة ، فابثت بنو المعلى بن لوزان في بنى زريق ماشاء الله .

ثم إن عبيد بن المعلى قتل حصن بن خالد الزرقى ، فأراد بنو زريق أن يقتلوه ، ثم بدا لهم أن يدؤوا حصن بن خالد من أموالهم عن عبيد على أن يحالفهم بنو المعلى ، ويقطعون حلفهم مع بنى بياضة ، ففعلوا ، وكان عامر بن زريق بن عبد حارثة والد زريق و بياضة لما حضرته الوفاة أوصى ابنه بياضة بالصبر في الحروب وشدة البأس ، وأوصاه بأخيه زريق وكان أصغرهما ، فقال بعض شعرائهم في ذلك :

* بالصَّـبْرِ أوصى عَامِرٌ بَيَاضَهُ *

ويقال للأوس والخزرج : أبطأهم فرّة وأسرعهم كَرّة بنو بياضة و بنو زريق و بنو ظَفَر ، وإن الأوس والخزرج لم يلتقوا في موطن قط إلا كان لهذه القبائل فضل بَيْن على غيرهم من بطون الأوس والخزرج .

وأما بنو عذارة^(١) بن مالك بن غضب بن جُشم فكانوا أقل بطون بنى مالك ابن غضب عددا ، وكانوا قوما ذوى شراسة وشدة أنفُس ، فقتلوا قتيلا من بعض بطون بنى مالك بن غضب إما من بنى اللين أو بنى أجَدع ، وأبى أهل القتيل الدية ، وذهبوا إلى بنى بياضة ليعينوهم على بنى عذارة حتى يعطوهم القاتل ، فكلّمت بنو بياضة بنى عذارة^(١) في ذلك ، فأبوا أن يُخَلّوا بينهم وبينه ، فأرادت بنو بياضة أن يأخذوه نَمُوّة^(٢) ، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى نزلوا قباء على بنى عمرو بن عوف فحالفوهم وصاهروهم ، وامتنعوا من بنى بياضة ، ثم إنه دخل بين بنى عذارة وبين بنى عمرو بن عوف قبيل الإسلام أمر ، فأجمعوا أن ينتقلوا من عندهم إلى بنى زريق ، وكرهوا أن يرجعوا إلى بنى بياضة ، فحاجوهم وذكروا لهم

(١) في الخلاصة بنو عذارة (٢) عنوة - بفتح العين المهملة وسكون النون - أى قوة وغلبة

ذلك ، فَلَقَّوْهُمْ بِمَا يُحِبُّونَ ، «وَسَدَّدُوا رَأْيَهُمْ»^(١) ، وَأَتَوْا أَبَا عُبَيْدَةَ سَعِيدَ بْنَ عُمَانَ الزُرَيْقِيَّ فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ وَذَكَرَ شَرَفَهُمْ وَرِزْقَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : إِنِّي أَشِيرُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى أَخْوَالِكُمْ — يَعْنِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ — وَلَا تَنْتَقِلُوا إِلَى بَنِي زُرَيْقٍ ، فَإِنْ فِي أَخْلَاقِكُمْ شَرَّاسَةٌ وَفِي أَخْلَاقِ بَنِي زُرَيْقٍ مِثْلُهَا ، فَتَفَرِّقُوا عَنْ رَأْيِهِ ، فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ إِلَى أَنْ فُرضَ الْمَهْدِيُّ لِلْأَنْصَارِ سَنَةً سِتِينَ وَمِائَةً ، فَانْتَقَلُوا بِدِيَوَانِهِمْ إِلَى بَنِي بَيَاضَةَ ، وَكَانَ بَطْنَانُ مِنْ بَطْنِ بَنِي مَالِكِ بْنِ غَضَبٍ مِمَّنْ كَانَ بَدَارَ بَنِي بَيَاضَةَ — لَا نَدْرِي أَهْمُ مِنَ اللَّيْنِ أَمْ مِنْ أَجْدَعٍ — كَانَ بَيْنَهُمْ مِيرَاثٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَاشْتَجَرُوا فِيهِ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَقِيمُونَ فِيهِ عَلَى أَمْرٍ تَدَاعَوْا إِلَى أَنْ يَدْخُلُوا حَدِيقَةَ كَانَتْ فِي بَنِي بَيَاضَةَ فَيَقْتُلُوا فِيهَا ، فَدَخَلُوا جَمِيعًا ثُمَّ أَغْلَقُوهَا ، فَانْتَقَلُوا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرَفُ ، فَسَمِيتَ تِلْكَ الْحَدِيقَةُ « حَدِيقَةُ الْمَوْتِ » وَكَانَ بَنُو مَالِكِ بْنِ غَضَبٍ سِوَى بَنِي زُرَيْقٍ أَلْفَ مَقَاتِلٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَمَّا بَنُو أَجْدَعٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَأَمَّا بَنُو اللَّيْنِ فَكَانَ بَقِيَ مِنْهُمْ رَجُلَانِ ثُمَّ انْقَرَضَا لَا عَقِبَ لِهَمَا

وَذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَبِيبٍ بْنَ عَبْدِ حَارِثَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ غَضَبٍ الْمُتَقَدِّمَ ذَكَرَ بَنِيهِ كَانَ لَهُ أَخٌ ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَبِيبٍ ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَبِيبٍ هَذَا وَلَدُ^(٢) أَبِي جَبِيلَةَ الْغَسَّافِيِّ الَّذِي جَلَبَهُ مَالِكُ بْنُ الْعَجْلَانِ لِقَتْلِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ كَمَا قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَنَزَلَ بَنُو سَاعِدَةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ الْخَزْرَجِ الْأَكْبَرِ مَفْتَرِقِينَ فِي أَرْبَعِ مَنَازِلَ : فَنَزَلَ بَنُو عَمْرِو وَبَنُو ثَعْلَبَةَ ابْنَا الْخَزْرَجِ بْنِ سَاعِدَةَ دَارَ بَنِي سَاعِدَةَ الَّتِي بَيْنَ السُّوقِ — أَيِ سُوْقِ الْمَدِينَةِ — وَبَيْنَ بَنِي ضَمْرَةَ ؛ فَهِيَ فِي شَرْقِيِّ سُوْقِ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّامَ . وَقَالَ الْمَطْرِيُّ : قَرْيَةٌ بَنِي سَاعِدَةَ عِنْدَ بَثْرَ بَصَّاعَةَ ، وَالبَثْرُ وَسَطُ بَيْتِهِمْ . قَالَ ابْنُ زُبَايَةَ : فَابْتَنَوْا أَطْمًا يُقَالُ لَهُ « مُعْرَضٌ » فِي الدَّارِ الْمَوَاجِهَةِ مَسْجِدَ بَنِي سَاعِدَةَ ، وَهُوَ

(١) سَدَّدُوا رَأْيَهُمْ : صَوَّبُوهُ (٢) فِي الْمَطْبُوعَاتِ «وَالدَّاءِي جَبِيلَةَ — الْخ » تَطْبِيعُ

آخر أطم بُنى بالمدينة ، وقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يبنونه ،
فاستأذنوه في إتمامه ، فأذن لهم فيه ، وله يقول شاعرهم :
ونحن حَمِينًا عن بُضَاعَةٍ كُلِّهَا ونحن بَنِينًا معرضًا فهو مُشْرِفُ
فأصبح معمرًا طويلاً فِدَى له وتخرب أطام بها وتصفصف
وأطمًا في دار أبي دُجَانة^(١) الصغرى التى عند بُضَاعَةٍ ، ونزلت بنوقشة - واسم قشبة
عامر بن الخزرج بن ساعدة - قريبًا من بنى حُدَيْلة ، وابتنوا أطمًا عند خوخة
عمرو بن أمية الصَّمْرى .

قلت : فمنزلهم في شرقيّ بنى ضَمْرَةَ ، والمنزل المذكور قبل ، والله أعلم .
ونزلت بنو أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة -
وهم رهط سعد بن عُبَادَةَ الدارِ التى يقال لها جِرَارُ سَعْدٍ وهى جرار كان يسقى
الناس فيها الماء بعد موت أمه . قال ابن زباله : عرض سوق المدينة ما بين المصلى
إلى جرار سعد بن عُبَادَةَ .

قلت : فهى مما يلي السوق ، فإما أن يكون من جهة المشرق والمصلى حده
من جهة المغرب ، فيشهد ذلك لأنها الموضع المعروف اليوم بين أهل درب السويقة
بسقيفة بنى ساعدة ، ويكون إطلاق السقيفة على ذلك الحِلْ صحيحًا ، لا كما قال
المطرى : إنها بقرية بنى ساعدة عند بئر بُضَاعَةٍ ؛ لأن سعد بن عبادة لم يكن
هناك ، وإنما كان مع رَهْطه في منزلهم ، والسقيفة كانت عند منزله ، وإما أن
يكون جِرَارُ سَعْدٍ مما يلي السوق من جهة الشام ، ويكون المصلى حده القبلى ،
وهذا هو الأرجح ؛ لأن الجهة التى بالمشرق مما تقدم إنما هى من منازل بنى
زريق ، والله أعلم .

قال ابن زباله : فابتنوا أطمًا يقال له واسط ، وقد تقدم أن بنى خدادة نزلوا
بجرار سعد أيضًا ، فكأنها كانت منزلها ، وبنو خدادة من بنى الحارث بن الخزرج
كما تقدم ، فدارهم المُرَادَةُ في حديث عِيَادَةَ سعد بن عُبَادَةَ في بنى الحارث بن

(١) دجانة : بضم الدال ، واسم أبي دجانة سمالك بن خرشة

الخزرج ، لا دار بنى الحارث المعروفة بهم لبعدها جداً عن منازل بنى ساعدة ، وليسوا قوم سعد إلا من حيث إن السكل من الخزرج .
وفي حديث عائشة في الصحيح بعد قول عُرْوَة لها : ما كان يعيشكم ؟ قالت :
الأسودانِ التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبران من الأنصار كانت لهم مناجح ، الحديث .

قال الحافظ ابن حجر في بيان ذلك : جبرانه صلى الله عليه وسلم من الأنصار سعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حزم وأبو أيوب وسعد بن زُرَّارة ؛ فيبعد كون سعد بن عبادة في دار بنى الحارث لعدده في الجبران ، ومأخذ الحافظ ابن حجر في ذلك ما رواه ابن سعد عن أم سلمة قالت : كان الأنصار يُكثِرُونَ إلفان رسول الله صلى الله عليه وسلم : سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وعمرارة ابن حزم ، وأبو أيوب ، وذلك لقرب جوارهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى ، والله أعلم .

ونزلت بنو وقش و بنو عنان ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة الدار التي يقال لها « بنو ساعدة » ويقال لها أيضاً « بنو طريف » وهي بين الحمضة وجرار سعد ، وسيأتى في ترجمة الشوط ما يقتضى أن لبنى ساعدة منزلاً في شامى مسجد الزاية ، والظاهر أنه هذا المنزل ، والله أعلم .

ونزل بنو مالك بن النجار دارهم المعروفة بهم ، فابتنى بنو غنم بن مالك أطماً يقال له « فويرع » وفي موضعه دار حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ! .

قلت : وهي الدار المقابلة لدار جعفر الصادق التي في قبلة المدرسة الشهابية ، كما سيأتى نقله عن ابن شبة .

وابتنى بنو مَعَالَة - وهم بنو عدى بن عمرو بن مالك ، ومغالة أم عدى - أطماً يقال له « فارع » وهو الأطم الذى يواجه دور بنى طلحة بن عبيد الله ، ودخل

في دار [جعفر] بن يحيى بن خالد بن برمك ، وله يقول حسان بن ثابت :
أَرِقْتُ لَتَوَمَاضِ البروق اللوامعِ ونحن نَشَاوِي بين سَلْعٍ وفارِع
قاله ابن زبالة .

وقال الزين المراغي : إن هذا الأظم كان لثابت والد حسان بن ثابت ، وإنه
دخل في الدار المواجهة لباب الرحمة التي كانت دار عاتكة ، ومأخذه في ذلك أن
دار عاتكة من جملة دار جعفر بن يحيى ، لكن سيأتي من كلام ابن زبالة ويحيى
عند ذكر أبواب المسجد أن دار جعفر بن يحيى دخل فيها بيت عاتكة وفارِع أظم
حسان بن ثابت ، وبيننا محله هناك في شامى الدار المذكورة ، أعني دار عاتكة ،
وفارِع هذا هو الأظم الذى كانت به صفة عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
الخذق وعندها حسان .

وفي مسلم في حديث ابن صَيَّاد « فوجده عند أظم بنى مَعَالَةَ » .
قال عياض : بنو مَعَالَةَ كل ما كان على يمينك إذا وقفت آخر البساط
مستقبل المسجد النبوى .

وابتنى بنو حُدَيْلَةَ (بضم الحاء المهملة^(١)) وهو - كما قال ابن زبالة وغيره -
لقب معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أطما يقال له « مشعط » كان في غربى
مسجدهم الذى يقال له « مسجد أبى » يعنى أبى بن كعب ، وفي موضعه بيت
يقال له « بيت أبى نبيه » وقد أسند ابن زبالة عقب ذكره الحديث المتقدم « إن
كان الوباء في شيء فهو في ظل مشعط » وذكر ابن شبة قصر بنى حُدَيْلَةَ ، وقال :
بناه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ليكون حصناً ، قال : وله بابان : باب
شارع على خط بنى حُدَيْلَةَ ، وباب في الزاوية الشرقية اليمانية عند دار محمد
ابن طلحة التميمى ، وفي وسطه بئر حاء ، انتهى .

وقال عياض في المشارق : بئر حاء : موضع يعرف بقصر بنى حُدَيْلَةَ ، وقد قال
ابن إسحاق : بنو عمرو بن مالك بن النجار هم بنو حُدَيْلَةَ ، أى لأن حُدَيْلَةَ بطن

(١) كذا وقع هنا وفيما يلى (ص ٢١٢ س ٨) وضبطت في الخلاصة بالجيم

منهم ؛ لما قدمناه من أنه لقب أبيهم معاوية بن عمرو بن مالك .
قلت : فليس بنو حُدَيْلَة هؤلاء بنى معاوية من الأوس أهل مسجد الإجابة
كما قدمناه ، ولكن الاشتراك فى الاسم أوجب الوهم ، فقد وقع للقاضى عياض فى
المشارك ما يخالف كلام عامة الناس ، فقال : قال الزبير : كل ما كان من المدينة عن
يمينك إذا وقفت آخر البلاط مستقبل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بنومغالة ،
والجهة الأخرى أى التى على يسارك بنو حُدَيْلَة ، وهم بنو معاوية وهم من الأوس .
قال الجوهري : هى قرية من قرى الأنصار ، قال القاضى : هم بطن من
الأنصار سميت جهتهم بهم ، وهم أيضاً بنو حُدَيْلَة (بجاء ودال مهملتين) وحُدَيْلَة
أهمهم ، انتهى .

والذى نقله غيره عن الزبير أن بنى حُدَيْلَة من بنى النجار من الخزرج ،
وبنو معاوية من الأوس غيرهم ، وقد قدمناه عن ابن زباله شيخ الزبير ، وقد ذكر
ابن حزم فى الجهرة معاوية من الأوس ، وذكر بنى حُدَيْلَة من الخزرج ، فقال :
وولد مالك بن النجار معاوية وأمه حُدَيْلَة فنسب إليها ، والظاهر أن قول القاضى
« وهم من الأوس » ليس من كلام الزبير فى هذا الموضع ، ولكن القاضى لما
رأى قوله « وهم بنو معاوية » ظن أنهم بنو معاوية من الأوس ، وهذا موجب
ما وقع للطبرى من الخطب فى هذا المحل ، حيث غاير بينهما مرة وجعلهما متحدتين
أخرى ، ولا يصح الجمع بما ذكره المرائى من احتمال أن يكون بنو معاوية بطناً
أو فخذاً من بنى حُدَيْلَة ؛ لما قدمناه .

وابتنى بنو مبدول^(١) - واسمه عامر بن مالك بن النجار - أطماً يقال له « السليج »
وأطماً كان فى دار آل حُيَّ بن أخطب كان لبنى مالك بن مبدول ، وأطماً كان فى
دار سرجس مولى الزبير التى إلى بقيع الزبير كان لآل عبيد بن النعمان أخى
النعمان بن عمرو بن مبدول ، وبقيع الزبير ذكر فى أما كن يؤخذ منها أنه كان

(١) وقع فى المطبوعات « مبدول » بالبدال المهملة ، تطبيع

في شرقى الدور التى تلى قبة المسجد النبوى إلى بنى زريق، وإلى بنى غنم، وإلى البقال^(١) كما سيأتى .

ونزل بنو عدى بن النجار دارهم المعروفة بهم غربى المسجد النبوى ، على ما قاله المطرى ، وكان بها الأطم الذى فى قبلة مسجدهم ، وابتنوا أطمًا يقال له « أطم الزاهرية » امرأة سكنته كان فى دار النابغة عند المسجد الذى فى الدار .

ونزل بنو مازن بن النجار دارهم المعروفة بهم قبلى بئر البصة ، وتسمى الناحية اليوم أبو مازن ، غيّرها أهل المدينة .

قال المطرى : وابتنوا بها أطمين أحدهما يقال له « واسط » قلت : والذى يؤخذ من كلام ابن شبة الآتى فى منازل القبائل أن منازل بنى مازن كانت فى قبلة المدينة شرقى منازل بنى زريق قريبة منها ، والله أعلم .

ونزل بنو دينار بن النجار دارهم التى خلف بطحان المعروفة بهم ، وابتنوا أطمًا يقال له « المنيف » عند مسجدهم الذى يقال له مسجد بنى دينار ، قاله ابن زباله ، وقال المطرى فى بيان هذا المسجد : ودار بنى دينار بن النجار بين دار بنى حُدَيْلة ودار بنى معاوية أهل مسجد الإجابة ، ودار بنى حُدَيْلة عند بئرحاء ، اه ولا أدرى من أين أخذ هذا ، وما ذكره ابن زباله أقرب وأولى بالأعتماد لأموال سند ذكرها فى بيان مسجدهم .

قال ابن زباله : وزعم بنو دينار أنهم نزلوا أولا دار أبى جَهم بن حُدَيْفة العدوى ، وكانت امرأة منهم هناك ، وكان لها سبعة إخوة ، فوقفت على بئرهم بدار أبى جَهم ومعهم مدرى لها من فضة فسقط منها فى البئر ، فصرخت بإخوتها ، فدخل أولهم يخرجها فأسر ، فاستغاث ببعض إخوته حتى دخلوا جميعا فأتوا فى تلك البئر ، فهذه منازل بنى النجار .

قال المطرى وتبعه من بعده : إن دار النابغة المتقدمة فى بنى عدى كانت غربى مسجد الرسول ، وهى دار بنى عدى بن النجار ، ومسجد الرسول صلى الله

(١) البقال : بفتح الباء ، وتشديد القاف ، وهو اسم موضع

عليه وسلم وما يليه من جهة الشرق دار بنى غانم بن مالك بن النجار ، ودور بنى النجار بالمدينة وما حولها من الشمال إلى مسجد الإجابة ، والنجار : هو تيم الله بن ثعلبة ، وسمى بذلك لأنه ضرب رجلا فنجّره ، فقليل له : النجار ، وفي دور بنيه هؤلاء قال النبي صلى الله عليه وسلم «خيرُ دورِ الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل» وهم من الأوس كما سبق . وفي رواية أخرى « ألا أخبركم بخير دور الأنصار ؟ قالوا : بلى ، قال : بنو عبد الأشهل ، وهم رهط سعد بن معاذ ، قالوا : ثم من يارسول الله ؟ قال : ثم بنو النجار » وراويهما واحد ، وقد صحّتا ، فاختلف عليه ، وتقديم بنى النجار روى عن أنس من غير اختلاف عليه ، ولها مؤيدات أخرى ، وهم أخوالُ عبدِ المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم^(١) ، ولذلك نزل عليهم صلى الله عليه وسلم كما سيأتي ، ثم ذكر في الرواية المذكورة بعد بنى عبد الأشهل بنى الحارث ابن الخزرج أى الأكبر « ثم بنو ساعدة » وقال في هذه الرواية أيضا « وفي كل دور الأنصار خير » وكان المفاضلة وقعت بحسب السبق إلى الإسلام ، وبحسب مساعيهم في إعلاء كلمة الله

قال ابن زبالة عقب ذكر جميع منازل الأنصار المتقدمة : ونزل بنو الشطبة حين قدموا من الشام ميطان ، فلم يوافقهم ، فتحولوا قريبا من جذمان ، ثم تحولوا فنزلوا براتج ، فهم أحد قبائل راتج الثلاث ، وقد ذكر راتج في منازل يهود فقال : وكان براتج ناس من اليهود ، وكان راتج أطما سميت به تلك الناحية ، ثم صار لبني الجذماء ، ثم صار بعد لأهل راتج الذين كانوا حلفاء بنى عبد الأشهل ، وهو الذى يقول له قيس ابن الخطيم :

* ألا إن بين الشرّ عبي وراتج * البيت

وقد قدمنا عن ابن حزم أن أهل راتج هم بنو زُغُور بن جُشم أخى عبد الأشهل بن جُشم ، وذكر أيضا أن من أهل راتج بنى سعد بن مرة بن مالك ابن الأوس .

(١) ويقال إن عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم مدفون في «دار النابغة»

وقال المطري : راتج جبيل صغير غربى وادى بَطْحَان ، وبجنبه جبيل آخر صغير يقال له جبل بنى عبيد ، انتهى . وسيأتى ما ينازع فيه مع بيان أن راتجا فى ناحية مسجد الراية

الفصل السادس

فيما كان بينهم من حرب بُعَاث

نقل رزين عن الشرق أن الأوس والخزرج لبثوا بالمدينة ما شاء الله وكتبتهم واحدة ، ثم وقعت بين الأوس والخزرج حروب كثيرة حتى لم يُسَمَّع قطُّ فى قوم أكثرُ منها ولا أطول

الحروب
قبل بعث

أولها : حرب سُمَيْر ، وسببه رجلٌ من بنى ثعلبة كان حليفاً للمالك بن العَجْلَان ، قتله رجل من الأوس يقال له سُمَيْر بالمهملة مصغراً . ثم حرب كعب بن عمرو ، ثم يوم السَّراة ، وهو موضع بين بنى بَيْاضة والحماضة ، ثم يوم الديك ، وهو موضع أيضاً ، ثم حرب بُعَاث ، وهو كان آخرها ، قتل فيه سَراةُ الأوس والخزرج ورؤساؤهم .

قلت : فى كلام بعضهم أنه كان بين الأوس والخزرج وقائع من أشهرها يوم السَّراة ، ويوم فارع ، ويوم الفِجَار الأول والثانى ، وحرب حضير بن الأسلت ، وحرب حاطب بن قيس ، إلى أن كان آخر ذلك يوم بُعَاث ، فقول الخطابى « يوم بعث يوم مشهور كانت فيه مَقْتَلَةٌ عظيمة للأوس على الخزرج ، وبقيت الحرب قائمة مائة وعشرين سنة إلى الإسلام على ما ذكره ابن إسحاق وغيره » مؤول بأن حروب الأوس والخزرج كلها قبل بُعَاث وبعده مكثت هذه المدة ، وإلا فهو مردود ، وسيأتى تعيين تاريخ يوم بُعَاث

سبب
حرب بعث

وكان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان الظَّفَرُ فى أكثرها للخزرج على الأوس ، حتى ذهبت الأوس لتحالف قُرَيْظَةَ ، فأرسلت إليهم^(١) الخزرج : لئن

(١) إليهم : أى إلى بنى قريظة

فعلتم فأذنوا بحرب ، فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج : إنا لا نحالفهم ، ولا ندخل بينكم ، فقالت الخزرج لليهود : فأعطونا رهائن ، وإلا فلا نأمنكم ، فاعطوهم أربعين غلاماً من بينهم ، ففرقتهم الخزرج في دورهم ، فلما أيسست الأوس من نصرة اليهود حالفت بطوناً من الخزرج منهم بنو عمرو بن عوف ، وقال سائرهم : والله لا نصالح حتى ندرك ثأرنا ، فتقاتلوا ، وكثر القتلى في الأوس لما أخذهم قومهم ، وخرج سعد بن معاذ الأشملى ، فأجاره عمرو بن الجحوج الحرامى ، فلما رأت الأوس أن أمرهم إلى قتل عزموا على أن يكونوا حلفاء للخزرج في المدينة ، ثم اشتوروا في أن يحالفوا قريشاً ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بينهم أن من أراد حجاً أو عمرة لم يعرض له ، فأجار أموالهم بعدهم البراء بن معرور ، فأتوا مكة فحالفوا قريشاً ، ثم جاء أبو جهل - وكان غائباً - فنقض حلف قريش بحيلة احتالها .

قلت : روى ابن شبة عن أفلح بن سعيد ما يخالفه في نسبة ذلك لأبى جهل مع بيان الحيلة ، فقال : خرجت الأوس جالية من الخزرج حتى نزلت على قريش بمكة فحالفتها ، فلما حالقتهم قال الوليد بن المغيرة : والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخذوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس ، فقالوا : بأى شيء ؟ قال : إن في القوم حمية ، قولوا لهم : إنا نسينا شيئاً لم نذكره لكم ، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده ، فلما قالوا ذلك للأوس نفرت وقالوا : اقطعوا الحلف بيننا وبينكم ، فقطعوه ، انتهى .

فلما لم يتم لهم الحلف ذهبت النبيت إلى خيبر - قلت : أراد بالنبيت بعضهم ، وهم بنو حارثة ؛ لما قدمناه من أن النبيت يطلق عليهم وعلى بنى عبد الأشمل وبنى ظفرو بنى زعورا ، والذي انتقل من هؤلاء إلى خيبرهم بنو حارثة فقط كما سبق ، إلا أن يريد غيره - فأقاموا بها سنة ، ومات منهم عجزوز فقالوا « أهون حادث موت عجزوز في سنة » فذهب مثلاً ، فلما رأت الخزرج أن قد ظفرت

بالأوس افتخروا عليهم في أشعارهم ، وقال عمرو بن النعمان البياضى : يا قوم إن بياضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسى غسلا حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير وأقتل رهّهم ، وكان لهم غزار المياه وكرام النخل ، وقال رجل منهم أيضا شعرا يتغنى به يذكر جلاء النبى إلى خير وأخذهم الرهن من اليهود :

هَلُمَّ إِلَى الْأَحْلَافِ إِذْ رَقَّ عَظْمُهُمْ وَإِذْ أَصْلَحُوا مَالًا لَجُذْمَانِ ضَائِعًا
إِذَا مَا امْرُؤُ مِنْهُمْ أَسَاءَ عِمَارَةً بَعَثْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ بَنَى الْعِيرِ جَادِعًا
فَأَمَّا الصَّرِيحُ مِنْهُمْ فَتَحَمَّلُوا وَأَمَّا الْيَهُودُ فَاتَّخَذْنَا بَضَائِعًا
وَذَاكَ بَأَنَا حِينَ نَلَقَى عَدُوَّنَا نَصُولَ بَضْرٍ يَتْرِكُ الْعِزَّ خَاشِعًا

فبلغ قولهم قريظة والنضير وهم المعنيون بالصريح لأنهم من بنى الكاهن بن هارون ، وبلغ ذلك أيضا من كان في المدينة من الأوس ، فمشوا إلى كعب بن أسد القرظى ، فدعوه إلى المحالفة على الخزرج ، ففعل ، ثم تحالفوا مع قريظة والنضير ، ثم أرسلوا بذلك إلى النبى فقدموا فأخذت الخزرج في قتل الرهن ، فقال لهم كعب بن أسد القرظى : إنما هي ليلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الخلف ، وأرسلوا إلى الأوس وقالوا لهم : انهضوا إلينا ، فنأتيهم بأجمعنا ، فجاءت الخزرج إلى عبدالله ابن أبى فقالوا : مالك لا تقتل الرهن ؟ فقال : لا أغدرهم أبداً ، وأتم البغاة ، وقد بلغنى أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت ، والله ما يموتون أو تهلكون عامنكم ، فقال له عمرو بن النعمان : انتفخ والله سحرُك ، فقال : إني لا أحضركم ، ولكأنى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة في كساء .

فاجتمع الخزرج ورأسوا عليهم عمرو بن النعمان - قلت : الذى ذكره ابن حزم أن رئيس الخزرج يومئذ هو والد النعمان ، وهو رحيلة بن ثعلبة البياضى ، والله أعلم - فاقتتلوا في بُعَاث ، وهو موضع عند أعلى قورى ، وكانت الدبرة على الخزرج ، وقتل عمرو بن النعمان ، وجيء به تحمله أربعة كما قال له ابن أبى ، وحلفت اليهود لتهدين حصن عبدالله بن أبى ، وكان أبو عمرو الراهب مع الأوس ،

وكانت تحتة جميلة بنت أبيّ ، وهى أم حنظلة الغسيل ، فلما أحاطوا بالحصن قال لهم عبد الله : أما أنا فلم أحضر معهم ، وهؤلاء أولادكم الذين عندى فإننى لم أقتل منهم أحدا ، ونهيتُ الخزرج ففصوني ، وكان جل من عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ، ففرحوا حين سمعوا بذلك ، فأجاروه من الأوس ومن قريظة ، فأطلق أولادهم وحالفهم ، ولم يزل حتى ردهم حلفاء الخزرج بحيل تحيل بها ، وكان رئيس الأوس فى هذه الحرب حُضَيْر الذى يقال له « حضير الكتائب » والدُ أَسِيد بن حُضَيْر ، وبها قتل ، وقال حُفَاف بن نَدْبَة يرثى حُضَيْرًا :

أتانى حديث فكذبته وقالوا : خليلك فى المرّ مسر
فيا عين بكى حُضَيْر الندى حضير الكتائب والمجلس

وكان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى كما تقدم أيضاً ، قال بعضهم : وكان النصر فيها أولاً للخزرج ، ثم ثبت حضير الأوس فرجعوا وانتصروا .
وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن سبب ذلك أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالحليف ، فقتل رجل من الأوس حليفاً للخزرج ، فأرادوا أن يُقيّدوه فامتنعوا ، ف وقعت بينهم الحرب لأجل ذلك .

وكان يوم بعث قبل الهجرة بخمس سنين على الأصح ، وقيل : بأربعين سنة ، وقيل : بأكثر ، وهو اليوم الذى نقول فيه عائشة رضى الله عنها كفى الصحيح « كان يوم بعث يومًا قدّمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم فى الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملوئهم وقتلت سراتهم » يعنى الأوس والخزرج ، ومعناه أنه قتل فيه من أكارهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ويأنف أن يدخل فى الإسلام لتصلبه فى أمر الجاهلية ولشدة شكيمته حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقى منهم من هذا النمط عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وقصته فى ذلك مشهورة ، وكذلك أبو عامر الراهب الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم بالفاسق ، قال أهل السير : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبيّ بن

سلول ، كان من الخزرج ثم من بني عوف بن الخزرج ثم من بني الحنبل ، لا يختلف في شرفه في قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد ، وهو أبو حنظلة الغسيل ، وكان قد ترهب ولبس المسوح ، فشقياً بشرفهما : أما عبد الله بن أبي فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن ، فكان رأس المنافقين ، وإليه يجتمعون ، وهو القائل في غزوة بني المصطلق «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»^(١) وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها ، قال : إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها ، قال : ما فعلت ، ولكني جئت بها بيضاء نقيّة ، قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل ، فمن كذّبت ففعل الله ذلك به ، فكان هو ذاك عدو الله : خرج إلى مكة مفارقاً الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق » فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بهاطر يداً غريباً وحيداً .

وروى بعضهم أنه لم يكن في الأوس والخزرج رجل أو صف لحمد صلى الله عليه وسلم من أبي عامر المذكور ، وكان يألف اليهود ويسألهم فيخبرونه بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى يهود تيماء وإلى الشام ، فسأل النصارى

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

فأخبروه بذلك ، فرجع وهو يقول : أنا على دين الحنيفية ، وترهبَ ولبسَ المُسُوحَ ، وزعم أنه ينتظر خروجَ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ظهر بمكة لم يخرج إليه ، فلما قدم المدينة حسدَ وبغى ، وذكر إتيانه النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ماسبق ، إلا أنه قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكاذب أمانته الله وحيداً طريداً » قال : آمين ، ثم ذكر خروجه إلى مكة ، وزاد : فكان مع قريش يتبع دينهم وترك ما كان عليه ؛ فهذا مصداق ما ذكرت عائشة رضی الله عنها .

الفصل السابع

في مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبي صلى الله عليه وسلم
وذكر العقبة الصغرى

اعلم أن تلك الحروب المتقدمة لم تنزل بين الأوس والخزرج حتى أكرمهم الله باتباعه صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه في كل موسم من مواسم العرب على قبائلهم ، ويقول : ألا رجلٌ يحملني إلى قومه ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ، فيأبونه ويقولون : قومُ الرجل أعلم به .

وذكر ابن إسحاق عَرَضَهُ عليه الصلاة والسلام نفسه على كِنْدَةَ وعلى كَلْبٍ وعلى بنى حنيفة ، قال : ولم يكن أحد من العرب أقْبَحَ رداءً عليه منهم ، وقال موسى بن عقبة عن الزهري : فكان في تلك السنين - أي التي قبل الهجرة - يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي ، فلا يقبله أحد .

وذكر الواقدي دُعَاة صلى الله عليه وسلم بنى عَبَسَ إلى الإسلام ، وأنه أتى غَسَّانَ في منازلهم بعكاظ وبنى محارب كذلك ، ولم ينزل صلى الله عليه وسلم يدْعُو إلى دين الله ، ويأمر به كلَّ مَنْ لقيه ورآه من العرب ، إلى أن قَدِمَ سُوَيْدُ بْنُ

الصامت أخو بني عمرو بن عوف من الأوس ، وكان يسمى « الكامل » لجلده وشعره ، وهو القائل :

فَرَشَنِي بِخَيْرٍ طَالَمَا قَدْ بَرَيْتَنِي فَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي
فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَبْعُدْ وَلَمْ يَجِبْ ، ثُمَّ
انصرف إلى يثرب ، فلم يلبث أن قُتِلَ يَوْمَ بُعَاثَ .

قال ابن إسحاق : فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا نراه قد قُتِلَ وهو
مسلم ، وقدم مكة أبو الحَيَسْر^(١) أنس بن رافع وهو في فِتْيَةٍ من قومه بني عبد الأشهل
يطالبون الحِلْفَ ، فدعاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فقال رجل
منهم اسمه إياس بن معاذ وكان شاباً : هذا والله خير مما قدمنا ، فضربه
أبو الحَيَسْر^(١) واتهره ، فسكت ، ثم لم يَتمْ لهم الحلف ، فانصرفوا إلى بلادهم ،
ومات إياس بن معاذ فقيل : إنه مات مسلماً .

وقال رزين في ذكر هذه القصة : ثم جاءت الأوسُ تطلب أن تحالف قريشاً ،
فجاءهم رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعرض نفسه عليهم ، وقال : انتمُ
منى ، هل لكم في خيرٍ مما جئتم له ؟ وتلا عليهم القرآن ، ثم قال : يايعزوني
واتبعوني ؛ فإنكم ستجتمعون بي ، فقال عمرو بن الجوح : هذا أى قومٍ والله
خيرٌ لكم مما جئتم له ، فاتتهروه ، وقالوا : ما جئنا لهذا ، ولم يُقْبِلُوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ
انصرفوا ، فكانت وقعة بُعَاثَ .

وقال ابن زبالة : إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعرض نفسه على القبائل فيأبونه ،
حتى سمع بنفر من الأوس قدموا في المنافرة التي كانت بينهم ، فأتاهم في رحالهم ،
فقالوا : مَنْ أَنْتَ ؟ فانتسب لهم ، وأخبرهم خبره ، وقرأ عليهم القرآن ، وذكر أنهم
أخواله ، وسألهم أن يؤروه ويمنعوه حتى يبلغ رسالات ربهم ، فنظر بعضهم إلى
بعض وقالوا : والله هذا صادق ، وإنه للنبي الذي يذكر أهل الكتاب ويستفتحون

(١) في المطبوعات كلها « أبو الحيسر » تطبيع ، وما أثبتناه عن سيرة ابن هشام

به عليكم ، فَاغْتَنِمُوهُ وَأَمْنُوا بِهِ ، فقالوا : أنت رسول الله ، قد عَرَفْنَاكَ وَأَمْنَا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ ، فرنا بأمرك فَإِنَّا لَن نَعصيك ، فَسَرَّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وجعل يختلف إليهم ، ويزدادون فيه بصيرة ، ثم أمرهم صلى الله عليه وسلم أَنْ يَدْعُوا قَوْمَهُمْ إِلَى دِينِهِمْ ، فسألوه أَنْ يَرْتَحِلَ مَعَهُمْ ، فقال : حتى يأذن لي ربي ، فلتحقوا بأهلهم المدينة ، ثم شَخَّصُوا إِلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَقَبَةِ مَا كَانَ ، وهو مخالف لما تقدم من أن النفر من الأوس لم يقبلوا .

وقد أخرج الحاكم وغيره بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه قال : لما أمر الله نبيه أَنْ يعرض نفسه على قبائل العرب وَخَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَى مَنَى حَتَّى دَفَعْنَا إِلَى مَجْلَسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ ، وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ نَسَابَةً ، فقال : مَنْ الْقَوْمُ ؟ قالوا : ربيعة ، فذكر حديثاً طويلاً فِي مُرَاجَعَتِهِمْ وَتَوَقُّفِهِمْ أَخِيراً عَنْ الْإِجَابَةِ ، ثم قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، وهم الذين سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْصَارَ ، لكونهم أجابوه إلى إيوائه وَنَصَرَهُ ، قال : فما نهضنا حتى بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن إسحاق فِي ذِكْرِ الْعَقَبَةِ الْأُولَى : لما أراد الله عز وجل إظهار دينه خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَوْسِمِ الَّذِي لَقِيَ فِيهِ النَفَرَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فِي كُلِّ مَوْسِمٍ ، فبينما هو عند العقبة لَقِيَ رَهْطاً مِنَ الْخَزْرَجِ ، قال : أَمِنْ مَوَالِي^(١) يَهُودٍ ؟ قالوا : نعم ، قال : أَفَلَا تَجْلِسُونَ أَكَلَكُمْ ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ ، وَكَانُوا أَهْلَ عِلْمٍ وَكِتَابٍ ، وَكَانُوا هُمْ أَهْلُ شَرِكٍ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ ، وَكَانُوا قَدْ غَزَوْهُمْ فِي بِلَادِهِمْ ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قَالُوا لَهُمْ : إِنْ نَبِيَّا مَبْعُوثٌ قَدْ أَظْلَمَ زَمَانُهُ تَتَّبِعُهُ نَفْتَلِكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم

(١) الموالى : جمع مولى ، وهو هنا بمعنى الحليف

إلى الله قال بعضهم لبعض : تَعَلَّمُوا^(١) إِنَّهُ لِلنَّبِيِّ الَّذِي تَوَدَّكُمْ بِهِ يَهُود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإنَّ يجمعهمُ الله عليك فلا رَجُلَ أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم لِيَدْعُوا قومهم ، فلما جاؤهم لم يبق دار من دور قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وهم - يعنى أصحاب العقبة الأولى - فيما ذكر لي ستة نفر من الخزرج ، وهم : أبو أمانة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، كلاهما من بنى غنم بن مالك بن النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان الزرقى ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وجابر بن عبد الله بن رثاب ، وعقبة بن عامر ابن نابی ، وهؤلاء الثلاثة من بنى سلمة .

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى وأبى الأسود عن عروة : هم أسعد بن زرارة ، ومعاذ بن عفراء وهى أمه ، وهو ابن عمرو بن الجُمُوح من بنى غنم بن مالك بن النجار أيضا ، ورافع بن مالك ، ويزيد بن ثعلبة البلوى ، ثم من بنى غصينة حليفهم ، وأبو الهيثم مالك بن التيهان الأوسى ، ثم من بنى جُشم أخى عبد الأشهل بن جشم ، وعُويم بن ساعدة الأوسى ، ثم من بنى أمية بن زيد ، ويقال : كان فيهم عبادة بن الصامت الخزرجى ثم من بنى غنم أخى سالم بن عوف ، وذكوان الزرقى ، فيكونون ثمانية ، ومنهم من عدَّهم سبعة فأسقط جابر ابن عبد الله أو عبد الله بن زيد ، وقيل : إنما أسلم في العام الأول اثنان فقط ، هما أسعد بن زرارة وذكوان .

قال ابن إسحاق في ذكر العقبة - يعنى الثانية لما قدمه ، وبعضهم يسميها الأولى - : فلما كان الموسم - يعنى من العام المقبل - وافاه منهم اثناعشر رجلا ، فذكر الستة الذين قدمهم غير جابر بن عبد الله ، وزاد : ذكوان الزرقى ، وعبادة ابن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عباد بن نضلة الغنمى السالى الخزرجى ،

(١) تعلموا هنا بمعنى اعلما

ومعاذ بن عفراء ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة ، قال : فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة على بيعة النساء : أى على وفق بيعة النساء التى نزلت بعد الفتح ، على أن لا يشركوا بالله شيئاً إلى آخر الآية^(١) ، ولم يكن أمر بالقتال بعد ، بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ما عدا التوحيد والصلاة ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مُصْعَبَ بن عُمَيْرَ ليقبضهم فى الدين ويعلمهم الإسلام ، فكان يصلى بهم ، وقيل : بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليعلمهم ويقرئهم القرآن ، فكان يسمى «المقرئ» وهو أول من سمي به ، فنزل على أسعد بن زُرَّارة ، وقيل : بعث إليهم مُصْعَبُ بن عمير وابن أم مكتوم ؛ فكان مصعب بن عمير يؤمهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض ، فجمَّعَ بهم أول جمعة فى الإسلام - وفى الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى مُصْعَبِ بن عمير أن يجمعَ بهم فجمعَ بهم وكانوا اثنى عشر - .

قال الزهرى : وعند ابن إسحاق أولُ من جمَّعَ بهم أبو أمامة أسعد بن زُرَّارة ، وفى أبى داود من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كان أبى إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زُرَّارة ، فسألته ، فقال : كان أول من جمَّع بنا فى هَزمِ النبى من حرَّةِ بنى بياضة فى نقيع يقال له نقيع الخضعات . قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون . قال البيهقى : ولا يخالف هذا ما روى عن الزهرى من تجمُّع مصعب بن عمير بهم وأنهم كانوا اثنى عشر ؛ إذ مراد الزهرى أنه أقام الجمعة بمعونة الذفر الاثنى عشر الذين بايعوا فى العقبة وبعثه صلى الله عليه وسلم فى صحبتهم أو على أثرهم حين كثر المسلمون ، ومنهم أسعد بن زُرَّارة ، فالزهرى أضاف التجمع إلى مصعب لكونه الإمام ، وكعبُ أضافه إلى أسعد لنزول مصعب أولاً عليه ونَصْرِهِ له وخروجه به إلى دور الأنصار يدعوهم إلى الإسلام ، وأراد الزهرى

(١) أراد الآية السكرية التى فى سورة النساء الصغرى (المحتجثة) ، رقم ١٢

بالاتني عشر عدد الذين خرجوا به ، وكانوا له ظَهْرًا^(١) ، ومراؤ كعب جميع مَنْ صَلَّى معه ، هذا ويقول كعب متصل ، وقول الزهري منقطع ، اه .

وروى الطبراني مرسلًا في خبر طويل قال فيه عن عروة : ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث إلينا رجلا من قبلك يدعو الناس بكتاب الله ؛ فإنه أدنى أن يُتَّبَعَ^(٢) ؛ فبعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار ، فنزل في بني غنم على أسعد بن زُرَّارة ، فجعل يدعو الناس ، ويفشو الإسلام ، وهم في ذلك مستخفون بدعائهم ، ثم إن أسعد بن زُرَّارة أقبل هو ومُصعب بن عمير حتى أتيا مرقا أو قريبا منها ، فجلسا هنالك ، وبعثا إلى رَهْط من أهل الأرض ، فأتوهم مُسْتَخْفِينَ ، فبينما مصعب بن عمير يحدثهم ويقصُّ عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ ، فأتاهم في لَأْمَتِهِ^(٣) ومعه الرُّمَحُ حتى وقف عليه فقال : غَلَام يأتينا في دارنا ، هذا الوحيد الفريد الطريد الغريب لِيُسَفَّهُ ضِعْفَانِ بالباطل ويدعوهم ، لا أراكا بعد هذا بشيء من جوارنا ، فرجعوا ، ثم إنهم عادوا الثانية بيئر مرق أو قريبا منها فأخبر بهم سعد بن معاذ الثانية ، فتوعدهم بوعيد دون الأول ، فلما رأى أسعد منه اللين قال : يا ابن خالة ، ائسمع من قوله ، فإن سمعت منكراً فاردده بأهدى منه ، وإن سمعت خيراً فأجب إليه ، فقال : ماذا يقول ؟ فقرأ عليه مصعب « حم » والكتاب الملبين ، إناجعلنا قرآناً عربياً لعلمكم تعقلون^(٤) » فقال سعد : وما أسمع إلا ما أعرف ، فرجع وقد هداه الله ، ولم يظهر أمر الإسلام حتى رجع إلى قومه ، فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام وأظهر إسلامه ، وقال : مَنْ شك فيه من صغير أو كبير فليأتنا بأهدى منه ، فوالله لقد جاء أمر لُتَحَزَّنَ فيه الرقابُ ، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلامه ودعائه إلا مَنْ لا يذكر فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت بأمرها ، ثم إن بني النجار اشتدوا على أسعد بن زُرَّارة ، وأخرجوا مُصعب بن عمير ، فانتقل إلى سعد بن معاذ ، فلم

(١) كانوا له ظهرا : أي أعوانا مساعدين (٢) أدنى أن يتبع : أقرب

(٣) اللأمة : السلاح كله (٤) من سورة الزخرف الآيات ١ - ٣

يزل يدعو ويهدي على يديه ، حتى قلّ دارٌ من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناسٌ ،
وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح ، وكسرت أصنامهم ، فكان المسلمون
أمر أهلها ، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اه .

وقد روى هذه القصة ابنُ إسحاق عمَّن سمي من شيوخه بزيادة ونقص ،
فقال : إن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل
ودار بني ظَفَر ، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر على بئر يقال لها بئر مرق ،
فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، فلما سمع بذلك سعدُ بن معاذ وأُسَيد بن
حُصَير — وهما يومئذ سيدا قومهما بني عبد الأشهل — وكلاهما مُشرك ، قال
سعد لأُسَيد : لا أبالك ! انطلق إلى هـذَين الرجلين الذين أتيا دارينا ليسفها
ضعفانا ، فازجرهما وانهمما عن أن يأتيا دارينا ؛ فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة منى
حيث قد علمت كفيتهك ذلك ، هو ابن خالتي ، فأخذ أُسيد حرَّ بته ثم أقبل إليهما
فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمُصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدقِ الله فيه ،
قال : فوقف عليهما متشمتاً^(١) ، فقال : ما جاء بكما إلينا تُسَفِّهان ضعفانا ، اغترِ لانا
إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت
أمرأ قبليته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ، قال : أنصفت ، ثم ركز حرَّ بته وجلس
إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله
أعرَفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف
تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قال له : تغتسل فتطهر ، وتطهر ثيابك
ثم تتشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ، فقام ففعل ذلك ، ثم قال لهما : إن ورأى رجلاً
إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن سعدُ بن معاذ ، ثم
انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال :
أحلفُ بالله لقد جاءكم أُسَيدٌ بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما وقف على النادي قال

(١) في نسخة «متسمتا» بالسین المهملة ، ووقع كذلك في الخلاصة .

له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابنُ خالتك ليخفروك ، فقام سعد مغضباً مبادراً متخوفاً للذى ذكر له ، فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتماً ثم قال : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رئت هذا مني ، أنفشنا في دارينا بما نكره ، وقد قال أسعد لمصعب بن عمير أي مُصعب ، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه من قومه ، إن يَنْبَعَكَ لا يتخلفُ عنك منهم اثنان ، فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالوا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أتمت أسلمتم ؟ فذكرا له ما تقدم ، ففعله ، ثم أقبل عاصراً إلى نادى قومه ومعه أسيدُ بن خضير ، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، أفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبةً^(١) ، قال : فإن كلام رجالكم ونساءكم حرام على حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال : فوالله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة ، ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زُرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن صئيفى بن الأسلت ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون

(١) فلان ميمون النقية : يراد به أنه مظفر المطالب ، والنقية : النفس ، أو هى الطبيعة والخلقة

منه ويطيعون ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم
ومضى بدر واحد والخذق ، ثم أسلموا كلهم .
وفي التاريخ الأوسط للبخارى أن أهل مكة سمعوا هاتفاً يهتف قبل إسلام
سعد بن معاذ :

فإن يُسَلِّمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحَ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْخَالِفِ
فيا سَعْدُ سَعْدُ الْأَوْسُ كُنْ أَنْتَ نَاصِرَا وَيَا سَعْدُ سَعْدُ الْخَزْجِينِ الْغَطَارِفِ
أُجِيبَا إِلَى دَاعِي الْهَدَى وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفَرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ
في أبيات أخرى .

وذكر لها رزين سبباً آخر كما سيأتى ، وهذا أصح ، ولم يذكر ابن إسحاق في
الخير المتقدم إسلام عمرو بن الجحوح ، بل ذكره بعد ذكر العقبة الآتية كما سنذكره ،
نعم ابنه معاذ شهد العقبة .

الفصل الثامن في العقبة الكبرى

وبعضهم يسميها العقبة الثانية ، ومقتضى ما قدمناه أن تسمى الثالثة .
قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج
من الأنصار من المسلمين للقائهم النبي صلى الله عليه وسلم ومبايعته في الموسم
مع حُجَّاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد : من
كرامته ، والنصر لنبية ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .
وروى ابن إسحاق وصححه ابن حبان من طريقه عن كعب بن مالك قال :
خرجنا حُجَّاجاً جامع مشركي قومننا ، وقد صلينا وفَقَّهْنَا^(١) ، ومعنا البراء بن معمر سيدنا
وكبيرنا ، فذكر شأن صلاته إلى الكعبة ، قال : فلما وصلنا إلى مكة ولم نكن رأينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فسألنا عنه ، فقيل : هو مع العباس في
(١) الفقه : العلم ، والمراد أنهم علموا ما أرسل الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم

المسجد ، فدخلنا فجلسنا إليه ، فسأله البراء عن القبلة ، ثم خرجنا إلى الحج وواعدناه العقبة ، فلما كانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا ومعنا عبد الله بن عمرو والد جابر ، ولم يكن أسلم قبل ، فَعَرَفْنَاهُ أمر الإسلام ، فأسلم حينئذ وصار من النقباء^(١) ، قال : فَنُفِئْنَا تلك الليلة في قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تَسَلَّلَ الْقَطَاً مستخفين ، فاجتمعنا في الشَّعْبِ^(٢) عند العقبة ثلاثة وسبعين رجلاً ، ومعنا امرأتان : أم عمار بنت كعب إحدى نساء بنى مازن ، وأسماء بنت عمر بن عبدى إحدى نساء بنى سلمة ، قال : فجاء ومعهم العباس ، فتكلم فقال : إن محمداً منا من حيث علمتم ، وقد مَنَعْنَاهُ ، وهو في عز ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه فأنتم وذاك ، وإلا فمن الآن ، قال : فقلنا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فَخُذْ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم ، فدعا إلى الله ، وقرأ القرآن ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنموني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، فقال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرتنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أصحاب الحروب وأهلُ الْخَلْقَةِ ورثناها كابراً عن كابر ، فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال - يعني اليهود - حِبَالاً ونحن قاطعوها ، فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدْعَانَا ، قال : فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم^(٣) ، أنا منكم وأنتم مني ،

(١) النقباء : جمع نقيب ، وهو كالعريف على القوم المقدم الذي يتعرف أخبارهم
(٢) شعب مبايعة العقبة يقع على يسار الداهب إلى منى (مكة) وانظر ص ٢٣٢
(٣) الهدم : يروى بتحريك الدال وبسكونها ؛ فأما المحرك فمعناه القبر ، يعني أنى أقبر حيث تقبرون ، وقيل : هو المنزل ، والمعنى منزلكم منزلى ، وأما المسكن فمعناه إهدار دم القتل ، والمراد على هذا إن طاب دمكم فقد طلب دمي ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي ؛ لاستحكام الألفة بيننا ، قاله ابن الأثير .

أحارب مَنْ حاربتم وأسلم من سلمتم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أَخْرِجُوا إِلَىَّ مِنْكُمْ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ ، فَأَخْرِجُوا مِنْهُمْ
اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس : فمن الخزرج أسعد بن
زُرَّارة نقيب بني النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن رَوَاحَة نقيب بني الحارث
ابن الخزرج ورافع بن مالك بن العَجْلان نقيب بني زُرَيْق ، والبراء بن مَعْرُور
وعبد الله بن عمرو بن حرام نقيب بني سلمة ، وعُبَادَة بن الصامت نقيب القبائل
وفي الطبراني أنه نقيب بني عدى من الخزرج ، فكأنه نقيب الجميع ، وسعد بن
عبادة ، والمندر بن عمرو نقيب بني سَاعِدَة - ومن الأوس أُسَيْد بن حُضَيْر
نقيب بني عبد الأشهل ، وسعد بن خَيْثَمَة ورفاعة بن عبد المنذر نقيب بني
عمرو بن عوف .

قال ابن إسحاق : وأهلُ العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون رفاعة
قلت : فيكون أبو الهيثم نقيبًا ثانيًا لبني عبد الأشهل فإنه منهم ، وقد
صرحوا به .

وجعل صلى الله عليه وسلم النقباء على عدة الأسباط ، وروى أنه نقب على
النقباء أسعد بن زرارة ، فتوفي بعدُ والمسجدُ النبوي يُبْنَى ، قيل : فاجتمعت
بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يجعل منهم شَخْصًا بدله
نقيبًا عليهم ، فقال لهم : أنتم أخوالي ، وأنا فيكم ، وأنا نقيبكم ، وكره صلى الله عليه
وسلم أن يخص بها بعضَهم دون بعض ، فكان ذلك من فضل بني النجار
الذي يَعُدُّون .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم كفالةَ الْخَوَارِجِ لِعِيسَى بن
مريم ، قالوا : نعم .

وحدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن

عبادة بن نضلة أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون على م تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت^(١) أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وآفون له بما دعوتوه إليه على ما ذكرت لكم فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإننا نأخذ على ما قلت ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

قال عاصم : ما قال ذلك العباس إلا ليشدّ العقد في أعناقهم ، وقال غيره : أود التأخير تلك الليلة رجاء أن يحضر عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى للأمر .

قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمية أسعد بن زرارة كان أول من بايع أول من ضرب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن أثيمان ، وفي حديث كعب المتقدم أنه البراء ابن معرور ، ثم بايع القوم . وفي المستدرک عن ابن عباس : كان البراء بن معرور أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، وعند أحمد عن جابر وعند الحاكم في الإكليل عن كعب بن مالك : قال عبد الله بن رَوَاحَة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا يُقِيل ولا نَسَقِيل ، فنزل « إِنْ أَلِهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ »^(٢) الآية .

وفي حديث كعب المتقدم بعد ذكر صُراخ الشيطان أن العباس بن نضلة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً

(١) نهكت أموالكم مصيبة : استأصلتها ، وأصله قولكم « نهكت الناقة حلباً »

إذا لم تبق في ضرعها لبناً (٢) من سورة التوبة من الآية ١١١

بأسيافنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : لم أؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رجالكم ، فرجعنا إلى مضاجعنا فنامنا عليها ، فلما أصبحنا غدت علينا جيلة قريش حتى جاؤنا في منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تشبَّ الحربُ بيننا وبينهم منكم ، فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، ولقد صدقوا لم يعلموه .

وفى حديث غير كعب أنهم أتوا عبد الله بن أبيّ ، فقال لهم : إن هذا الأمر جسيم ، ما كان قومى ليتفقوا على بمثل هذا ، وما علمته كان ، وروى أن مشركى الأنصار الذين حجوا فى ذلك العام كانوا خمسمائة نفر ، وأن أهل العقبة كانوا سبعين نفرا .

وفى لفظ عن ابن إسحاق : من الأوس أحد عشر رجلا : ومن القبائل أربعة نفر حلفاء الخزرج ، وكان من بنى الحارث بن الخزرج اثنان وستون رجلا ، فكانه أدخل فى الخزرج حلفاءهم الأربعة ، وإلا فتزيد العدة على ثلاثة وسبعين أربعة .

عدة أهل
البيعة

وروى رزين أن أهل العقبة كانوا سبعين رجلا وامرأتان ؛ فإنه روى حديث العقبة هذه عن عبادة بن الصامت بنحو حديث كعب المتقدم ، فقال : قال عبادة بن الصامت : فلما كان العام المقبل أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن سبعون رجلا وامرأتان من قومنا ، فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مسجد شعب العقبة ، عن يسارك وأنت ذاهب إلى منى ، فلما توافينا عنده جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس ، وقال : يا معشر الخزرج ، وهذا الاسم يغلب على الأوس والخزرج جميعاً إذ ذاك ، إن محمداً منا حيث علمتم ،

وقد منعناه كما بلغكم ، فإن كنتم تعلمون أنكم تقدرون على منعه ، وإلا فذرّوه فهو مع قومه في عز ومنعة ، فقام البراء بن مَعْرُور فقال : قد سمعنا ما قلت ، وإنا ماضربنا إليه أكباد الإبل إلا وقد علمنا أنه نبي ، فبايعنا يا رسول الله ، واشترط لنفسك ولربك ما شئت ، فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم ، فأخذ البراء بيده ، وقال : نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أزْراناً ، ونحن أهل الحِلْمَةِ والحِصُون والحروب ، فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ، ونحن قاطعوها ، فهل عسيّت إن نصرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل الدم الدم والهدم الهدم ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم ، وأحارب من حاربكم ، وأسلم من سالمكم ، أخرِجُوا إلىّ منكم اثني عشر نقيباً يكونوا نقباء على الناس ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فبينما هم في ذلك إذ صرّخ الشيطانُ يقول : يا أهل الجباب ، وهي المنازل ، هل لكم في الصّبْأَةِ^(١) قد اجتمعوا على حربكم ، فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أَرْبُ الْعَقَبَةِ لأَفْرَغَنَّ لَكَ أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ ، ارجعوا إلى رحالكُم ، نصركم الله ، فقال له العباس بن عباد بن نضلة : والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لئمِلَنَّ بأسيا فنادى على منى ، فقال له : لم أومرَ بذلك ، ثم ذكر قصة كلام قريش في ذلك وحلف مشركي قَوْمِهِمْ لهم عن ذلك ، قال : ثم إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج معنا ؟ قال : ما أمرت به .

قال رزين : وقد قيل إنه وقع بين قريش والأنصار كلام في سبب خروج النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، ثم ألقى الرعب في قلوب قريش فقالوا : ليس يخرج معكم إلا في بعض أشهر السنة ، ولا يحدث العرب بأنكم غلبتمونا ، فقالت الأنصار : الأمر في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن سامعون لأمره ، فأُنزل

(١) الصبْأَةُ : جمع صابئ ، وكان مشركو مكة يسمون الرسول وأصحابه بذلك لأنهم خرجوا عن دينهم

الله على رسوله « وإن يريدوا أن يخذعوك فإن حسبك الله ^(١) » أى : إن كان كفار قريش يريدون المكر بك فسيمكر الله بهم ، فانصرفت الأنصار إلى المدينة .

وقيل : إن قريشاً بدا لهم فخرجوا فى آثارهم ، فأدركوا منهم رجلين كانا تخلفا فى أمر ، فردوهما إلى مكة : المنذر ، وعباس بن عباد ، فأدركهما جبير بن مطعم والحارث بن أمية ، فخلصاهما ولحقا أصحابهما .

قلت : والذى ذكره غيره أن الرجلين هما المنذر وسعد بن عباد ، فأما المنذر فأعجز القوم ونجا ، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رَحْلِهِ ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بِجُمْتِهِ ، وكان ذا شعر كثير ، ثم خلصه منهم جبير بن مطعم والحارث بن أمية ؛ لأنه كان يحير لهما تجارها ويمنعهم أن يظلموا ببلده .

وذكر رزين عقب ما تقدم عنه إسلام عمرو بن الجموح كما ذكره أهل السير عقب ذلك أيضاً ، وكان عمرو شيخاً كبيراً من سادات بنى سُلَمة ، وشهد معاذ ابنه العقبة ، وكان لعمرو فى داره صنم من خَشَب يعبد به يُدعى مَنَاة ، فكان معاذ ابنه ومعاذ بن جبل وفتيان بنى سُلَمة يدخلون بالليل على صنم عمرو فيطرحونه فى بعض حُفَر بنى سُلَمة وفيها عذر الناس منكساً على رأسه ، فإذا أصبح قال عمرو : مَنْ عدا على آلِهتنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسهُ ، حتى إذا وجده غَسَلهُ وطَيَّبَهُ ثم يقول : والله لو أعلم مَنْ فعل هذا بك لأخزيتهُ ، فتكرر ذلك ، فطهره يوماً وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال : إني والله لا أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك ، فلما نام أخذوا السيف وقرنوا كلباً ميتاً بالصنم بحبل ثم ألغوه فى بئر من آبار بنى سُلَمة فيها عذر ، فلم يجده عمرو فى

إسلام عمرو
بن الجموح

مكانه ، فخرج حتى وجده كذلك ، فلما أبصر ما به وكلمه مَنْ أسلم من قومه
فأسلم وحسن إسلامه ، وقال في ذلك :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلبٌ وسطٌ بئر في قرْن
أفٍ للملك إلهاً مستدب الآن فتشّناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن الوهاب الرزاق دَيّان الدين
هو الذى أُنقذنى من قبل أن أكونَ في ظلمة قبر مُرتهن

الفصل التاسع

في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها

رؤيا النبي
دار هجرته

روينا في الصحيحين حديث « رأيت أنى أهاجرُ من مكة إلى أرض بها
نخل ، فذهب وهلى^(١) إلى اليمامة أو هجر ، فإذا هى المدينة يثرب » ووقع للبيهقى من
حديث صهيب « أُريتُ دار هجرتكم سبعة بين ظهراى حرّتين ، فإذا إن يكون
هجر أو يثرب » ولم يذكر اليمامة ، وللمزمذى من حديث جرير « أوحى إلى :
أى هؤلاء الثلاثة نزلت فى دار هجرتك ، المدينة أو البحرين أو قنسرين »
واستغربه ، وفيه نظر ؛ لخالفته لما فى الصحيح من ذكر اليمامة ، وأما هجر فيصح
التعبير بها عنها لكونها من بلاد البحرين ، وأما قنسرين فى من أرض الشام ،
ويحتمل أن يكون أرى ما فى الصحيح وأوحى إليه بالتخير قبل أو بعد ،
فاختار المدينة

وقال ابن التين : أرى النبي صلى الله عليه وسلم أولا دار هجرته بصفة تجمع
المدينة وغيرها ، ثم أرى الصفة المختصة بالمدينة فتعينت .

إذن النبي
لأصحابه
في الهجرة

ثم أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى المدينة ، وأقام بمكة ينتظر أن يؤذن
له فى الخروج ، فتوجه بين العقبتين جماعة منهم ابن أم مكتوم ، ويقال : إن أول مَنْ هاجر إلى

(١) الوهل ، بفتح فسكون : الظن والوهم ، وانظر ص ١٠

المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد الخزومي زوج أم سلمة ، وذلك أنه أودى لما رجع من الحبشة ، فعزم على الرجوع إليها ، ثم بلغه قصة الاثنى عشر من الأنصار فتوجّه إلى المدينة ، فقدمها بُكْرَةً ، وقدم بعده عامر بن ربيعة عشية ، ثم توجه مصعب بن عمير ليققه مَنْ أسلم من الأنصار كما تقدم ، ثم توالى خروجهم بعد العقبة الأخيرة ، فخرجوا أرسالا : منهم عمر بن الخطاب ، وأخوه زيد ، وطلحة بن عبيد الله ، وصُهَيْب ، وحزمة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وعبيدة ابن الحارث ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وعثمان بن عفان ، وغيرهم ، حتى لم يبق معه صلى الله عليه وسلم بمكة إلا على بن أبي طالب والصدّيق رضي الله عنهما ، كذا قاله ابن إسحاق وغيره ، والظاهر أن المراد لم يبق من أعيانهم ؛ لما روى من أن مَنْ كان بمكة ممن يُطِيق الخروج من المسلمين خرجوا بعد خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ، فطلبهم أبو سفيان وغيره من المشركين ، فردّوهم وسجّنهم ، فافتتن منهم ناس ؛ ففي هذا دلالة على بقاء جماعة غير الصدّيق وعلى رضى الله عنهما مع النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ ، فلما رأت قريش ذلك علموا أن أصحابه قد أصابوا مَنَعَةً ، ونزلوا دارا ، فحذروا^(١) خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا بدار الندوة ليأتروا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أبو جهل ، وزعم ابن دريد في الوشاح أنهم كانوا خمسة عشر رجلا ، وفي المولد لابن دحية كانوا مائة رجل ، وجاءهم إبليس في صورة شيخ نجدي فقال : أدخلوني معكم ، فلن تعدموا مني رأيا ، فأدخلوه ، فقال بعضهم : نخرجه من بين أظهرنا ، وقال آخرون : بل نجسه ولا يطمع حتى يموت ، فقال أبو جهل : قد رأيتُ أَصْلَحَ من رأيكم : أن يعطى خمسُ رجالٍ من خمس قبائل سيفيا سيفيا فيضربونه ضربَةً رجلٍ ، فيتفرق دمه في هذه البطون ، فلا يقدر لكم بنو هاشم على شيء ، فقال النجدي : لا أرى غير هذا ، فأخبر جبريلُ النبي صلى الله عليه وسلم عليه

(١) حذروا خروجه : أى ظنوه وقدروه

وسلم ، فأنزل الله على نبيه « وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ^(١) » فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى : نَمَّ عَلَى فَرَاشِي وَتَسَجَّ بَبُرْدِي فَلَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ مِنْهُمْ أَمْرٌ ، فترد هذه الودائع إلى أهلها ؛ لأن كفار قريش كانت تودع عنده لأمانته ، وكان اسمه عندهم الأمين الصادق ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق فأعلمه ، وقال : قَدْ أُذِنَ لِي ، فقال : الصَّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَانَ إِنَّمَا حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا ذَكَرَ لِأَصْحَابِهِ رُؤْيَاهُ الْمَتَقَدِّمَةَ هَاجِرَ مَنْ هَاجَرَ مِنْهُمْ قَبْلَ الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ عَامَةً مَنْ كَانَ هَاجِرَ بَارِضِ الْحَبْشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قَبْلَ الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلَى رِسَالِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُوْذَنَ لِي ، فَقَالَ لَهُ : وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَحَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَصْحَبَهُ ، وَكَانَ عَمْرُوقٌ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَعَلَفَ أَبُو بَكْرٍ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ الْخَبِطَ ^(٢) أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، فَعَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَاهُمَا ، فَقَالَ : بِالْثَمَنِ ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ : لَا أُرْكَبُ بِعِيرَا لَيْسَ هُوَ لِي ، فَقَالَ : فَهَوْلَكَ ، قَالَ : لَا وَلَكِنْ بِالْثَمَنِ الَّذِي ابْتَعْتَهَا بِهِ ، قَالَ : أَخَذْتُهَا بِكَذَا وَكَذَا ، قَالَ : قَدْ أَخَذْتُهَا بِذَلِكَ ، قَالَ : هِيَ لَكَ ، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ - كَمَا أَفَادَهُ بَعْضُهُمْ - أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبَّ أَنْ لَا تَكُونَ هَجْرَتُهُ إِلَّا مِنْ مَالِ نَفْسِهِ ، وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ النَّاقَةَ الَّتِي أَخَذَهَا هِيَ الْجَذْعَاءُ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ إِبْلِ بْنِ الْحَرِيشِ ، وَكَذَا فِي رِوَايَةِ أَخْرِجَهَا ابْنُ حَبَانَ ، وَأَنَّهَا الْجَذْعَاءُ ، وَأَفَادَ الْوَاقِدِيُّ أَنَّ الثَّمَنَ كَانَ ثَمَانِ مِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَأَنَّ الْمَأْخُوذَةَ هِيَ الْقَصُوصُ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ نَعَمِ بْنِ قُشَيْرٍ ، وَأَنَّهَا عَاشَتْ حَتَّى مَاتَتْ فِي خِلَافَةِ الصَّدِيقِ ، وَكَانَتْ مُرْسَلَةً تَرعى فِي النَّقِيعِ ، وَفِي طَبَقَاتِ ابْنِ سَعْدٍ أَنَّ ثَمَنَهَا ثَمَانِ مِائَةِ دِرْهَمٍ ، اشْتَرَاهَا أَبُو بَكْرٍ مِنْ نَعَمِ بْنِ قُشَيْرٍ ، وَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ الْقَصُوصَ بِثَمَنِهَا ، وَسَيَّأَتْ

(١) من سورة الأنفال الآية ٣٠

(٢) الخبط - بفتح الخاء والباء جميعاً - ورق الشجر الذي يتساقط إذا ضرب بالعصا

من رواية يحيى الحسيني أيضا أنها القصوى ، وجاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أُذِنَ له في الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى « وقل رب أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ^(١) » أخرجه الترمذى وصححه هو والحاكم ، فذهب أبو بكر إلى عبد الله بن أريقط قاله ابن عقيبة . وفي تهذيب ابن هشام « عبد الله بن أرقد » وفي رواية الأموى عن ابن إسحاق « ابن أريقد » وفي الغنية عن مالك اسمه « رقيط من بنى الدليل من كنانة » فاستأجره ، وكان هاديا خَرَّيْتَا ^(٢) : أى ماهرا بالهداية ، وكان على دين الكفار . قال النووي : لا نعلم له إسلاما ، فأمره أن يأتيهما بعد ثلاث في غار ثورٍ ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله ، فجاءه على رضى الله عنه ، واجتمعت قریش على باب الدار ليقتلوه بزعمهم ، فقال لهم أبو جهل : لا تقتلوه حتى يجتمعوا ، يعنى الخمسة من القبائل الخمس ، وجعل يقول لهم : هذا محمد كان يزعم لكم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ، ويكون لكم في الآخرة جنات تأكلون منها ، وإن لم تتابعوه يكون له فيكم ذبح في الدنيا ، ويوم القيامة نار تحرقون فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم والله كذا أقول ، وكذا يكون ، وأنت أحدهم ، ثم أخذ حَفَنَةً من تراب فرماها في وجوههم ، فأخذ على أبصارهم ولم على أَصْمِخَتِهِمْ فجعل على رأس كل رجل منهم ترابا وهو يقرأ أول سورة يس يستتر بها منهم إلى « فهم لا يبصرون » وتلا « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ^(٣) » ثم أتى منزل أبي بكر ، فخرجا من خُوخَةٍ كانت له ، وأتيا غار ثورٍ ، وأقام المشركون ساعة ، فجعلوا يتحدثون ، فجاءهم رجل كان إذ ذاك بعيدا منهم فقال لهم : وما تنتظرون ؟ فقالوا : أن نصبح فنقتل محمدا ، قال : قبحكم الله وخيكم ، أو ليس قد خرج عليكم وجعل على رؤوسكم التراب ، قال

(١) من سورة الإسراء الآية ٨٠ (٢) الحرب - بوزن سكين - الماهر الحاذق بالطرق

(٣) من سورة الإسراء الآية ٤٥

أبوجهل : أو ليس هو ذاك مُسَجَّى ببرده ؟ الآن كلنا ، فلما أصبحوا قام على من الفراش ، فقال أبوجهل : صدّقنا ذلك المخبر ، فاجتمعت قريش ، وأخذت الطّرق ، وجعلت الجعائل^(١) لمن جاء به ، فانصرفت أعينهم ولم يجدوا شيئا ، فجاء الديلي بعد ثلاث بالراحتين ، ولا ينافى هذا ما وقع في رواية هشام بن عُروة عند ابن حبان حيث قال : فركبا حتى أتيا الغار فتواريا ؛ لاحتمال أنهما ركبا غير هاتين الراحتين ، أو هما ثم ذهب بهما عامر بن فهيرة إلى الديلي .

وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب في الحديث المتقدم أن عليا رقد على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يورى عنه ، وباتت قريش تحلف وتأنر ، أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه ، حتى أصبحوا فإذا بعلى ، فسأله فقال : لا علم لى ، فعلموا أنه فرّ منهم .

وروى أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس في قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » الآية فذكر تشاور قريش ثم قال : فبات على عليّ فراشه صلى الله عليه وسلم ، وخرج هو حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى ينتظرونه حتى يقوم فيفعلون به ما اتفقوا عليه ، فلما أصبحوا ورأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ، فاقْتَصَوْا أثره^(٢) ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فرأوا بالغار ، فرأوا على بابه نَسَجَ العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال ، وذكر نحوه موسى بن عقبة عن الزهرى ، وكله مقتضى لأن الخروج إلى الغار كان في بقية تلك الليلة ، وكان ذلك بعد العقبة بشهرين وليال ، وقال الحاكم : بثلاثة أشهر أو قريبا منها ، ويرجح الأول ما جزم به ابن إسحاق من أنه خرّج أول يوم من ربيع الأول ؛ فيكون بعد العقبة بشهرين وبضعة عشر يوما ، وكذا جزم به الأموى ، فقال : خرج لهلال

(١) الجعائل : جمع جعالة ، مثل سحابة وسحائب ، وهى الأجرة

(٢) اقتصوا أثره : تتبعوه

ربيع الأول ، وقدم المدينة لاثني عشر خَلَتْ منه ، وعجل هذا كان خروجه يوم الخميس ، وهو الذي ذكره محمد بن موسى ، لكن قال الحاكم : تواترت الأخبار بأن الخروج كان يوم الاثنين ، وجمع الحافظ ابن حجر بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس : أى فى أثناء ليلته لما قدمناه ، وخروجه من الغار - يعنى غار ثور - ليلة الاثنين ؛ لأنه أقام فيه ثلاث ليال ، ومن روى ليلتين لعله لم يحسب أول ليلة ، وأما حديث الحاكم « لبثت مع صاحبي » يعنى أبا بكر « فى الغار بضعة عشر يوما ، ما لنا طعام إلا تمر البرير » أى الأراك ، فقصال الحاكم : معناه مكثنا مختفين من الكفار فى الغار وفى الطريق بضعة عشر يوما ، وقال الحافظ ابن حجر : الذى يظهر أنها قصة أخرى ، لما فى الصحيح من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما فى الغار بالليل ، وكذلك قصة نزولها بَحْيَةَ أم مَعْبَد ، وبغير ذلك ، وكان مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة بضع عشر سنة . وقال عروة : عشرا ، وقال ابن عباس : خمس عشر سنة ، وفى رواية عنه : ثلاث عشرة ، ولم يعلم بخروجه إلا على وآل أبي بكر ، وكان من قصة نسج العنكبوت وغيره من أمر الغار ما كان ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ومعهما عامر بن فهيرة يتخدمهما يردفه أبو بكر ويعقبه ، والدليل ، فأخذ بهم فى أسفل مكة حتى أتى بهما طريق السواحل أسفل من عُسْفَانَ ، ثم عارض الطريق على أمّج^(١) ، ثم نزل من قديد خيام أم معبد الخزاعية من بنى كعب ، وبقيّة المنازل إلى قباء ذكرها ابن زبالة ، وقد أوضحناه فى الأصل ، وانفق فى مسيرهم قصة سُرَاقَة عارضهم يوم الثلاثاء بقديد على ما ذكره ابن سعد وغيرها من القصص المشتملة على الآيات البينات .

قال رزين : وأقامت قريش أياما لا يدرون أين أخذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فسمعوا صوتا على أبى قبيس وهو يقول :

فإن يُسَلِّم السَّعْدَانِ يصبح محمد من الأمن لا يخشى خلاف الخالف

(١) أمّج : بفتح الهمزة والميم جميعا - مكان بعينه بين مكة والمدينة

فقال قريش : لو علمنا من السعدان ، فقال :
 أيا سَعْدُ سَعْدِ الأوس كن أنت مانعا ويا سَعْدُ سَعْدِ الخزرجين العطارف
 أجيباً إلى داعي الهدى وتَبَوَّآ من الله في الفردوس زلفة عارف
 فعاموا إذ ذاك أنه أخذ طريق المدينة .

قلت : والأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك ؛ لأن السعدين
 كانا قد أسلما قبل ، ثم سمعوا قائلًا بأسفل مكة لا يرى يقول :
 جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائه رفيقَيْنِ قالا : خَيْمَتِي أم معبد
 قلت : وروى هذا مع الأبيات الآتية مما سمع حينئذ ، وقيل : سمعوا هاتفا
 على أبي قُبَيْسٍ يقول :

جزى الله خيراً والجزاء بكفه رفيقَيْنِ قالا خَيْمَتِي أم مَعْبِدِ قصة أم معبد
 هما رَحَلاً بالحقِّ وانتزلاً به فقد فاز من أمسى رفيق محمد
 فما حَمَلَتْ من ناقة فوق رَحْلِها أبرَّ وأوفى ذمَّةً من محمد
 وأكسَى لُبُزٍ الخال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السانح المتجدد
 لِيَهْنَ بنى كَنْبٍ مكانُ فتاتِهِمْ ومقعدها للمؤمنين بمِرْصَدِ
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مرَّ بأم معبد ، فاستسقاها لبناً ،
 فقالت : ما عندنا من لبن ، ونحن في سنة^(١) ، فنظر إلى شاة قد نحلت عَجْفَاء من
 الهُزَال ، فقال : قرِّبِي لي هذه الشاة ، فقرَّبَتْها ، فسحَّ صَرْعَها بيده المباركة وسَمَّى
 ودعا ، ثم قال : هات قَدَحًا ، فجاءت بقَدَحٍ : فحلب فيه حتى امتلأ ، فأمر أبا بكر
 أن يشرب ، فقال : بل أنت فاشربْ يا رسول الله ، قال : ساقى القوم آخرهم
 شرباً ، فشرب أبو بكر ، ثم حلب فشرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم
 حلب فشربت أم معبد ، ثم حلب ، فقال : أُرْفَعِي هذا لأبي معبد إذا جاءك ،
 ثم ركبوا وساروا ، فلما أتى أبو معبد أخبرته بما رأت ، وسَقَتَه اللبن ، فعلم

(١) يطلق العرب لفظ «السنة» على الحذب

أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فركب راحلته وخرج في أثره يطلب أن يسلم ،
فقال : إنه قال في طريقه :

جزى الله رب الناس خير جزائه	رفيقين قالا خيمتي أم معبد
ها نزلاًها بالهدى فاهتدت به	فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم	به من فعال لا تجارى وسودد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم	ومتعدها للمؤمنين بمرصد
سألوا أختكم عن شاتها وإنائها	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاهما بشاق حائل فتحللت	له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهناً ليهن الحالب	يردها في مصدر ثم مورد

وقال الشرق : بلغني أن أبا معبد أدركهما بطن ريم ، فبايع رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وانصرف .

قلت : وذكر غير رزين هذه الأبيات كلها فيما سُمِعَ بأسفل مكة من القائل
الذي لا يدرون ؛ فلما سمع حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بذلك جعل يجاوب الهاتف ويقول :

لقد خاب قومٌ زال عنهم نبيهم	وقدس من يسرى إليهم ويفتدى
ترحل عن قوم فضلت عقولهم	وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم	وأرشداهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسكعوا	عمى وهداة يهتدون بهتد ^(١)
لقد نزلت منه على أهل يثرب	ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى مالا يرى الناس حوله	ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب	فتصديقها في اليوم أوفى ضحى غد
ليهن أبا بكر سعادة جده	بصحبته ؛ من يسعد الله يسعد

(١) تسكعوا : محيروا ، قاله ابن الأثير .

خروج
أبي بريدة
لاستقبال
الرسول
صلى الله عليه
وسلم

قال أبو سليمان الخطابي : لما شارف النبي صلى الله عليه وسلم المدينة لقيه بريدة الأسلمي في سبعين من قومه بنى أسلم ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : بريدة فقال لأبي بكر : برد أمرنا وصلاح ، ثم قال : بمن ؟ قال : من أسلم ، قال : سلمنا ، ثم قال : بمن ؟ قال : من بنى سهم ، قال : خرج سهمنا^(١) .

وقد روى ابن الجوزي في شرف المصطفى من طريق البيهقي موصولا إلى بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتطير ، وكان يتفأل ، وكانت قریش جعلت مائة من الإبل لمن يأخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم فيرده إليهم حين توجه إلى المدينة ، فركب بريدة في سبعين راكبا من أهل بيته من بنى سهم ، فلقى نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أنت ؟ قال : أنا بريدة ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر ، برّد أمرنا وصلاح ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : بمن أنت ؟ قال : من أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : سلمنا ، ثم قال : بمن ؟ قال : من بنى سهم ، قال : خرج سهمك^(١) ، فقال بريدة للنبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله رسول الله ، فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فأسلم بريدة وأسلم مَنْ كان معه جميعا ، فلما أصبح قال بريدة^(٢) للنبي صلى الله عليه وسلم : لا تدخل المدينة إلا ومعلك لواء ، فحلّ عمامته ثم شدّها في رُمح ثم مشى بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله تنزل على مَنْ ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن ناقتي هذه مأمورة ، قال بريدة : الحمد لله الذي أسلمت بنو سهم طائعين .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجار قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض .

(١) خرج سهمك : كناية عن ظفرت وفلجت (٢) وقع في المطبوعات «أبو بريدة» مرارا ، و«بريدة» مرارا أخرى ، والصواب «بريدة» وهو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج ، الأسلمي ، وله ترجمة في الإصابة (١٥٠/١ رقم ٦٣٢)

وروى أن طلحة كان قدم من الشام ومعه ثياب أهداها لأبي بكر من ثياب الشام ، فلما لقيه أعطاه ، فلبس منها النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر . قال الحافظ ابن حجر : فيحتمل أن كلا من طلحة والزبير أهدي لهما ، والذي في السير هو طلحة ؛ فالأولى الجمع ، وعند ابن أبي شيبة ما يؤيده ، وإلا فإني الصحيح أصح .

الفصل العاشر

في دخوله صلى الله عليه وسلم أرض المدينة ، وتأسيس مسجد قُباء
كان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة أول النهار فينتظرونه ، فما يردهم إلا حرّ الشمس ، فبعد أن رجعوا يوما أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا بني قَيْلَة - يعني الأنصار - وفي رواية : يا معشر العرب ، هذا جدّكم ، يعني حظكم - وفي رواية : صاحبكم الذي تنتظرونه - فنار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقُباء على كلثوم بن الهدم ، قيل : وكان يومئذ مشركا ، وبه جزم ابن زبالة ، وقال رزين : نزل في ظل نخلة ، ثم انتقل منها إلى دار كلثوم أخي بني عمرو بن عوف ، وفي « أخبار المدينة » ليعحي الحسيني جدّ أمراء المدينة اليوم في النسخة التي رواها ابنه طاهر بن يحيى عنه من طريق محمد بن معاذ ، قال : حدثنا مجّمع بن يعقوب عن أبيه وعن سعيد بن عبد الرحمن ابن رقيش عن عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر حرّتنا ، ثم ركب فأناخ إلى عذق عند بدر غرس قبل أن تبرّغ الشمس ^(١)

(١) تبرّغ الشمس : تظهر

وما يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي بكر ، عليهما ثياب متشابهة ، فجعل الناس يُقفون عليهم حتى بزغت الشمس من ناحية أطمهم الذي يقال له « سُئيف » فأمهل أبو بكر ساعة حتى خيل إليه أنه يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرّ الشمس ، فقام فستّر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه ، فعرف القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يأتون فيسلمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت لمجمع بن يعقوب : إن الناس يَرَوْنَ أنه جاء بعد ما ارتفع النهار وأحرقتهم الشمس ، قال مجمع : هكذا أخبرني أبي وسعيد ابن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن يزيد قال : ما بزغت الشمس إلا وهو جالس في منزله صلى الله عليه وسلم

قلت : ولم أرَ هذا الخبر في النسخة التي رواها ولد ابن يحيى عن جده ، وقوله « عند بئر غرس » الظاهر أنه تصحيف ، ولعله « بئر عذق » لبعد بئر غرس من منزله صلى الله عليه وسلم بقباء ، بخلاف بئر عذق ، وإلا فهو قادح فيما يعرفه الناس اليوم من أن بئر غرس هي المعروفة بمحلها الآتي بيانه

وفي كتاب يحيى أيضا عن محمد بن إسماعيل بن مجّج قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كُثُوم بن الهذم هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة قال : يا نجيج ، لموتى له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفت إلى أبي بكر : أنجحت ، أو أنجحتنا ، فقال : أطعمنا رطبا ، قال : فأتوا بقمون من أم جردان فيه رطب منصف وفيه زَهْوٌ^(١) ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ قال : عذق أم جردان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك في أم جردان ، وقد أخرجه أبو سعيد في شرف المصطفى من طريق الحاكم ، وقال قوم بمنزله صلى الله عليه وسلم على سعد ابن خيشمة . وقد رواه يحيى أيضا ، قال رزين : والأول أصح اه .

(١) المنصف : الذي صار نصفه رطبا ، والزهو - بفتح فسكون - الذي قد

احمر أو اصفر من البلح

وقال الحاكم : إنه الأرجح ، قال : وقد قاله ابن شهاب وهو أعرف بذلك من غيره ، وقال بعضهم : كان سعد عَزَبًا ، فكان صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه في بيته ، فلذلك قيل : إنه نزل عنده ، ويشهد له ما نقله ابن الجوزي عن ابن حبيب الهاشمي قال : نزل النبي صلى الله عليه وسلم على كلثوم ، وكان يتحدث في منزل سعد بن خيثمة ، ويسمى «منزل العزاب» وفي الصحيح : فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعُدل بهم^(١) ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وفي رواية له : علو المدينة وقبَاء معدودة من العالية ، وكان حكمته التفاؤل له ولدينه بالعلو ، وذلك يوم الاثنين نهارا عند الأكثر ، قال الحافظ ابن حجر : وهو المعتمد ، وشذ من قال يوم الجمعة . قلت : لعل مراد هذا القائل القدوم الآتي للمدينة نفسها بعد الخروج من قُبَاء ، وقيل : ليلة الاثنين ؛ لقوله في مسلم « ليلا » قال الحافظ ابن حجر : ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل ، فدخل نهارا . قلت : وفيه نظر ، وكان ذلك أول ربيع الأول على مارواه موسى ابن عقبة عن ابن شهاب ، وقيل : لثمان خلَوْنَ منه . وفي الإكليل عن الحاكم : تواترت الأخبار بذلك ، وفي رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق : قدمها لليلتين خَلَتَا من شهر ربيع الأول ، ونحوه عن أبي معشر ، ولكن قال : ليلة الاثنين ، ومثله عن ابن البرقي ، وثبت كذلك في أواخر صحيح مسلم ، وفي رواية إبراهيم ابن سعد عن ابن إسحاق : لا ثنتي عشرة ليلة خلت منه حين اشتد الضحى ، وهذا ما جزم به السكبي فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر . وحكاه ابن الجوزي في شرف المصطفى عن الزهري فقال : قال الزهري : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وبه جزم النووي في السير من الروضة ، وكذا ابن النجار ، ونقل المراغي هذا عن النووي وابن النجار فقط ، وتعجب من عدم موافقته لشيء من الأقوال ، وكأنه فهم أن مرادها

(١) عدل بهم : مال بهم

المدينة نفسها بعد الخروج من قُبَاء ، وليس ذلك مرادهما؛ فإن ابن النجار عبر بقوله :
 اختلاف العلماء في تاريخ مقدمة المدينة
 فعدل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن
 عوف ، وذلك يوم الاثنين لاثني عشر من شهر ربيع الأول ، وأما النووى وإن
 عبر بالمدينة فليس مراده سوى ذلك ، والعلماء كلهم يطلقون على ذلك قدوم المدينة .
 وفي شرف المصطفى لابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ولد رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، واستُغْنِيَّ يوم الاثنين ، ورفع الحجر يوم الاثنين ،
 وخرج مهاجرا من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبض يوم
 الاثنين . وفي روضة الأَقْشَهْرِي : قال ابن الكلبي : خرج من الغار ليلة الاثنين
 أول يوم من ربيع الأول ، وقدم المدينة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه .
 قال أبو عمر : وهو قول ابن إسحاق إلا في تسمية اليوم . وعند أبي سعيد في شرف
 المصطفى من طريق أبي بكر بن حزم : قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول ، وهذا
 الجمع بينه وبين الذى قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية الهلال . وعنده من
 حديث عمر : ثم نزل على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع
 الأول ، ولعل الرواية خَلَّتْ لِيُوافِقَ ما تقدم . ونقل ابن زبالة عن ابن شهاب أن
 ذلك كان في النصف من ربيع الأول ، وقيل : كان قدومه في سابعه ، وجزم ابنُ
 حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر ، وهذا يوافق قول هشام بن
 الكلبي إنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، فإن كان
 محفوظا فلعل قدومه قُبَاء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، وإذا ضم ذلك إلى
 ما سيأتى من أنس أنه أقام بقُبَاء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة نفسها
 كان لاثنتين وعشرين منه ، لكن الكلبي جزم بأنه دخلها لاثنتي عشرة خَلَّتْ
 منه ؛ فعلى قوله تكون إقامته بقُبَاء أربع ليال فقط ، وبه جزم ابنُ حبان ؛ فإنه
 قال : أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس ، يعنى وخرج يوم الجمعة ، فلم يعتدَّ بيوم
 الخروج ، وكذا قال موسى بن عقبة : إنه أقام فيهم ثلاث ليال ؛ فكأنه لم يعد

يوم الدخول ولا الخروج . وعن قوم من بنى عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوما ، حكاه ابن زبالة . وفي البخاري من حديث أنس « أقام فيهم أربع عشرة ليلة^(١) » وهو المراد في رواية عائشة بقولها « بضع عشرة ليلة^(٢) » وقال موسى . ابن عقبة عن ابن شهاب : أقام فيهم ثلاثا ، قال : وروى ابن شهاب عن مجمع بن حارثة أنه أقام اثنتين وعشرين ليلة . وقال ابن إسحاق : أقام فيهم خمسا ، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أكثر من ذلك . قال الحافظ ابن حجر : أنس ليس من بنى عمرو بن عوف ؛ فإنه من الخزرج ، وقد جزم بأربع عشرة ليلة ، فهو أولى بالقبول ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتأريخ فكتب من حين الهجرة في ربيع ، رواه الحاكم في الإكليل ، وهو مُفَضَّل ، والمشهور أن ذلك كان في خلافة عمر رضي الله عنه ، وأن عمر قال : الهجرة فَرَقَتْ بين الحق والباطل ، فأرخ بها ، وابتدأ من المحرم بعد إشارة على عثمان رضي الله عنهما بذلك ، وقد ذكرنا ما قيل في سببه في الأصل ، وأفاد السهيلي أن الصحابة رضي الله عنهم أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله تعالى « لَمَسْجِدَ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ^(٣) »

ابتداء التأريخ
من الهجرة

وفي الصحيح أنهم لما قدموا قام أبو بكر للناس : أَيْ يَتَلَقَّاهُمْ ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ يَحِيّ أَبَا بَكْرٍ ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّ عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مَنْ لَمْ يَكُنْ رَأَاهُ يَحْسِبُهُ أَبَا بَكْرٍ ، حتى إذا أصابته الشمس أقبل أبو بكر بشيء أظله به ، وفي رواية ابن إسحاق : حتى رأينا أبا بكر يَنْحَازِلُهُ عَنِ الظِّلِّ ، فعرفناه بذلك

(١) في المطبوعات « أربع عشرة ليلة » و « بضع عشرة ليلة » تطبيع

(٢) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

ونزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب^(١) بن إساف أحد بني الحارث بن الخزرج بالشنح ، ويقال : على خارجة بن زيد منهم .

وأقام على رضى الله عنه بعد مخرجه صلى الله عليه وسلم أياما ، قال بعضهم : ثلاثة ، حتى أدى للناس ودائعهم التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وخلفه لردّها ، ثم خرج فلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقاء ، فنزل على كلثوم بن الهدم ، قال فيمارواه رزين : فيينا أنا بائت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا برجل يضرب باب امرأة ، فخرجت فأعطاه شيئا وانصرف ، ثم فعل ذلك ليلة ثانية أيضا فلذكرت ذلك لها فقالت : هذا سهل بن حنيف يغدو كل ليلة على أصنام قومه فيكسرهما ثم يأتي بها لأبوقدحها خطبا ، وقد علم أن ليس لي من الخطب شيء .

وروى يحيى عن عبد العزيز بن عبيد الله بن عثمان بن حنيف قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم [على] بني عمرو بن عوف ، وقد كان بين الأوس والخزرج ملاكفة من العداوة ، وكانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس ، وكانت الأوس يخاف أن تدخل دار الخزرج ، وكان أسعد بن زُرارة قتل نبتل بن الحارث يوم بُعاث ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين أسعد بن زُرارة ؟ فقال سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر ورفاعة بن عبد المنذر : كان يارَسُولَ الله أصاب منا رجلا يوم بُعاث ، فلما كانت ليلة الأربعاء جاء أسعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُتَقَنِّعا بين المغرب والعشاء ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا أُميمة ، حيث من منزلك إلى ههنا وبينك وبين القوم ما بينك ؟ قال أبو أُميمة : لا والذي بعثك بالحق ما كنت لأسمع بك في مكان إلا جئت ، ثم بات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح ، ثم غدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشر ابني عبد المنذر : أجيروهم ، قالوا : أنت يارَسُولَ الله فأجروه فجوأرنا في جوارك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجره

(١) حبيب بن إساف الخزرجي : اختلف في ضبط اسمه ؛ فذكره الطبراني وابن عبيد البر بالخاء المعجمة كما هنا ، وقال ابن حجر : وهو تصحيف ، والصواب أنه «حبيب» بالخاء المعجمة مصغرا

بعضكم ، فقال سعد بن خيثمة : هو في جوارى ، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد ابن زُرارة في بيته فجاء به مُحَاصِرَةً يَدُهُ في يده ظُهُراً حتى انتهى به إلى بني عمرو ابن عوف ، ثم قالت الأوس : يا رسول الله كلنا له جار ، فكان أسعد بن زُرارة بعدُ يغدو ويروح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وكان لكثوم بن الهمد بقُبَاءٍ مَرَبِدٍ ، والمربد : الموضع الذي يبسط فيه التمر ليبس ، فأخذه منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأَسَّسه وبناه مسجداً كما رواه ابن زبالة وغيره .

وفي الصحيح عن عروة : فلبث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأَسَّسَ المسجدَ الذي أسس على التقوى ^(١) ، وفي رواية عبد الرزاق عنه قال : الذين بنى فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف ، وكذا في حديث ابن عباس عند ابن عايد ، ولفظه : ومكث في بني عمرو بن عوف ثلاث ليالٍ ، واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلي فيه ، ثم بنى بنو عمرو بن عوف ؛ فهو الذي أسس على التقوى .

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن المسعودي عن الحكم بن عتيبة قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فنزل بقُبَاءٍ قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بُدٌّ من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قُبَاءٍ ، فهو أول مسجد بُنى ، يعني لعامة المسلمين أو للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهو في التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد ، فقد روى ابنُ أبي شبة عن جابر قال : لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنتين نعلم المساجد ونقيم الصلاة ، ولذا قيل : كان المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار بقُبَاءٍ قد بَنَوْا مسجداً يصلون فيه ، يعني هذا

(١) الإشارة إلى قوله تعالى : (مسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه)

المسجد ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد قُبَاء صلى بهم فيه إلى بيت المقدس ، ولم يُحَدِّث فيه شيئاً : أى فى مبدأ الأمر ؛ لأن ابن شبة روى ذلك ، ثم روى أنه صلى الله عليه وسلم بنى مسجد قُبَاء وقدم القبلة إلى موضعها اليوم ، وقال : جبريل يؤم بى البيت ، وقد اختلف فى المراد بقوله تعالى « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء ، ولا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة « هو مسجدكم هذا » إذ كل منهما أسس على التقوى على ما سيأتى إيضاحه .

وفى الكبير للطبرانى — وفيه ضعيف — عن جابر بن سمرة قال : لما سأل أهل قُبَاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يبنى لهم مسجداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لِيَقُمْ بَعْضُكُمْ فَيَرْكَبُ النَّاقَةَ » فقام أبو بكر رضى الله عنه فركبها فخرها فلم تنبعث ، فرجع فقعده ، فقام عمر رضى الله عنه فركبها فلم تنبعث ، فرجع فقعده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ليقم بعضكم فيركب الناقة » فقام على رضى الله عنه فلما وضع رجله فى غرَزِ الرِّكَاب وثَبَّتْ به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَرْخِ زِمَامَهَا ، وَابْتُوا عَلَى مَدَارِهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » .

وروى الطبرانى — وفيه من لم يعرف — عن جابر أيضاً قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال لأصحابه « انطلقوا بنا إلى أهل قُبَاء نسلم عليهم ، فَأَتَاهُمْ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، فَرَحَّبُوا بِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ قُبَاءِ ائْتُونِي بِأَحْجَارٍ مِنْ هَذِهِ الْحَرَّةِ ، فَجُمِعَتْ عِنْدَهُ أَحْجَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَعَهُ عَنَزَةٌ لَهُ ^(٢) ، فَخُطَّ قَبْلَتُهُمْ ، فَأُخِذَ حِجْرًا فَوُضِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، خُذْ حِجْرًا فَضَعْهُ إِلَى حَجَرِي ، ثُمَّ قَالَ : يَا عُمَرُ خُذْ حِجْرًا فَضَعْهُ إِلَى جَنْبِ حَجَرِ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ قَالَ : يَا عُثْمَانُ خُذْ حِجْرًا فَضَعْهُ إِلَى جَنْبِ حَجَرِ عُمَرَ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى النَّاسِ فَقَالَ : لِيَضَعَّ كُلُّ رَجُلٍ حَجَرَهُ حَيْثُ أَحَبَّ عَلَى ذَلِكَ الْخَطِّ .

(١) يعنى يقصد بى جهة بيت الله الحرام ، والمراد أنه يححر له القبلة إلى جهته ، وانظر ما سيأتى للمؤلف فى ص ٢٥٣

(٢) العنزة — بفتحات — عصا مثل نصف الرمح لها سنان مثل سنانها

مق في
مسجد قباء

قلت : وهو يقتضى أن هذا البنيان لم يكن عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى قُباء ، بل بعد قدوم عثمان رضى الله عنه من الحبشة ؛ فإنه كان قد هاجر إلى أرض الحبشة فأراً بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أول خارج إليها ، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة ؛ فيمكن أن النبي صلى الله عليه وسلم أسسه عند قدومه ، ثم بناء بعد ذلك ، وإلا فلم يكن عثمان رضى الله عنه حاضراً ، كذا نبه عليه بعضهم ، ولهذا قال السهيلي . أول مَنْ وضع حجراً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ولم يذكر عثمان ، ثم قال : وصلى فيه نحو بيت المقدس قبل أن يأتى المدينة ، انتهى . وسيأتى عند ذكره في المساجد عن عمر رضى الله عنه أنه قال : والذي نفسى بيده لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وأصحابه ننقل حجارتهم على بطوننا ، ويؤمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل يؤم به البيت ^(١) ، ولم أر من نبه على تعيين زمان قدوم عثمان من الحبشة ، وسيأتى في بناءه صلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة أخبار تقتضى حضور عثمان له ، وهو محتمل أيضاً للبناء الأول والثانى ، وسبق في الفصل قبله عدُّ عثمان فيمن قدم المدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وهو كذلك في كلام ابن إسحاق .

وقال المحب الطبرى : الظاهر أن قدوم عثمان من الحبشة كان قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعدها وقبل وقعة بدر ؛ لأنه صحَّ أنه كان في وقعة بدر متخلفاً بالمدينة على زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، ووقعة بدر في الثانية ، وكان قدوم أكثر مهاجرى الحبشة في السابعة كما سيأتى ، والله أعلم .

وفى الكبير للطبرانى ورجاله ثقات عن الشَّموُس بنت النعمان قالت : نظرتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد بمسجد قُباء ،

(١) انظر الهامشة ١ فى ص ٢٥١ وانظر ماسيأتى له المؤلف فى ص ٢٥٣

فرايته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر ، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سُرته ، فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : أبى وأمى يا رسول الله أعطينى أكفك ، فيقول : لا ، خذ مثله ، حتى أسسه ، ويقول : إن جبريل عليه السلام هو يوم الكعبة ، قالت : فكان يقال : إنه أقوم مسجد قبله .

قلت : قد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يستقبل بيت المقدس حتى نسخ ذلك ، وجاءت القبلة وهم في صلاة الصبح فأخبرهم ، وكانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة ؛ فيحتمل أن جبريل عليه السلام كان يؤم به البيت ليستدل به على جهة بيت المقدس لتقابل الجهتين ، ولعلمه بما يؤول إليه الأمر من استقبال الكعبة ، أو أنه صلى الله عليه وسلم كان يخبرنا في ابتداء الهجرة في التوجه إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة كما قاله الربيع فأومَّ به جبريل البيت لذلك ، واختياره الصلاة لبيت المقدس أولا لاستمالة اليهود ، أو أن استقبال الكعبة كان مشروعا في ذلك الوقت ثم نسخ ببيت المقدس ثم نسخ بالكعبة ، لما قاله ابن العربى وغيره من أن القبلة نسخت مرتين ، أو أن ذلك تأسيس آخر غير التأسيس الأول ، ويدل لهذا الأخير ما قدمناه من رواية ابن شبة .

وقوله في حديث الشموس المتقدم « حتى يهصره الحجر » أى يميله . وأورده المجد من رواية الخطابى بلفظ آخر ، فقال : وروى الخطابى عن الشُّوس بنت النعمان قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجد قباء يأتى بالحجر قد صهره^(١) إلى بطنه فيضعه ، فيأتى الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره ، ثم قال : صهره وأصهره إذا ألصقه بالشئ ، ومنه اشتقاق الصهر في القرابة .

وروى ابن شبة أيضا أن عبد الله بن رَوَاحَة كان يقول وهم بينون في مسجد قُبَاء :

(١) أشار ابن الأثير إلى رواية « كان يؤسس مسجد قباء فيصهر الحجر العظيم إلى بطنه » أى يدنيه ويقربه

* أفلح من يعالج المساجدا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المساجدا » فقال عبد الله :

* ويقرأ القرآن قائماً وقاعدا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وقاعداً » فقال عبد الله :

* ولا يبيت الليل عنه راقداً *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « راقداً » والله أعلم .

الفصل الحادى عشر

فى قدومه صلى الله عليه وسلم باطن المدينة ، وسكناء بدار أبى أيوب الأنصارى ، وأمر هذه الدار ، وما آلت إليه ، وما وقع من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

قال أهل السير : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرْسِلَ إلى مِثْلِ بنى النجار ، فجاءوا متقلدين بالسيوف ، وكانوا أخواله ، وذلك أن هاشم ابن عبد مناف تزوج منهم امرأة ، وهى سلمى بنت عمرو ، فجاءه منها ولد ، فلما مات هاشم وكبر الغلام مر به قوم من قريش فأبصروه وقد ترعرع وهو ينتضل^(١) ويقول : أنا القرشى ، فجاءوا وأخبروا عمه المطلب بن عبد مناف ، فذهب فجاء به ، فدخل به مكة وهو رِدْفُهُ وعليه ثياب السفر ، فقالت قريش : هذا عبد المطلب ، فغلب عليه هذا الأسم ؛ فلذلك كان أخواله بنى النجار ، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اركبوا آمنين مُطَاعِينَ .

وفى البخارى من حديث أنس : قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أُرْسِلَ إلى بنى النجار فجاءوا بالسيوف ، ثم رواه البخارى بلفظ آخر ، فقال : قدم النبی صلى الله

(١) يقال « انتضل القوم » أى تراموا بالسهم للسبق

عليه وسلم فنزل جانب الحرّة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب حتى نزل جانب دار أبي أيوب . قال الحافظ ابن حجر : تقديره فنزل جانب الحرّة . فأقام بقُبَاء المدة التي أقام بها وبنى بها مسجده ، ثم بعث إلى آخره .

وفي التاريخ الصغير للبخارى عن أنس أيضاً قال : إني لأستعنى مع الغلمان إذ قالوا : محمد جاء ، فننطلق فلانرى شيئاً ، حتى أقبل وصاحبُه ^(١) ، فكُنّا ^(٢) في بعض جوانب المدينة ، وبعثنا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما ^(٣) ، فاستقبله خمسمائة من الأنصار ، فقالوا : انطلقا آمنين مُطاعين ، الحديث ، ففيه طى لذكر قصة قُبَاء ، إلا أن يريد أن ذلك وقع في مبدأ الأمر عند نزوله صلى الله عليه وسلم بقُبَاء ، وهو ما اقتضاه رواية رزين ، فإنه قال : عن أنس قال : كنت إذ قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ابنَ تسع سنين ، فأسمع الغلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنذهب فلانرى شيئاً ، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، فكُنّا في خرب ^(٤) في طرف المدينة ، وأرسلنا رجلاً يؤذن ^(٥) لهما الأنصار ، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار ، حتى انتهوا إليهما ، قال : فما رأيتُ مثلَ ذلك اليوم قط ، والله لقد أضاء منها كل شيء ، ونزلاً على كلثوم بن الهدم ، ثم ذكر تأسيس مسجد قُبَاء ، ثم قال : ثم خرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد المدينة ، فلا يمر بدارٍ من دور الأنصار إلا عَرَضُوا عليه ، وذكروا نحو مائتي ؛ فهو صريح في أن ذلك كان عند مقدّمه صلى الله عليه وسلم في بدء الأمر .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاء يوم الجمعة ، ونعيبه من الشهر مرتب على ما تقدم في قدومها .

(١) الأنصح في العربية «أقبل هو وصاحبه»

(٢) كُنّا : استترا (٣) يؤذن بهما : يعلم ويخبر

(٤) ذكر ابن الأثير أنه يروى «خرب» بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة

على أنه جمع خربة ، ويروى بخاء مهملة وآخره ثاء مثلثة ، وهو الموضع المحروث للزراعة

وروى يحيى أنه صلى الله عليه وسلم لما شَخَصَ : أى من قباء ، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا : يا رسول الله أخرجتَ مَلَالًا لنا أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟ قال : إني أَمِزْتُ بقرية تَأْكُلُ القرى ، فخلوها - أى ناقته - فإنها مأمورة فخرج صلى الله عليه وسلم من قُباة ، فعرض له قبائل الأنصار كلُّهم يدعوه ويعِدُّوه النصرَ والمنَّةَ ، فيقول : خلوها فإنها مأمورة ، حتى أدركته الجمعة في بنى سالم ، فصلى في بطن الوادى الجمعة وادى ذى صلب .

قلت : قيل كانت هذه أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وقيل : إنه كان يصلى الجمعة في مسجد قُباة في إقامته هناك ، والله أعلم .

وروى أيضاً عن عمارة بن خزيمة قال : لما كان يوم الجمعة وارتفع النهار دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم براجلته ، وحشد المسلمون ، ولبسوا السلاح ، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقتة القصوى ، والناس معه عن يمينه وعن شماله وخلفه : منهم الماشى والراكب ، فاعترضنا الأنصارُ فما يمر بدار من دورهم إلا قالوا هلم يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة ، فيقول لهم خيراً ، ويدعو ، ويقول : إنها مأمورة ، خلوا سبيلها ، فربنى سالم ، فقام إليه عَتَبَانُ بن مالك ، ونوفل ابن عبد الله بن مالك بن العجلان وهو آخذ بزمام راحلته يقول : يا رسول الله أنزل فينا فإن فينا العدد والعدة والحلقة ، ونحن أصحاب العصا^(١) والحدائق والدرك ، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البَحْرَةَ خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له : قوّل حيث شئت ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ويقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فقام إليه عُبَادَةُ بن الصامت وعباس ابن الصامت بن نَصْلَةَ بن العجلان فجعلا يقولان : يا رسول الله أنزل فينا ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم ، إنها مأمورة ، فلما أتى

(١) في المطبوعات « ونحن أصحاب الفضاء » وما أثبتناه عن الخلاصة

مسجد بنى سالم وهو المسجد الذى فى الوادى—فَجَمَعَ بِهِمْ فخطبهم ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين الطريق حتى جاء بنى الحنبل، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبى ، فلما رآه ابن أبى وهو عند مزاحم أى الأطم مُحْتَبِيًا قال : اذهب إلى الذين دَعَوْكَ فانزل عليهم ، فقال سعد بن عباد لا تَجِدُ^(١) يارسول الله فى نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه عليها ، ولكن هذه دارى ، فر بنى ساعدة فقال له سعد بن عباد والمنذر بن عمرو وأبو دجانه : هلم يارسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد ، وسعد يقول : يارسول الله ليس من قومي أكثر عذقا^(٢) ولا فم يثر منى مع الثروة والجلد والعدد والحلقة ؛ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أبا ثابت خلّ سبيلها فإنها مأمورة ، فمضى ، واعترضه سعد بن الربيع وعبد الله بن رَوَاحَة وبشير بن سعد فقالوا : يارسول الله لا تُجَاوِزْنَا فإننا أهل عدد وثروة وحلقة ، قال : بارك الله فيكم ، خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، واعترضه زياد بن ليلى وفروة بن عمرو — أى من بنى بَيْكَاضة — يقولان : يارسول الله هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة ، نحن أهل الدرك يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ثم مرّ بنى عَدِيّ بن النجار — وهم أخواله — فقام أبو سليط وصرمة بن أبى أنيس فى قومهما فقالا : يارسول الله نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة مع القرابة ، لا تجاوزنا إلى غيرنا يارسول الله ، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقربتنا بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ويقال : إن أول الأنصار اعترضه بنو بَيْكَاضة ، ثم بنو سالم ، ثم مال إلى ابن أبى ، ثم مر على بنى عدى بن النجار ، حتى انتهى إلى بنى مالك بن النجار .

قلت : وقول بنى عدى بن النجار « نحن أخوالك » لأنهم أقاربه من جهة

(١) لا تجد : لا تغضب ، أولا تحزن .

(٢) أراد أكثر نخلا ، وهو كان ثروة أهل المدينة .

الأمومة؛ لأن سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار كانت أم جد عبد المطلب، وقول البراء في حديث الصحيح « إن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله، من الأنصار » فيه تجوز من حيث إنه صلى الله عليه وسلم إنما نزل على إخوتهم بنى مالك بن النجار، أو أراد أنه نزل بخطه بنى النجار لتقارب منازلهم الجميع ومنهم بنو عدى .

وقال الحافظ ابن حجر في المقدمة في الكلام على الحديث المذكور : هم من بنى عمرو بن عوف من الخزرج ، وكانت أم عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، واسمها سلمى ؛ فهم أجداده حقيقة ، وأخواله مجازاً ، والشك من راوى الخبر ، انتهى .

وهو وهم ، سببه اشتباه النزول الأول بقباء بهذا النزول الذى وقع فيه الاستقرار ، وليس بنو عمرو بن عوف ممن يوصف بذلك ، وقد تنبه له فى الشرح ؛ فذكره على الصواب كما قدمناه ، والله أعلم .

وروى رزين أنه صلى الله عليه وسلم سار من قُباء ومعه جماعة من الأنصار فى السلاح وجميع المهاجرين ، وذكر صلاة الجمعة ، قال : ثم ركب ف جاء بنى الحُبلى فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان جالساً محتبياً عند أطم له ، فقال : اذهب إلى الذين دعوك فانزل عليهم ، فقال سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تجذب عليه ، فإن أهل هذه البخرة كانوا قد أجمعوا على أن يعصّبوه ويتوجّوه^(١) ، فلما رد الله عليه ذلك بالحق الذى أعطاك شرّق لذلك^(٢) .

قلت : الذى فى الصحيح ذكر سعد لذلك فى قصة عيادته صلى الله عليه وسلم له من مرض بعد سكناه بالمدينة ، والذى فى كتب السير عن ابن إسحاق أن الجمعة أدركتها فى وادى رانونا فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ، وكانوا أربعين ، وقيل : مائة ، فأتاه عتب بن مالك فى رجال من بنى سالم فقالوا : يا رسول الله أقيم عندنا

(١) أى يلبسوه التاج والعصابة ، والمراد أنهم كانوا أرادوا تملّكه عليهم .

(٢) شرّق لذلك : كناية عن أن صدره قد ضاق بسببه .

في العدد والعدة والمنعة ، قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، لناقته ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى بياضة تلقاه زياد بن لبسد وفروة بن عمرو في رجال من بنى بياضة ، فأجابهم بمثل ما تقدم ، فخلوا سبيلها ، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رَوَاحَة في رجال من بلحارث ، فأجابهم بما تقدم ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدى بن النجار - وهم أخواله دُثَيَّا - اعترضهم سليط بن قيس في رجال منهم ، فأجابهم بمثل ما تقدم ، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بَرَكَتْ على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، ثم وثبتت وسارت غير بعيد ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تلحلت وأرزمت ^(١) ووضعت جيرانها ^(٢) فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية أنها لما وثبتت من مبركها الأول بركت على باب أبي أيوب الأنصاري ، ثم ثارت منه وبركت في مبركها الأول ، وفي رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا المنزل إن شاء الله .

وذكر ابن سيد الناس بعد قصة بنى سالم أن راحلته انطلقت حتى وازنت دار بنى بياضة ، فذكر قصتهم ، ثم قال : فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه سعد بن عبادة ، وذكر قصتهم ، ثم قال : فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع ، وذكر قصتهم ، ثم ذكر القصة كما قدمناه .

وذكر يحيى في رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن سار من بنى سالم تيامن ، فأتى منزل ابن أبي ، ثم مضى في الطريق والطريق يومئذ فضاء حتى انتهى إلى سعد بن عبادة ، ثم اعترضت له بنو بياضة عن يساره ، ثم مضى حتى أتى بنى عدى ابن النجار ، ثم أتى إلى بنى مازن بن النجار ، فقامت إليه وجوههم ، ثم مضى حتى (١) في المطبوعات « تلحلت ورزمت » وما أثبتناه عن ابن الأثير ، وتلحلت - بتقديم اللام على الحاء - تحركت ، وأرزمت : صوتت من غير أن نفث فيها .
(٢) الجران - بزة الكتاب - باطن العنق .

انتهى إلى باب المسجد وقد حشّدت^(١) بنو مالك بن النجار فهم قِيَامٌ ينتظرونه إلى أن طلع فنهش إليه أسعد بن زُرارة وأبو أيوب وعمارة بن حزم وحارثة بن النعمان يقول : يارسول الله قد علمت الخزرج أنه ليس ربيع أوسع من ربيعى، قال : فبركت بين أظهرهم ، فاستبشروا ، ثم نهضت كأنها مذعورة ترجع الحنين^(٢) ، فساءهم ذلك ، وجعلوا يعدّونَ بجنبها حتى أتت إلى زقاق الحبشى بيترجل فبركت والنبي صلى الله عليه وسلم عليها مُزِيخ لها زِمَامَهَا ثم قامت عَوْدَهَا على بَدَنِهَا يزيد في المشى حتى بركت على باب المسجد وضربت بجرّائِهَا وعدلت ثِفَنَاتِهَا^(٣) ، وجاء أبو أيوب والقومُ يكلمونه في النزول عليهم ، فأخذ رَحْلَهُ فأدخله ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رَحْلِهِ وقد حط فقال « المرء مع رحله » .

وذكر رزين اعتراض بنى سالم له وقوله « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ثم قال : فمر بنى بياضة فكذلك ، ثم بينى ساعدة فكذلك ، ثم بدار بنى الحارث بن الخزرج فكذلك ، ثم مر بدار عدى بن النجار فكذلك ، فمضت حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب المسجد اليوم ، ولم ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت ، ثم وثبت فسارت غير بعيد ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها الأول ، فنزل إذ ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أئى الدور أقرب ؟ فقال أبو أيوب : دارى ، هذا بائى ، وقد حَطَطْنَا رَحْلَكَ فيها ، فقال « المرء مع رَحْلِهِ » فمضت مثلاً .

وروى ابن زبالة أنها لما بركت بباب أبي أيوب جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزل فتحلحل^(٤) فيطيف حولها أبو أيوب فيجد جبّار بن صخر أخا بنى سلمة ينخسها برجله ، فقال أبو أيوب : يا جبّار عن منزلى تنخسها ؟ أما والذي بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتك بالسيف ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزل أبي أيوب ، وقرّ قراره ، واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة .

(١) حشّدت : اجتمعت (٢) ترجع الحنين : تردده

(٣) الثفنات : جمع ثفنة - بفتح فكسر - وهى ما يلى الأرض من كل ذات أربع

عند بروكها ويحصل فيه غلظ من أثر البروك . (٤) أنظر ١٥ ص ٢٥٩

وعند الحاكم عن أنس : جاءت الأنصار فقالوا : إلبنا يارسول الله ، فقال :
دعوا الناقة فإنها مأمورة ، فبركت على باب أبي أيوب .

وروى الطبراني في الأوسط وفيه صديق بن موسى - قال الذهبي : ليس بالحجة -
عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فاستناخت
راحلته بين دار جعفر بن محمد بن علي ودار الحسن بن زيد ، فأتاه الناس فقالوا :
يارسول الله المنزل ، فانبعثت به راحلته ، فاستناخت ثم تحلحلت^(١) ، وللناس ثم
عرش كانوا يرشونه ويعمرونه ويبردون فيه ، حتى نزل رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن راحلته فأوى إلى الظل فنزل فيه ، فأتاه أبو أيوب فقال : يارسول الله
منزلى أقرب المنازل إليه [أ]فأنقل رحلك ؟ قال : نعم ، فذهب برحله إلى المنزل ، ثم
أتاه آخر فقال : يارسول الله انزل على ، فقال : إن الرجل مع رحله حيث كان ،
وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرش اثنتي عشرة ليلة حتى بنى المسجد
قلت : دار جعفر بن محمد هي التي في قبلة دار أبي أيوب ملاصقة لها ، ودار
الحسن بن زيد تقابلها من جهة المغرب ، بينهما الشارع .

وعند ابن عائد وسعيد بن منصور أن ناقتة صلى الله عليه وسلم استناخت به
أولا ، فجاءه ناس فقالوا : المنزل يارسول الله ، فقال دعوها ، فانبعثت حتى استناخت
عند موضع المنبر من المسجد ، ثم تحلحلت^(١) ، فنزل عنها ، فأتاه أبو أيوب فقال :
منزلى أقرب المنازل فأذن لي أن أنقل رحلك ، قال : نعم ، وأناخ الناقة في منزله
وقال الواقدي : أخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده ،
ونقله الحافظ ابن حجر عن ابن سعد ونقل الأتقشهرى في روضته عن ابن نافع
صاحب مالک في أثناء كلامه نقله عن مالك أن ناقتة صلى الله عليه وسلم لما أتت
موضع مسجده بركت وهو عليها ، وأخذها الذي كان يأخذها عند الوحي ، ثم ثارت
من غير أن تزجر وسارت غير بعيد ، ثم التفتت ، ثم عادت إلى المكان الذي

(١) انظر الهامشة رقم ١ في ص ٢٥٩

بركت فيه أول مرة فبركت ، فسُرِّي عنه ، فأمر أن يحط رحله ، وفي بعض الروايات أن القوم لما تنازعوا أيهم ينزل عليه قال : إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك وفي البخارى من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم أقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب ، فقال : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ أى أخوال جده ، فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه دارى ، وهذا بابى ، قال : فانطلق فبهى لنا مقيلاً^(١) . وفي رواية لابن زبالة : اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه ، فنزل منزله وتخيروه ، وأراد أن يتوسط الأنصار كلها .

قال المطرى : وهو غير مناف لما تقدم من قوله « دَعُوها فإنها مأمورة » ؛ لأن الله اختار له ما كان يختار لنفسه .

وفرّح أهل المدينة بمقدمه صلى الله عليه وسلم إليهم فرحاً شديداً ؛ ففي البخارى من حديث البراء « مارأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث ، وروى أبو داود أن الحبشة لعبت بحراهم فرحاً بقدمه صلى الله عليه وسلم .

قال رزين : وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير^(٢) يقلن :

طلع البدر علينا من ثِيَابِ الوداع
وَجَبَّ الشكر علينا مادعا لله داع

وفي رواية :

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

والعلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرحاً به .

وفي شرف المصطفى : لما بركت الناقة على باب أبي أيوب خرج جوار من

بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جاري

(١) المقيـل : الموضع الذى تقضى فيه القيلولة ، هذا أصله .

(٢) الأجاجير : جمع إجار ، وهو سطح المنزل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَنُحْمِبْنَانِي ؟ قلن : نعم يا رسول الله ، فقال : والله وأنا أحبكن ، قالها ثلاثا ، وفي رواية « يعلم الله إني أحبكن » . وأخرج الحاكم من طريق إسحاق بن أبي طلحة : فخرجت جوارٍ من بني النجار يضربن بالدف وهن يقلن ، وذكر البيت المتقدم .

وروى عن أنس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة أظلم منها كل شيء ، فلما دخل المدينة أضاء منها كل شيء ، ورواه ابن ماجة بلفظ : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء . ورواه أبو داود بلفظ : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة بحراهم فرحا بقدومه صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت يوما كان أحسنَ ولا أضوأ^(١) من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أضاء منها كل شيء ، الحديث . ورواه ابن أبي خيثمة عنه بلفظ : شهدتُ يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم أر يوما أحسن منه ولا أضوأ^(١)

وروى يحيى عن عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس^(٢) إليه ، وقيل : قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أنظر ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته يتكلم قال : أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلُّوا الأرحام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام ، وهذا الحديث بنحوه في الترمذي وصححه

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبارافع إلى مكة أعطاها خمسمائة درهم وبعيرين ، فقدا عليه بفاطمة وأم كلثوم بنتيه وسودة زوجته وأم

(١) أضوأ : أشد ضوءا

(٢) انجفل الناس إليه : ذهبوا نحوه مسرعين ، يقال : جفل ، وأجفل ، وانجفل .

أَيْمَنَ زَوْجَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ، وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ مَعَهُمْ بِعِيَالِهِ
أَبِي بَكْرٍ فِيهِمْ عَائِشَةُ وَأَخْتُهَا أَسْمَاءُ زَوْجُ الزَّيْبِرِ وَأُمُّهَا أُمُّ رُومَانَ ، فَلَمَّا قَدَمُوا الْمَدِينَةَ
أَنْزَلَهُمْ فِي بَيْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ .

وَقَالَ رَزِينٌ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَرْيُقَطٍ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ لِيَأْتِيَهُ
بِعَائِشَةَ وَأُمِّ رُومَانَ مَعَهُمَا وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ

قَالَ بَعْضُهُمْ : وَوَجَدُوا طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ عَلَى خُرُوجٍ ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ ،
فَقَدَمُوا كُلُّهُمْ .

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِي نَزَلَ فِي السُّفْلِ وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ فِي الْعُلُوِّ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا نَبِيَّ
اللَّهُ ، يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، إِنِّي أَكْرَهُ وَأُعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ وَتَكُونَ تَحْتِي ، فَظَهَرَ
أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلُوِّ وَنَزِلْ نَحْنُ فَنَكُونَ فِي السُّفْلِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا أَيُّوبَ إِنْ أَرَفَقَ
بَنَّا وَبِمَنْ يَفْشَانَا أَنْ نَكُونَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ ، قَالَ : فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُفْلِهِ ، وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ ، فَلَقَدْ انْكَسَرَ حُبٌّ لَنَا^(١) فِيهِ مَاءٌ ،
فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لَخَافَ غَيْرَهَا نَنْشَفُ بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّقًا أَنْ يَقْطُرَ
عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيهِ .

قُلْتُ : وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ سَبَبُ سَكْنَاهُ فِي الْعُلُوِّ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَالَّذِي
فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ عَلَيْهِ ، فَنَزَلَ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السُّفْلِ وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعُلُوِّ ، فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةَ فَقَالَ : نَمَشَى فَوْقَ
رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟! فَتَنَحَّوْا^(٢) وَبَاتُوا فِي جَانِبٍ ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : السُّفْلُ أَرْفَقُ ، فَقَالَ : لَا أَعْلُو سَقِيفَةً
وَأَنْتَ تَحْتَهَا ، فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُلُوِّ وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ

(١) الحب - بضم الحاء المهملة - الخاوية (٢) تنحوا : ابتعدوا

وقد قدمنا^(١) في آخر الفصل الرابع أن ابن إسحاق ذكر أن هذا البيت بنَاهُ
تُبَّعُ الأول لما مر بالمدينة للنبي صلى الله عليه وسلم ينزله إذا قدم المدينة ، فتداول
البيتَ المَلَكُ إلى أن صار لأبي أيوب ، وأن أبا أيوب من ذرية الخَضر الذي أسلمه
تبع كتابه .

وقد نقل الحافظ ابن حجر ذلك عن حكاية ابن هشام في التيجان ، قال :
وأورده ابن عساكر في ترجمة تبع ، . فما نزل صلى الله عليه وسلم إلا في بيته ، وقد
ابتاع المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بيتَ أبي أيوب هذا من ابن
أفلح مولى أبي أيوب الأنصارى بألف دينار ، فتصدق به ، وهو في شرق المسجد
المقدس كما سيأتى في الدور المطيفة بالمسجد

وقد اشترى الملكُ المظفر شهابُ الدين غازي، بن الملك العادل سيف الدين .
أبي بكر بن أيوب بن شاذى عَزَصَ دار أبي أيوب هذه ، و بناها مدرسة للمذاهب
الأربعة ، ووقف عليها أوقافاً بمِثْلَ فارقين^(٢) التي هي دار مُلكه ، وبدمشق لها وقف
آخر أيضاً ، ولها بالمدينة الشريفة أيضاً وقف من النخيل وغيرها ، غير أنه شمل
ذلك ماعم الأوقاف ، وكان بها كتب كثيرة نفيسة فتفرقت أيدى سَيَا . وآل
حالُ هذه المدرسة إلى التعطيل ، فسكنها بعض نظارها ، فتشاءمت على عياله ،
واتصل ذلك بسُلطان مصر نخرج منها ، والمدرسة قاعتان : كبرى ، وصغرى ، وفي
إيوان الصغرى الغربى خزانة صغيرة جدا ، فما إلى القبلة فيها محراب

قال المطرى : يقال إنها مَبْرَكُ ناقة النبي صلى الله عليه وسلم
وكانت ، إقامته صلى الله عليه وسلم بهذه الدار كما أفاده ابن سعد سبعة أشهر :
أى بتقديم السنين على الباء ، حتى بنى مساكنه . وقال رزين : أقام عند أبي أيوب
من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الثانية ، وقال الدولابى : شهرا ، وفي كتاب
يحيى عن زيد بن ثابت : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب

(١) انظر ص ١٨٨ وما بعدها من هذا الجزء

(٢) ميا فارقين : مدينة بديار بكر (ياقوت ٢١٤/٧)

لم يدخل منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية أول من هدية دخلت بها عليه قصعة مثرودة خبز برسمنا ولبنا فأضعها بين يديه ، فقلت : يا رسول الله أرسلت بهذه القصعة أمي ، فقال : بارك الله فيها ، ودعا أصحابه فأكلوا ، فلم أريم الباب^(١) حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة على رأس غلام مغطاة ، فأقف على باب أبي أيوب فأكشف غطاءها لأنظر ، فرأيت ثريدا عليه عراق ، فدخل بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال زيد : فقد كنا في بني مالك بن النجار مامن ليلة إلا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ويتناوبون بينهم ، حتى تحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت أبي أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر ، وما كانت تحطه جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة

وفيه أنه قيل لأبي أيوب : أي الطعام كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عندهم ؟ قالت : ما رأيته أمر بطعام فصنع له بعينه ، ولا رأيناه أتى بطعام قط فعا به

وقد أخبرني أبو أيوب أنه تعشى عنده ليلة من قصعة أرسل بها سعد بن عبادة طفيلش^(٢) فقال أبو أيوب : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهل تلك القدر مالم أره ينهل غيرها ، فكنا نعملها له ، وكنا نعمل له الهريس وكانت تعجبه ، وكان يحضر عشاءه خمسة إلى ستة عشر كما يكون الطعام في الكثرة والقلّة .

وفيه عن أبي أيوب أنهم تسكّفوا له طعاما فيه بعض هذه البقول ، فلما أتوه به كرهه وقال لأصحابه : كملوا فإنني لست كأحدكم ، إنني أخاف أن أؤذي صاحبي^(٣)

وفي كتاب ززين عنه بعد ذكر نزوله عليه قال : وما مرت ليلة من نحو السنة إلا وتأتيه جفنة سعد بن معاذ ثم سائر الناس ، يتناوبون ذلك نوباً ، قال أبو

(١) لم أرم الباب : لم أفارقه (٢) طفيلش - بزنة سفرجل - ضرب من المرق (٣) صاحبه : الملك الذي يلازمه ، والمراد بالبقول نحو السكرات والبصل والثوم كما سيأتي في رواية ززين التالية .

أيوب : فصنعتُ له ليلةً طعاماً ، وجعلت فيه ثوماً ، فلم يأكل منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ففرغت فنزلت إليه فقلت له : أحرامٌ هو؟ فقال: إني أناجى ، وأنا أكرهه لذلك ، وأما أنتم فكلوه ، قال : فقلت : فإنى أكره ما تكره يا رسول الله .

المواخاة
بين الأنصار
والمهاجرين

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادَّعَ فيه يهود^(١) ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط لهم ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تآخَوْا في الله أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى .

قلت : كانت هذه المواخاة بعد مقدّمه صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ، وقيل : ثمانية ، وهو بينى المسجد ، وقيل : بعده ، وقيل : قبله ، وذكره أبو حاتم في السنة الأولى ، والظاهر أن ابتداءها كان فيها ، واستمرت على حسب مَنْ يدخل في الإسلام أو يحضر ، كما يعلم من تفاصيلها ، قيل : وكانوا تسعين رجلاً من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيل : مائة ، آخى بينهم على الحق والمواصاة والتوارث ، وكانوا كذلك إلى أن نزل بعد بدر « وأولو الأرحام »^(٢) الآية . وقال الواقدي : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار .

وقال ابن عبد البر : كانت المواخاة مرتين : الأولى قبل الهجرة بمكة بين المهاجرين ، فآخى بين أبي بكر وعمر ، وهكذا حتى بقى على رضى الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن أكون أخاك ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فأنت أخى في الدنيا والآخرة ، والمواخاة الثانية ما تقدم من مواخاة

(١) وادع فيه يهود : هادئهم وصالحهم . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٥ .

المهاجرين والأنصار، وهى المرادة بقول الحسن: كان التوارث بالحلف^(١)؛ فنسخ بآية المواريث.

ولأبى داود عن أنس بن مالك: حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دارنا، وحديث «لا حلف فى الإسلام» معناه حلف التوارث، والحلف على ما منع الشرع منه، وعبر رزين عن المواخاة بين المهاجرين والأنصار فيما نقله عن أبى حاتم بقوله: ثم آخى بين أصحابه، ودعا لكل واحد منهم دعوة، وقال: أبشروا أتم فى أعلى غُرفِ الجنة، وقال لعل: ما أخرجتكم إلا لنفسى، أنت أخى ووارث علمى، وأنت معى فى الجنة فى قصرى مع ابنتى، وقصة المواخاة الأولى أقربها الحاكم؛ فذكر للمواخاة بين أبى بكر وعمر، وذكر جماعة، ثم قال: فقال على: يا رسول الله، إنك آخيت بين أصحابك فَمَنْ أخى؟ قال: أنا أخوك.

وقد أنكر ابن تيمية فى الرد على ابن المطهر الرافضى المواخاة بين المهاجرين خصوصاً مواخاة النبى لعل، قال: لأنها شرعت للارتفاق والتألف؛ فلا معنى لها بينهم، وهورد للنص وغفلة عن حقيقة الحكمة فى ذلك، مع أن بعضهم كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، والارتفاق ممكن، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقوم بعلى من عهد الصبا، واستمر ذلك.

وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم «آخى بين الزبير وابن مسعود» وهما من المهاجرين.

الهود
تحاول الإفساد
بين الأوس
والخزرج

والتأم شمل الحيين الأوس والخزرج ببركته صلى الله عليه وسلم، فمر شاس ابن قيس - وكان شيخاً من اليهود شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم - على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس يتحدثون فيه، ففاظله ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فقال: قد

(١) يعنى أن الحلف كان معدوداً من أنواع العصبية فى أول الإسلام بالمدينة، يرث به الحليف حليفه بعد مرتبة أهل الفروض والعصبية، ثم نسخ التوارث به بالآية.

اجتمع ملاً بنى قتيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر شابا من يهود كان معه فقال : أجلس إليهم ثم اذكر يوم بُعث ، وما كان فيه ، وأنشدُهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك ، فتنازع القومُ وتفاخروا ، حتى تواب رجلان من الحيين على الركب ، وهما أوس بن قَيْطِي وَجَبَّار بن صخر ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة ، وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ، وهى الحرة ، فخرجوا إليها ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فَبَكَوْا ، وعانق الأوسُ والخزرجُ بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس ، فأُنزل الله فى شأنه : « قل يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تَصُدُّوْنَ عن سبيل الله مَنْ آمَنَ تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ^(١) » ، وأنزل الله فى الذين صنعوا ما صنعوا من الحيين : « يا أيها الذين آمنوا إن تُطِيعُوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب » إلى قوله : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ^(٢) » .

وكان حُيَّ بن أخطب ^(٣) وآخره أبو ياسر من أشد يهود للعرب حسداً لما خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا . فأُنزل الله تعالى فيهما : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم » إلى قوله : « حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ^(٤) » .

(١) من سورة آل عمران الآيتين ٩٨ و ٩٩ (٢) من سورة آل عمران الآيات

١٠٠ - ١٠٣ (٣) فى المطبوعات « يحيى بن أخطب » وسأنى على الصواب

(٤) من سورة البقرة الآية ١٠٩

وحدثت صفية بنت حُصَي رضى الله عنها قالت : كنت أَحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم أَلْقُهُمَا قَطُّ مع ولدهما إلا أَخَذَانِى دونه ، فلما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ غدا عليه أبى وعمى مُغْلَسَيْنِ^(١) ، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فَأَتِيَا كَالَيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَا ، فَهَشَشْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ . فَوَاللَّهِ مَا التَفْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبتته ؟ قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ، فَشَقِيًّا بِحَسَدِهِمَا ، والله أعلم .

الفصل الثانى عشر

فما كان من أسره صلى الله عليه وسلم بها فى سِنِى الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل مختصرا .

وقد لخصه رزين من تأريخ أبى حاتم ، فزدت فيه نفائس ميزتها ، فأقول فى أولها « قلت » وفى آخرها « والله أعلم » وقد أقام صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين بالإجماع كما حكاه النووى^(٢) .

السنة الأولى

السنة الأولى - وقد تقدم بعض ما فيها من بناء مسجد قباء وغيره .
وقال أبو حاتم : كان فيها بناء المسجد النبوى ، ومات أسعد بن زُرارة والمسجد يُبْنَى ؛ فكان أول من دفن بالبقيع من المسلمين .

قلت : ومن هذا يعلم أن عثمان بن مظعون أول من دفن به من المهاجرين ، جمعا بين النقلين ، ومات كلثوم بن الهدم قبل أسعد بن زُرارة ؛ فهو أول مَنْ مات من الأنصار بعد مقدّم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : توفى أسعد بن زُرارة فى الثانية ، والله أعلم .

ومات البراء بن معرور قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) مغلسين : فى وقت الغلس ، وهو الوقت بين الفجر وسطوع النور .

(٢) وقد جعلنا زيادة المؤلف مستقلة تبدأ من أول سطر بكلمة « قلت » وتنتهى بكلمة « والله أعلم » ثم يبدأ تلخيص رزين من أول سطر جديد وهكذا .

وأوصى أن يُوجَّه إلى الكعبة ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره ، وكانت الأنصار ينتقرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدايا رجاء لهم ونسائهم ، وكانت أم سليم تنأسف على ذلك ، وما كان لها شيء ، فجاءت بابنها أنس ، وقالت : يخدمك أنس يا رسول الله ؟ قال : نعم .

قلت : الذى فى الصحيح عن أنس « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ليس له خادم ، فأخذ أبو طلحة بيدي ، فانطلق بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن أنسا غلام كئيب^(١) فليخدمك ، قال : فخدمته ، الحديث ، وقد يجمع بأنها جاءت به أولا ، وانطلق به أبو طلحة ثانيا ؛ لأنه وليه وعصبته ، وهذا غير محيى به لخدمته صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر كما يفهمه لفظ الحديث ، والله أعلم .

ثم زيد فى صلاة الحضر ركعتين بعد مقدمه المدينة بشر^(٢) .

قلت : قال السهيلي : إن ذلك كان بعد الهجرة بعام أو نحوه ، والذى عليه الأكثر أن الصلاة نزلت بتمامها من بدء الأمر ، والله أعلم .

ووعيك أصحابه فدعا بنقل وبائها إلى الجحفة ، وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة » ثم آخى بين أصحابه كما سبق ، ثم مات الوليد بن المغيرة بمكة ، ووُلِدَ عبد الله بن الزبير ، جاءت أمه أسماء بعد الهجرة فنُقِسَتْ به فى قباء فى شوال ، فكان أول مولود ولد فى الإسلام بها بعد الهجرة ، وكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَقَلَّ فى فيه .

قلت : سيأتى فى مسجد دار سعد بن خَيْثَمَةَ من المساجد التى لاتعلم عينها أن الذهبى قال : إن عبد الله ولد فى الثانية ، والله أعلم .

ثم عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء لابن عمه عبدة بن الحارث بن عبد المطلب

(١) كيس : وصف من الكياسة ، وهى الحذق وحسن التأقلى للأمر .

(٢) فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، إلا المغرب . ثم زيدت فى الحضر وأقرت فى السفر ، هكذا ورد فى حديث عائشة .

أول
راية عقدت
في الإسلام

على ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، وهي أول راية عقدت في الإسلام، ورمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رمي في الإسلام، فالتقى مع أبي سفيان بن حرب، وقيل عكرمة بن أبي جهل، وكان في مائة من المشركين يبطن رابع ويعرف بـ «دنان» فأنحاز إلى المسلمين من المشركين المقداد بن عمرو بن الأسود وعتبة بن غزوان، وكان حامل اللواء لعبيدة مصلح بن أثانة.

قلت: وذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة، ووصله ابن عائذ من حديث ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى الأبواء^(١) بعث عبيدة بن الحارث في ستين رجلاً» وذكر القصة، فيكون ذلك في السنة الثانية، وبه صرح بعض السير، والله أعلم.

ثم عقد لواء لعمه حمزة على ثلاثين من المهاجرين - قيل: ومن الأنصار - ليتعرض عير قريش، فلقى أبا جهل في ثلاثمائة راكب، فحجب بينهم مجدي ابن عمرو، وكان حليفاً للفريقين، وانصرفوا من غير قتال، وكان حامل لواء حمزة يومئذ أبو مرثد.

قلت: قدم بعضهم هذه على سرية عبيدة، وقال: إن لواء حمزة أول لواء عقد في الإسلام، ورجح ابن إسحاق الأول، وقال: إنما أشكل أمرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم شيعهما جميعاً، وذكر أبو عمر أن أول راية عقدت لعبد الله بن جحش، وقيل: إن سرية حمزة هذه كانت في السنة الثانية، والله أعلم.

ثم بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وهي بنت تسع، وكان عقد بها في مكة قبل الهجرة بثلاث وهي بنت ست.

زواج عائشة

قلت: وعقد على سودة بنت زمعة بعد عائشة - وقيل: قبلها، وبني بها بمكة - وكان بناؤه بعائشة على رأس تسعة أشهر - وقيل: ثمانية، وقيل ثمانية عشر شهراً - من قدمه، والله أعلم.

زواج

سودة بنت زمعة

(١) الأبواء: قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثمائة وعشرون ميلاً، وقيل: جبل على يمين آرة ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة (ياقوت ١/ ٩٢) وانظر تحديدها للمؤلف في ص ٢٧٤ س ١٥.

ثم عقد لواء لسعد بن أبي وقاص في عشرين يريدون عـير قريش في
ذى القعدة ، فخرجوا على أقدامهم يَكْمُنُونَ^(١) بالنهار ويسرون بالليل ، وكان حامل
اللواء لسعد المقداد بن عمرو ، فلم يجدوا شيئاً ، ثم جاء أبو قيس بن الأسلت يسلم ،
فلقيه ابن أبي ابن سلول ، فقال : تَرَبَّصْ^(٢) حتى ترى ، فرجع فمات كافراً .

قلت : وأسلم عبدالله بن سلام في أول قدومه صلى الله عليه وسلم ؛ ففي البخارى إسلام عبد الله
من حديث عائشة التصريح بأنه جاء قبل دخوله صلى الله عليه وسلم دار أبي أيوب ابن سلام
لما سمع بقدومه صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أهله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم
لأبي أيوب : اذهب فبني لنا مقيلاً ، فقال : قوماً على بركة الله ، أى هو وأبو بكر ،
قالت : فلما جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد
أنك رسول الله وأنت قد جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم
وأعلمهم وابن أعلمهم ، فسلمهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ؛ فإنهم إن يعلموا
أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود ، ويلكم !
اتقوا الله ، فوالذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم
بحق ، فأسلموا ، قالوا : مانعنا ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا :
ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرايتم إن أسلم ، قالوا :
حاشا لله ما كان ليسلم ، قال : أفرايتم إن أسلم ، قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ،
كرر عليهم ذلك ثلاثاً فيقولون له ذلك ، قال : يا ابن سلام اخرج عليهم ، فخرج
عليهم ، فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله فوالذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن أشياء ، فلما أعلمه بها أسلم ، وفي هذه الرواية ذكر

(١) يَكْمُنُونَ : يخفون ويستترون (٢) تَرَبَّصْ : انتظر وتعمّل
(١٨ - وفاة ١٠)

قصة اليهود المتقدمة ، وأن عبد الله بن سلام لما خرج إليهم وتَشَهَّدَ قالوا : شرُّنا وابن شرنا ، وتنقَّصُوهُ ؛ فقال : هذا كنت أخاف يارسول الله ، ونصَّبت أحبار اليهود العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم بغيا وحَسَدا : منهم حُيَّ بن أخطب ، وأبو رافع الأعور ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن سوريا ، والزبير بن باطًا ، وشمویل ، ولييد بن الأعصم ، وغيرهم ، ودخل منهم جماعة في الإسلام نِفَاقًا ، وانضاف إليهم من الأوس والخزرج منافقون ، وأرى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الأذان ، وقيل : كان ذلك في السنة الثانية عند ما شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة ؛ إذ كان اجتماعهم قبل بمناذٍ « الصلاة جامعة » والله أعلم .

السنة الثانية
من الهجرة

السنة الثانية - فلما جاء العاشر من المحرم أُرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بصَوْمِهِ ، وقال : « نحن أحق بموسى من اليهود » ثم زوج عليًا بفاطمة .

قلت : وذلك قبل بدر ، في رجب على الأصح ، وبَنَى بها في ذى الحجة كما سيأتى ، وكان لها خمس عشرة سنة ، وقيل : ثمان عشرة ، وقيل : تزوجها بعد أحد ، والله أعلم .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى الأبواء^(١) وهى من وُدَّان على ستة أميال مما يلي المدينة .

قلت : ولتقاربهما أطلق عليها « غزوة وُدَّان » والله أعلم .

واستخلف على المدينة سعد بن عُبَّادة ، وكان حامل لوائه سعد بن أبي وقاص ، ثم رجع ، ولم يَلَقَ كيدا ، فانصرف بعد ما وادع مجدي بن عمرو الضَّمَرِيَّ ، ثم غزا في مائتين من أصحابه إلى ناحية رَضْوَى ، وحامل لوائه سعد بن أبي وقاص ، ثم رجع ولم يلق كيدا .

قلت : وهى غزوة « بُوَاط » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تجار قریش

(١) انظر الهامشة رقم ١ فى ص ٢٧٢

أيضاً ، حتى بلغ بواط من ناحية رَضَوَى ، وقال ابن هشام : واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، وفي نسخة السائب بن مظعون ، وقال الواقدي : سعد بن معاذ^(١) ، والله أعلم .

ثم أغار على سَرَج المدينة كَرَزُ بن جابر الفِهْرِيُّ ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثره في المهاجرين ، وحامل لوائه على بن أبي طالب ، فأتته إلى بدر ، وفاته كَرَزُ ، وهذه بدر الأولى .

قلت : ذكر ذلك ابن إسحاق بعد « العشيرة » لبليال ، والله أعلم .
ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جَحْش في سَرِيَّةٍ ، وهم الذين قتلوا في الشهر الحرام في اثني عشر نفساً ، فأضل عتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص راحلتيهما ، فتخلفا عنهم ، ومضى العشرة حتى لقوا جماعة من قريش : منهم عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وافتدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحكم ابن كيسان ، أسلم ، وقتلوا عمرو بن الحضرمي .

قلت : ذكرها بعضهم بعد العشيرة ، ووصلوا نَحْلَةَ على يوم وليلة من مكة ، فمرت بهم عِيرُ قَرِيش تحمل زيبا وأدماً من الطائف معها الجماعة المذكورون في آخر يوم من رجب ، فاستأسروا الأسيرين ، وقتلوا عمرا ، واستاقوا العير^(٢) ، وكانت أول غنيمة في الإسلام ، والله أعلم .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العشيرة ، فوَدَعَ بني مُذَلْج وحلفاءهم ، ثم رجع .

قلت : وكان خروجه فيها يعترض عِيراً لقریش ، ففاته بأيام ، واستخلف أبا سلمة بن عبد الأسد ، والله أعلم .

قال أبو حاتم : وبلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يُوجَّهَ إلى الكعبة ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مُصَلًّى

التوجه إلى
الكعبة

(١) في المطبوعات « سعيد بن معاذ » (٢) العير - بالكسر - الإبل تحمل الميرة

فدعا الله تعالى ، فأُنزل « قد نرى تَقَلُّبَ وجهك » إلى قوله « وحيث ما كنتم فولوا وجْهكم شطره ^(١) » وقت صلاة الظهر يوم الثلاثاء النصف من شعبان ثمانية سِنِي الهجرة .

قلت : سيأتى ما فيه من الخلاف في الفصل الثالث من الباب بعده ، والله أعلم .

ثم نزلت فريضة الصوم في شعبان ، فصاموا رمضان ، فلما فرض رمضان لم يأمرهم بصيام عاشوراء ولا نهم .

ثم كانت غزوة بدر في رمضان لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة منه ، وقيل : صبيحة أربع وعشرين منه ، وكان المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر ^(٢) .

قلت : الراجح القول الثاني ، وخرجت الأنصار معه صلى الله عليه وسلم فيها ، ولم تسكن قبل ذلك خرجت معه ، ومعهم ثلاثة أفراس ، وكان المشركون ألفا ، ويقال : تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس ، وهذه بدر الثانية لما تقدم ، والله أعلم .

ثم قَتَلَ عُمَيْرُ بن عدى الخطمى العصماء امرأة من الأنصار ، وهى زوج يزيد الخطمى ، كانت تؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعر ، فقتلها ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينتطح فيها عِزَّان » .

قلت : قال في الاكتفاء : إن العصماء هذه نافقت لما قتل أبو علفك (بالفاء وإهمال أوله) وقالت شعرا تعيب الإسلام وأهله ، وتؤنب الأنصار في أتباعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن عميرا رجع إلى قومه بعد قتلها وهم يومئذ كثير مؤجهم ^(٣) في شأنها ، ولها بنون خمسة رجال ، فقال : يا بنى خطمة ، أنا قتلت

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ . (٢) في المطبوعات «وبضع عشرة» تطبيع

(٣) كثير موجههم : يريد أن الحديث في شأنها كان كثيرا مضطربا

بنت مروان، يعنى العصماء، فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون ، فذلك اليوم أول ماءٍ الإسلام فى دار بنى خطمة ، وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم ، ويومئذ أسلم رجال منهم لما رأوا من عز الإسلام ، انتهى . والذي رواه ابن سيد الناس عن ابن سعد أنه قال بعد ذكر قتل عمير للعصماء : ثم فى شوال كانت سرية سالم بن عمير إلى أبى عفك اليهودى ، وكان أبو عفك من بنى عمرو بن غوف شيخاً قد بلغ عشرين ومائة ، وكان يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول الشعر ، فقال سالم بن عمير وهو أحد البكائين وممن شهد بدرًا : على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه ، وذكر قتله إياه ، وهو مخالف لما قدمناه عن الاكتفاء من تقديم قتل أبى عفك على قتل العصماء ، وذكر ابن سعد أيضاً أن قتل العصماء كان لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان ، وأن عميراً كان ضريح البصر ، وسماه رسول صلى الله عليه وسلم البصير^(١) ، قيل : وكان أول من أسلم من بنى خطمة ، وكان إمام قومه وقارئهم ، وكان يدعى « القارىء » والله أعلم .

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفطر بيومين يُعَلِّم الناس زكاة الفطر .

قلت : وقيل : فى أول شوال ، وصلى صلاة الفطر ، وفيها فرضت زكاة الأموال أيضاً ، وقيل : فى الثالثة ، وقيل : فى الرابعة ، وقيل : قبل الهجرة ، وثبتت بعدها ، والله أعلم .

ثم غزا بنى قينقاع فى شوال .

قلت : قد تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد وادع اليهود ، وكانوا يرجعون إلى ثلاث طوائف : بنى قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة ، فأول من نقض منهم بنو قينقاع فحاربهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد بدر فى شوال ، فالتقى الله الرعب فى قلوبهم ، فنزلوا على حكمه ، فأراد قتلهم ،

(١) من سنن العرب أن تسحب الشئ باسم ضده ، مثل تسميتهم الصحراء « مفازة » وتسميتهم اللديغ « السليم » ولا يزال هذا يعبرى فى لسان العامة إلى اليوم

فاستوهمهم منه عبدُ الله بن أبيّ وكانوا حلفاءهُ فوهبهم له ، وأخرجهم من المدينة إلى أذْرِعَات ، وفي الاكتفاء : وكان منشأ أمرهم ، يعني في نقض العهد ، أن امرأة من العرب قدمت بِجَلَبٍ^(١) لها ، فباعته بسوق بني قَيْنُقَاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كَشْف وجهها ، فَأَبَتْ ، فعمد الصائغ إلى طَرَف ثوبها فعمدَهُ إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سواؤها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فوقع الشر بينهم وبين المسلمين ، فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه .

وروى أن ابن أبيّ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، أحسن في موالى ، فأعرض عنه ، وأنه قال : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غَدَاة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك ، وقال مغلطى في غزوة بني قَيْنُقَاع : قال الحاكم : هذه وبنى النضير واحد ، وربما اشتبهتا على من لا يتأمل ، وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكر أنهم أول مَنْ نقض العهد : فغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم بنى النضير ، وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بني قَيْنُقَاع وإجلاء بنى النضير كان في زمن واحد ولم يوافق على ذلك ؛ لأن إجلاء بنى النضير كان بعد بدر بستة أشهر على قول عروة ، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق ، وذكر الواقدي أن إجلاء بني قَيْنُقَاع كان في شوال سنة اثنتين ، يعني بعد بدر بشهر ، ويؤيده ما روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر جمع يهود في سوق بني قَيْنُقَاع فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً ، فقالوا : إنهم كانوا لا يعرفون القتال ، ولو قاتلنا لعرفت أنا الرجال ؛ فأنزل الله « قل للذين كفروا استغلبون وتحشرون »^(٢) .

(١) الجلب : اسم لما تجلبه من البادية لتيّعه في المدينة

(٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢

إلى قوله «لأولى الأبصار» وأصاب صلى الله عليه وسلم من سلاح بني قَيْنُقَاع ثلاثة أسيافٍ ودرعين أحدهما تسمى فضة والأخرى تسمى السغدية (بالسين المهملة والغين المعجمة) قال بعض الحفاظ : وكانت السغدية درع داود عليه السلام التي لبسها حين قتل جالوت ، والله أعلم .

ثم غزا غزوة «السويق» في ذى القعدة
قلت : سميت به لأنه كان أكثر زائد المشركين ، وغنمه المسلمون لأن أبا سفيان غزوة السويق
خرج في مائتي راكب ، وقيل : في أربعين ، حتى أتوا العريض ، فخرق نخلا ، وقتل
رجلا من الأنصار وأجيرا له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه ، وجعل
أبو سفيان وأصحابه يتخفّفون للهرب فيلقون جُرب السويق ، فأخذها المسلمون
فرجعوا ، وذلك بعد بدر ، فإن أبا سفيان حلف بعدها أن لا يمس رأسه ماء من
جناية حتى يغزو محمدا ، ففعل ذلك ، ورأى أن يمينه انحلت ، والله أعلم
ثم مات عثمان بن مظعون في ذى الحجة ، فهو أول من مات من المهاجرين
بالمدينة ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العيد ، ثم ضحى بكبش ،
ثم بنى على بفاطمة في ذى الحجة

قلت : وقال النووي : وتوفيت في ذى الحجة منها رقية^(١) ابنته صلى الله عليه
وسلم ، لكن ذكر أهل السير ما يقتضى أن وفاتها كانت في رمضان منها ، والله أعلم
السنة الثالثة — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لكعب بن
الأشرف » ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا له ، ثم قتله

السنة الثالثة
من الهجرة

قلت : ابن الأشرف كان أصله عربيا من كنهان على ما قاله ابن إسحاق ، أتى
أبوه المدينة فخالف بني النضير ، فشرّف فيهم ، وتزوج بنت أبي الحقيق ، فولدت
له كعبا ، وكان جسيما شاعرا ، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر ، وخرج إلى مكة
وأشدهم الأشعار ، وبكى أصحاب القليب^(٢) من قریش ، ونزل فيهم على المطلب

(١) كانت رضى الله عنها زوج عثمان بن عفان الأموى رضى الله عنه
(٢) أصحاب القليب : هم قتلى بدر من المشركين ، سمو بذلك لأنهم طرحوا في
قليب هناك ، والقليب : البئر

ابن أبي وداعة السهمي ، وعنده عاتكة بنت أبي العيص ابن أمية ، فهجاه حسان وهجا امرأته عاتكة ، فطردته ، فرجع إلى المدينة وشبّب بنساء المسلمين ، وكان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحرض عليه كفار قريش ، وقيل : صنع طعاما وواطأ يهود أن يدعو النبي صلى الله عليه وسلم فإذا حضر فتكوا به ، ثم دعاه ، فجاء ، فأعلمه جبريل فقام منصرفا وقال « من لكعب بن الأشرف » فانتدب له محمد بن مسلمة في نفر ، واحتال عليه حتى نزل له ليلا فقتله ، وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه ، والله أعلم .

غزوة الكدر ثم غزا غزوة الكدر ، وكان حامل لوائه على بن طالب ، فرجع ولم يلق كيذا قلت : خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد بني سليم ، واستخلف سباع بن عرفطة ، وقيل : ابن أم مكتوم ، فبلغ ماء يقال له الكدر ، وتعرف بغزوة « قرقرة » ، ويقال نجران ، فلم يلق أحدا ، والله أعلم .

غزوة أنمار ثم غزا غزوة أنمار ، فجاءه دعثور فوجده نائما تحت الشجرة ، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم على رأسه بالسيف ، فقال له دعثور : من يمنعك مني ؟ قال : الله ، فوقع السيف من يده ، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد ، قال : أذهب لشأنك ، فولى وهو يقول : محمد خير مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وأنا أحق بذلك منك ، فنذرت غطفان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهربوا .

غزوة ذي أمر قلت : هذه غزوة ذي أمر ، وسماها الحاكم غزوة أنمار ، وسمى بعضهم الأعرابي غورث ، ويقال : كان ذلك في ذات الرقاع ، ولا مانع من تعدد ذلك ، وكأن أبا حاتم رأى اتحادها فلم يذكر ذات الرقاع ، وهي بنخل عند بعضهم ؛ فلذلك لم يذكرها أيضا ، والله أعلم

ثم كانت سرية القرادة ، وكان أميرها زيد بن حارثة ، فلقى بها غير قريش ،

فأخذها ، وأسرفرات بن حيان ، وبلغ الخمس من تلك الغنيمة عشرين ألفا
قلت : والقردة ماء من مياه نجد ، فإن قرشا بعد بدر خافوا طريقهم التي
كانوا يسلكون إلى الشام ، فسلكوا طريق العراق ، وكان في هذه العير
أبوسفیان بن حرب ومعه فضة كثيرة هي عظم تجارتهم ، والله أعلم .
ثم كانت أحد

قلت : كانت في شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وشذ من قال : سنة أربع ، غزوة أحد
وقال ابن إسحاق : لإحدى عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : لسبع ليال ، وقيل : لثمان ؛
وقيل : لتسع ، وقيل : في نصفه ، وقال مالك : كانت بعد بدر بسنة ، وفيه تجوز ،
لأن بدرا كانت في رمضان باتفاق ، فهي بعدها بسنة وشهر لم يكمل ، ولهذا قال
مرة أخرى : كانت بعد الهجرة بإحدى وثلاثين شهرا^(١)

وكان السبب فيها أنه لما قتل الله من قتل من كفار قریش يوم بدر ورجع
من بقي منهم إلى مكة ورجع أبوسفیان بغيرهم ، فكلّموا أبا سفيان ومن
له في العير مال في الاستعانة بها على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ففعلوا ، وقيل :
كان المال خمسين ألف دينار ، فسلم إلى أهل العير رؤس أموالهم ، وعزلت الأرباح ،
وكانوا يربحون في تجارتهم الدينار ديناراً ، وجّهزوا الجيش بذلك ، وحركوا من
أطاعهم من القبائل ، وخرجوا بأحايشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل
تهامة ، وخرجوا معهم بالطعن^(٢) لثلاثين يوماً ، فخرج أبوسفیان — وكان قائدهم —
بهند بنت عتبة ، وكذلك سائر أشرافهم خرجوا بنسائهم ، وكان جُبَيْر بن مُطْعَم
أمر غلامه وَحْشِيّاً الحبشي بالخروج مع الناس ، وقال له : إن قتلت حمزة عم محمد
صلى الله عليه وسلم بعمرى طعمة بن عدى فأنت عتيق ، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين^(٣)
جبل بيطن السبخة من قنّاة على شفير الوادي مقابل المدينة ، قاله ابن إسحاق ،
ووادي قنّاة خلف عينين بينه وبين أحد ، فإن عينين في مقابلة أحد ، فنزلوا هم أمام

(١) كذا (٢) الظعن : جمع ظعينة ، وهي المرأة مطلقاً ، أو مادامت في الهودج

(٣) جبل عينين : هو جبل الرماة الذي عليه البيوت قبل قبة حمزة (مكي) .

عينين مما يلي المدينة وفي غريبه لجهة بئر رومة ؛ فلا يخالف ماسياتى عن المطرى ، ونقل ابن عقبة أن أبا سفيان سار بجمعه حتى طلوعوا من بئر الجأوين ، ثم نزلوا ببطن الوادى الذى قبل أحد ، وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر ، وتمنوا لقاء العدو ، وأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة رؤيا ، فلما أصبح قال : رأيت البارحة فى منامى بقرأ تذبج ، والله خير ، ورأيت سيفى ذا الفقار انقسم عند طئبته^(١) ، أو قال به فلؤل ، فسكرهته وهما مصيبتان ، ورأيت أنى فى درع حصينة ، وأنى مُردف كبشا ، قالوا : ما أولتها ؟ قال : أولت البقر بقر يكون فينا ، وأولت الكبش كبش الكتبية^(٢) ، وأولت الدرع الحصينة المدينة ، فامكثوا فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت ، ونقل ابن إسحاق أيضا أن عبد الله بن أبى قال : يارسول الله ، أقيم بالمدينة ، ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصابنا منه ، فدعهم ، فقال أولئك القوم : يانبي الله كنا نتمنى هذا اليوم ، وأبى كثير من الناس إلا الخروج ، فلما صلى الجمعة وانصرف دعا باللائمة فلبسها ، ثم أذن فى الناس بالخروج ، فندم ذوو الرأى منهم ، فقالوا : يارسول الله امكث كما أمرتنا ، فقال : ما ينبغي لنبي إذا أخذ لامة الحرب أن يرجع حتى يقاتل ، فخرج بهم وهم ألف رجل ، وكان المشركون ثلاثة آلاف . وقال المطرى : إن نزول قریش يوم أحد بالمدينة كان يوم الجمعة ، قال : وقال ابن إسحاق : يوم الأربعاء .

قال المطرى : فنزلوا برومة من وادى العقيق ، وصلى النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة بالمدينة ، ثم خرج هو وأصحابه على الحرة الشرقية حرة واقم ، وبات بالشيوخين موضع بين المدينة وبين جبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد ، وغدا صبح يوم السبت إلى أحد ، انتهى . ونقل الأتقشهرى أنه صلى الله عليه وسلم

(١) طبة السيف — بضم الظاء وفتح الباء مخففة — طرفه

(٢) فى ابن هشام « فأما البقر فهى ناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل يثى يقتل » .

دعاً بثلاثة أرماع فعقد ثلاثة ألوية ؛ فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى الحُبَاب بن المنذر بن الجُمُوح ، وقيل : إلى سعد بن عبادَة ، ولواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، وقيل : إلى مُصعب بن عمير ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، ثم ركب فرسه ، وتقلد القوس ، ثم أخذ قناته بيده ، وفي المسلمين مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه سعد بن معاذ وسعد بن عبادَة والناس على يمينه وشماله ، فضى حتى إذا كان بالشَّيْخَيْن — وهما أطمَان — التفت فنظر إلى كتيبة حسنة لها زَجَلٌ^(١) ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : حُكفاء ابن أبي من يهود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نستنصر بأهل الشرك ، فلما بلغوا الشوط انخزل عبد الله بن أبيّ بثلاث الناس ، انتهى .

وفي الاكتفاء أن مُخَيْرِيقاً كان من أحبار يهود ، فقال لهم يومئذ : لقد علمتم إن نصر محمد عليكم حَقٌّ ، فتعللوا بسببتهم ، فقال لهم : لا سببت لكم ، وأخذ سيفه وعُدَّتْه فلاحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتل معه حتى قتل بعد أن قال : إن أصِبتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مخيريق خير يهود» انتهى .

وروى الطبراني في الكبير والأوسط رجال ثقات عن أبي حميد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثَلِيَّةَ الدَّاعِ فإذا هو بكتيبة حسناء ، فقال : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قالوا : عبد الله بن أبيّ في ستمائة من مَوَالِيهِ من اليهود من بنى قَيْنَقَاعَ ، فقال : وقد أساموا ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : مُرُّوهُمْ فَلْيَرْجِعُوا ، فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ .

قال الأقشيري عقب كلامه السابق : وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ عَرَضَ وَرَدَّ مِنْ رَدٍّ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، يَعْنِي الشَّيْخَيْنِ ، وَأُذِّنَ بِلَالُ الْمَغْرِبِ فَصَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَصْحَابِهِ ، وَبَاتَ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْحَرَسِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فِي خَمْسِينَ يَطُوفُونَ بِالْعَسْكَرِ ،

(١) لها زجل : أي صوت

وَأَدْلَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّحَرِ وَهُوَ يَرَى الْمُشْرِكِينَ وَدَلِيلُهُ أَبُو خَيْثَمَةَ الْحَارِثِيُّ ، فَانْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ الْقَنْطَرَةِ ، فَخَانَتْ الصَّلَاةَ فَصَلَّى بِأَصْحَابِهِ الصَّبِيحَ صَفُوفًا عَلَيْهِمُ السَّلَاحَ ، قَالَ : وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْكَلْبِيُّ وَالْوَقْدِيُّ : غَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنْزِلِ عَائِشَةَ عَلَى رَجُلَيْهِ إِلَى أَحَدٍ ، فَجَعَلَ يَصِفُ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ كَمَا يُقَوِّمُ الْقِدْحَ ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَحَدٍ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشُّوْطِ انْخَذَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ثَلَاثُمَائَةَ ، وَفِي رِوَايَةٍ بَثَلَتِ النَّاسَ ، وَقَالَ : أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي ، وَقَالَ ابْنُ عَقْبَةَ : فَبَقِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبْعَائِمَةَ ، فَلَمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَقَطَ فِي أَيْدِي طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - وَهَما بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلِيمَةَ - وَقَالَ الْأَقْشَهْرِيُّ : فَبَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبْعَائِمَةَ ، وَمَعَهُ فَرَسُهُ وَفَرَسُ لَأَبِي بُرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ ، وَهَذِهِ رِوَايَةُ الْوَقْدِيِّ ، وَالَّذِي رَوَاهُ ابْنُ عَقْبَةَ - كَمَا سَيَأْتِي - أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَرَسٌ ، وَفِي الْإِكْتِفَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ انْخِذَالِ ابْنِ أَبِي أَنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَضَى حَتَّى سَلَكَ فِي حَرَّةِ بَنِي حَارِثَةَ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ رَجُلٌ يُخْرِجُ مِنَّا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كُتُبٍ ، أَيْ مِنْ قُرْبٍ ، مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ أَخُو بَنِي حَارِثَةَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَنَفَذَ بِهِ فِي حَرَّةِ بَنِي حَارِثَةَ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى سَلَكَ فِي مَالِ لِمَرْبَعِ بْنِ قَيْظَى ، وَكَانَ مُنَافِقًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ ، فَلَمَّا سَمِعَ حَسَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ مَعَهُ قَامَ فَحَثًّا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ وَيَقُولُ : إِنْ كُنْتَ رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي لَا أَجِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي ، وَذَكَرَ أَنَّهُ أَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تَرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ أَعْلِمْتُ أَنِّي لَا أَصِيبُ بِهَا غَيْرَكَ يَا مُحَمَّدَ لَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَكَ ، فَابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تَقْتُلُوهُ فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ ، فَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَزَلَ الشَّعْبُ مِنْ أَحَدٍ ، فَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أَحَدٍ . وَقَالَ الْأَقْشَهْرِيُّ : وَجَعَلَ أَحَدًا خَلْفَ ظَهْرِهِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْمَدِينَةَ ، وَجَعَلَ عَيْنَيْنِ ^(١) الْجَبَلَ عَنْ

(١) فِي الْمَطْبُوعَاتِ «يَمِينِينَ الْجَبَلَ» وَقَدْ مَضَى عَلَى الصَّحَةِ وَسَيَأْتِي عَلَى الصَّحَةِ أَيْضًا .

يساره ، وقال ابن عقبة : وَصَفَ المسلمون بأصل أحد ، وصف المشركون بالنسبخة ،
وتعبوا للقتال ، وعلى خيل المشركين - وهى مائة فرس - خالد بن الوليد ،
وليس مع المسلمين فرس ، وصاحب لواء المشركين طلحة بن عثمان ، وأمر رسول
الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جبير على الرماة وهم خمسون رجلا ، وعهد
إليهم أن لا يتركوا منازلهم . ونقل الأقرشي أنه جعلهم على جبل عينين . وفى
الاكتفاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لأمرهم : أنضح الخيل عنا لا يأتونا من
خلفنا ، إن كان لنا أو علينا فأثبت مكانك لا تؤتينا من قبلك ، وظاهر رسول
الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، وتعباً قریش ، وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائة فرس
قد جئبوا ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن
أبي جهل ، وقد كان أبو عامر الراهب من الأوس خرج عن قومه إلى مكة مباعداً
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يعد قریشاً أن لولقى قومه لم يختلف عليه
منهم رجلان ، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم هو فى الأحابيش وعبدان أهل
مكة . فنادى : يا معشر الأوس أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق ،
وبذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمى فى الجاهلية الراهب ،
فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتلهم قتالا شديداً ،
ثم راضخهم بالحجارة ، انتهى .

وروى البزار - ورجاله ثقات - عن الزبير بن العوام قال : عرض رسول الله صلى
الله عليه وسلم سيفاً يوم أحد فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام أبو دجانة
فقال : يا رسول الله أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فخرج ، فأتبعته فجعل لا يمر
بشيء إلا أفراه^(١) وهتكه ، حتى أتى نسوة فى سفح الجبل ومعهن هندوهى تقول :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
والدر فى الخنادق والمسك فى المفارق^(٢)

(١) أفراه وفراه : مزقه

(٢) الخناق : النحور ، أى الأعناق ، والمفارق : جمع مفرق ، وهو موضع فرق

الشعر من الرأس

إِنْ تُقْبِلُوا نُنَاقِ وَنَفْرَشُ النَّمَارِقَ
أَوْ تُذْبِرُوا نَفَارِقَ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقٍ^(١)

يعنى تَحَرَّضُهم بذلك ، قال : فحمل عليها ، فنادت بالصحراء فلم يجبها أحد ،
فانصرف عنها ، فقلت له : كل سيفك رأيته فأعجبني غير أنك لم تقتل المرأة ، قال :
فإنها نادت فلم يجبها أحد ، فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه
وسلم امرأة لا ناصر لها .

وفى الاكتفاء : ذكر الزبير رضى الله عنه أن سيف عبد الله بن جَحْشٍ
انقطع يوم أحد ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرْجُونًا ، فعاد في يده سيفًا
قائمًا منه ، فقاتل به ؛ فكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل بعد يتوارث
حتى بيع من بُعَا التركي بمائتي دينار .

دروى البزار برجال الصحيح عن بريدة أن رجلا قال يوم أحد : اللهم إن
كان محمد على الحق فاحسف به ، قال : فحسف به .
وقال ابن إسحاق : قتل أصحاب لواء المشركين وهم تسعة بأحد واحد
بعد واحد .

وقال غيره : أَحَدَ عشر آخرهم غلام لبني طلحة .
وقال ابن عتبة : وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار ،
فبارز طلحة بن عثمان من بني عبد الدار فقتله ، وحمل المسلمون على المشركين حتى
أَجْهَضُوهم^(٢) ، وحملت خيل المشركين فنضَحَهم الرماة بالنبل ثلاث مرات ، فدخل
المسلمون عسكر المشركين فانتَهَبُوهُ ، فرأى ذلك الرماة ، فتركوا مكانهم ، ودخلوا
العسكر ، فأبصر ذلك خالد ومن معه ، فحملوا على المسلمين في الخيل ، فزقوهم ،
وصرخ صارخ : قتل محمد ، أخرأكم ، فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضا وهم
لا يشعرون ، وانهزم طائفة منهم وتفرق سائرهم ، ووقع فيهم القتل ، وثبت نبي الله حين

(١) الواق : الحب ، ومقه يقه مقه ، على مثال وصفه بصفه صفة

(٢) أَجْهَضُوهم : غلبوهم ونحوهم وأبعدوهم .

انكشفوا عنه وهو يدعوهم في آخرهم ، حتى رجع إليه بعضهم وهو عند المهراس في الشعب ، وتوجه النبي صلى الله عليه وسلم يلتزم أصحابه ، فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأذموه وكسروا ربا عيته ، فمر مصعبا^(١) في الشعب ومعه طلحة والزبير ، وقيل : معه طائفة من الأنصار منهم سهل بن بيضاء والحارث بن الصمة ، واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم يقطعون الآذان والأنوف والفروج ويبنقرون البطون ، وهم يظنون أنهم أصابوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشرف أصحابه ، فقال أبو سفيان يفتخر بالله « أَعْلُ هُبْلُ » فناداه عمر : الله أعلى وأجل ، ورجع المشركون إلى أئقالمهم .

قال ابن إسحاق : كان أول من عرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وتحدث الناس بقتله ، كعب بن مالك الأنصاري ، قال : عرفت عينيه يزهران تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين ، فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لانبجوت إن نجأ ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال : دعوه ، فله أدنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب من الحارث بن الصمة ، يقول بعض القوم : فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأ منها^(٢) عن فرسه مرارا ، وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول : يا محمد إن عندى العود فرسا أعلفه كل يوم فرقا^(٣) من ذرة أقتلك ، عليه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما رجع إلى قریش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير فاحتقن الدم ، قال : قتلتى والله محمد ، فقالوا :

(١) مصعبا : صاعدا راقيا في الجبل .

(٢) تدأ منها : تمایل (٣) الفرق — بالفتح — مكیال یسع ثلاثة أصع

ذَهَبَ وَاللهُ فِؤادَكَ، وَاللهُ إِنَّ يَكُ بَأْسٌ^(١)، قَالَ : إِنَّهُ قَدْ كَانَ ، قَالَ بِمَكَّةَ :
أَنَا أَقْتُلُكَ ، فَوَاللهِ لَوْ بَصَقَ عَلَىَّ لَقَتَلَنِي ، فَمَاتَ عَدُوُّ اللهِ بِسَرَفٍ وَهُمْ قَافِلُونَ^(٢)
إِلَى مَكَّةَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ يَوْمَئِذٍ : اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ
عَلَى رَجُلٍ قَتَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسُجِّقَ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ .

وفى الصحيح عن عائشة قالت : لما كان يومُ أحدَ هزمَ المشركونَ هزيمةً
بينيةً ، فصاح إبليسُ : أى عباد الله ، أخراكم ، فرجعت أولاهم ، فاجتلدت مع
أخراهم ، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه فنادى : أى عباد الله ، أبى أبى ، فقالت :
فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لهم .

ونقل الأَقْشَمَرِيُّ أن أبا سفيان بن حرب قال يومئذٍ لبنى عبد الدار : لاسمكم
ضيعتم اللواء يوم بدر ، فأصابنا ما رأيتم ، فادفعوا اللواء إلينا نَكْفِيكُمْ ، وإِنَّمَا أَرَادَ
تَحْرِيطَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَالثَّبَاتِ ، فغضبوا وأغلظوا له ، وأن رسول الله صلى الله عليه
وسلم سأل : مَنْ يَحْمِلُ لَوَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ قيل : عبد الدار ، قال : نحن أجق بالوفاء
منهم ؟ أين مصعب بن عمير ؟ فقال : ها أنا ، قال : خذ اللواء ، فأعطاه اللواء ،
وإن حمزة رضى الله عنه حَمَلَ عَلَى عِثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ حَامِلَ لَوَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَقَطَعَ يَدَهُ
وَكَتَفَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُؤْتَزَرَةٍ^(٣) ، ثُمَّ إِنَّ أَصْحَابَ اللِّوَاءِ قَتَلُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ،
فَانْكَشَفَ الْمُشْرِكُونَ مِنْهَزِمِينَ ، وَنَسَاوَهُمْ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالثَّبُورِ ، وَتَبِعَهُمُ الْمَسْلُومُونَ
يَضَعُونَ فِيهِمُ السِّلَاحَ ، وَوَقَفُوا يَأْخُذُونَ الْفَنَائِمَ ، فَلَمَّا رَأَى الرَّمَاةُ ذَلِكَ أَقْبَلَ جَمَاعَةً
مِنْهُمْ وَخَلَوْا الْجَبَلَ ، فَكَّرَ خَالِدُ بْنُ الْخَلِيلِ ، فَتَبِعَهُ عِكْرَمَةُ ، فَحَمَلُوا عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ
الرَّمَاةِ فَقَتَلُوهُمْ وَقَتَلُوا أَمِيرَهُمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ ، وَانْتَقَضَتْ صَفُوفُ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَادَى
إِبْلِيسُ : قَتَلَ مُحَمَّدٌ ، وَثَبَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَزُولُ ، يرمى عن
قوسه حتى صارت شَطَايَا ، ويرمى بالحجارة ، وثبت معه عصاة من الصحابة أربعة
عشر من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر وسبعة من الأنصار ، اهـ

(١) إن يك بأس : أى ما يكون بأس (٢) قافلون : راجعون

(٣) مؤتزرة : الموضع الذى يلبس فيه الإزار

وروى النسائي عن جابر قال : لما وَلَّى الناسُ يومَ أُحُدٍ كانَ النبي صلى الله عليه وسلم في اثني عشر رجلاً من الأنصار فيهم طلحة .

ووقع عند الطبري من طريق السدي قال : تفرق الصحابة فدخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناسَ إلى الله ، فرماه ابن قميئة بحجر فكسر أنفه ورَبَاعِيته وشَجَّه في وجهه فأثقله ، فترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون رجلاً ، فجعلوا يذُبُّون عنه^(١) ، فحمله منهم طلحة وسهل بن حنيف ، فرمى طلحة بسهم فبيست يده ، وقال بعض من فر إلى الجبل : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبيّ يستأمن لنا من أبي سفيان ، فقال أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، ثم ذكر قصة قتله ، وقصد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الجبل ، فأراد رجل من أصحابه أن يرميه بسهم ، فقال : أنا رسول الله ، فلما سمعوا ذلك فرحوا به ، واجتمعوا حوله ، وتراجع الناس .

وروى أحمد عن سعد بن^(٢) أبي وقاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم أُحُدٍ رجلين^(٣) عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشدَّ القتال ، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ ، وقد أخرجه الشيخان ، وفي رواية أسلم : يعني جبريل ومكائيل ، وقول مجاهد « لم تقاتل الملائكة يومئذ ولا قبله ولا بعده ، إلا يوم بدر » . قال البيهقي : أراد به أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُدٍ عن القوم حين عَصَوْا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به .

وعن عروة بن الزبير : كان الله وَعَدَهُم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهُم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين ، وكان قد فعل ، فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصَافَّهُمْ وتركت الرماة عَهْدَهُ إليهم وأرادوا الدنيا رفع عنهم مَدَد الملائكة ،

(١) يذبون عنه : يدفعون عنه . (٢) في المطبوعات « أسعد بن أبي وقاص »

(٣) في المطبوعات « رجلان » .

وأنزل الله « لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه^(١) » فصدق الله وعده ، وأراهم الفتح ، فلما عصوا أعقبهم البلاء .

وعند ابن سعد : ثبت معه صلى الله عليه وسلم سبعة من الأنصار وسبعة من قريش .

وفي مسلم من حديث أنس : أفرد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش طلحة وسعد .

وقال ابن إسحاق : حدثني حميد الطويل عن أنس قال : كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وشج في وجهه ، فجعل يسيل الدم على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يُفْلِحُ قوم خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله تعالى « ليس لك من الأمر شيء^(٢) » الآية .

وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال : ما حَرَصْتُ على قتل رجل قط حِرْصِي على قتل أخي عُتْبَةَ بن أبي وقاص لما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابن هشام في حديث أبي سعيد الخدري أن عُتْبَةَ بن أبي وقاص أخا سعد هو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب هو الذي شجَّه في جبهته ، وأن عبد الله بن قميئة جرحه في وَجْنَتِهِ ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَر في وجنته ، وأن مالك بن سنان مَصَّ الدم من وجهه ، ثم ازدردده^(٣) ، فقال له : إن تَمَسَّكَ النار .

وفي الطبراني من حديث أبي أمامة قال : رمى عبدُ الله بن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فَشَجَّ وجهه ، وكسر رباعيته ، وقال : خذها وأنا ابن قميئة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : مالك أفأك الله ، فسلط الله عليه تيسَ جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعته قطعة قطعة .

(١) من سورة آل عمران من الآية ١٥٢ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢٨

(٣) ازدردده : ابتلاه

وقال السهيلي : الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم عُتْبَةُ بن أبي وقاص أخو سعد ، لم يولد من نسله ولد فبلغ الحلم إلا وهو أنجرأ وأهتم ، يُعرف بذلك في عقبه .

وروى ابن الجوزي عن محمد بن يوسف الفريابي قال : لقد بلغني أن الذين كسروا رباعية النبي صلى الله عليه وسلم لم يولد لهم صبي فنبتت له رباعية .
وقيل : كان سبب الهزيمة أن ابن قمئة الليثي قتل مُصْعَب بن عمير ، وكان مصعب إذا لبس لأمته يشبه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قتله ظن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى قريش وقال : قد قتلت محمداً ، فازدادوا جرأة وصاح إبليس من العقبة : قتل محمد ، فلما سمع المسلمون ذلك وهم متفرقون كانت الهزيمة ، فلم يَلَوْ أحد على أحد^(١) .

والصواب أن السبب مخالفة الرماة للأمر ، وهذا مؤكد له ومتمم ، مع أن الأصل في ذلك - مع إرادة الله تعالى - ما اتفق بيد من أخذ الفداء ، فقد أخرج الترمذي^(٢) والنسائي عن علي أن جبريل هبط فقال : خيّرهم في أسارى بدر القتل أو الفداء على أن يقتل منهم من قابل مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا ، وقال الترمذي : حسن ، وذكر غيره له شواهد تقويه ، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة ، وقتلوا سبعين ، وأسروا سبعين . وفيه أيضاً أن المشركين أصابوا يوم أحد من المسلمين سبعين ، ولفظه من حديث البراء قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جُبَيْر ، وقال : لا تبرحوا ، فإن رأيتمونا ظهرنا عليهم^(٣) فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تبعينونا ، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتدْنَ في الجبل رفعن عن سُوَقيهن قد بدت خَلَخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله :

(١) لم يَلَوْ أحد على أحد : أي لا يلتفت إليه ولا يعطف عليه . (٢) انظره ٢٩٧/١ بولاق

(٣) ظهرنا عليهم : غلبناهم ، ولا تبرحوا : لا تفارقوا مكانكم .

عهد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبوا صَرَفَ الله وجُوهَهُمْ ، فأصيب سبعون قتيلاً .

ووقع عند مسلم من طريق ابن عباس عن عمر في قصة بدر قال : فلما كان يوم أحد قتل منهم سبعون وفروا ، وكسرت رِباعية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهُشِمَت البيضة على رأسه ، وسال الدمُ على وجهه ، فَأَنزَلَ اللهُ تعالى : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ^(١) » الآية ، والمراد بكسر الراء رِباعية - وهى السن التى تلى الثنية والنبأ - أنها كسرت فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها ، وقوله « وفروا » أى بعضهم ، أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم ، والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق : فرقة استمروا فى الهزيمة إلى قرب المدينة ، فارجعوا حتى انقضى القتال ، وهم قليل ، وهم الذين نزل فيهم « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ^(٢) » وفرقة صاروا حَيَاكِرَى لما سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل ، فصار غاية الواحد منهم أن يَذُبَّ عن نفسه ، أو يستمر على نصرته فى القتال إلى أن يقتل ، وهم أكثرهم ، وفرقة بقيت مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم تراجع إليهم القسمُ الثانى شيئاً فشيئاً لما عرفوا أنه حى ، وما ورد من الاختلاف فى العدد محمول على تعدد المواطن فى القصة .

ووقع عند أبى يعلى^١ فى حديث عمر المتقدم : فلما كان عام أحد عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون .

وفى الاكتفاء : أنه لما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء على بن أبى طالب ، فقاتل فى رجال من المسلمين ، ولما اشتد القتال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تحت راية الأنصار ، وأرسل إلى على أن قدم الراية ، فتقدم فقال : أنا أبو القصم ، فناداه أبو سعد بن أبى طلحة : هلك يا أبا القصم فى البراز ^(٣) من حاجة ؟ قال : نعم ، فبرزوا بين الصفيين ، فأختلفا ضربتين :

(١) من سورة آل عمران من الآية ١٦٥ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٥٥

(٣) البراز : القتال

فضر به عليّ فصرعه، ثم انصرف ولم يُجهز عليه^(١)، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلني بعورته ، فعطفتني عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله .

وقد قيل : إن سعد بن أبي وقاص هو الذي قتل أبا سعد هذا .

وروى الطبراني رجال الصحيح عن ابن عباس قال : دخل علي بن أبي طالب على فاطمة يوم أحد فقال : خذي هذا السيف غيرَ ذَمِيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لئن كنت أحسنت القتالَ فقد أحسنه سهلُ بن حنيف وأبو دجانة ابن خرشة .

وذكر في الاكتفاء دخول الحلقةين من حاق المغير في وجنته صلى الله عليه وسلم ، وأنه وقع في حُفرة من الحفر التي عمل أبو عامر الراهب ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأخذ عليّ بيده ، ورفع له طلحة حتى استوى قائماً ، ومَصَّ مالك ابن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجهه ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقةين من وجهه صلى الله عليه وسلم فسقطت نذيتته ، ثم نزع الأخرى وسقطت ثنيتته الأخرى ، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال سعد : فلقد رأيته يُناولني النبلَ ويقول « ارمِ فِدَاكَ أبا وأمي » ، وأصيب يومئذٍ عينُ قتادة بن النعمان فردها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فكانت أحسنَ عينيه ، وأصيب فم عبد الرحمن بن عوف ففهم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها في رجله فخرج ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشعب ومعه أولئك نفرٌ من أصحابه ، فبيناهم في الشعب إذ علت عالية من قریش : الجبل ، فقال : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليملوها فلم يستطع ، وقد كان بدَن^(٢) وظاهر بين

(١) أجهز على الجريح : تم قتله حتى زهقت روحه .

(٢) بدن : سمن وعلاء الشحم ، وذلك أثر من آثار السن .

درعين^(١)، فجلس تحته طلحة بن عبيدالله فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَوْجَبَ طَلْحَةُ^(٢)» وصلى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذٍ الظهرَ قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

وفي الصحيح من حديث البراء أن أباسفيان - حين أراد الانصراف - قال: «لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أُجِيبُوهُ، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

وفيه أيضاً أن أباسفيان أشرف يوم أُحُدٍ فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قُحَّافَة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فلما لم يُجِبْهُ أَحَدٌ قال: إن هؤلاء قتلوا، ولو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كَذَبْتَ يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يُخْزِيكَ.

قال ابن إسحاق: فلما أجاب عمر أباسفيان قال له: هلم إلى ياعمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: ائْتِهْ فانظر ماشأنه، فجاء، فقال له أبوسفيان: أنشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً، فقال عمر: أَللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدَقُ عندي من ابن قتيبة وأبر، ثم نادى أبوسفيان: إيه قد كان في قتلاكم مثل، والله مارضيتُ وما سخطتُ، وما أمرتُ وما نهيتُ، ولما انصرف أبوسفيان ومَن معه نادى: إن مَوْعِدَكُمْ بدر العام القابل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه «قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد» ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيلَ وامتطوا الإبلَ فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيلَ وساقوا الإبلَ فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأنجزنَّهم، فخرج على فرأهم قد جَنَبُوا الخيلَ وامتطوا الإبلَ ووجهوا إلى مكة، وفزع الناس اقتلاهم،

(١) ظاهر بين درعين: جمع بينهما.

(٢) أوجب طلحة: أراد استحق الجنة ثواباً على جميل صنعه.

واقشروا يبتغونهم ، وسيأتى خبرهم وتعيينهم إن شاء الله تعالى فى الفصل السادس من الباب الخامس ، وبكى المسلمون يومئذ على قتلهم ، فسُرَّ المنافقون ، وظهر غشُّ اليهود ، وفارت المدينة بالنفاق .

قال العلماء : وكان فى قصة أحد من الحكم والفوائد أشياء عظيمة . الحكم التى منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهى ؛ لما وقع فى قصة أحد من الرماة .

ومنها : أن عادة الرسل أن تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة .
ومنها : إظهار أهل النفاق حتى عرف المسلمون أن لهم عدوا بين أظهرهم .
ومنها : أن فى تأخير النصر هُزْماً للنفس .
ومنها : أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فسبَّبَ لهم ذلك ليبلغوها .
ومنها : أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء ، فساقها لهم بين يدى الرسول ليكون شهيداً عليهم .

قال ابنُ إسحاق : وفى شأن أحد أنزل الله ستين آية من آل عمران .
وروى ابن أبى حاتم من طريق المسور بن مخرمة قال : قلت لعبد الرحمن ابن عوف : أخبرنى عن قصتكم يوم أحد ، قال : أقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى قوله « أَمَنَةً نَعَاَسًا » (١) .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الوقعة مرهباً لعدوه حتى انتهى إلى سحراء الأسد ، فأخذ فى وجهه ذلك أبا عزة الجُمَحِيَّ ، وكان النبی صلى الله عليه وسلم قد مَنَ عليه يوم بدر بغير فداء ، وأخذ عليه أن لا يظهر (٢) عليه أحد ، وكان شاعراً ، فقال له صفوان بن أمية : إنك امرؤ شاعر فأعِنَّا بلسانك ، ولم يزل به

أبو عزة
الجمحي
ومقتله

(١) من سورة آل عمران الآيات من ابتداء الآية ١٢١ .

(٢) لا يظهر أحداً عليه : لا يعين أحداً عليه .

حتى خرج معهم ، فلما أَخَذَهُ النبي صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله أَقْلَنِي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خَدَعْتُ محمداً مرتين ، أَضْرِبْ عُنُقَهُ يَازَيْدُ ، فَضْرِبْ عُنُقَهُ .

وفي رواية أنه قال له « إن المؤمن لا يُذْعَغُ من جُحْرِ مرتين ، اضرب عنقه يا عاصمُ بن ثابت » فَضْرِبْ عُنُقَهُ .

وفي هذه السنة أيضاً حرمت الخمر ، ويقال : في التي بعدها ، وقال الحافظ
تحریم الخمر
ابن حجر : الذي يظهر أن تحریمها كان عامَ الفتح سنة ثمان ، واستدل بشيء فيه نظر .

وتزوَّج النبي صلى الله عليه وسلم حَفْصَةَ بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما في شعبان على الأصح ، وقيل : في التي قبلها ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين في رمضان ، فمكثت عنده شهرين أو ثلاثة ، وقيل : ثمانية أشهر ، وماتت ، وولد الحسن بن علي في منتصف رمضان ، وعلفت أمه بالحسين بعد خمسين ليلة : وتزوج عثمان أمَّ كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

السنة الرابعة - وكانت بئر معونة أولها في الحرم .

السنة الرابعة
من الهجرة

قلت : في الصحيح من رواية أنس قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان ، فزعموا أنهم قد أسلموا ، واستمدَّوه على قومهم ، فأمدَّهم النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار ، قال أنس : كنا نسميهم القراء ، يَحْطِطُونَ بالنهار وَيُصَلُّونَ بالليل ، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غَدَرُوا بهم وقتلواهم ، فَقَنَّتْ شهراً يدعو على رعل وذكوان وبنو لحيان ، وفي بعض الروايات ما يقتضى أن الذين استمددوا لم يُظْهِرُوا الإسلام ، بل كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد ، وأنهم غير الذين قتلوا القراء لاسكنهم من قومهم ، وهو الذى فى كتب السير وقد بَيَّنَّ ابن إسحاق فى المغازى وكذلك موسى بن عقبة عن ابن شهاب أسماء الطائفتين ، وأن أصحاب العهد هم بنو عامر ورأسهم أبو براء

عامر بن مالك بن جعفر ، المعروف بمَلَّاعِبِ الأَسِنَّةِ ، وأن الطائفة الأخرى من بنى سليم ، وأن عامر بن أخى ملاعب الأسنة أراد الغدر بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا بنى عامر إلى قتالهم ، فامتنعوا وقالوا : لا نَخْفِرُ^(١) ذمة أبى براء ، فاستصرخ عليهم عصية وذكوان من بنى سليم ، فطاعوه وقتلوه ، قالوا : ومات أبو براء بعد ذلك أسفا على ما صنع به عامر بن الطفيل ، وقيل : أسلم أبو براء عند ذلك ، وقاتل حتى قتل ، وعاش عامر بن الطفيل حتى مات كافراً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، أصابته غُدَّةٌ كغُدَّةِ البعير^(٢) ، ولم يكن القراء المذكورون كلهم من الأنصار ، بل كان بعضهم من المهاجرين مثل عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ونافع بن ورقاء الخزاعي وغيرها ، كما يؤخذ من الصحيح أيضاً ، والله أعلم .

ثم كانت غزوة الرِّجِيعِ فى صفر .

قلت : ذكرها ابن إسحاق فى الثالثة قبل بئر معونة . والرجيع : موضع ببلاد غزوة الرجيع هذيل ، والله أعلم .

ثم كانت غزوة بنى النضير .

قلت : ذكرها بعضهم فى الثالثة قبل أحد ، وقال الزهرى : كانت على رأس غزوة بنى النضير ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد ، وذكرها ابن إسحاق فى الرابعة بعد بئر معونة وأن سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم يستعينهم فى دية ، وجلس إلى جنب جدار لهم ، فخلا بعضهم ببعض ، وأمسوا عمرو بن جحاش أن يترقى فيلقى عليه صخرة ، فأتاه الخبر من السماء ، فقام مُظْهِراً أنه يقضى حاجة ، وقال لأصحابه : لا تبرحوا ، ورجع مسرعاً إلى المدينة ، فأمر بحربهم والمسير إليهم ، وأمر بقطع النخل والتحريق ، قال : وحاصرهم ستَّ ليالٍ ، فسألوا أن يُجَلَّوْا من أرضهم على أن لهم ملاحمت الإبل ، فصولحوا على ذلك ، فاحتلوا إلى خير وإلى الشام ؛ فكانت أموالهم له

(١) « لا نخفر ذمته » تقول « خفرت ذمة فلان » إذا حفظتها ورعيتها ، وإذا نقضتها ، ضد

(٢) يروى أنه مرض فى الطريق ، فمال إلى بيت امرأة من سلول ، فلما اشتد به

المرض كان يقول « غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » .

صلى الله عليه وسلم خاصة ، ووافق ابن إسحاق على ذلك جلُّ أهل المغازى ، وأصح منه ما رواه ابن مردويه بسند صحيح أنهم أجمعوا على الغدر ، فبعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك ، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخنجر ، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مُسلم تخبره بأمر بني النضير ، فأخبر أخوها النبي صلى الله عليه وسلم بأمر بني النضير قبل أن يصل إليهم ، فرجع وصحبهم بالكتائب ، فحصرهم يومه ، ثم غدا على بني قريظة فحاصرهم ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بني النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل^(١) إلا السلاح ، فاحتملوا أبواب بيوتهم ؛ فكانوا يخرجون بيوتهم فيهدمونها ويحملون ما يوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام .

ورواه أيضا عبد بن حميد في تفسيره ، وروى أيضا من طريق عكرمة أن غزوتهم كانت صبيحة قتل كعب بن الأشرف ، وروى أن قريشا كتبوا لبني النضير يحثونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأضرموا الغدر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولما حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخلهم قال حسان رضى الله عنه يعير قريشا من أبيات :

وهان على سرّاة بني لؤى حريق بالبويرة مُستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ولم يكن أسلم حينئذ :

أدام الله ذلك من صنيع وحرّق في نواحيها السعير

ستعلم أينّا منها بنزّه وتعلم أى أرضينا نصير

أى ستعلم أينّا منها يبعد ، وأى الأرضين أرضنا أو أرضكم يحصل لها الضير : أى الضرر ؛ لأن بني النضير إذا خربت أضرت بما جاورها وهو أرض الأنصار لا أرض قريش ، ونقل ابن سيد الناس عن أبي عمرو الشيباني أن الذى قال البيت المتقدم المنسوب لحسان هو أبو سفيان بن الحارث ، وأنه لما قال :

(١) ما أقلت الإبل : ماحلته ، وبهذا اللفظ روى في الرواية السابقة .

* وَعَزَّ عَلَى سِرَاقَةِ بَنِي لُؤَي * *

بدل « هان » قال : ويروى « بالبويلة » بدل « بالبويرة » وأن المجيب له بالبيتين المتقدمين هو حسان ، وما قدمناه هو رواية البخاري .
قال ابن سيد الناس : وما ذكره الشيباني أشبه .

قلت : كأنه استبعد أن يدعو أبو سفيان في حالة كفره على أرض بني النضير ، وقد قدمنا وجهه ، وكان أشراف بني النضير بنو الحقيق وحَيَّ بن أخطب ، فكانوا في مَنْ سار إلى خيبر ، فَدَان^(١) لهم أهلها ، وأسلم منهم يامين بن عمير وأبو أسعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وروى ابن شبة عن الكلبي قال : لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على أموال بني النضير قال للأَنْصار : إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينهم وبينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتُم أموالكم قسمت هذه فيهم ، قالوا : بل أقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت ، فنزلت (وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(٢)) . وقال ابن إسحاق : قسمها صلى الله عليه وسلم في المهاجرين إلا سهل بن حنيف وأبو دجاجة ، ذكرا فقراً فأعطاهما منها ، والله أعلم .

ثم ولد الحسين بن علي .

قلت : المشهور في ولادته أنها في الثالثة كما قدمناه ، والله أعلم .

ثم كانت بدر الموعود .

قلت : هي بدر الثالثة لما تقدم ، والله أعلم .

ثم كان مقتل سلام^(٣) بن مشكم أي أبي رافع ، ويقال : عبد الله بن أبي الحقيق وهي سرية عبيد الله بن عتيك . ثم رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهوديين اللذين كان يحني أحدهما على الآخر .

(١) دان لهم أهلها : خضعوا وانقادوا (٢) من سورة الحشر من الآية ٩

(٣) كذا في الأصول وفي الخلاصة ، وفي نسخة « ابن سلام بن مشكم » وهو الصواب

زواج
أم سلمة
هند بنت
أبي أمية
قلت : وفيها في شوال تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة هند -
وقيل : رملة - بنت أبي أمية ، وهى أول من هاجر مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة
ثم هاجرت إلى المدينة ، كذا ذكر بعض أهل السير ، وقال أبو عمر : تزوجها صلى
الله عليه وسلم سنة اثنتين بعد بدر في شوال

غزوة
ذات الرقاع
في الخامسة
السنة الخامسة
من الهجرة
وفيها غزوة ذات الرقاع بعد بنى النضير بشهرين عند ابن إسحاق ، وقيل :
في الخامسة ، وذكرها البخارى بعد خيبر لما في الصحيح من حضور أبي موسى
الأشعرى فيها ، وهو من أصحاب السفينة ، ولأمانع من التعدد ، والله أعلم .
السنة الخامسة — ثم فك رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمان من الرق ،
ثم خرج إلى دومة الجندل ، فرجع ولم يلق كيداً . ثم توفيت أم سعد بن عبادة .
ثم كسف القمر في جمادى الآخرة ؛ فصلى بهم كصلاة كسوف الشمس

قلت : وجعلت اليهود يضربون بالطساس ، ويقولون : سحر القمر . وروى
ابن حبان في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم صلى لكسوف القمر ، والله أعلم
ثم أصابت قريشا شدة ، فبعث إليهم بنضة يتألفهم بها . ثم وفد بلال بن
الحارث المزنى ، فكان أول وافد مسلم إلى المدينة . ثم قدم ضمام بن ثعلبة ، ثم غزا
المريسيع في شعبان ، وفيها أنزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة رضى الله عنها .
قلت : وسيأتى أن الأشبه أن بنى المصطلق هى هذه ، والله أعلم .

ثم غزوة الخندق

غزوة الخندق
قلت : هكذا ذكره ابن إسحاق ، وهو المعتمد ، وقال موسى بن عقبة :
كانت في شوال سنة أربع ، وصححه النووي في الروضة ، مع قوله بأن بنى قريظة
في الخامسة ، وهو عجيب ؛ لما سيأتى من أنها كانت عقيب الخندق ، سميت بذلك
ليحقر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق بإشارة سلمان الفارسي ، وتسمى بالأحزاب
لاجتماع طوائف من المشركين فيها على الحرب ، وهم الذين سماهم الله تعالى
الأحزاب ، وأنزل الله في ذلك صدر سورة الأحزاب ، وذلك أن حِي بن
أخطب في نفر من بنى النضير خرجوا من خيبر إلى مكة ، فحرضوا قريشا على

الحرب ، وخرج كنانة بن أبي الحقيق يَسْعَى في بني غطفان ويحْضُمهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لهم نصف ثمر خير ، فأجابه عُيَيْنَةُ بن حِصْنِ الْفَزَارِي ، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل إليهم طُلَيْحَةُ بن خُوَيْلِد فيمن أطاعه ، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش ، فنزلوا مَرَّ الظُّهْرَان ، فجاءهم مَنْ أجابهم من بني سليم ، وكانوا قد استمدوهم فصاروا في جمع عظيم — ذكر ابن إسحاق بأسانيد أن عدَّتْهم عشرة آلاف ، قال : وكان المسلمون ثلاثة آلاف — وقيل : كان المسلمون ألفا ، والمشركون أربعة آلاف — وذكر موسى بن عقبة أن مدة الحصار كانت عشرين يوما ، ونزلت قریش بمجتمع السيول من رُومَة بين الجرف وزُغَابَة ، وغطفانُ ومن تبعهم من أهل نجد بذنب نقي إلى جانب أحد .

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس : ونزل عُيَيْنَةُ في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع ، والخذقُ بينه وبين القوم ، وجعل النساء والذراري في الأطام .

وقال ابن إسحاق : نزلت قریش بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحايشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة ، ونزل عُيَيْنَةُ في غطفان ، وذكر ما تقدم من رواية ابن عباس المذكورة .

وروى الطبراني ورجاله ثقات عن رافع بن خديج قال : لم يكن حصنُ أَخْصَنَ من حصن بني حارثة ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم النساء والصبيان والذراري فيه ، وقال : إن لم يكن أحد فالمن بالسيف ، فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له « بنجدان » أحدُ بني جحاش على فرس حتى كان في أصل الحصن ، ثم جعل يقول للنساء : أنزلن إلى خير لسن^(١) ، فخركن السيف ، فأبصره أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدر الحصن^(٢) قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له : ظفر

(١) في المطبوعات « خير لكم » تطبيع (٢) ابتدره : أسرع إليه

ابن رافع ، فقال : يا نجدان ابرز ، فبرز إليه ، فحمل عليه فقتله ، وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وروي البزار بإسناد ضعيف عن الزبير بن العوام رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج للخندي جعل نساءه وعمته صفية في أطم يقال له «فارح» وجعل معهم حسان بن ثابت ، فرقى يهودى حتى أشرف على نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عمته ، فقالت صفية : يا حسان قم إليه حتى تقتله ، قال : لا ، والله ما ذاك فيّ ، ولو كان في لخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت صفية : فاربط السيف على ذراعى ، ثم تقدّمت إليه حتى قتلتَهُ ، وقطعت رأسه ، فقالت له : خذ الرأس فارم به على اليهود ، قال : ما ذاك فيّ ، فأخذت هي الرأس فرمت به على اليهود ، فقالت اليهود : قد علمنا أن لم يك يترك أهله خُلُوفاً ليس معهم أحد ، ففترقوا وذهبوا .

وروى أحمد بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير قال : كانت صفية في حصن حسان بن ثابت يوم الخندق : أى وهو المسمى بفارح ، فذكر الحديث في قتلها اليهودى وقولها لحسان : أنزل فاسلبه^(١) ، فقال : مالى بسلبه حاجة .

وروى الطبراني هذه القصة عن صفية رضى الله عنها في غزوة أحد ، وفي إسناده اثنان ، قال الهيثمى : لم أعرفهما ، وبقية إسناده ثقات ، والمذكور في كتب السير أن هذه القصة في الخندق ، وأن بعضهم كان بحصن بنى حارثة ، وبعضهم بفارح ، وأن صفية رضى الله عنها لما فرغت من قتل اليهودى ورجعت إلى الحصن قالت لحسان : انزل فاسلبه^(١) ، فإنى لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ، قال : مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب .

قال السهيلي : يحمل هذا الحديث عند الناس أن حسان كان جباناً شديداً الجبن ، وقد دفع بعض العلماء هذا وأنكره ، وقال : لو صح هذا لهجى حسان به ،

(١) اسلبه : خذ مامعه من مال وأداة ، والسلب - بالتحريك - اسم لما يأخذه

القاتل من قتيله

فإنه كان يُهاجى الشعراء ، وكانوا يردُّون عليه فما عَـيَّره أحدٌ بجهن ، وإن صح
فدَلَّ حسان كان معتلاً في ذلك اليوم بَعْلَة منعتَه من شهود القتال ، انتهى .

وروى الطبرانى رجال الصحيح عن عروة مرسلًا أن النبي صلى الله عليه وسلم
أَدْخَلَ نِساء يوم الأحزاب أطماً من آطام المدينة ، وكان حسان بن ثابت رجلاً
جَبَّاناً ، فأدخله مع النساء ، فأغلق الباب ، وذكر القصة .

ومن ذكر القصة في الخندق ابنُ إسحاق ، ويؤيده أن اليهود إنما غدروا
في الخندق ، وذلك أن حُيَّيَّ بن أخطب توجه إلى بني قُرَيْظَةَ ، فلم يزل بهم حتى
غدروا ، وبلغ المسامين غدرهم ، فاشتد بهم البلاء والحصار حتى تكلم معتب بن قشير
أخو بني عمرو بن عوف وأوس بن قَيْظَى أخو بني حارثة وغيرها من المنافقين
بالنفاق ، وأنزل الله تعالى : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ مُّآوَعَدَنَا
الله ورسوله إلا غرورا ^(١) » . قال ابن عباس : وكان الذين جاءوهم من فوقهم
بنو قُرَيْظَةَ ، ومن أسفل منهم قریش وغطفان ، وكان حيي بن أخطب أتى كعب
ابن أسد صاحبَ عَقْدِ بني قُرَيْظَةَ وعهدهم ، فأغلق باب حصنه دونه ، وقال :
لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا ، فقال له : إني جئتُك بعز الدهر ، جئتُك بقریش
وغطفان على قادتِهما وسادتِهما قد عاهدوني وعاهدوني أن لا يبرحوا حتى نستأصل
محمدًا ومن معه ، فقال له كعب : جئتني والله بِذُلِّ الدهر ، وبجَهَامٍ قَدِهرًا ^(٢) ماءه
فهو يَرِعدُ ويُهْرِقُ وليس فيه شيء ، فلم يزل حتى نقض كعبُ عهده وبرىء مما
كان بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، فاشتد الخوف بالمسلمين .

قال ابن إسحاق : ولم يقع بينهم حرب إلا مُرَامَة بالنَّبل ، ولكن كان عمرو
ابن عبدودَّ العامري اقتحم هو ونفر معهم خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق ،
فبارزه على قَتْلِهِ ، وبرز نوفلُ بن عبد الله بن المغيرة الحِزْوي ، فبارزه الزبير فقتله ،
ويقال : قتله على ، ورجعت بقية الخيول منهزمة ، وقيل : اقتتلوا ثلاثة أيام قتالا

(١) من سورة الأحزاب الآية ١٢

(٢) الجَهَام - بالفتح - السحاب لامطرفيه ، وهراق : أراق وأفرغ

شديدا حتى يحجز الليل بينهم ، سيما في اليوم الثالث ، حتى شغلهم القتالُ عن صلاة العصر والمغرب - وقيل : والظهر - وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ^(١) » قال مالك : ولم يستشهد يوم الخندق إلا أربعة أو خمسة ، وذكر غيره ستة ، وهم : سعد بن معاذ كما سيأتي ، وأنس بن أوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهيل ، وهم من بني عبد الأشهل ، وثعلبة بن غنمة ، والطفيل بن النعمان ، وهما من بني سلمة ، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار

وكان من المناوشات بين الفريقين أن مات بعضُ بني عمرو بن عوف من أهل قُبَاءَ ، فاستأذن أقرباؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدفنوه ، فأذن لهم ، فلما خرجوا إلى الصحراء ليدفن ميتهم وافقوا خِرَارَ بن الخطاب وجماعة من المشركين بعثهم أبو سفيان ليمتاروا له من قُرَيْظَةَ على إبل له ، فحملوا على بعضها قححا ، وعلى بعضها شعيرا ، وعلى بعضها تمرا وتبنا للعلف ، فلما رجعوا وبلغوا ساحة قُبَاءَ وافقوا الذين كانوا يدفنون ميتهم ، فناهضهم المسلمون وغلبوهم ، فخرج ضرار جراحاتٍ ، فهرب هو وأصحابه ، وساق المسلمون الإبل بما عليها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان للمسلمين في ذلك سَعَةٌ من النفقة

ثم أتى نعيم بن مسعود الأشجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُسْلِمًا ، ولم يعلم به قومه ، فقال : له : خَذُلْ عَنَا ^(٢) ، فمضى إلى بني قُرَيْظَةَ ، وكان نَدِيمًا لهم ، فقال : قد عرفتم محبتي ، قالوا : نعم ، فقال : إن قريشا و غطفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم في البلاد مع محمد ، ولا طاقة لـكم به ، قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقانلوا معهم حتى تأخذوا منهم رُهْنًا ، فقبلوا رأيهِ ، فتوجه إلى قريش فقال لهم : إن اليهود نَدِمُوا على القدر بمحمد ، فراسلوه في الرجوع إليه ، فراسلهم بأننا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رُهْنًا فأقتلهم ، ثم جاء غطفان بنحو ذلك ، فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة

إسلام
نعيم بن مسعود
الأشجعي

(١) من سورة البقرة من الآية ٢٣٩

(٢) خذل عنا : احمل أعداءنا على الخذلان والفشل وترك القتال

ابن أبي جهل إلى بني قريظة بأننا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مخرجاً ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، فأجابوهم إن اليوم يوم السبت ، ولا نعمل فيه شيئاً ، ولا بد لنا من الرهن منكم لثلاث تغدوا بنا ، فقالت قريش : هذا ما حذركم نعيم ، فراسلهم ثانياً : إنا لا نعطيكم رهناً ، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا ، فقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نعيم ، ثم بعث الله عليهم الريح فها تركت لهم بناء إلا هدمته ، ولا إناء إلا أكففته ، لا تقر لهم قراراً ولا ناراً ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مقام^(١) ، لقد هلك السكراع والخلف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ماترون ، فارتحلوا فإني مرتحل ، فتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا^(٢) راجعين إلى بلادهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا » .

وفى الذيل على أخبار المدينة لابن النجار لصاحبه العراقي عن الكلبي أنه قال : إن الملائكة اتبعوا الأحزاب حتى بلغوا الرّوحاء يكرّون في أدبارهم ، فهربوا لا يلوون على شيء^(٣) ، والله أعلم

ثم كانت غزوة بني قريظة .

غزوة

بني قريظة

قلت : قال أبو الربيع الكلاعي في الاكتفاء : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة ومعه المسلمون ، فلما كانت الظهر أتاه جبريل - ويقولون فيما ذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المقتسل عند ما جاءه جبريل ، وهو يرّجل رأسه^(٤) ، قد رجّل أحد شقيه ، فجاءه جبريل على فرس عليه اللأمة وأثر الفُبار ، حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبريل : غفر الله لك ! قد وضعت السلاح ؟ قال : نعم ، قال جبريل : ما وضعت الملائكة

(١) دار مقام : دار إقامة (٢) انشمروا راجعين : مضوا في جد وسرعة

(٣) لا يلوون على شيء : لا يلتفتون لشيء ولا يهتمون له

(٤) يرّجل رأسه : يصرح شعره وينظفه

السلاح بعدُ ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالأسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم فزال بهم ، اه

وفي رواية أخرى أنه قال : انهض إليهم فلاضعضهم ، فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الفُبار في زُقاق بني غنم من الأنصار ، وأصله في البخاري في باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب من رواية أنس ، قال : كأني أنظر إلى الفُبار ساطعاً في سكة بني غنم [من] موكب جبريل

ورواه ابنُ سعد من طريق حميد بن هلال موطولاً ، لكن ليس فيه أنس ، وأوله : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بني قريظة عهد ، فلما جاءت الأحزاب نقضوه وظاهروهم ، فلما نزم الله الأحزاب تحصنوا ، فجاء جبريل فقال : يا رسول الله ، انهض إلى بني قريظة ، فقال : إن في أصحابي جهداً ، قال : انهض إليهم فلاضعضهم ، قال : فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الفُبار في زقاق بني غنم من الأنصار

قلت : زقاقهم هو عند موضع الجنائز في شرق المسجد ، كما علم من ذكر منازلهم وفي رواية : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق والمسلمون ، ووضعوا السلاح ، أتى جبريلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَجَرِّاً بهامة^(١) من استبرقٍ على بَعْلَةٍ عليها قטיפعة من ديباج ، فقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال : ما وضعت الملائكة السلاح بعدُ ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالأسير إلى بني قريظة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا فأذن في الناس : مَنْ كَانَ سَامِعاً مَطِيعاً فَلَا يُصَلِّينَ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ ، وقدم على بن طالب برايته إلى بني قريظة ، وابتدرها الناسُ ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة في رواية ، وفي أخرى خمس عشرة ، وعند ابن سعد عشرة ، حتى أجهدهم الحصار ، وقُدِفَ في قلوبهم الرعبُ ، فعرض

(١) «اعتجر فلان بهامته» الاعتجار: أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يجعل منها شيئاً تحت ذقنه .

عليهم رئيسهم كعب بن أسد وقال لهم : إما أن تؤمنوا بمحمد فوالله إنه نبي أو تقتلوا نساءكم وأبناءكم وتخرجوا مستقتلين ليس وراءكم ثقل^(١) وتبيتوا المسلمين ليلة السبت ، فقالوا : لا نؤمن ولا نستحل السبت ، وأى عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا ؟ وأرسلوا إلى أبي لبابة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عوف من الأوس ، وكانوا حلفاءهم ، فاستشاروه فى النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى حلقه ، يعنى الذبح ، ثم ندم ، فتوجه إلى المسجد النبوى ، وارتبط بسارية تُعرَف به اليوم حتى تاب الله عليه ، واستشهد من المسلمين خلاد بن سويد من بنى الحارث بن الخزرج ، طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رَحَى فقتلته ، وأمر صلى الله عليه وسلم بقتلها بعد ذلك ، ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن الأسدى أخو عكاشة بن محصن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقبرة بنى قريظة التى تدفن فيها المسلمون لما سكنوها ، ولم يُصَبْ غيرُ هذين ، فلما اشتد بهم الحصار أذعنوا^(٢) أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الأوس : قد فعلت فى موالى الخزرج - أى بنى قينقاع - ما علمت ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك إلى سعد بن معاذ ، وكان سعد قد أصابه سهم فى أكتفيله^(٣) يوم الخندق ، فأتاه قومه ، فحملوه على حمار ، ثم أقبلوا معه يقولون : يا أبا عمرو ، أحسن فى مَوَالِيكَ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاءك ذلك لُتَحْسِنَ فيهم ، فلما أكثروا قال : لقد آن لسعد أن لاتأخذه فى الله لومة لأثم ، فجاء سعد فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم إليه ، فقال سعد : فإنى أحكم فيهم أن يُقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أَرْقَمَةٍ : سموات ، ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخنق بها خنأق ، ثم بعث إليهم ،

(١) الثقل - بالتحريك - متاع المسافر (٢) أذعنوا : خضعوا

(٣) الأكل : عرق فى وسط الدراع يكثر فصدّه

فضرب أعناقهم في تلك الخنادق وفيهم عدو الله مُحَيُّ بن أخطب؛ فإنه كان قد عاهد كعب بن أسد لئن رجعت قريش وغطفان لأدخلن معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فلما رجعت الأحزاب دخل معه في حصنه، فكان ذلك، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل مَنْ أُنْبِتَ منهم، ومن لم يُنْبِتْ استحياءه، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة كانت طرحت رَحَى على خلاد بن سُوَيْد كما سبق

وعند ابن سعد من مرسل مُحمَّد بن هلال: أن سعد بن معاذ حكم أيضا أن يكون دارهم للمهاجرين دون الأنصار، فلامه الأنصار، فقال: أحببت أن يستغنوا عن دُوركم

واختلف في عدتهم؛ فعند ابن إسحاق كانوا ستمائة، وعند ابن عائد من مرسل قتادة كانوا سبعمائة، وقال السهيلي: الكثير يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى السبعمائة، وفي النسائي وابن ماجة بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، وكان الزبير بن باطا القرظي قد مر على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بُعِثَ، فجاء ثابت لما قتل بنو قريظة وهو شيخ كبير، وذكره بذلك، ثم ذهب فاستوهمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوهبه إياه، فأثاء فقال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فاستوهم له امرأته وولده، فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم؟ فاستوهم له ماله، فأثاء فأعلمه، فقال: أي ثابت ما فعل فلان وفلان، وصار يذكركومه ويصِفهم، فقل له: قتلوا، قال: فإنني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فقدَّمه ثابت فضرب عنقه

ثم قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بني قريظة ونسائهم وأبنائهم على المسلمين، وأسهم للخيل، فكان أول فيء وقعت فيه الشَّهْمَان^(١)، وأخرج منه

(١) السهمان - بضم فسكون - جمع سهم، وهو النصيب، ويجمع السهم أيضا على أسهم وسهام

الخمس ، واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، فكانت عنده حتى توفى ، وكان يحرص عليها أن يتزوجها ، فقالت : تتركني في ملكك فهو أحق عليّ وعليك ، فتركها ، وقد كانت حين سبأها كرهت الإسلام ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك من أمرها ، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال : إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرني بإسلام ريحانة ، فكان كذاك ، وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم أعتقها وتزوجها ، وإنها ماتت في حياته مَرَجَعَهُ من حجة الوداع ، وهذا الأثبت عند الواقدي ، وبعضهم يقول : هي من بني النضير ولما انقضى شأن بني قريظة انفجر جَرَحُ سعد بن معاذ فمات شهيدا

وفي البخاري ما يقتضي أن قريظة كانوا قد حاربوا قبل ذلك مع بني النضير ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم منّ عليهم ، ولم أر التصريح بذلك ، ولم يتعرض له الحافظ ابن حجر في شرحه ، وقد قدمنا في بني النضير من رواية ابن مردويه ما يشهد له ، ولفظ البخاري : عن ابن عمر قال : حاربت النضير وقريظة ، فأجلى بني النضير ، وأقر قريظة ومنّ عليهم ، حتى حاربت قريظة ، فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأموالهم وأولادهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فأمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم : بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام ، ويهود بني حارثة ، وكل يهودى بالمدينة ، اهـ

ورواه أبو داود بنحوه ، إلا أنه قال : حتى حاربت قريظة بعد ذلك ، يعنى بعد محاربتهم الأولى وتقريرهم ، ويؤخذ من ذلك أن إجلاء من بقى من طوائف اليهود بالمدينة كان بعد قتل قريظة .

وفي البخاري أيضا من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن في المسجد خرج النبي صلى الله عليه وسلم فتال : انطلقوا إلى يهود ، فخرجنا حتى إذا جئنا بيت المدراس^(١) قال : أسلموا تسلموا ، واعلموا أن الأرض لله ورسوله وأنى

(١) بيت المدراس : البيت الذى يتدارس فيه اليهود توراتهم

أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ولرسوله ، وهو مقتضى لأن ذلك كان بعد خير ؛ لأن إسلام أبي هريرة بها في السنة السابعة ، والله أعلم

ثم كانت سرية عبيد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلي ثم اللحياني ^(١) ، وفيها سقط رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فرسه ^(٢) فجحش ، وفيها دفت دافة العرب ^(٣) ، فنهى عن ادّخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث .

قلت : وتزوج زينب بنت جحش ، وهى بنت عمته أميمة ، وقيل : في الثالثة ، وبسببها نزلت آية الحجاب ، وأسلم خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، والله أعلم .
السنة السادسة - في أولها أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثامة بن أثال من الهجرة ^(٤) ، ثم كسفت الشمس ثانية بعد الكسوف الذى كان يوم مات ابنه إبراهيم .
قلت : لعل في النسخة خللاً لما سنذكره من ولادة إبراهيم في الثامنة ووفاته في العاشرة ، فالكسوف في السادسة هو الكسوف الأول ، وفيها نزل حكم الظهار ، والله أعلم .

وفيها قتل المشركون سرية محمد بن مسامة فلم يُقِلَّتْ منهم غيره ، وكانوا عشرة ، ثم كانت سرية على بن أبي طالب إلى فدك في مائة رجل ، ثم كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ، فظهر عليهم ، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمأضر بنت الإصبع بن عمرو الكلبي وهو ملكهم ، ثم أجذب الناس فاستسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان في موضع المصلى فسقوا ، ثم أرسل زيد بن حارثة في سرية ، فسبى سلمة بن الأكوع في تلك السرية بنت مالك بن حذيفة ، ثم كانت الحديبية ، ثم أغار عيينة بن حصين ^(٥) الفزاري على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستنقذها .

(١) عرنة - بضم العين وفتح الراء - موضع عند الموقف بعرفات

(٢) في المطبوعات « عن فرسه فجحش » تطبيع ، والثابت في السنة « فجحش »

شق « أى انخدش جلده » (٣) دفت دافة : أى ورد قوم من الأعراب المدينة

(٤) في المطبوعات « عيينة بن حصين » تطبيع

قلت : قد قدمنا في حدود الحرم أن لقاحه صلى الله عليه وسلم كانت ترى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عُيَيْنَةُ يوم ذى قَرَد^(١) ، وهو الموضع الذى كان فيه القتال ، سميت الغزوة به ، وتسمى أيضاً غزوة الغابة .

غزوة
ذى قرد

قال ابن إسحاق : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى لَحْيَانَ وكان في شعبان سنة ست ، لم يُقِمْ إلا ليالى قلائل حتى أغار عُيَيْنَةُ في خيل من غَطَفَانَ على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامراته ، فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة في اللقاح ، وكان أول من نُذِرَ بهم سَلَمَةُ ابن الأَكُوْع ، غذا يريد الغابة مُتَوَشِّحًا قَوْسَهُ ونبله حتى إذا علا نَمْلِيَّةُ الْوَدَاع نظر إلى بعض خيولهم ، فأشرف في ناحية سَلْع ، ثم صرخ : وَاصْبَحَا ، ثم خرج يشتد في آثار القوم حتى لحقهم ، فجعل يردم بالنبل ويقول إذا رمى : خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكُوْع ، واليومُ يومُ الرُّضْع ، فإذا وجهت الخيل نحوه هرب ، ثم عارضهم ، وهكذا ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياحه ، فصرخ بالمدينة : الفرع ، الفرع ، فترامت الخيل إليه ، فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد بن زيد الأشهلي ، وقال : اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس ، فقتل أبو قتادة رضى الله عنه حبيب بن عُيَيْنَةَ بن حصن وغشاه برده ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين ، فإذا حبيبٌ مُسَجَّى يبرد أبي قتادة ولكنه قتيل ، فظنوه هو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأبي قتادة ولكنه قتيل له ، وأدرك عُكَّاشَةُ بن محسن رضى الله عنه أوبارا وابنه عمر بن أوبار ، وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح ، فقتلهما جميعاً ، واستنقذوا بعض اللقاح ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالخیل من ذى قَرَد ، وتلاحق به الناس ، وأقام عليه يوماً وليلة ، وقال له سامة : يا رسول الله لو سَرَّحتنى في مائة رجل لاستنقذت بقية السَّرح وأخذت بأعناق القوم ، فقال له صلى الله عليه وسلم

(١) ذو قرد - بفتح القاف والراء جميعاً - ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خير ، ويقال «ذو القرد» بضم القاف وفتح الراء - قاله ابن الأثير (٣/ ٢٤٠)

لأنهم ليقرون في غطفان ، فقسم صلى الله عليه وسلم في أصحابه في كل مائة جزورا ، وأقاموا عليها ، ثم رجع ، وأفلتت امرأة الغفاري على ناقة من اللقاح حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته الخبر ، وقالت : إني نذرتُ لله أن أنحرها إن أنجاني الله عليها ، فتبسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : بئس ما جزيتيها أن حَمَلَكَ الله عليها ونَجَّكَ بها ثم تنحريها ، إنه لا نذرَ في معصية الله ولا فيما لا تملكين ، هذه رواية ابن إسحاق ، وقد ذكر فيها قتل اثنين من المسلمين .

وخرج مسلم القصة عن سلمة مطولة ومختصرة ، وخالف ما ذكره ابن إسحاق في مواضع : منها أنها كانت بعد انصرافه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وجعلها ابن إسحاق قبلها ، ومنها : أن فيه أن اللقاح كانت ترعى بذي قرد ، وكذا هو في البخاري ، وقال ابن إسحاق : بالغابة ، وكذا هو في حديث سلمة الطويل ، ولهذا قال عياض : إن الأول غلط ، ويمكن الجمع بأنها كانت ترعى تارة هنا وتارة هناك ، ومنها : أنه قال فيه : خرجت قبل أن يؤذن بالأولى فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال : أخذتُ لقاحُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصرخت ثلاث صرخات : يا صباحاه ، فأسمعت ما بين لابتي المدينة ، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم وقد أخذوا بذي قرد يسقون من الماء ، وفي رواية لمسلم ما يقتضى أن سلمة كان مع السرح^(١) لما أغير عليه ، وأنه قام على أكمة^(٢) وصاح : يا صباحاه ، ثلاثا ، وهذا يرجع أن السرح كان بالغابة ، ويبعد كونه بذي قرد ، ولو كان بذي قرد لما أمكنه لحوقهم ، ومنها : أن فيه أنه استنقذ سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بحملته ، ومنها : أنه قال فيه : فرجعنا إلى المدينة ، فوالله ما لبثنا بها إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى

(١) السرح - بالفتح - المشية ، ويقال لها أيضا : سارج ، وسارحة

(٢) الأكمة - بفتحات - الراية ، وهي المكان المرتفع

تخبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال القرطبي : لا يختلف أهل السير أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية ، انتهى .

وما في الصحيح من التاريخ لها أصبح ممافى السير ، ويمكن الجمع بتكرار الواقعة ، ويؤيده أن الحاكم ذكر في الإكليل أن الخروج إلى ذي قرد تكرر ؛ ففي الأولى خرج إليها زيد بن حارثة قبل أحد ، وفي الثانية خرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الآخر سنة خمس ، والتالية هي المختلف فيها ، انتهى . والله أعلم .

ثم كانت قصة العرنيين .

قصة
العرنيين

قلت :^(١) وذلك أن ثمانية منهم ، وفي رواية من عكّل ، قدموا فأسلموا واجتوؤا المدينة^(٢) ، وقالوا : إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف ، فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى لقاحه ، وفي رواية « إبل الصدقة » وكأنهما كانا معاً ، فصح الإخبار بالبعث لكل منهما ، ليشرىوا من أبوالها وألبانها ، فلما صحوا قتلوا الراعى واستاقوا الإبل ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم كرز بن خالد الفهرى في عشرين ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وطرحهم في الحرة يستسقون فلا يستقون ، حتى ماتوا ، هذا محصل ما في الصحيح ، وذكر أهل السير أن اللقاح كانت ترعى ناحية الجملوات ، وفي رواية بذى الجدر غربى جبل غير على ستة أميال من المدينة ، وذكر ابن سعد عن ابن عقبة أن أمير الخيل يومئذ سعيد بن زيد أحد القشرة ، فأدركهم قر بطوم وأردفهم على خيلهم ، وردوا الإبل ، ولم يفقدوا منها إلا لقحة واحدة من لقاحه صلى الله عليه وسلم تدعى الحنا ، فسأل عنها ، فقيل : نحروها ، فلما دخلوا بهم المدينة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة .

(١) اجتوؤا المدينة : أى أصابهم الجوى ، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ، والمراد أنه لم يوافقهم هواء المدينة واستوخموها .

قال بعضهم : وذلك مرجعه من غزوة ذى قَرَدٍ ، فخرجوا بهم ، نحوه ، فلقوه بالزغبة ، فقطعت أيديهم وأرجلهم وُسِمِلَتْ أعينهم وصلبوا هناك ، والله أعلم .
ثم غزا بنى المصطلق ، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم في انصرافه على المُرَيْسِيع . وفيها كانت قصة الإفك .

قلت : قد قدم غزوة المريسيع في السنة الخامسة ، وذكر أن فيها أنزلت آية التيمم ، وقد اقتضى كلامه أن المُرَيْسِيع وقعت مرتين : في الأولى التيمم ، وفي الثانية الإفك ، وفيه جمع بين ما ذكره كثير من أهل السير من أن المريسيع سنة خمس وبين ما نقله البخارى عن ابن إسحاق أنها سنة ست ، لكن قد ثبت في الصحيح أن سعد بن مُعَاذٍ تنازع هو وسعد بن عُباد في أصحاب الإفك ؛ فلو كانت المريسيع التي هي غزاة بنى المصطلق سنة ست مع كون الإفك كان فيها لكان ما وقع في الصحيح من ذكر سعد بن معاذ غلطا ؛ لأن سعد بن معاذ مات أيام قَرِيظَةَ ، وكانت سنة خمس ، وقيل : أربع ؛ فالأشبه أن بنى المصطلق والمُرَيْسِيع واحد ، كلاهما في سنة خمس .

وقد ذكر ابن عبد البر في التمهيد أن التيمم كان في غزاة بنى المصطلق ، وحزم به في الاستذكار ، وسبقه إليه ابن سعد وابن حبان .

وفي البخارى « غزوة بنى المصطلق ، وهي غزوة المريسيع » وفي الطبراني حديث : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة المريسيع غزوة بنى المصطلق ، وبنو المصطلق بطن من خُزَاعَةَ ، وكان رئيسهم الحارث بن أبى ضرار ، وكان معه عليه الصلاة والسلام بَشْرٌ كثير ، خرج بهم إليهم لما بلغه أنهم يَجْمَعُونَ له ، وكان معه ثلاثون فرسا وأم سَلَمَةَ وعائشة ، فهزمهم وأسر من الكفار جمعا عظيما ، وتزوج جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث رئيسهم ، فأعتق الناس ما بأيديهم من الأسرى لمكانها ، وفي هذه الغزاة قال ابنُ أبى « لئن رَجَعْنَا ^(١) إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعز

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

منها الأذل» وقال « لا تُنْفِقُوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا^(١) » وذلك أن ابن أبيّ خرج في عصابة من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا أن الله قد نصّر رسوله وأصحابه أظهروا قولاً سيئاً ، واقتتل رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فظهر عليه المهاجري ، فقال ذلك ابن أبيّ لقومه ، فأخبر زيد بن أرقم بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجهد ابن أبيّ يمينه ما فعل ، فحزن زيد بن أرقم لذلك ، فأنزل الله تصديقه ، واستأذن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه فيما رواه عروة بن الزبير ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتل أباك ، ولما كان بينهم وبين المدينة يوم تعجل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ حتى أناخ على بجمع طارق المدينة حتى جاء أبوه فقال له ابنه : لا والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلم اليوم من الأعز [و] من الأذل ، فقال له : أنت من بين الناس ؟ فقال : نعم ، أنا من بين الناس ، فأنصرف عبد الله حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتكى إليه ما صنع ابنه ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنه « أن سخل عنه » فدخل المدينة ، رواه ابن شبة .

وفي هذه السنة فرض الحج على الصحيح ، كما سيأتي ، والله أعلم .
 السنة السابعة — فيها قصة أبي سفيان مع هرقل في الشام ، وفي أولها كتّبت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وبعث إليهم رسله ، ثم كانت خيبر .
 قلت : واستصفي صفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب من المغنم ، فأعتقها وتزوجها ، وجاءته مارية القبطية هدية وبغلته دلدل ، وأسلم أبو هريرة ، وسمّته صلى الله عليه وسلم زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم ، ثم صار النبي صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى ، فحاصر أهله ليالى وأصاب غلامه مدغم سمنهم غرب^(٢) ، فقتله ،

(١) من سورة المنافقين من الآية ٧

(٢) سهم غرب : لا يعرف راميهِ ، ويقال بالإضافة وبالوصف ، ووقع في المطبوعات « وأصاب غلامه مدغم بينهم غرب » تطبيع

وفى رجوعه إلى المدينة كان النوم عن صلاة الصبح ، وروى بعضهم أنه كان فى الرجوع من غزوة تبوك ، وقال الواقدى : وفى الحرم منها جاء رؤساء اليهود إلى كبيد بن الأعصم — وكان حليفاً فى بنى زريق ، وكان ساحراً — فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا ، ونحن نجعل لك جُمُلاً على أن تسحره لنا سحرا ينكوه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير ، وذكر قصة سحره ، وفى رواية عن الزهرى بإسناد صحيح أن المدة التى مكث النبى صلى الله عليه وسلم فيها فى السحر سنة ، وفى رواية أربعين ليلة ، والله أعلم .

وفىها جاءت أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وتزوج بها ، ثم كانت عُمره القَصِيَّة وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية .

السنة الثامنة
من الهجرة

السنة الثامنة — فيها كانت مُوْتة ، ثم كان الفتح ، ثم غزوة هوازن ، ثم غزوة الطائف ، وأمر على مكة عتاب بن أسيد ، وأسلم مالك بن عوف النَّضْرِي ، وتآلف المؤلف من غنائم هوازن ، ثم انصرف إلى المدينة فى آخر ذى القعدة .

قلت : وفى هذه السنة وُلد ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وحلق رأسه يوم سابعه ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وعَقَّ عنه بكبشين^(١) ، ومات فى عاشر ربيع الأول من السنة العاشرة وسنه عام ونصف ، وقيل : عام وثلاث ، وفى الثامنة أيضا توفيت ابنته زينب ، وهى أكبر أولاده ، وكانت زَوْجَ أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس الذى أثنى عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى صهارته ، تزوجها قبل البعثة ، ولما قدم عليها مسلما ردّها النبى صلى الله عليه وسلم بالنكاح الأول على الصحيح لقدمه عقب تحريم المسلمات على المشركين ، وذلك بعد صلح الحديبية ، والله أعلم .

السنة التاسعة
من الهجرة

السنة التاسعة — فيها هَجَرَ نساء شهر ، ثم تابعت الوفود ، ثم فرض الحج .

قلت : قد اختلف فى وقته ، فقيل : قبل الهجرة ، وهو غريب ، والمشهور

(١) الحقيقة : ما يذبح يوم سابع الغلام ، والسنة أن يذبح عن الجارية شاة

وعن الغلام شاتان

بعدها ، فقليل : سنة خمس ، وجزم به الرافعي في موضع ، وقيل : ست ، وصححه الرافعي في موضع آخر ، وكذا النووي ، وقيل : سبع ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع ، وصححه عياض ، والله أعلم .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج أبا بكر رضى الله عنه ، ثم نزلت براءة ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضى الله عنه ؛ لينبذ إلى الناس عهدهم .

قلت : وفيها في شهر رجب كانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم على ما ذكره ابن إسحاق ، والله أعلم .

السنة العاشرة — فى أولها قدم عدي بن حاتم بوفد طيء ، ثم قدم وفد بنى حنيفة ، ثم وفد غسان ، ثم وفد نجران الذين كانت فيهم قصة المبالهة ، ثم جاء جبريل يعلم الناس دينهم ، ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوكا .

قلت : وهو مخالف لما قدمناه عن ابن إسحاق من كونها فى التاسعة ، والله أعلم .

ثم أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بالحج فى حجة الوداع ورجع ، ثم مرض فى صفر لعشر بقين منه ، وتوفى صلى الله عليه وسلم لاثنتى عشرة ليلة خات من ربيع الأول يوم الاثنين ، انتهى ما ذكره رزين عن أبى حاتم .

قلت : وشهر ربيع هذا من الحادية عشرة ، وكان ابتداء مرضه فى بيت ميمونة ، وقيل : زينب بنت جحش ، وقيل : ريمانة ، وذكر الخطابى أن ابتداءه يوم الاثنين ، وقيل : السبت ، وقيل : الأربعاء ، وحكى فى الروضة قولين فى مدته ، فقليل : أربعة عشر ، وهو الذى صُدّر به ، وقيل : ثلاثة عشر ، وعليه الأكثر ، وقيل : عشرة ، وبه جزم سليمان التيمى ، ومقتضى ما تقدم أن المسدة تزيد على عشرين يوما ، ولم أر من صرح به ، ولا خلاف فى أن الوفاة كانت يوم الاثنين ، وكونه من ربيع الأول ، كاد يكون إجماعا ، لكن فى حديث ابن مسعود عند

البنار : في حادى عشر رمضان ، وكونها في ثانى عشر ربيع الأول هو ما عليه الجمهور ، وذهب جماعة إلى أنها في أوله ، ورواه يحيى عن ابن شهاب ، وقال : حين زاغت الشمس ، وعن أسماء بنت أبى بكر أنه توفى للنصف من ربيع الأول ، وقيل : ثانيه ، ورجحه السهيلي ، واستشكل قول الجمهور بأنهم اتفقوا على أن الوقفة في حجة الوداع كانت الجمعة ، فأول ذى الحجة الخميس ، ففهما فرضت الشهور الثلاثة تَوَامَّ أو نواقص أو بعضها ، لم يصح كون الوقفة يوم الاثنين مع كونه ثانى عشر ربيع الأول ، وأجاب البارزى باحتمال وقوع الثلاثة كوامل ، واختلاف أهل مكة والمدينة في هلال ذى الحجة : فرآه أهل مكة ليلة الخميس ، ولم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة ، فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة ، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها ، فكان أول ذى الحجة الجمعة ، وهو وما بعده كوامل ، فأول ربيع الأول الخميس ، وثانى عشره الاثنين ، ولا يخفى بُعد هذا الجواب ، وقد جزم سليمان التيمي أحد الثقات بأن بدء مرضه صلى الله عليه وسلم كان يوم السبت الثانى والعشرين من صفر ، ومات يوم الاثنين ليلتئذ خَلَّتْ من ربيع الأول ، ومنه يعلم أن صفر كان ناقصا ، ولا يمكن أن يكون أول صفر السبت إلا إن كان ذو الحجة والحرم ناقصين ؛ فيلزم عليه نقص ثلاثة أشهر متوالية ، وأما على قول من قال : « أول ربيع الأول » ؛ فيكون اثنان ناقصين وواحد كاملا ، وكذا على قول من قال : « للنصف منه »

وقال البدر ابن جماعة : يحمل قول الجمهور لاثنتى عشرة ليلة خلت : أى بأيامها ، فيكون موته في اليوم الثالث عشر ، وتفرض الشهور كوامل ؛ فيصح قول الجمهور ، ويعكر عليه ما فيه من مخالفة أهل اللسان في قولهم « لاثنتى عشرة » فإنهم لا يفهمون منها إلا ماضى الليالى ، وأن ما أرخ بذلك يكون واقعا في الثانى عشر .

قال الحافظ ابن حجر : فالعتمد قول أبى مخنف أنه في ثانى ربيع الأول ، وكأن

سبب غلط غيره تغيير ذلك إلى الثاني عشر ، وتبع بعضهم بعضا في الوهم .
 وغسله صلى الله عليه وسلم على بوصيته ، والعباسُ وابنه الفضلُ يعينانه ،
 وقُثمُ وأسامةُ وشقرانُ يصبون الماء ، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة ليس
 فيها قميص ولا عمامة — وسحول : بلدة باليمن — وعن جعفر بن محمد عن أبيه :
 كفن في ثوبين صحاريين مما يصنع بعمان من كُرُسَف^(١) وبرد حَبَرَة ، وفي
 الإكليل ورواه يحيى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كفن في سبعة
 أثواب ، وصُلِّي عليه في حُجْرته بغير إمام ؛ ونقل الأَقْشَرِي عن الحسين بن محمد
 الصدقي أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه في وسط الروضة من مسجده ، ثم حمل
 إلى بيته ودفن فيه .

قلت : هذا إنما هو معروف في أنى بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفي مستدرک
 الحاكم ومُسْنَدُ البزار بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُصَلَّوا عليه
 أرسالا بغير إمام ، ودفن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء ، وقيل : يومها ، وقيل :
 يوم الثلاثاء بعد أن عرف الموت في أظفاره ، وقال قائلون : ندفنه بمسجده ،
 وآخرون بالبقيع ، ثم اتفقوا على دفنه ببيته ، لحمل بالفرّاش ، وخُفِر له في موضع
 الفرّاش ، وروى يحيى عن ابن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما هلك
 نبي إلا دفن حيث تقبض روحه ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه
 بإخراج المشركين من جزيرة العرب كما في الصحيح من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه
 وسلم أمر بذلك ، ولفظه : وأمرهم بثلاث ، فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ،
 وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » والثالثة إما سكّتها ، وإما أن قالها
 فنسيها . قال سفيان : هذا — أى قوله والثالثة إلى آخره — من قول سليمان :
 أى شيخ سفيان ، قال الداوودي : الثالثة هى الوصية بالقرآن ، وقال المهلب :
 بل هى تجهيز جيش أسامة ، وقوّاه ابن بطلان بأن الصحابة لما اختلفوا على

(١) الكرسف — بوزن قنفذ — القطن

أبي بكر في تنفيذ جيش أسامة ، قال لهم أبو بكر : إن النبي صلى الله عليه وسلم عهد بذلك عند موته .

وقال عياض : يحتمل أن يكون^(١) قوله : « لا تتخذوا قبرى وثناً » فإنها ثبتت في الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود ، ويحتمل أن يكون ما وقع في حديث أنس أنها قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم »

والذي أخلى المشركين من جزيرة العرب هو عمر رضى الله عنه ؛ ففي الصحيح من حديث ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها ، وكانت الأرض لما ظهر عليها لله وللرسول وللمؤمنين ، فسأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نترككم على ذلك ما شئنا » فأقرؤوا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء ووأريحاء .

وفي الصحيح أيضاً عن ابن عمر : لما فدح^(٢) أهل خيبر عبد الله بن عمر قام عمر خطيباً ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاملاً يهود خيبر على أموالهم وقال : « نترككم على ما أقركم الله ، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك ، فعدي عليه من الليل ، ففدعت يده ورجلاه ، وليس لنا هناك عدو غيرهم ، هم عدونا وهم متنا ، وقد رأيت إجلالهم ، فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بني الحقيق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخرجنا وقد أقرنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وعاملنا على الأموال ، وشرط ذلك لنا ، فقال عمر : أظننت أنى نسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعذو بك قلوبك ليلة بعد ليلة » فقال : كانت هذه هزيلة من أبي القاسم صلى الله عليه

(١) أى يحتمل أن الثالثة هي قوله « لا تتخذوا قبرى وثناً »

(٢) الفدح — بالتحريك — زيغ بين القدم وبين عظم الساق ، وكذلك في اليد ، وهو أن تزول المفاصل عن أركانها

وسلم ، فقال : كذبت يا عدو الله ، فأجلاهم عمر ، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعُرُوضا من أقتاب وحبال وغير ذلك .

وظاهر هذا أن عمر رضى الله عنه إنما استند في إجلائهم لهذه القصة .
وروى ابن زبالة عن مالك عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان في جزيرة العرب » .

قال ابن شهاب : ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلج^(١) واليقين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان في جزيرة العرب » فأجلى يهود خيبر ، قال مالك : وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود نَجْرَانَ وفَدَكَ .

وروى البيهقي من حديث عمر مرفوعا « لئن عشتُ إلى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب » وخرجه مسلم بدون « لئن عشت » وفي مسند أحمد والبيهقي عن أبي عبيدة قال : كان آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب » الحديث .

وروى أحمد بسند جيد عن عائشة قالت : آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « لا يترك بجزيرة العرب دينان » .

قال الجَوْنِيُّ والقاضى حسين من أصحابنا : الجزيرة هي الحجاز ، والمشهور أن الحجاز بعض الجزيرة .

ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم لم يتفرغ أبو بكر رضى الله عنه لإخراجهم ، فأجلاهم عمر رضى الله عنه وهم زُهَاءُ أُرْبَعِينَ أَلْفًا ، ولم ينقل أن أحداً من الخلفاء أجلاهم من اليمن مع أنها من الجزيرة ؛ فدل على أن المراد الحجاز فقط .

وحكى أن بعض اليهود أظهر كتابا ، وادعى أنه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصحابة ؛ فعرض على أبي بكر الخطيب البغدادي فقال : هذا مُزَوَّرٌ ؛ لأن فيه شهادة معاوية ، وهو أسلم عام الفتح ، فلم ينحضر ما جرى ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وقد مات في بني قُرَيْظَةَ بسهم أصابه في الخندق ، وذلك قبل خيبر بسنتين ، وذلك من فوائد علم التاريخ ، والله أعلم .

(١) الثلج الاطمشان ، وفعله من بابي فرح وخرج (٢١ - و١٤٠)

الباب الرابع

فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم النبوي ، والحجرات المنيفات ، وما كان مُطِيفاً به من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلاً .

الفصل الأول

في أخذه صلى الله عليه وسلم لموضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه تقدم أن ناقته صلى الله عليه وسلم لما بركت عند باب المسجد قال صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » وفي كتاب يحيى عن الزهري أنها بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مرة بداً^(١) لعلاميين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، وقال : اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ، قاله أربع مرات .

وروى رزين نحوه عن أنس ، ولفظه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » ثم أخذ في النزول فقال « رب أنزلي منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » ولم يقل قاله أربعاً .

وفي كتاب يحيى عن الزهري أيضاً أن الميربد^(١) كان لسهل وسهيل ، وأنهما كانا في حجر أبي أمامة أسعد بن زرارة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت به راحلته « هذا المنزل إن شاء الله » ثم دعا الغلامين فسأوهما بالميربد^(١) ليتخذاه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

(١) الميربد - بزنة منبر - الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم ، وأصل اشتقاقه من « ربد بالمكان » إذا أقام فيه ، أو من « ربه » أي حبسه .

قال يحيى تبعاً لابن زبالة : وقال بعضهم : كان لغلامين يتيمين لأبي أيوب هاسهل وسهيل ابنا عمرو ، فطلب المربد من أبي أيوب ، فقال أبو أيوب : يا رسول الله المربد ليتيمين ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتخذاه مسجداً . وعند ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لمن هذا ؟ يعنى المربد ، فقال له معاذ بن عفراء : هو لهسهل وسهيل ابني عمرو يتيمان لي ، وسأرضيهما منه ، فاتخذاه مسجداً ، فأمر به أن يبنى . ويؤيده أنه وقع في مرسل ابن سيرين عند أبي عبيد في الغريب أنهما كانا في حجر معاذ بن عفراء . والذي في صحيح البخاري أنهما كانا في حجر أسعد بن زرارة ، كذا هو في رواية الجميع إلا أبا زر ، ففي روايته سعد بإسقاط الألف ، ورواية الجماعة هي الوجه ؛ إذ كان أسعد من السابقين إلى الإسلام ، وهو المسكني بأبي أمامة ، وأما أخوه سعد فتأخر إسلامه .

وقد يجمع باشتراك من ذكر في كونهما كانا في حجورهم ، أو بانتقال ذلك بعد أسعد إلى من ذكر واحداً بعد واحد ، سيما وقد روى ابن زبالة عن ابن أبي فديك قال : سمعت بعض أهل العلم يقولون : إن أسعداً توفي قبل أن يبنى المسجد ، فابشأه النبي صلى الله عليه وسلم من ولي سهل وسهيل .

وروى ابن زبالة في خبر : كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لسهل وسهيل ابني أبي عمرو من بني غنم ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبناه مسجداً . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى ملائكة بني النجار بسبب موضع المسجد ، فقال : يا بني النجار ، ثامنوني^(١) بحائطكم هذا ، فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . وعند الإسماعيلي « إلا من الله » وهو ظاهر في أنهم لم يأخذوا له ثمناً .

وفي رواية في باب الهجرة من الصحيح بعد ذكر تأسيس مسجد قباء : ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته ، فسار يمشي معه الناس حتى بركت

(١) ثامنوني : ساوموني في ثمنه ، والحائط : الحديقة

عند مسجد الرسول بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمة في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل^(١) ، ثم دعا الغلامين فساومهما بالربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

ووقع في رواية ابن عُيينة : فكلم عهما — أى الذى كانا في حجره — أن يبتاعه منهما ، فطلبه منهما فقالا : ما تصنع به ؟ فلم يجد بداً من أن يصدقهما ، فأخبرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراداه ، فقالا : نحن نعطيه إياه ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبناه ، أخرجه الجندى . وطريق الجمع بين ذلك — كما أشار إليه الحافظ ابن حجر — أنهم لما قالوا لا نطلب ثمنه إلا إلى الله سأل عن من يختص بملكه منهم ، فعينوا له الغلامين ، فابتاعه منهما أو من وليهما أن كانا غير بالغين . وحينئذ فيحتمل أن الذين قالوا « لا نطلب ثمنه إلا إلى الله » تحمّلوا عنه للغلامين بالثمن ، فقد نقل ابن عقبة أن أسعد عوض الغلامين عنه بخلافة في بنى بياضة . وتقدم أن أبا أيوب قال : هو ليتيمين لى ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، وكذلك معاذ بن عفراء ، فيكون ذلك بعد الشراء . ويحتمل أن كلا من أسعد وأبى أيوب وابن عفراء أرضى اليتيمين بشيء ، فنسب ذلك لكل منهم . وقد روى أن اليتيمين امتنعا من قبول عوض ، فيحمل ذلك على بدء الأمر ، لكن يشكل على هذا ما نقل عن التاريخ الكبير لابن سعد أن الواقدي قال : إنه صلى الله عليه وسلم اشتراه من ابني عفراء بعشرة دنانير ذهباً ، دفعها أبو بكر الصديق ، وقد يقال : إن الشراء وقع من ابني عفراء لأنهما كانا وليين لليتيمين ، ورغب أبو بكر في الخير كما رغب فيه أسعد ، وأبو أمامة ومعاذ بن عفراء ، فدفع لهم أبو بكر العشرة ، ودفع كل من أولئك ما تقدم ، ولم يقبله صلى الله عليه وسلم بلا

(١) المنزل : موضع النزول

ثمن أولاً لكونه لليتيمين ، لكن ابن سيد الناس نقل عن البلاذري أنه قال عقب كلامه الآتي : فعرض — يعني أسعد — على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذها ويغرم لليتيمين ثمنها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وابتاعها منه بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر ، انتهى ؛ فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أخذ أولاً بعض المربد ، ثم أخذ بعضاً آخر ؛ لما سيأتي من أنه زاد فيه مرة أخرى ؛ فليست القصة متعقدة . ورأيت بخط الأقمشيري في كلام نقله عن أبي جعفر الداودي عن عبد الله بن نافع صاحب مالک أن المسجد كان مربداً لابن عفرأ .

قلت : يحتمل نسبته إليهما لولايتهما على اليتيمين ، أو أن لليتيمين أمًا تسمى عفرأ ، وأما ابنا عفرأ المشهوران فهما معاذ ومُعَوِّذ ابنا الحارث ، والذي في الصحيح من تسمية الغلامين سهل وسهيل أصبح ، والله أعلم .

وفي كتاب يحيى ما يقتضى أن أسعد بن زُرَّارة كان قد بنى بهذا المربد مسجداً قبل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : حدثنا بكر ثنا محمد ابن عمر ثنا معاذ بن محمد عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرَّارة قال : سمعت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول : أخبرتنى النوار بنت مالك أم زيد ابن ثابت أنها رأت أسعد بن زُرَّارة قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس الصلوات الخمس ، ويجمع بهم في مسجد بنّاه في مربد سهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، قالت : فأُنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم صلى بهم في ذلك المسجد وبنّاه ، فهو مسجده اليوم .

ونقل ابن سيد الناس عن ابن إسحاق أن الناقة بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ ليتيمين من بني مالك بن النجار في حجر مُعَاذ بن عَفْرَأ سهل وسهيل ابني عمرو ، ثم قال : وذكر أحمد بن يحيى البلاذري ، قال :

فنزّل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أبي أيوب ، ووهبت له الأنصار كل فضل كان في خططها ، وقالوا : يا نبي الله إن شئت فخذ منازلنا ، فقال لهم خيراً ، قالوا : وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة يُجَمِّعُ بمن يليه في مسجده له ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه ، ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضاً متصلة بذلك المسجد كانت في يده ليتيمين في حجره يقال لهما سهل وسهيل ابنا رافع بن أبي عمرو ابن عائذ بن ثعلبة بن غنم ، كذا نسبهما البلاذري ، وهو يخالف ما سبق عن ابن إسحاق وغيره ، والأول أشهر ، انتهى ، وتشهيره للأول — وهو كون الغلامين ابني عمرو — تقدم ما يقتضيه ، لكن تقدم أيضاً ما يقتضيه الثاني ، وهو الأرجح فقدم صرح ابن حزم في الجمهرة ، ورواه ابن زبالة عن ابن شهاب ، وكذا ذكره ابن عبد البر . وذكر السهيلي فيما نقله عنه الذهبي ما يحصل به الجمع ويرفع الخلاف إلا أن فيه بعض مخالفة لما تقدم ، فقال : سهل بن عمرو الأنصاري النجاري أخو سهيل صاحب المربد ، وكان في حجر أسعد بن زرارة ، ينسبان إلى جدّهما ، وهما ابنا رافع بن عمرو بن أبي عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن النجار ، انتهى . فعلى هذا يكون سقط من الرواية المتقدمة ابن عمرو بين رافع وأبي عمرو ، وتصحف عبيد بعائذ ، والله أعلم .

وقال المجد : ذكر البيهقي المسجد فقال : كان جداراً مُجَدَّراً ليس عليه سقف ، وقبلته إلى القدس ، وكان أسعد بن زرارة بنّاه ، وكان يصلي بأصحابه فيه ، ويُجَمِّعُ بهم فيه الجمعة قبل مقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل التي في الحديقة والفرقة أن يُقَطَّعَ ، وكان فيه قبور جاهلية ، فأمر بها فنُبِشت ، وأمر بالعظام أن تُغَيَّبَ ، وكان في المريد ماء مسحل فسيره حتى ذهب — والمسحل : ممشي ماء المطر ، انتهى . ولم أره في المعرفة للبيهقي ، ولا في السنن الكبير ، ولا في الدلائل ، والمعروف أنه كان مربدا للتمر : أي يُجَفَّفُ فيه التمر ، وكأنه سماء حديقة لاشتماله على نخل ؛ ففي الصحيحين أن

النبي صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أَخَذَهُ كَانَ فِيهِ نَخْلٌ وَقُبُورُ الْمُشْرِكِينَ وَخَرِبٌ ، فَأَمَرَ
النبي صلى الله عليه وسلم بالنخل فقطع ، وبقبور المشركين فَنُبِّشَتْ ، وبانحرب
فَسُوِّيَتْ ، فصفوا النخل قبله له ، وجعلوا عضادتيه حجارة » وقد قدمنا الكلام
على قطع هذا النخل في أحكام الحرم ، وكأن معنى صف النخل قبله له جعلها
سَوَارِي فِي جِهَةِ الْقِبْلَةِ لِيَسْقِفَ عَلَيْهَا كَمَا فِي الصَّحِيحِ « كَانَ الْمَسْجِدُ عَلَى عَهْدِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْنِيًا بِاللَّيْلِ ، وَسَقْفُهُ الْجَرِيدُ ، وَعُمْدُهُ خَشَبُ النَّخْلِ »
وسياتي فيما أسند يحيى أنه كان في جوف الأرض - أى أرض المربد - قبور
جاهلية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فَنُبِّشَتْ ، فرمى بعظامها ،
فأمر بها فغُيِّبَتْ ، وكان في المربد ماء مستنجل^(١) فسيرد حتى ذهب » ووقع في رواية
عطاف بن خالد عند ابن عائذ أنه صلى الله عليه وسلم « صَلَّى فِيهِ وَهُوَ عَرِيشٌ اثْنَى عَشَرَ
يَوْمًا ، ثُمَّ بَنَاهُ وَسَقَفَهُ » وسياتي ما يشهد له .

وأسند ابن زباله عن أنس قال : بناء رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى
المسجد - أول ما بناه بالجرید ، قال : وإنما بناه بالليْلِ بعد الهجرة بأربع سنين .
قلت : وهو وادٍ أو مؤول ، والمعروف خلافه .

وأسند أيضاً عن شهر بن حوشب قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن يحجر بناء المسجد قيل له : عريش كعريش أخيك موسى سبع أذرع ، وأسنده
يحيى من غير طريقه عن شهر أيضاً بلفظ : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
يبني المسجد ، وأورده رزين بلفظ : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء المسجد
قال : قيل لى : عريش كعريش أخيك موسى سبعة أذرع ، ثم الأمر أعجل من
ذلك . وأسند يحيى عن الحسن قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال :

(١) في حديث عائشة رضى الله عنها « وكان وادياً يجرى أنجالاً » تريد وادى
المدينة ، والأنجل : النز ، ويجمع على أنجال ، واستنجل الماء : صار نزا قليلاً

ابنوا الى مسجداً عريشاً كعريش موسى ، ابنوه لنا من كبن . وأورده رزين بلفظ :
لما أخذ في بناء المسجد قال : ابنوا الى عريشاً كعريش موسى ، ثَمَامَات وَخَشَبَات
وِظَلَّة كظَلَّة موسى ، والأمر أعجل من ذلك ، قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : كان
إذا قام فيه أصاب رأسه السقف ، وعمل فيه بنفسه صلى الله عليه وسلم ، ترغيباً لهم ؛
ففي الرواية المتقدمة في الصحيح عقب قوله « حتى ابتاعه منهما » وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ
صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في ثيابه ، ويقول وهو ينقل اللبن :
هَذَا الْحَمَلُ لَا حِمَالُ خَيْرٌ هَذَا أَبْرُؤُ رَبَّنَا وَأَطْمَرُ

ويقول :

اللهم إِنَّ الْأَجَرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ
قال ابن شهاب : فتمثَّلَ صلى الله عليه وسلم بشعر رجل من المسلمين ، ولم
يبلغنا في الأحاديث أنه تَمَثَّلَ ببيت شعر تام غير هذه الأبيات ، زاد ابن عائذ في
آخره : التي كان يرتجزهن وهو ينقل اللبن لبناء المسجد .
والحمل مُحَفَّفٌ بمهملة مكسورة : أى هذا الحمل من اللبن أبر عند الله من
حمل خبير ، أى ذات التمر والزبيب . وقوله « رَبَّنَا » أى ياربنا . وأسند يحيى
عن الزهري في معنى قوله « هذا الحمل لا حمل خبير » قال : كانت يهود إذا
صرمت نخلها جاءتهم الأعراب بركائبهم فيحملون لهم عروة بعروة إلى القرى ،
فيبيعون ، يكون لهذا نصف الثمن ولهو لاء نصفه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم
ذلك . وفي الرواية المتقدمة في الصحيح عقب قوله « وجعلوا عضادتيه حجارة » فجعلوا
ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم معهم ، يقولون :
اللهم لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ فَانصِرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

(١) قال ابن الأثير : « وفي حديث بناء مسجد المدينة هذا الحمل لا حمل خبير
الحمل بالكسر من الحمل ، والذي يحمل من خبير التمر ، أى أن هذا في الآخرة
أفضل من ذلك وأحمد عاقبة ، كأنه جمع حمل أو حمل ، ويجوز أن يكون مصدر
حمل أو حامل » اهـ بحروفه .

ويذكر أن هذا البيت لعبد الله بن رواحة .
وعن الزهري : بلغني أن الصحابة كانوا يرتجزون به ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ويقول :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فأرحم المهاجرين والأنصار
وكان لا يقيم الشعر، قال الله تعالى : «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (١)»
وفعل ذلك احتساباً وترغيباً في الخير ؛ ليعمل الناس كلهم ، ولا يرغب أحد بنفسه .
عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا أسند ابن زبالة عن مجمع بن يزيد أنه قال عقب ذلك : وعملوا فيه ، ودأبوا ، فقال قائل من المسلمين :

لَيْنِ قَعْدَنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إِذَا لَلَمَّسُ الْمُضَلُّ
وأسند أيضاً أن علي بن أبي طالب كان يرتجز وهو يعمل فيه يقول :
لَا يَسْتَوِي مَنْ يَتَعَمَّرُ الْمَسَاجِدَ يَذَابُ فِيهَا قَلْبًا وَقَاعِدًا
* وَمَنْ يَرَى عَنِ الْعُبَّارِ حَائِدًا *

وأسند هو أيضاً ويحيى من طريقه والحداد ، ولم يخرج به ، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، فقرب اللبن وما يحتاجون إليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع رِدَائِهِ ، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم ، وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

* لَيْنِ قَعْدَنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ * البيت

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه رجلاً نظيفاً متظففاً ، وكان يحمل اللبنة فيجافي بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نَفَضَ كفه ، ونظر إلى ثوبه ، فإذا أصابه شيء من التراب نَفَضَهُ ، فنظر إليه علي بن أبي طالب فأنشأ يقول :

* لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَ * الأبيات المتقدمة ..

فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجز بها وهو لا يدري مَنْ يعنى بها ، فربعثمان فقال : يا ابن سُمية ، ما أعرفني بمن تعرض ، ومعه جريدة فقال : لتكفّن أو لأعترضنّ بها وجهك ، فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل بيته ، يعنى أم سلمة ، وفي كتاب يحيى « في ظل بيته » — فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : إن عمار بن ياسر جِلْدَةٌ ما بين عيني وأنتي ، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد بلغ ، ووضع يده بين عينيه ، فكفّ الناس عن ذلك ، ثم قالوا لعمار : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا القرآن ، فقال : أنا أَرْضِيهِ كما غضب ، فقال : يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك وما لهم ؟ قال : يريدون قتلى ، يحملون لبنَةً لبنَةً ويحملون عَلَى اللَّيْمَتَيْنِ والثلاث ، فأخذ بيده فطاف به في المسجد ، وجعل يمسح وَفَرَّتَهُ^(١) بيده من التراب ويقول : يا ابن سُمية لا يقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية .

وقد ذكر ابن إسحاق القصة بنحوه كما في تهذيب ابن هشام ، قال : وسألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا : بلغنا أن علي بن أبي طالب ارتجز به ، فلا ندري أهو قائله أم غيره ، وإنما قال ذلك على رضى الله عنه مُطَابِية ومباشرة كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل ، وليس ذلك طعنا .

وأخرج ابن أبي شيبة من مرسل أبي جعفر الخطمي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى المسجد وعبد الله بن رواحة يقول :

* أفلح من يعالج المساجدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول ابن رواحة :

* يتلو القرآن قائماً وقاعدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي الصحيح في ذكر بناء المسجد : وكنا نحمل لَبِنَةَ لَبِنَةٍ وعمارَ لَبِنَتَيْنِ

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن

لَبْنَتَيْنِ ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل ينفذ التراب عنه ويقول : « وَنَحْ عَمَارٍ تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ ، يدْعُوهم إلى الجنة ويدْعونه إلى النار » وقال : يقول عمار : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ .

وأُسْنَدُ ابْنِ زُبَالَةَ وَيُحْيَى عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ يَحْمِلُونَ الْحِجَارَةَ عَلَى عَمَارٍ ، وَهُوَ يَبْنِي الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ : « مَا لَهُمْ وَلِعَمَارٍ ؟ يَدْعُوهم إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ ، وَذَلِكَ فِعْلُ الْأَشْقِيَاءِ الْأَشْرَارِ » .

وأُسْنَدُ الثَّانِي أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَبْنَةً لَبْنَةً وَعَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ لَبْنَتَيْنِ لَبْنَةً عَنْهُ وَلَبْنَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَحَّ ظَهْرَهُ وَقَالَ : « يَا ابْنَ سُمَيَّةَ لَكَ أَجْرَانِ وَلِلنَّاسِ أَجْرٌ ، وَآخِرُ زَادِكَ مِنَ الدُّنْيَا شَرْبَةٌ مِنْ لَبَنِ ، وَتَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ » .

وَفِي الرُّوضِ لِلسَّهِيلِيِّ : أَنَّ مَعْمَرَ بْنَ رَاشِدٍ رَوَى ذَلِكَ فِي جَامِعِهِ بِزِيَادَةِ فِي آخِرِهِ ، وَهِيَ : فَلَمَّا قُتِلَ يَوْمَ صِفِّينَ دَخَلَ عَمْرُو عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَزِعَا فَقَالَ : قُتِلَ عَمَارٌ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : فَمَاذَا ؟ فَقَالَ عَمْرُو : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ » فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : دَحَضْتُ ^(١) فِي بَوْلِكَ ، أَنَحْنُ قَتَلْنَاهُ ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ مَنْ أَخْرَجَهُ .

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ابْنَ الْعَاصِ يَقُولُ لِأَبِيهِ عَمْرُو : قَدْ قَتَلْنَا هَذَا الرَّجُلَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ مَا قَالَ ، قَالَ : أَيُّ رَجُلٍ ؟ قَالَ : عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ ، أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ ؟ فَسَكْنَا نَحْمِلُ لَبْنَةً لَبْنَةً ، وَعَمَارُ يَحْمِلُ لَبْنَتَيْنِ لَبْنَتَيْنِ ، فَمَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « تَحْمِلُ

(١) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : « وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِبْنِ عَمْرٍو : لَا تَزَالُ تَأْتِينَا بِهِنَةٍ تَدْحَضُ بِهَا فِي بَوْلِكَ ، أَيُّ تَزَلُّقٍ ، وَيُرْوَى بِالصَّادِ : أَيُّ تَبَحُّثٍ فِيهَا بِرَجْلِكَ » اهـ

لبنتين لبنتين وأنت ترحض^(١) ، أما إنك ستقتلك الفئة الباغية ، وأنت من أهل الجنة » فدخل عمرو على معاوية فقال : قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال : اسكت ، فوالله ما تزال تدحض في بولك ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتلته على أصحابه ، جاءوا به حتى ألقوه بيننا .

قلت : وهو يقتضى أن هذا القول لماركان في البناء الثانى للمسجد ؛ لأن إسلام عمرو كان في الخامسة كما سبق .

وأسد ابن زبالة عن حسن بن محمد الثقفى قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى فى أساس مسجد المدينة ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فر به رجل فقال : يا رسول الله ماملك إلا هؤلاء الرهط ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء ولادة الأمر من بعدى .

وروى أبو يعلى رجال الصحيح إلا أن التابعى لم يسم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه ، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه ، وجاء عمر بحجر فوضعه ، وجاء عثمان بحجر فوضعه ، قالت : فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : هذا أمر الخلافة من بعدى .

وتقدم فى تأسيس مسجد قباء نحو ذلك من غير ذكر أمر الخلافة وقال الأقرشهرى فى روضته : روى صاحب السيرة ولم يسمه أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد ، إن الله يأمرك أن تبني له بيتا ، وأن ترفع بنيانه بالرهص والحجارة — والرهص : الطين الذى يتخذ منه الجدار — فقال : كم أرفعه يا جبريل ؟ قال : سبعة أذرع ، وقيل : خمسة أذرع ، ولما ابتداء فى بنائه أمر بالحجارة وأخذ حجرا فوضعه بيده أولا ، ثم أمر أبا بكر فجاء بحجر

(١) ترحض : أى تسيل عرقا ، مأخوذ بن الرخصاء ، وهو عرق يفسل الجلد لكثرتة ، وكثيراً ما يستعمل فى عرق الحمى والمرض .

فوضعه إلى جنب حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عمر كذلك ، ثم عثمان كذلك ، ثم عليا ، انتهى ما ذكره الأشمهرى ومن خطه نقلته .

وروى البيهقي في الدلائل عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما بنى النبي صلى الله عليه وسلم المسجد وضع حجرا ، ثم قال : ليضع أبو بكر حجره إلى جنب حجرى ، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر ، ثم قال : ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هؤلاء الخلفاء من بعدى » .

وأسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقبه أسيد بن حضير فقال : يا رسول الله أعطنيهِ ، فقال : اذهب فاحتمل غيره ، فليست بأفقر إليه منى .

وعن مكحول قال : لما كثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : اجعل لنا مسجدا ، فقال : خشبات وثمانمات ، عريش كريش أخى موسى صلوات الله عليه ، الأمر أعجل من ذلك .

ورواه رزين ، وزاد فيه : فطفقوا ينقلون اللبن وما يحتاجون إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ، فلقبه رجلٌ ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنة فقال : أعطنيها يا رسول الله ، فقال : اذهب فخذ غيرها ، فليست بأفقر إلى الله منى .

ونقل المجد عن رواية محمد بن سعد نحوه ، قال : وجاء رجل يحسن عجن الطين ، وكان من حضر موت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحيم الله امرأ أحسن صنعته ، وقال له : الزم أنت هذا الشغل فإنى أراك تحسنه .

وفى كتاب يحيى من طريق ابن زبالة عن الزهري : كان رجل من أهل اليمامة يقال له طلق من بنى جنيقة يقول : قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بيني مسجده ، والمسامون يعملون فيه معه ، وكنت صاحب علاج وخلط

طين ، فأخذت المسحاة أخلط الطين والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ويقول : إن هذا الخنفي لصاحب طين .

وروى أحمد عن طلق بن علي قال : بنيت المسجد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول : قربوا إليماي من الطين فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم منكبا . وعنه أيضا قال : جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يبنون المسجد ، قال : فكانه لم يعجبه عملهم ، قال : فأخذت المسحاة فخلطت بها الطين ، فكانه أعجبه أخذى المسحاة وعملى فقال : دَعُوا الخنفي والطين فإنه من أصنعكم للطين . وأسند ابن زبالة ويحيى من طريقه في أثناء كلام عن ابن شهاب في قصة أخذ المرءد ، قال : فبناه مسجدا ، وضرب لبنه من بقيع الخبيجة ناحية بئر أبي أيوب بالمناصع والخبيجة : شجرة كانت تنبت هناك .

وأسند يحيى من طريق عبد العزيز بن عمر عن يزيد بن السائب عن خارجة ابن زيد بن ثابت قال : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين في ستين ذراعا أو يزيد ، ولَبَنَ لبنه من بقيع الخبيجة ، وجعله جدارا ، وجعل سَوَارِيه خشبا شقة شقة ، وجعل وسطه رحبة ، وبني بيتين لزوجتيه .

قال عبد العزيز : فسألت زيدا : أين بقيع الخبيجة ؟ قال : بين بئر أبي أيوب وتلك الناحية ، وهذا بقيع الفرقد لبقيع المقبرة ، وقال : سألت عبد العزيز عن بقيع الخبيجة فقال : هي - أى الخبيجة - يسار بقيع الفرقد حين تقطع الطريق وتلقاها عند مسجد يحيى ، فقلت : ومن يحيى صاحب المسجد الذى ذكرت ؟ فقال : يحيى بن طلحة بن عبيد الله .

قلت : بقيع الخبيجة لا يعرف اليوم كما ذكره شيخ مشايخنا الزين المراغى ، لكن الخارج من درب البقيع إذا مشى فى البقيع لجهة مشهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه وصار مشهد سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم على يمينه يكون على يساره طريق تمر بطرف الكومة ، فإذا سلكها انتهى بعد رأس

العطفة التي على يمينه إلى حديقة تعرف قديماً بأولاد الصفيى بها بئر ينزل إليها بدرج تعرف ببئر أيوب قديماً وحديثاً ، وعن يسار الخارج من درب البقيع أيضاً إذا سلك طريق سيدنا حمزة في شامى الحديقة المعروفة بالرومية حديقة تعرف بالباطية وقف رباط اليمنة بها بئر . قال المراغى : تعرف ببئر أبوب أيضاً ، يتبرك بها الناس ، وهى بالقرب من الحديقة المعروفة بدار فحل ، وهى عن يسار بقيع الفرقد أيضاً ، قال الزين المراغى : ولعلها أقرب إلى المراد

قلت : والذي يظهر أن الأولى هى المراد ، لما سنيينه في الآبار .

وفي كتاب رزين مالفظه : عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسميط كميناً على لبنة ، ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى ، ثم كثروا فقالوا : يارسول الله لوزيد فيه ، ففعل ، فبنى بالذكر والأثنى ، وهى لبنتان مختلفتان ، وكانوا رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة ، وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وكذا في العرض ، وكان مربعاً . وفي رواية جعفر : ولم يسطح ، فشكوا الحر فجعلوا خشبه وسواريه جُدُوعاً ، وظلّوا بالجر يد ثم بالخصف ، فلما وكف^(١) عليهم طينوه بالطين ، وجعلوا وسطه رحبة ، وكان جداره قبل أن يُظلل قائمة وشيئاً ، انتهى . والظاهر أنه ليس جميعه من كلام جعفر ؛ بدليل قوله في الأثناء « وفي رواية جعفر »

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من غير طريقه كلام جعفر متمحضاً فأسنداً عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بناء مسجده بالسميط لبنة لبنة ، ثم إن المسلمين كثروا فبناه بالسعيدة ، فقالوا : يارسول الله لو أمرت من يزيد فيه ، فقال : نعم ، فأمر به فزيد فيه ، وبنى جداره بالأثنى والذكر ، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا : يارسول الله لو أمرت بالمسجد فظُلِّل ، قال : نعم ، فأمر به فأقيمت فيه سواري

(١) وكف عليهم : أراد نزل المطر وتقاطر من سقفه . تقول : وكف المطر

يكف — مثل وعد يعد — إذا وقع ونزل

من جُدُوع النخل ، ثم طرحت عليها العوارض والخَصَفُ والإذخر ، فعاشوا فيه ، وأصابتهم الأمطار ، فجعل المسجد يَكِفُ عليهم ، تنالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فطُيِّن ، فقال : لا ، عريش كعريش موسى ، فلم يزل كذلك حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جداره قبل أن يُظَلَّلَ قامة ، فكان إذا فاء النوى ذراعاً وهو قدما يصلى الظهر ، فإذا كان ضِعْفَ ذلك صلى العصر ، ثم نقلوا عنه تفسير السميطة والسعيدة والأثني والذكر بما تقدم ، ولم يذكروا ذراعاً .

وفي الإحياء عن الحسن مرسل : لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل فقال : ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ، ولا ترخرفه ، ولا تنقصه ، انتهى .

وتقدم فيما نقله الأقسمرى عن صاحب السيرة عن جبريل عليه السلام في ارتفاعه سبعة أذرع ، وقيل : خمسة .

وأُسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقبه أسيد بن حُضَيْر ، وذكر ما قدمناه ، ثم قال : قال — يعنى زيدا — ورفعوا الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، وكان في جوف الأرض قبور جاهلية ، فأمر بالقبور فنبشت فرمى بعظامها ، وأمر بها فقيت ، وكان في المربد ماء مستنجل فسَرَّ به حتى ذهب ، وكان الذين أسسوا المسجد جعلوا طولها مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وفي الجانبين الآخرين مثل ذلك فهو مربع ، ويقال : إنه كان أقل من مائة ذراع ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باب في مؤخره ، أى وهو في جهة

(١) العوارض : أراد بها قطع الخشب ، والخصف : جمع خصفة ، وهى الجلة التى يكثر فيها الثمر ، وتكون من الخوص ، وكأن المراد هنا ما قدم من ذلك حتى صار لا يصلح للاستعمال ، والإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب

القبلة اليوم ، وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو باب آل عثمان اليوم ، وهذان البابان لم يُغيّرا يعد أن صُرِفَت القبلة ، ولما صُرِفَت القبلة سَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم الباب الذى كان خلفه وفتح هذا الباب ، وحذاء هذا الباب - أى ومحاذيه - هذا الباب الذى سُدَّ . وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : ولما صُرِفَت القبلة سد الباب الذى كان خلفه وفتح بابا حذاءه . قال المجذ : أى تجاهه ، انتهى وذكر الأتقشهرى فى خبر عن ابن عمر ما يخالف هذا ، فإنه قال : وعن عبد الله بن عمر قال : كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمانه من اللبن ، وسقفه من غصن النخل ، وله ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، وباب عاتكة وهو باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه وهو باب عثمان ، وهو الذى يسمى اليوم باب جبريل ، ولما صُرِفَت القبلة سد الباب الذى خلفه وفتح الباب الآخر ، وهو الذى يسمى باب النساء ، انتهى . وهو غريب ، ولعل قوله « وهو الذى يسمى باب النساء » من تصرفه وفهمه فى معنى الخبر ، ولذلك أورد عقبه حديث أبى داود صرفوعا « لو تركنا هذا الباب للنساء » لكن أبو داود بين أن الأصح أنه من قول عمر كما سيأتى ، وعلى ما ذكره فلم يجعل للمسجد بعد التحويل بابا خلفه ، ويرده قول يحيى عقب ما تقدم عنه « فكان المسجد له ثلاثة أبواب : باب خلفه ، وباب عن يمين المصلى ، وباب عن يسار المصلى ، ثم انتهوا إلى البناء باللبن ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل معهم اللبن فى ثيابه ويقول : * هذا الحمال لا حمال خير * الرجز المتقدم

وروى أحمد عن أبى هريرة أنهم كانوا يحملون اللبن إلى بناء المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، قال : فاستقبلت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عارض لبنة على بطنه ، فظننت أنها شقت عليه ، فقلت : ناولنيها يا رسول الله ، قال : خذ غيرها يا أبا هريرة فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة

قلت : وهذا في البناء الثاني ، أى لأن أبا هريرة لم يحضر البناء الأول ؛ لأن قدومه عام فتح خيبر

وأُسند ابنُ زبالة من طريق ابن جُرَيْج عن جعفر بن عمرو قال : كان المِرْبَدُ سهيل وسهيل ابني عمرو فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبناه ، وأعان أصحابه أو بعضهم بنفسه في عمله ، وكان علي بن أبي طالب يرتجز وهو يعمل فيه ، قال : وبناء النبي صلى الله عليه وسلم مرتين : بناء حين قدم أول من مائة في مائة ، فلما فتح الله عليه خيبر بناء وزاد عليه مثله في الدور

زيادة النبي
في مسجده

وروى الطبراني بإسناد فيه ضعيف عن أبي المليح عن أبيه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب البقعة التي زِيدَتْ في مسجد المدينة — وكان صاحبها من الأنصار — فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لك بها بيت في الجنة » قال : لا ، فجاء عثمان فقال له « لك بها عشرة آلاف درهم » فاشتراها منه ، ثم جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اشترِ مني البقعة التي اشتريتها من الأنصاري ، فاشتراها منه ببيت في الجنة ، فقال عثمان : إنى اشتريتها بعشرة آلاف درهم ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم لبنة ، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة ، ثم دعا عمر فوضع لبنة ، ثم جاء عثمان فوضع لبنة ، ثم قال للناس « ضَعُوا » فوضعوا

وروى الترمذي وحسنه في حديث قصة إشراف عثمان على الناس يوم الدار ^(١) عن ثمامة بن حَزَن القُشَيْرِي أن عثمان رضى الله عنه قال : أنشدكم بالله وبالإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ يَشْتَرِ بَقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدُهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهَا مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ ؟ فاشتريتها من صُلُب مَالِي ، فَأَتَمَّ الْيَوْمَ تَمَنُّعُونِي ^(٢) أَنْ أَصْلِي فِيهَا رَكْعَتَيْنِ ، قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، الْحَدِيثَ ، وَأَخْرَجَهُ الدَّارِقُطْنِي أَيْضًا ، وَكَذَا أَحْمَدُ بِنَحْوِهِ .

وأخرجنا أيضًا حديثًا طويلًا عن الأحنف بن قيس فيه : أن عثمان رضى الله عنه

(١) يريد إشرافه على الخارجين عليه في خلافته حين حاصروه ومنعوه الخروج إلى المسجد للصلاة فيه (٢) في المطبوعات « تمنعوني »

قال : أههنا على ؟ قالوا : نعم ، قال : أههنا طلحة ؟ قالوا : نعم ، قال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمّن يبتاع مِرْبَدَ بنى فلان غفر الله له ، فابتعته بعشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً ، فأتيت النّبي صلى الله عليه وسلم فقلت : قد ابتعته ، فقال : أجعله فى مسجدنا وأجره لك ، قالوا : اللهم نعم .

وأخرج خيثمة بن سليمان فى فضائل عثمان عن قتادة قال : كانت بقعة إلى جنب المسجد فقال النّبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يشتريها ويوسّعها فى المسجد له مثلها فى الجنة ، فاشترها عثمان ، فوسّعها فى المسجد .

وأسند ابن زبالة عن خالد بن معدان قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن رَوَاحَة وأبى الدرداء ومعهما قَصَبَة يذرعان بها المسجد ، فقال : ما تصنعان ؟ فقالا : أردنا أن نبني مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنين الشام ، فيقسم ذلك على الأنصار ، فقال : هاتياها ، فأخذ القَصَبَة منهما ، ثم مشى بها حتى أتى الباب ، فدَحَا^(١) بها ، وقال : كلا ، ثمَام وخُسَيْنَات وظُلّة كظلة موسى ، والأمر أقرب من ذلك ، قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : إذا قام أصاب رأسه السقف .

وروى البيهقي فى الدلائل من طريق يعلّى بن شداد عن عبادة أن الأنصار جَمَعُوا مالا فأتوا به النّبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ابنِ بهذا المسجدَ وزَيْنَةُ ، إلى متى نصلى تحت هذا الجريد ؟ فقال : ما بى رغبة عن أخى موسى ، عريش كعريش موسى .

وروى البيهقي أيضاً عن الحسن فى بيان عريش موسى قال : إذا رفع يده بلغ العريش ، يعنى السقف .

وعن ابن شهاب : كانت سَوَارَى المسجد فى عهد رسول الله صلى الله عليه

(١) دحاها : رمى بها وألقاها

وسلم جُدُوعاً من جذوع النخل ، وكان شقه جريداً وخصوصاً ليس على السقف كثير طين ، إذا كان المطر امتلاً المسجد طيناً ، إنما هو كهيئة العريش .
وفي الصحيح في ليلة القدر : وإني أريتُ أني أسجد في ماء وطين ، فن كان اعتكف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فايرجع ، فرجعنا وما نرى في السماء قزعة^(١) فجاءت سحابة فطرت حتى سال سقف المسجد ، وكانت من جريد النخل ، وأقيمت الصلاة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد في الماء والطين ، حتى رأيت أثر الطين في جبهته .

الفصل الثاني

في دَرْعِهِ وَحُدُودِهِ التي يتميز بها عن سائر المسجد اليوم .
اعلم أن الذراع حيث أطلق فللمراد به ذراع الآدمي ، وقد قدمنا في تحديد الحرم أنه^(٢) ذراع غير ثمن من ذراع الحديد المستعمل بمصر وبمكة ، وهو شبران تقريباً ، وقد تحصلنا كما تقدم في ذرع المسجد على أربع روايات : الأولى : سبعون ذراعاً في ستين أو يزيد ، والثانية : مائة ذراع في مائة ، وأنه مربع ، والثالثة : أنه أقل من مائة ذراع ، وهذا صادق بالأولى فليحمل عليها ، الرابعة : أنه بناءً أولاً أقل من مائة في مائة ، ثم بناء وزاد عليه مثله في الدور ، ولا يصح أن يراد بذلك الأذرع قطعاً ؛ لأنها تقتضي أنه بعد البناء الثاني صار أحد امتداديه إما الطول أو العرض نحو مائتي ذراع ، والامتداد الآخر نحوها ، ولا شك أن حدَّ مسجده صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق غايته الحجرة الشريفة ، فعرضه من جدارها إلى جدار المسجد الغربي ، وذرع هذا القدر اليوم بعد الزيادات المجموع عايتها لا تبلغ مائة وخمسين ذراعاً كما اختبرته ، بل تنقص أزيد من ستة أذرع ، وقد أجمع المؤرخون على أن عمر وعثمان رضي الله عنهما زادا في المسجد من هذه الجهة ، ثم غيرها من الخلفاء ؛

(١) القزعة — بفتحات — القطعة من الغيم ، وجمعها قزع

(٢) أي ذراع الآدمي

فالظاهر أن المراد من هذه الرواية الأشبار لا الأذرع ، فيقتضى أن المسجد النبوي بعد البناء الثاني صار أحد امتداديه مائتي شهر ، والامتداد الآخر نحوها ؛ فيوافق رواية مائة ذراع في مثلها ، على أن ما ذكره المتأخرون من التحديد بالأمر الآتية يقتضى أنه لم يكن مائة ذراع ؛ فهو مقتضى لترجيحهم الرواية الأولى ، وهى سبعون ذراعا في ستين ، وتكون السبعون للطول والستون للعرض .

وقد نقل النووى ذلك في منسكه عن خارجه بن زيد أحد فقهاء المدينة السبعة ، ولفظه : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين ذراعا في ستين أوزيد ، وهو الذى جزم به ابن النجار فقال : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده مر بها ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وطوله سبعين ذراعا في ستين ذراعا أوزيد ، انتهى .

هذا ، وقد قال يحيى قبيل ما جاء في حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم : حدثني هارون قال : حدثنا محمد بن يحيى — يعنى صاحب مالك — قال : فيما كان انتهى إلينا من ذرع مسجده النبي صلى الله عليه وسلم من القبلة إلى حده الشامى أربعة وخمسون ذراعا وثلثا ذراع ، وحده من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، يكون ذلك مكسرا ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين ذراعا ، انتهى .

وقال ابن النجار : أعلم أن حدود مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أى الذى كان فى زمنه — من القبلة الدرابزينات التى بين الأساطين التى فى قبة الروضة ، ومن الشام الخشبَتان المغروستان فى صحن المسجد ، وأما من المشرق إلى المغرب فهو من حجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوان الذى بعد المنبر ، وهو آخر البلاط ، انتهى .

وفما ذكره ابن النجار مناقشة : أما ما ذكره من التحديد بالدرازينات من جهة القبلة وبالخشبَتين من جهة الشام ، فالخشبَتان اليوم غير معروفتين ، وقد نبه

على قَدِّهِما الزَّيْنُ المِراغى ، وكلام المطرى يفهمه ، ولم أرَ لهما ذكرا فى كلام المتقدمين ، نعم ذكر ابن زبالة كلاما فيه غموض يقتضى تحديداً بعض جهات المسجد بعودَيْنِ عَلَا السَّكْبَسُ على أحدهما ، وأن الآخر كان موجودا فى زمانه ، ففعل ذلك مأخذ ابن النجار ، وعبارة ابن زبالة تنبؤ^(١) عن ذلك ؛ إذ لم يذكرهما فى حد جهة الشام ، والحد من هذه الجهة اليوم - على ما يعرف فى زماننا - الحَجَرَانِ الآتَى ذكرهما فى صحن المسجد ، وسيأتى ما يقتضى رد ذلك

وذكر ذلك ابن جماعة فى منسكه فقال: قد عرَّفَ المتأخرون مقدارَ المسجد الذى كان عليه أولا فقالوا: كان على التربيع من الحجرة المقدسة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، ومن موضع الدرازين الذى هو بين الأساطين المتصل بالصندوق أمام المصلّى الشريف إلى موضع الحَجَرَيْنِ المغروزين فى صحن المسجد الشريف ، انتهى . ومستنده فى ذلك قول المطرى فى الحجرين المذكورين يذكر أنهما حد المسجد من جهة الشام والمغرب ، قال : لكنهما ليسا على سَمْتِ المنبر الشريف ، بل هما داخلان إلى جهة المشرق بمقدار أربعة أذرع أو أقل ، وكذا متقدمان إلى القبلة بمثل ذلك ، قال : لأنى اعتبرت ذلك بالذرع فوجدتهما ليسا على ذرع المسجد الأول .

قلت : كونهما داخلين عن سَمْتِ المنبر إلى جهة المشرق بما ذكر لا يقدر فى كونهما الحد المذكور؛ لأن المراد أن جهة المغرب هنالك فى سَمْتِهما ، كما أن المراد أن جهة الشام فى سَمْتِهما ، لا أنها ما يحاذى الحجرين فقط ، ووقع الاستغناء عن تحرير ابتداء جهة المغرب بما تقدم له نقلا عن ابن النجار من الأسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة ، كما استغنى بكون الحجرة الشريفة حده من جهة المشرق ؛ إذ لم يذكر حد لجهة المشرق مما يلى الحجرين فى جهة الشام ، وفى الحقيقة لم يقصد بهما سوى بيان جهة الشام ، عَلَى أنه يحتمل أن مقدم المسجد كان أعرض من

(١) تنبؤ : تبعه ، وأراد أنها لاتوافق

مؤخره كما هو موجود اليوم ، فيكون الحجران حده من جهة المغرب حقيقة ،
وأما قوله إنهما متقدمان إلى القبلة بأربعة أذرع وإنهما ليسا على ذرع المسجد
الأول يعنى السبعين التى ذكرها ابن النجار فقد بنّاه على ما قاله أيضا من أن
الدرابزينات التى ذكرها ابن النجار من جهة القبلة متقدمة على موضع الحائط
القبلى ؛ لأن الحائط القبلى كان محاذيا لمصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وإنما جعل هذا الصندوق الذى فى قبلة المصلى الشريف أى بين المصلى والدرابزينات
ستة بين المقام الشريف وبين الأسطوانات ، قال : وورد أيضا أنه كان بين
الحائط القبلى وبين المنبر ممر الشاة ، وبين المنبر والدرابزين اليوم مقدار أربعة
أذرع وربع ذراع ، والمنبر لم يغير من جهة القبلة ، وكذا المصلى الشريف ، انتهى .
فلم يعتبر الذرع من الدرابزينات

وقد اختبرتُ أنا ذلك بنفسى من الدرابزينات المذكورة إلى الحجرين
المذكورين فكان سبعين ذراعا بذراع اليد المتقدم ذكره ، وقد قال ابن جماعة :
إنه اختبر ذلك بذراع العمل فكان ستة وأربعين ذراعا وثلاث ذراع ؛ فهو
موافق لذرعنا ، بل يرجح قليلا ؛ لأن ذراع العمل ذراع ونصف راجح من
ذراع اليد .

وأما ما ذكره المراجعى فى كتابه من الذرع فغير موافق لذرعنا ؛ لأنه اعتمد
فى ذلك كما صرح به على ذراع المدينة الشريفة اليوم ، وقد اختبرته فوجدته يزيد
على ذراع اليد الذى حررناه بأكثر من قيراط ، وقول المطرى « إن بين المنبر
والدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع وربع » مخالف لما اختبرناه ؛ فإن بينهما
ثلاثة أذرع ونصف بالذراع الذى حررناه ، لكن سيأتى أن المنبر اليوم ليس هو
ذلك ، وأنه قد اتضح لنا عند الحفر لتأسيس المنبر الرخام الآتى ذكره صحة ما قاله
المطرى ، وأن المنبر الذى أدركناه قُدِّمَ عن محل المنبر الأصلى لجهة القبلة أزيد من
نصف ذراع ، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من طريقه نقلا عن غير واحد من أهل العلم تحديد المسجد الشريف من هذه الجهة فقالا : وعلامته في القبلة حروف المرمر الذى المنبرُ وسطه ، وعلامته من الشام أربعة طيقان من ناحية المشرق والمغرب ، وعلامة الطيقان الأربع أنهم مخضرات الأجواف بالقُسَيْفِساء كلهن .

قلت : والمرمر اليوم لا يظهر منه شيء . لكن يؤخذ من كلام ابن زبالة في وصف هذا المرمر أنه كان دكة مرتفعة حول المنبر قدر الذراع ، وأنه ممد من المغرب قدر ثلاثة أذرع ، ومن المشرق ثلاثة ، ومن القبلة ثلاثة ، فإنه قال : حدثني محمد بن إسماعيل قال : رأيت طُنْفِسة^(١) كانت لعبد الله بن حسن بن حسن تطرح قبالة المنبر على مرمر كان هناك ، قال : فحبس عبد الله بن حسن سنة أربعين ومائة ، وبقيت الطنفسة بعده أياماً ، ثم رفعت ، قال : ثم إن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي رضي الله عنهم لما ولي المدينة سنة خمسين ومائة في خلافة أبي جعفر نقض المرمر ووسعه من جوانبه كلها حتى ألحقه بالسوارى ، فكلمه أبو مودود عبد العزيز بن أبي سليمان أن يدع له مصلاه فتركه ولم يلحق المرمر بالأساطين المقدمة ؛ فالمرمر اليوم هو الذى عمل الحسن بن زيد ، والمرمر الذى حوّل المنبر المرتفع عن المرمر الذى عمل الحسن بن زيد بين ستة أساطين ثلاثة أذرع من قبل القبلة وثلاثة أذرع من قبل المشرق وثلاثة أذرع من قبل المغرب ، وهو مرتفع عن الأرض نحواً من ذراع ، انتهى .

وقال في موضع آخر : عَرَضُ المرمر الذى حول المنبر ثمانية أذرع ، وطوله ثمانى عشرة ذراعاً ، وسماه في موضع آخر رخاما ، وهو يطلق عليه لغة ، وسيأتى ذكر هذه الدكة التى المنبرُ في وسطها عن ابن النجار حيث قال : وارتفاع الدكة التى المنبر عليها شبر وعقد ، فكان الكبسُ علا ؛ فإنها كانت ذراعاً في زمن ابن زبالة ، وفي زمن ابن النجار شبراً وعقداً ، ثم علا الكبس فلم يوجد اليوم ،

(١) الطنفسة - بكسر فسكون فسكر - البساط .

وقد ظهر أثرها وأثر الرخام المذكور عند حَفَر ما حول المنبر الشريف ، وشاهدتُ الرخام الذى فى قبلته كما سيأتى ، وتلخص من هذا أن الممر كان فى جهة القبلة ثلاثة أذرع بعد المنبر ، والظاهر أن عَرْضَ جدار المسجد الشريف أدخل فى ذلك من جهة القبلة ؛ فقد روى يحيى فى ترجمة ما جاء فى زيادة الوليد أن عمر بن عبد العزيز أخضَرَ رجالاً من قریش فأرَوْهُ مُسَجِدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [و] الذى زاد فيه عمر ، والذى زاد فيه عثمان ، فعلم عمر بن عبد العزيز المسجد الأول الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان جدار القبلة من وراء المنبر ذراعاً وأكثر من ذراع . وروى ابن زبالة أخباراً تتضمن أن جدار القبلة كان بينه وبين المنبر قدر ممر القَنْزِ ، وفى العتبية ممر الرجل منحرفاً ، وفى الصحيح عن سهل : كان بين مصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الجدار ممر الشاة . وفيه أيضاً عن سلمة : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة تجوزه ؛ فتعين ما أشرنا إليه من إدخال جدار المسجد فى ذلك الممر الذى جعل علامة فى جهة القبلة ، وأما الطاقات الأربع التى ذكرها علامة لنهاية المسجد من جهة الشام فغير معروفة اليوم ، إلا أنه سيأتى فيما نقله المرجانى عن الحارث الحاسبى ما يبين محلها .

وأما الجواب على ما ذكر المطرى من كون الدرايزينات متقدمة فالظاهر أن ابن النجار فهمَ أن المراد إدخال عرض الجدار الذى كان موجوداً فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، لما تقرر عندنا من أن جدار المسجد من جملة المسجد ، ويؤيده ما تقدم من التحديد بالمرمر من تلك الجهة ، وما سيأتى فى الفصل الثانى عشر من رواية أحمد عن نافع أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد من الأسطوانة — أى التى عند المصلّى الشريف — إلى المقصورة ؛ لأن ذلك هو الرواق الذى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة وبين الأساطين التى تليها فى القبلة . وقد قال المراغى : إن الذى ظهر له أن الصندوق الذى فى قبلة المصلّى الشريف جعل فى

مكان الجدار القديم ، ويشهد له ماسياتى عن يحيى فى ذرع ما بين المصلى الشريف وجدار القبلة اليوم ، لكن عرض هذا الصندوق ذراعان ، وبينه وبين الدرابزين أرجح من نصف ذراع ، وذلك فيما يظهر أزيد من عرض الجدار القديم بنحو الذراع ؛ لأنى شاهدت لبناً أخرج من جدران الحجرة الشريفة فى العمارة التى أدركناها أولاً يزيد فى الطول على الذراع ، وعرضه نصف ذراع ، وسمكه ربع ذراع ، وفيه شئ مرتفع طوله وعرضه وسمكه واحد ، وكل اثنين منه طول لبنة بما قدمناه ، والذى يظهر أنه كان من بقايا لبن الحجرة الشريفة التى كانت مبنية به أولاً جعل للتبرك لأنه أتى غير مستوي ، والجدار مبنى بالحجارة الوجوه المحككة وبالقصص ؛ فلا يناسبه وضع ذلك فيه ، ولهذا جعل بين الحجارة الوجوه فى أعالي الجدار ، وقد تقدم أن الذى استقر عليه عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم الأثني والذكر ، وهما لبنتان مختلفتان ، واللبنتان المختلفتان من هذا اللبن الذى رأيناه أو اللبنة ونصف الأخرى وهو السعيدة يزيد على ذراع ونصف يسيراً ، فيكون ذلك هو عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، ويشهد له ما شاهدناه أيضاً فى عرض جدار الحجرة الشريفة على ما سنذكره ، ثم اتضح الحال بظهور المرمر الذى فى قبلة المنبر ؛ فإننا وجدنا بينه وبين الدرابزين المذكور أرجح من ذراع ، وبينه وبين طرف محل المنبر الأسمى من جهة القبلة ثلاثة أذرع سواء ، كما ذكر ابن زبالة ؛ فذلك هو عرض الجدار مع ما كان بين المنبر وبينه .

وأما ما ذكره ابن الفجار من التحديد بالأسطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب وأنها آخر البلاط وبالحجرة الشريفة من جهة المشرق ؛ فالبلاط الذى ذكره لا يوجد اليوم ، وكأنه يريد به الرخام الذى كان المنبر وسطه ، وقد عبر عن ذلك ابن جماعة كما تقدم بقوله : من الحجرة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، فإن السابعة من صف الأساطين المذكورة هى التى تلى المنبر من

المغرب إن عَدَدَنَا الأسطوان الملائق للحجرة ، ولم أر لما ذكره ابن جماعة مستنداً في كلام المؤرخين سوى ما ذكره ابن النجار ؛ فيتعين الحل على الأسطوان المذكورة ، وقد ذَرَعْتُ ما بين الأسطوانة التي تلى المنبر عند ظهره من المغرب إلى حائز عمر بن عبد العزيز الذى داخله الحجرة الشريفة بمقط ؛ فكانت مساحته سبعة وخمسين ذراعاً ونصف ذراع راجح ، وعرض الحائز المذكور ذراع وربيع راجح ، كما تحررلى عند عمارة ما نقض منه ، وليس بينه وبين جدار الحجرة من هذه الجهة فضاء أصلاً ، بل هو لاصق به ليس بينهما مغرز إمرة خلاف ما ذكره المؤرخون ؛ فيكون ما بين الأسطوانة المذكورة والحجرة الشريفة تسعة وخمسون ذراعاً ينقص يسيراً ، وكأنَّ ابن النجار جرى على قول من تقدمه من المؤرخين في أن بين الحائز وجدار الحجرة فضاء من هذه الجهة ، وظن أن عرض الحائز أكثر مما ذكرناه ؛ فجعل نهاية قولهم في عرض المسجد ستين ذراعاً أو يزيد إلى الأسطوانة التي تلى المنبر أو أن ذلك القدر الناقص لتفاوت الأذعة ، على أن الظاهر أن ابن جماعة لم يعتبر الأسطوانة اللاصقة بالحجرة ، وأنه جعل السارية السابعة هى التي تلى السارية التي تلى المنبر في جهة المغرب ، وهى الثانية من المنبر في تلك الجهة ، فإنه قال: إنه ذَرَعَ ما بين الأسطوانة السابعة إلى حائز الحجرة الشريفة فكان ذلك اثنين وأربعين ذراعاً وثلاثين ذراعاً بذراع العمل .

قلت : وقد اعتبرت ما ذكره من الذراع بذراع العمل فرأيت أنه ينتهى إلى الأسطوانة الثانية من المنبر في جهة المغرب ، وذرعته بذراع اليد الذى حرزنه فكان خمساً وستين ذراعاً ، وهو مطابق لما قاله ابن جماعة ولما اختبرناه بذراع العمل ؛ لأن ذراع العمل ذراع وثلث من ذراع الحديد المستعمل بمصر ، وذلك اثنان وثلاثون قيراطاً ، والذراع الذى حرزنه أحد وعشرون قيراطاً ، فذراع العمل ذراع ونصف قيراط بالذراع الذى حرزنه ، وقد مال المراعى إلى اعتبار التحديد بهذه الأسطوانة — أعنى الثانية من المنبر — فإنه ذكر عدم وجود البلاط اليوم ،

ثم قال : لكفى اعتبرت ذرعَه من المشرق إلى المغرب على رواية يحيى ثلاثة وستين ، وهى من أقل الروايات ؛ فكان من جدار الحجرة الشريفة يعنى الحائز الظاهر إلى الاسطوانة الثانية من المنبر لا التى بعده ستون ذراعا تقريبا ، قال : وعلى هذا يكون عرض جدار عمر بن عبد العزيز وما بينه وبين جدار الحجرة الشريفة الأصلية ثلاث أذرع تقريبا ، انتهى . ولا يخفى مافه ؛ لأنه جعل المسافة المذكورة ستين ذراعا تقريبا وهى خمسة وستون تحريرا ، وتبع من تقدمه من المؤرخين فى ثبات فضاء بين حائز عمر بن عبد العزيز وجدار الحجرة ، فحمن أن ذلك مع عرض الحائز ثلاثة أذرع ، وقد علمت أن عرض الحائز ذراع وربيع يرجح يسيرا ، وليس بينه وبين جدار الحجرة شئ

وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه أشياء فى تحديد المسجد وذرعَه يقتضى أن جدار المسجد الشريف فى زمنه صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق لم ينته إلى حائز عمر ابن عبد العزيز ، بل الحائز و بعض ما يليه من المغرب فى موضع حجرة عائشة رضى الله عنها ، وأن جدار حجرة عائشة كان فيما بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر وبين الأساطين التى بينها المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان قد بنى المسجد أولا وجعله ثلاث أساطين عن يمين المنبر فى المغرب وثلاث أساطين عن يساره فى المشرق ، وأن نهايته من جهة المشرق كانت أولا أسطوان التوبة ؛ لأنها تكون فى موضع الجدار بعد الأساطين الثلاث ، وأن مساحة ذلك من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، وقيل : خمس وخمسون ، وأنه زاد فيه بعد ذلك من المشرق والمغرب ، ومع ذلك لم ينته زيادته فى المشرق إلى موضع حائز عمر بن عبد العزيز ، وأنه لم يزد فيه من جهة القبلة ولا من جهة الشام

قلت : وهو موافق لما روى أنه كان مائة ذراع كما سنبينه ، ويرجحه عندى أن المنبر الشريف يكون حينئذ متوسطا للمسجد ؛ إذ يبعد أنه صلى الله عليه وسلم لا يتوسط أصحابه ويقف على منبر فى طرفهم ، وكون المسجد النبوى لا ينتهى

إلى موضع حائز عمر بن عبد العزيز كما قدمناه خلاف ما عليه متأخرو المؤرخين ، لكنه حسن ؛ إذ يبعد أن يبنى عمر بن عبد العزيز حائزه في شئ من المسجد ، وينتقص الروضة الشريفة به ، حاشاه من ذلك ، والذي صح أن محل القبور الشريفة في صفة بيت عائشة ، ولا بد للصفة من مرافق ، فيظهر أن الحائط الذى فى جوف الحائز هو حائط الصفة ، والحائز فيما خرج عنها من بقية البيت

ثم ظفرت فى كلام المرجاني نقلا عن الحارث المحاسبى بما يصرح بذلك ، لما سأتى من أنه ذكر فى تحديد المسجد ستة أساطين من جهة شرق المنبر ، ثم قال : والروضة ما بين القبر والمنبر ، فما كان منها فى الأسطوانة السادسة التى حددت لك عن يمين المنبر فليس من المسجد الأول ، وإنما كان من حجرة عائشة رضى الله عنها فوسع به المسجد ، وهو من الروضة ، انتهى

ولنورد عبارة ابن زبالة فإن يحى روى ذلك عنه من غير زيادة ولا مخالفة مع ما فيها من أشياء لا تعرف اليوم ، ولكن إفادة هذه الأمور الغريبة التى لم يذكرها متأخرو المؤرخين اقتضت إيرادنا لذلك فنقول : أسند ابن زبالة عن عبيد بن عمر بن حفص بن عاصم أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثلاث أساطين مما يلى المشرق ، وثلاث أساطين مما يلى المغرب ، سوى ما خرج فى الرحبة أى الأساطين المصنوفة من الرحبة إلى القبلة ، ولولا ما سأتى من التصريح بأن هذه الست كانت ثلاثة منها على يمين المنبر وثلاثة عن يساره — يعنى فى البناء الأول — لحلنا ذلك على أن ابتداء هذه الست من الأسطوانة التى تلى المنبر ؛ فىكون نهايتها الأسطوانة التى يلى أسطوانة التوبة ، ويكون جدار الحجرة بعدها ، فيوافق التحديد المتقدم ، لكنه قال عقبه : وقال جمهور الناس من أهل العلم وغيرهم : هو إلى القرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والى فى القبر

قلت : لاتعرف اليوم فى المسجد القديم مربعة غربية ، غير أن الذى ظهر لى - من مقابلتها بمربعة القبر ومما سيأتى فى بيان الحائز الذى عمل لمنع ماء المطر أن يغشى المسقف القبلى - أنها الأسطوانة العظيمة المثلثة اليوم فى المسقف القبلى ، فإنها كانت ركن رحبة المسجد فى هذا المسقف من جهة المغرب ، كما أن مربعة القبر كانت ركن الرحبة فى جهة المشرق ، قبل زيادة الرواقين اللذين ذكرهما فى المسقف القبلى كما يؤخذ من مواضع فى كلام ابن زباله ويحيى ، والذى يظهر أن تثمين الأسطوانة المذكورة حادِث ، وإنما كانت مربعة ، كما ثمنوا ما ظهر من مربعة القبر وما بلى الحجرة منها باقى على تربيعة ، ومربعة القبر هى التى فى نهاية الصفحة الغربية من الحائز الدائر على الحجرة من جهة الشام ، وتعرف بأسطوان مقام جبريل عليه السلام كما سيأتى إيضاحه ، والأسطوان التى دونها هى الملاصقة بالشباك الدائر على الحجرة اليوم ، وهى بين المربعة وبين أسطوان الوفود ؛ فيكون جدار الحجرة على هذا كان فيما بين مربعة القبر والتى يليها

قال ابن زباله عقب ما قدمناه عنه : واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف فى المسجد فى موضع مجلس بنى عبد الرحمن بن الحارث ، وأن عائشة رضى الله عنها كانت تُرَجِّلُ رأسه وهو معتكف فى المسجد وهى فى بيتها ، وكان مالك بن أنس يقول : الجدار من المشرق فى حد القناديل التى بين الأساطين التى فى صفها أسطوان التوبة وبين الأساطين التى تلى القبر ، وأرفه^(١) عمر بن عبدالعزيز من ورائها فى الأسطوانة التى تلى القبر

قلت : ما نقله عن مالك صريح فيما قدمناه من أن جدار المسجد الشرقى كان فيما بين الأساطين الملاصقة بالقبر وبين الأساطين المقابلة لها ؛ فيكون فى محاذة القناديل الآخرة من القبلة إلى الشام فيما بين هذه الأساطين ، ويكون عمر بن

(١) الأرفة — بالضم — هى الحد بين الأرضين ، وعدم معرفة المصنف معنى هذه السكامة كما سينذكره (ص ٣٥٢) دليل على أن قراءتها تصحفت عليه .

عبد العزيز أخره إلى الأسطوان اللاصق بجدار القبر ، وسيأتى ما يصرح بذلك من كلام المحاسبى أيضا وأما قوله « واحتجوا إلى آخره » فوجه الاحتجاج أن معتكفه صلى الله عليه وسلم كان لاصقا بحجرته ، بحيث إن عائشة رضى الله عنها كانت ترجل رأسه وهو فى مُعْتَكَفِهِ وهى فى بيتها ، ولهذا أورد ابن زبالة عقبه حديث « كان يدنو منى وأنا حائض فأرجله وهو فى المسجد » ومجلس بنى عبد الرحمن بن الحارث الذى ذكره ابن زبالة لا يعرف اليوم ، وروى ابن زبالة ويحيى فى بيان معتكفه صلى الله عليه وسلم أشياء سند كرها إن شاء الله تعالى ، والمناسب لما نحن فيه منها : أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم سرير من جريد فيه سَعْفُهُ يوضع بين الأسطوان التى وُجَّاه القبر^(١) وبين القناديل ، كان يضطجع عليه صلى الله عليه وسلم وقوله « التى وُجَّاه القبر » يريد به المواجهة له ، وهى اللاصقة بشباك الدائر على الحجرة اليوم فى صف أسطوان التوبة ، بل قيل : إنها أسطوان التوبة كما سيأتى ، وهذا مطابق لما ذكره مالك من أن الجدار كان فى حد القناديل المذكورة .

وأُسند ابن زبالة أيضا عن غير واحد من أهل العلم أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثلاث أساطين عن يمين المنبر وأنت مستقبل القبلة فى موضع معتكف حسن بن زيد الذى كان يعتكف فيه ، ومن الشق الآخر إلى أسطوان التوبة ، وكان ذرعه من المشرق إلى المغرب ثلاثة وستين ذراعا ، وقال عبد الرحمن ابن سعد عن أشياخه : كان خمسين فى خمسين .

قلت : فيكون الحجر التى فى شرق المسجد أدخلت بعد أو بعضها فى الزيادة الآتية أو أنها لم تستقر فى شرقيه إلا بعد ذلك .

ثم قال ابن زبالة : قالوا : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - أى الذى بنى عند مقدمه من مكة - وذكر علامات كانت فى السقف المحترق والنسي فساء التى زالت فلا تعرف اليوم ، ثم قال : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بنى عند مقدمه من خير قالوا : ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد من القبلة فى تلك البنية على حده الأول ، وزاد فيه من ناحية المشرق إلى الأسطوان التى دون

(١) وجاه القبر : فى مواجهته

المربعة التي عند القبر، وعلامة تلك الأسطوان أن لها نجافاً^(١) طالعا في الرحبة من بين الأساطين، ومن المغرب إلى الأسطوان التي تلي المربعة التي لها نجاف^(٢) أيضاً من بين الأساطين، وظهر ذلك أي حد المسجد بحجارة، وعبارة يحيى: وقد صمد بحجارة تحت الحصاء، منها أرفة عند الأسطوان التي بين أسطوان التوبة وبين القبر في صف الأسطوان التي لها نجاف، ومن المغرب مثل ذلك بأرفة حجارة في الأرض مبنية، وترك مما يلي الشام لم يزد فيه، انتهى كلام ابن زبالة بحروفه.

وقوله «ومن المغرب مثل ذلك» أي ظهر الحد بأرفة حجارة في الأرض، ولا أدري معنى قوله بأرفة^(٣).

وذكر ابن زبالة أيضاً في موضع آخر ذَرَعَ مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان في زمنه، يعني ما استقر عليه في آخر الأمر، ثم قال: وحده من شرق المنبر أربع أساطين، ومن غربيه أربع أساطين، انتهى.

والعجب من ابن النجار فَمَنْ بعده من المؤرخين حيث لم يتعرضوا لهذا، لكن ابن النجار اعتذر في أول كتابه بأنه كان مجاوراً بالمدينة، ولم تكن كتبه حاضرة عنده، وذكر ما يقتضي أنه كتب ذلك مما علق بفكره، والمطري جرى على منواله، وابن زبالة ويحيى عمدة في ذلك؛ فإنهما أقدم من أرخ للمدينة لأن ابن زبالة هو محمد بن الحسن أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس، ويؤخذ من كلامه أنه وَصَّع كتابه في صفر سنة تسع وتسعين ومائة، وأما يحيى فهو من أصحاب أصحابه، وكانت وفاته سنة سبع وسبعين ومائتين عن ثلاث وستين سنة، وأما ابن شبة فكان معاصراً ليحيى وقبله بيسير، ولم أظفر من كتابه بهذا المحل المشتمل على ذكر المسجد، ولو ظهرت به لكان الشفاء؛ فإنه يوضح الأمور أيضاً تاماً، وهو إمام ثقة، وابن زبالة وإن كان ضعيفاً لكن اعتضد بموافقة يحيى له وروايته لكلامه من غير تعقيب.

(١) أصل النجاف - بزنة الكتاب - عتبة الباب؛ فالمراد هنا أن لهذا

الأسطوان دكا في الأرض تعتمد عليه وتعرف به

(٢) قد ذكرنا لك أن الأرفة بضم الهمزة الحد الذي تحده الأرضون

ثم ظفرتُ في كلام المرجاني نقلا عن المحاسبي بما يوافق كلامه ؛ فهو العمدة عندي .

قال المرتجاني : قال الحارث بن أسد المحاسبي : حد المسجد الأول ستة أساطين في عرضه عن يمين المنبر إلى القناديل التي حذاء الخوذة ، وثلاث سَوَارٍ عن يساره من ناحية المنحرف منه ، ومنتهى طوله من قبلته إلى مؤخره حذاء تمام الرابع من طيقتان المسجد اليوم : أى في زمنه ، وما زاد على ذلك فهو خارج عن المسجد الأول ، قال - يعنى المحاسبي - : وقد روى عن مالك أنه قال : مؤخر المسجد بحذاء عضادة الباب الثانى من الباب الذى يقال له باب عثمان ، أعنى العضادة الآخرة السفلى ، وهو أربع طيقتان من المسجد ، ثم قال : والروضة ما بين القبر والمنبر ، إلى آخر ما قدمناه عنه .

وقوله « عن يمين المنبر » أى في جهة المشرق ، لما سبق عنه خلاف ما تقدم في كلام ابن زباله ، فإنه عنى يمين مستقبل المنبر ، والطيقتان التي ذكرها لها ذكر في كلام ابن زباله ويحيى كما تقدم ، وهى غير موجودة اليوم ، والباب الثانى من باب عثمان هو المعروف اليوم بباب النساء ؛ فهو صريح في ردّ ما تقدم من تحديد جهة الشام بالحجرين الموجودين اليوم في صحن المسجد ، ومؤيد للرواية المتقدمة في الذرع ، وهى رواية مائة ذراع في مائة ذراع ؛ لأنه يقرب من ذلك .

وقد تحصلنا من هذا مع ما تقدم عن المتأخرين على خلاف في نهاية المسجد النبوى من جهة المغرب .

فأحد الأقوال : أنه إلى الأسطوانة التي تلى المنبر من تلك الجهة ، وهو الذى عوّلَ عليه ابن النجّار ومن اتبعه .

والثانى : أنه إلى التي تليها ، وهى الثانية من المنبر من تلك الجهة أيضا ، وهما بعيدان .

والثالث : أنه إلى الأسطوانة الثالثة من المنبر في تلك الجهة ، وقد اقتضى كلام ابن زبالة أن ذلك حد المسجد قبل زيادة النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، خلاف ما يظهر من كلام المحاسبي .

والرابع : أنه إلى الأسطوانة الرابعة من المنبر ؛ لما تقدم من أنه كان على ثلاثة أساطين عن يمين المنبر ؛ فيكون جداره الغربي في موضع الأسطوانة الرابعة في صفها من جهة القبلة أسطوان مربع من أسفله رفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وفي صفه من جهة الشام أسطوان محراب الحنفية المحدث .

والخامس : أنه إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ؛ لما تقدم من أن النبي صلى الله عليه وسلم زاد فيه بعد فتح خيبر من جهة المغرب بقدر أسطوان آخر ، كما يؤخذ مما تقدم ، ولما صرح به ابن زبالة كما قدمناه أيضا حيث قال في حده : وعن غريبه أربع أساطين ؛ فينتهي حده إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ، وهي التي تلي الأسطوانة المذكورة في جهة المغرب في صفها ، وهي مربعة من أسفلها بقدر الجلسة أيضا ، وفي صفها من جهة الشام الأسطوان التي تلي محراب الحنفية من جهة المغرب ، فهاتان المربعتان هما اللتان يتردد فيما يكون منهما في موازاة حد المسجد النبوي من جهة المغرب ، وقد ذهب تربيعهما في العمارة المتجددة في زماننا بعد الحريق ؛ والمربعة الثانية - أعنى الخامسة من المنبر - هي التي يترجح عندي أيضا ؛ لأن تجاهها في حائط القبلة طراز آخذ من السقف نازل إلى العصابة السفلى الظاهرية ، لكنه انقشر بعضه عند إصلاح العصابة العليا وتبييض الجدار في العمارة التي أدركنها أولا ، وذهب منه ما كان بين العصابتين ، وبعض ما فوق العليا ، وبقي منه ما بين العصابة العليا والسقف ، ثم ذهب نقيته في الحريق الحادث في زماننا ، وبقي موضعه أصباغ ملونة في الجدار من صناعة الأقدمين ، وقد ذهب ذلك عند هدم الجدار القبلي ؛ فالظاهر أنه علامة نهاية

المسجد النبوى من هذه الجهة ، خلاف ما سيأتى عن المطرى فى جَعْلِهِ علامةً
لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ لوجوه :

الأول : أنى دَرَعْتُ من الأسطوان التى المنبر إلى الأسطوان المحاذية لهذا
الطراز ؛ فكان ذلك سبعا وثلاثين ذراعا ، فإذا أضفنا ذلك إلى الدَّرْع المتقدم
فيما بين الأسطوان التى تلى المنبر وبين الحجرة الشريفة ، وهو نحو الستين ذراعا
كما تقدم ، قاربَ ذلك المائة التى تقدمت الرواية بها .

الثانى : أنه يبعد أن يجعل هذا الطراز لزيادة عثمان رضى الله عنه كما
زعمه المطرى ، ويترك التعليم للمسجد الأصلي والاعتناء به أشد . وقد قال
ابن زبالة : إن له علامات فى الفسيفساء ، والظاهر أن الفسيفساء لما زالت
جعل هذا بدلها .

الثالث : أنه سيأتى أن عمر لما زاد فى المسجد جعل عرضه مائة وعشرين
ذراعا ، وأنه لم يزد فيه من جهة المشرق شيئا ؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه من
جهة المشرق الحجرة الشريفة ، وقد علمت أن من الحجرة الشريفة إلى ما يحاذى
الطراز المذكور ينقص عن المائة ، فكيف يكون نهاية زيادة عثمان ؟ وعثمان قد
زاد أسطوانا من جهة المغرب على زيادة عمر ، فلو كان ذلك الطراز نهاية زيادة
عثمان لزم أن يكون عرض المسجد فى زمن عمر نحو التسعين ، ولا قائل به .

الرابع : أنه سيأتى أن عثمان رضى الله عنه لم يزد فى جهة المغرب غير أسطوانة
واحدة ، وأن زيادة الوليد من المغرب أسطوانتان ، ولا شك أن من الأسطوانة
التي تحاذى الطراز المذكور إلى جدار المسجد الغربى خمس أساطين ، فإذا سقط
منها ثلاث أساطين لعثمان رضى الله عنه وللوليد بقى أسطوانتان لزيادة عمر
رضى الله عنه ، وهما يقربان من عشرين ذراعا التى زادها عمر رضى الله عنه على
المائة كما سيأتى .

الخامس : أن موضع المنبر لم يغير كما سيأتى ، ويبعد كلَّ البعد أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم موضع منبره فى طرف مسجده ولا يتوسط أصحابه فى حال قيامه .

السادس : أنه سيأتى أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد شيئا من دار العباس وأن ما بقى منها زاد عثمان رضى الله عنه بعضه ، وما بقى دخل فى دار مروان بن الحكم . وروى يحيى فى قصة زيادتها ما يصرح بأنها كانت ملاصقة بجدار المسجد النبوى ، بل روى أنه كان لها ميزاب يصب فيه ، وقد نقل يحيى أنها كانت فيما بين الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم ، أى والباب الذى يلى دار مروان ابن الحكم ؛ لما تقدم من دخول بعضها فى دار مروان ؛ فوجب أن تكون المربعة المذكورة أول دار العباس وآخر المسجد النبوى .

السابع : ما قدمناه من أن المربعة الغربية إذا أطلقت ، فالمراد بها الأسطوانة التى كانت ركن صحن المسجد فى المغرب عند نهاية المسقف القبلى قبل زيادة الرواقين الآتين فيه ، وهى المثمنة اليوم ؛ فهى المرادة بما تقدم عن الجمهور من أن المسجد النبوى كان إلى الفرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والتى فى القبر كما نقله ابن زبالة ، ولا شك أن الأسطوانة الخامسة من المنبر فى جهة المغرب دون المربعة المذكورة ؛ لأن المربعة المذكورة هى السادسة من المنبر ، فوضح أنها المراد بذلك ، فيكون الجمهور على رواية أن المسجد كان مائة فى مائة ، ومما يرجح هذه الرواية أيضا ما تقدم عن الحاسبى من تحديد مؤخر المسجد الأول نقلا عن مالك بعبادة الباب الثانى من باب جبريل - وهو باب النساء - وما سيأتى من أن باب الرحمة - ويعرف بباب عاتكة - لم يغيره عمر رضى الله عنه ، يعنى أنه نقله فأخره فقط وجعله فى تجاه الباب الأول ، لأنه زاد فى المسجد من جهة المغرب ، وبين باب الرحمة وبين الحجرين اللذين ذكر أنهم ما حد المسجد

من جهة الشام تفاوت ظاهر ؛ لتأخره عن موازاتهما كثيرا ، وكأنهما إنما جعلتا هناك
 تميزا لقوهتى بالوعة عندهما الحجران المذكوران هناك ؛ فالذى يترجح فى النقد رواية المائة
 وما ذكرناه من التحديد ، ويحتمل أن ابن النجار لما رأى اختلاف الروايات أراد
 الأخذ بالأقل لأنه المحقق فذكر التحديد المتقدم ، وتبعه مَنْ بعده ، على أنه اعتذر
 فى أول كتابه بغيبة كتبه ، وأن الحفظ قد يزيد وينقص ، ولما اتضح ذلك للمقرّر
 الشجاعى شاهين الجالى ناظر الحرم الشريف النبوى وشاد عمائر وشيخ خدامه
 اتخذ لأعلى الأسطوانة الخامسة من المنبر من صف الأساطين التى فى قبلة المنبر
 طرازاً متصلاً بالسقف منقوشاً فيه أن ذلك هو الذى استقر عليه الأمر فى نهاية
 المسجد النبوى وحده ، فآله تعالى يرفقه للمداومة على حفظ الحدود ، ويلحقه
 بالمقر بين الشهود .

ويتفرع على ذلك مسألة ذكرها النووى فقال فى شرح مسلم والمناسك
 وغيرها : إن الصلاة إنما تتضاعف فى المسجد الذى كان فى زمنه صلى الله عليه
 وسلم دون بقية الزيادات ، ولم يحك غيره ، لكن الخطيب بن حملة نقل عن الحب
 الطبرى أن المسجد المشار إليه فى حديث المضاعفة هو ما كان فى زمنه صلى الله
 عليه وسلم مع ما زيد فيه ، لأخبار وآثار وردت فى ذلك ، واستحسنه ابن حملة
 على ما ذهب إليه النووى فى كتبه من التخصيص ، مع أن البرهان ابن فرحون
 نقل فى شرحه لابن الحاجب القرعى أنه لم يخالف فى هذه المسألة غير النووى ، وأن
 الشيخ محب الدين الطبرى نقل فى كتابه الأحكام أن النووى رجع عن ذلك ،
 قال : ونقل أبو عبد الله بن فرحون فى شرح مختصر الموطأ أنه وقف على كتاب
 من كتب المالكية فيه أن مالكا سئل عن ذلك فقال : ما أراه عليه السلام أشار
 بقوله : « فى مسجدى هذا » إلما سيكون من مسجده بعده ، وأن الله أطلعه
 على ذلك ، انتهى .

قلت : أما قوله « إنه لم يخالف في ذلك إلا النووى » فممنوع ؛ فقد نقل ذلك ابن الجوزى في الوفاء عن ابن عقيل الحنبلى ، وأما ما نقله عن الإحكام للطبرى فقد راجعناها فرأيت أنه ترجم لبيان أن مسجده صلى الله عليه وسلم المشار إليه بالتمييز هو الموجود في زمنه مع ما زيد فيه ، وأورد بعض الأخبار الآتى ذكرها في آخر الفصل الثانى عشر ، ثم قال : وقد يتوهم بعض من لم يبلغه ذلك قصر الفضيلة على الموجود في زمنه صلى الله عليه وسلم لمكان الإشارة ، وقد وقع ذلك لبعض أئمة العصر ، فلما رويت له ما سبق جَنَحَ إليه وتلقاه بالقبول ، انتهى .

فكان ابن فرحون فهم أن المراد من قولهم « بعض أئمة العصر » النووى .

وأما ما حكاه عن مالك فقد نقله الأشمهرى في روضته عن عبد الله بن نافع صاحب مالك عن مالك ، ولفظه في أثناء كلامه : قيل له — أى للمالك — فخذ المسجد الذى جاء فيه الخبر هو على ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو على ما هو الآن ؟ قال : بل هو على ما هو الآن ، قال : لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بما يكون بعده ، وزُوِيَتْ له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وتحدث بما يكون بعده ، فحفظ ذلك من حفظه في ذلك الوقت ، ونسى ذلك من نسيه ، ولولا هذا ما استجاز الخلفاء الراشدون المهديون أن يزيدوا فيه بحضرة الصحابة ولم ينكر عليهم ذلك منكر ، انتهى .

قلت : و متمسك من ذهب إلى التخصيص بالإشارة في قوله « مسجدى هذا » ولعله صلى الله عليه وسلم إنما جاء بها ليدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة غير هذا المسجد ، لا لإخراج ما سيزاد فيه ، وقد سلم النووى أن المضاعفة في المسجد الحرام تعم ما زيد فيه ، فليكن مسجد المدينة كذلك ، كما أشار إليه

ابن تيمية ، قال : وهو الذى يدل عليه كلامُ الأئمة المتقدمين وعلمهم ، وكان الأمر عليه فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما ، فإن كلا منهما زاد فى قبلة المسجد ، وكان مقامه فى الصلوات الخمس فى الزيادة وكذلك مقام الصف الأول الذى هو أفضل ما يقام فيه ، ويمتنع أن تكون الصلاة فى غير مسجده أفضل منها فى مسجده ، وأن يكون الخلفاء والصفوفُ الأول كانوا يصلون فى غير مسجد [هـ] ، قال : وما بلغنى عن أحد من السلف خلاف هذا ، إلا أن بعض المتأخرين ذكر أن الزيادة ليست من مسجده ، وما علمت له سلفاً فى ذلك .

وسياًتى فى زيادة عمر بن الخطاب ما ورد من الأخبار والآثار المقوية لذلك وليست مسألة الحلف على أن لا يدخل هذا المسجد فزيد فيه من هذا القبيل ، لأن الأيمان مَبْنَاهَا على العرف .

الفصل الثالث

فى مقامه الذى كان يقوم به صلى الله عليه وسلم فى الصلاة قبل تحويل القبلة ، وبعد ما جاء فى تحويلها .

روينا فى البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّىْ نحوَ بيتِ المقدسِ ستةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يُوجَّهَ إلى الكعبة ، فأنزل الله تعالى « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » ^(١) فتوجَّه نحوَ الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود « مَاؤَلَّاهُمْ عن قبلتهم التى كانوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ^(٢) فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً ، ثم خرج بعد ما صلى ، فر على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه توجَّه نحو الكعبة ، فتحرفَ القومُ حتى توجهوا نحو الكعبة .

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

(٢) من سورة البقرة من الآية ١٤٢ .

وأُسند يحيى عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وَقَفَ يصليُ أُنْتَظَرُ أمرَ الله في القبلة ، وكان يفعل أشياء مما لم يؤمر بها ولم يُنَهَ عنها من فعل أهل الكتاب ، قال : فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، فأشار له جبريل : يا محمد صَلِّ إلى البيت ، وصَلَّى جبريلُ عليه السلام إلى البيت ، قال : فدَارَ النبي صلى الله عليه وسلم إلى البيت ، قال : فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّينَكَ قِبْلَةً نَرْضَاهَا » إلى « وما الله بغافل عما تعملون »^(١) قال : فقال المنافقون : حَنَّ مُحَمَّدٌ إِلَى أَرْضِهِ وَقَوْمِهِ ، وقال المشركون : أَرَادَ مُحَمَّدٌ أَنْ يَجْعَلَنَّا لَهُ قِبْلَةً ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا لَهُ وَسِيلَةً ، وَعَرَفَ أَنَّ دِينَنَا أَهْدَى مِنْ دِينِهِ ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ لِلْمُؤْمِنِينَ : مَا صَرَفَكُمْ إِلَى مَكَّةَ وَتَرَكْتُمْ قِبْلَةَ مُوسَى وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاءَ ؟ وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ إِلَّا تَعَبَثُونَ ، وقال المؤمنون : لَقَدْ ذَهَبَ مِنْ أَقْصَا مَا نَدْرِي أَكُنَّا نَحْنُ وَهُمْ عَلَى قِبْلَةٍ أَمْ لَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ « إِلَى قَوْلِهِ « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ »^(٢) .

وروى ابن زبالة عن عثمان بن عبد الرحمن قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وَقَفَ يصليُ انتظرَ أمرَ الله في القبلة ، وكان يفعل أشياء مما لم يؤمر بها ولم يُنَهَ عنها من فعل أهل الكتاب ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر في مسجده قد صلى ركعتين إذ نزل عليه جبريلُ فأشار إليه أَنْ صَلِّ إِلَى الْبَيْتِ ، وصلى جبريلُ إلى البيت ، وذكر نحو ما تقدم .

وأُسند يحيى عن رافع بن خديج قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين ، وأمر أن يُوجَّهَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فاستدار ، قال رافع : فَأَتَانَا آتٍ وَنَحْنُ نَصِلُ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، قَالَ : فَأَدَارْنَا إِمَامَتًا إِلَى الْكَعْبَةِ وَدُرْنَا مَعَهُ .

(١) من سورة البقرة ، الآية ١٤٤ .

(٢) من سورة البقرة الآيتين ١٤٢ و ١٤٣ .

وعن ابن عمر قال : بينما نحن في صلاة الصبح بقياء جاءهم رجل فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، ألا فاستقبلوها ، وكانت قبة الناس إلى الشام ، فاستداروا وتوجهوا إلى الكعبة ، وهو في الصحيحين بلفظ : كانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة ، وفي لفظ : كانوا ركوعاً في صلاة الصبح .

وعن عثمان بن محمد بن الأحنس أنه صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه فيه — يعني في مسجد القبلتين — الظهر ، فلما صلى ركعتين أمر أن يوجه إلى الكعبة ، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، واستقبل الميزاب . . .
وعنه أيضاً نحوه ، وأن الفريضة كانت الظهر ، وأنها يومئذ كانت أربع ركعات .

وعن سعيد بن المسيب قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، وصُرفت القبلة قبل بدر بشهرين ، والثبت عندنا أنها صرفت في الظهر في مسجد القبلتين .

وفي رواية أخرى عنه : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الله بعد أن قدم المدينة نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم حولت القبلة قبل بدر بشهرين .
وعن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده قال : صُرفت القبلة يوم الاثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً .

وفي مسلم عن البراء بن عازب : صَلَّيْتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً حتى نزلت الآية التي في البقرة « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ^(١) » . فنزلت بعد ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فانطلق رجل من القوم فمر بناسٍ من الأنصار وهم يصلون ، فحدثهم بالحديث ، فولَّوا وجوههم قبل البيت .

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

تاريخ
تحويل القبلة

وفى رواية له عنه أيضاً : ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، على الشك .
وعند الزنجشري : صُرِفَت القبلة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد
بنى سَلَمَةَ — يعنى مسجد القبلتين — وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة
الظهر ، فتحول فى الصلاة ، واستقبل الميزاب ، وحول الرجال مكان النساء والنساء
مكان الرجال .

وروى ابن أبي حاتم فى تفسيره من طريق تويلة بنت أسلم قالت : صليتُ
الظهر والعصر فى مسجد بنى حارثة ، فاستقبلت مسجد إيلياء ، فصلينا سجدةً :
أى ركعتين ، ثم جاءنا مَنْ يخبرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت
الحرام ، فتحول النساء مكان الرجال ، والرجال مكان النساء ، فصلينا السجدة
الباقيتين إلى البيت الحرام .

قال الحافظ ابن حجر : وهذه القصة المرادة بقوله فى الحديث المتقدم « فمر
على قوم من الأنصار يصلون فى صلاة العصر نحو بيت المقدس » فهؤلاء القوم هم
بنو حارثة ، والمار عباد بن بشر ، ووصل الخبر وقت الصبح إلى أهل قُبَاء ، فلا
منافاة بين الحديثين .

وسأنى فى مسجد القبلتين أن ابن زبالة نقل أن القبلة صُرِفَت ونَفَر من
بنى سَلَمَةَ يصلون الظهر فى مسجد القبلتين ، فأتاهم آتٍ فأخبرهم وقد صلوا ركعتين
فاستداروا حتى جعوا وجوههم إلى الكعبة ، فبذلك سُمى مسجد القبلتين .

قال الجذد : فعلى هذا كان مسجد قُبَاء أولى بهذه التسمية .

وعند أبي القاسم القُشَيْرِى فى لطائف التفسير : صلى رسولُ الله صلى الله عليه
وسلم إلى بيت المقدس بعد قدومه المدينة مهاجراً ستة عشر شهراً عن قتادة ، وقيل :
سبعة عشر شهراً عن ابن عباس ، وقال أنس : كان تسعة أشهر أو عشرة أشهر ،
وقال معاذ بن جبل : ثلاثة عشر شهراً استماله لقلوب اليهود أن يصلوا إلى قبلتهم
ربما يرغبون فى دينه ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم كره موافقتهم فى أمر القبلة لما

مدة
الصلاة إلى
بيت المقدس

قالوا : لولا أن ديننا حق لما صلى إلى قبلتنا ، ولما استنَّ بسنتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل : وَدِدْتُ أن ربي صَرََفَنِي عن قِبلَةِ اليهود إلى غيرها ، فقال جبريل : إنما أنا مَلَكٌ عبد ، لا أملك شيئاً ، فَسَلْ رَبَّكَ ، فصعد جبريل السماء ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصحراء نحو أُحُدٍ يصلى ههنا ركعتين وههنا ركعتين ، ويدعو الله أن يُجيزَ له في ذلك ، فلم يزل كذلك يديم النظر إلى السماء ، حتى دخل ناحية أحد ، فأنزل الله تعالى في رجب بعد زوال الشمس قبل الظهر « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ^(١) » الآية ، وَصُرِفَتِ القِبْلَةُ ، وذلك قبل بدر بشهرين ، وفي السير لابن حبان : حولت بعد سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام ، وحديث البراء المتقدم رواه ابن خزيمة في صحيحه « ستة عشر شهراً » على الجزم كرواية مسلم الأولى ، وقال الشيخ شرف الدين الدمياطي : حُولَتِ القِبْلَةُ نصف رجب بعد خمسة عشر شهراً ونصف ، ونقل النووي في سير الروضة عن محمد بن حبيب الهاشمي أن التحويل يوم الثلاثاء النصف من شعبان من السنة الثانية . ونقل الجحد عن ابن حبيب أنها حُولَتِ في النصف من شعبان في الركعة الثالثة ، وقيل : في صلاة العصر . وعند النحاس بعد بضعة عشر شهراً . وعن عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك : صُرِفَتِ في جُمَادَى ، قال : وهو أولى الأقوال بالصواب . وقال ابن جرير عن مُعَاذٍ : بعد ثلاثة عشر شهراً من مَقْدَمِ المدينة ، قال : وعن أنس عشرة أو تسعة أشهر ، انتهى ما نقله الجحد .

وقال ابن سعد : يقال : إنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين من الظهر في مسجده بالمسارين ، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام ، فاستدار ودار معه المسلمون ، ويقال : زار النبي صلى الله عليه وسلم أُمَّ بَشْرَ بنِ الْبَرَاءِ بنِ مَعْرُورٍ في بَيْتِ سَلَمَةَ وصنعت له طعاماً ، وحانت الظهرُ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ركعتين ، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فسمى مسجد

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

القبليتين . قال ابن سعد : قال الواقدي : هذا أثبت عندنا .
 وفي الصحيح أن أول صلاة صلاها - أي متوجها إلى الكعبة -
 صلاة العصر .

أول صلاة
إلى الكعبة

قال الحافظ ابن حجر : التحقيق أن أول صلاة صلاها في بني سَلَمَةَ الظهر ،
 وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصر . قال : وأسانيد الروايات المتقدمة — أعني
 رواية ثلاثة عشر شهرا وتسعة عشر شهرا ونحوها — شاذة . قال : وأما رواية
 الصحيح فطريق الجمع بين رواية سبعة عشر شهرا وستة عشر ، ورواية الشك في
 ذلك : أن مَنْ جَزَمَ بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا ، وألغى
 الأيام الزائدة ، وَمَنْ جَزَمَ بسبعة عشر شهرا عدما معا ، ومن شك تردد في ذلك ،
 وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف ، وكان التحويل في نصف
 شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح ، وبه جزم الجمهور ، ورواه الحاكم بسند
 صحيح عن ابن عباس ، وقول ابن حبان : « سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام » مبنًى
 على أن القدوم كان في ثاني عشر ربيع الأول .

وقال الربيع : كان النبي صلى الله عليه وسلم في ابتداء الهجرة مخيرا في التوجه
 إلى بيت المقدس أو الكعبة ، إلا أنه أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس ،
 فكان التوجه إليه فرضا ، وإن كان مخيرا فيه كالخير في كفارة اليمين أي
 واحد اختار فهو فرض عليه ، وقال ابن عباس : بل كان الفرض التوجه إلى
 بيت المقدس ثم نسخ .

وقال ابن العربي وغيره : نُسخَت القبلة مرتين .

وقال ابن رشد في البيان : ولم يختلف في أن صلاته صلى الله عليه وسلم كانت
 بالمدينة إلى بيت المقدس حتى حولت القبلة ، وإنما اختلف في صلاته بمكة قبل
 قدومه المدينة ، فروى أنها كانت إلى الكعبة ، وروى أنها كانت إلى بيت المقدس ،
 وروى أنه كان يصلي إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه — أي بين الركنين

إلى أي جهة
كانت الصلاة
بمكة قبل
الهجرة

اليمنين — وحكى ابن عبد البر الاختلافَ في صلاته صلى الله عليه وسلم بمكة : هل كانت إلى الكعبة ، أو بيت المقدس ؟ ثم قال : وأحسن من ذلك قول من قال : كان يصلى بمكة مستقبل القبلتين يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس .

وروى الطبرى وغيره عن ابن عباس قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واليهودُ أكثرُ أهلها يستقبلون بيت المقدس أسره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم ، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت ، وهو ظاهر في أن استقبال بيت المقدس كان يوحى ، لا باجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه إنما وقع بعد الهجرة ، لكن أخرج أحمد عن ابن عباس : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه » فيجمع بأنه لما هاجر أمر بأن يستمر على الصلاة لبيت المقدس .

وروى الطبرى أيضا من طريق ابن جريج قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم أولَ ما صلى إلى الكعبة ، ثم صُرف إلى بيت المقدس وهو بمكة ، وصلى ثلاثَ حجَج ، وهاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا ، ثم وَجَّهَهُ اللهُ إلى الكعبة .

وقال ابن النجار : وصلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه — أى في مسجده — كيف حررت إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم أمر بالتحول إلى الكعبة ، فأقام رهطا على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله ضَعِ القبلةَ وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كلَّ جبل بينه وبينها ، فوضع القبلة وهو ينظر إلى الكعبة لا يحولُ دون نظره شيء ،

كيفية حررت
قبلة مسجد النبي
صلى الله عليه
وسلم

فلما فرغ قال جبريل عليه السلام هكذا ، فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

وأُسند يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن الخليل بن عبد الله الأزدي عن رجل من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام رَهْطاً على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأناه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله ، ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كلَّ جبل بينه وبين القبلة ، فوضع تريبع المسجد وهو ينظر إلى الكعبة لا يحولُ دون نظره شيء ، فلما فرغ قال جبريل عليه السلام بيده هكذا ، فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

وعن نافع بن جُبَيْر من طرق مرفوعا : ما وضعتُ قبلة مسجدي هذا حتى رُفعت إلى الكعبة فوضعتها أوْماً^(١) .

وعن ابن عَجَلَانَ قال : وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مسجده وجبريل قائم ينظر إلى الكعبة ، ثم كشف له ما بينه وبينها .
وعن ابن شهاب مرفوعا : ما وضعت قبلة مسجدي هذا حتى فرج لي ما بيني وبين الكعبة فوضعتها أوْماً^(١) .

وأُسند العراقي في ذيله من طريق أبي علي بن شاذان بسنده عن إبراهيم بن دينار عن مالك بن أنس عن زيد بن أنس عن زيد بن أسلم قال : قال ابن عمر : وضع جبريل عليه السلام القبلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، تفرد به عن مالك ومحمد بن إبراهيم — قلت : وهو ثقة .

وفي التَّحْتِيَّة : قال مالك : سمعت أن جبريل عليه السلام هو الذي أقام لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة المسجد مسجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد المدينة ، انتهى .

(١) أوْماً : أقصدها .

وأُسند ابن زباله عن أبي هريرة قال : كانت قبلة النبي صلى الله عليه وسلم الشام ، وكان مُصَلَّاهُ الذي يصلى فيه بالناس إلى الشام في مسجده أن تضع موضع الأسطوان المخلَّق اليوم خَلْفَ ظَهْرِكَ ثم تمشي إلى الشام ، حتى إذا كنت يميني باب آل عثمان كانت قبلته ذلك الموضع .

قال الذهبي : هذه القبلة كانت في شمالي المسجد ، فلما حولت القبلة بَقِيَ حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة ، انتهى . والأسطوانة المخلقة هي التي تدعى أسطوان عائشة رضي الله عنها فيما قاله المطري ، وسيأتي ما نقله ابن زباله فيها من أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضعة عشر يوما بعد أن حولت القبلة ، ثم تقدم إلى مُصَلَّاهُ الذي وُجَّاه الحراب في الصف الأوسط ، هذا لفظه بحروفه .

وقوله : « وجاه الحراب » يريد الحراب العثماني الكائن في جدار القبلة .

وقال المطري : إن الحائط القبلي — أي الأول — كان مُحَاذِيَا لمصلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما ورد أن الواقف في مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون رمانة المنبر الشريف حَذَوَ منكبه الأيمن ، قال : فقام النبي صلى الله عليه وسلم لم يغير باتفاق ، وكذلك المنبر لم يؤخر عن منصبه الأول : أي من جهة القبلة ؛ لما سيأتي أنه زيدَ فيه من جهة الشام ، قال : وإنما جعل هذا الصندوق الذي قبالة مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سترة بين المقام وبين الأسطوانات ، انتهى .

وسيأتي في ذكر الجذع الذي كان يخطب النبي صلى الله عليه وسلم إليه اختلافٌ في محله : هل هو عن يمين المصلى الشريف أو عن يساره لجهة القبر الشريف ؟

وسيأتي ما عر به ابن النجار في حكاية الرواية الأولى حيث قال : كان في موضع الأسطوانة المخلقة التي عن يمين محراب النبي صلى الله عليه وسلم عند الصندوق

والرواية الثانية هي المرادة بما أسنده يحيى عن ابن أبي الزناد وغيره من علماء المدينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذيع في المسجد كان موضعه عند الأسطوانة المخلقة التي تلي القبر : أى في جهة القبر التي عن يسار الأسطوانة المخلقة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى عندها التي هي عند الصندوق ، هذا لفظه ، والغرض من إيرادنا هنا قوله : « التي عن يسار الأسطوانة المخلقة .. إلى آخره » فهذه الأسطوانة المشار إليها — أعني التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى إليها — هي التي عن يمين الواقف في المصلى الشريف من جهة القبلة ، وعلم أن وضع الصندوق هناك كان من الزمن القديم ، لكنه كان صندوق مصحف كما سيأتى ، ووصفها بالمخلقة لا يشكل عليك بما اشتهر من وصف أسطوانة المهاجرين — وهى أسطوانة عائشة — بالمخلقة ، فالوصف بالمخلقة يطلق على أساطين متعددة كما سنوضحه ، ولهذا اشتمل هذا الكلام على وصف كل من هاتين الأسطوانتين بهذا الوصف .

ونقل المرجاني أن في العتبية ما لفظه : أَحَبُّ مواضع التنفل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصَلَّاه حيث العمود المخلق ، انتهى . وقال ابن القاسم : أَحَبُّ مواضع الصلاة في مسجده صلى الله عليه وسلم في النفل العمود المخلق ، وفي القرض في الصف الأول ، قال ابن رشد : في كون العمود المخلق كان قبلة النبي صلى الله عليه وسلم أو أقرب إلى قبلته صلى الله عليه وسلم قول ابن القاسم وسماعه .

قلت : وهو دال على أن العمود المخلق هو الذى عند المصلى الشريف ، ولهذا رَوَى ابنُ وهب عن مالك أنه سئل عن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل له : أى المواضع أحب إليك الصلاة فيه ؟ قال : أما النافلة فوضع مصلاه ، وأما المكتوبة فأول الصفوف ، انتهى . فعبر هنا عن العمود المخلق بمُصَلَّاه . ورأيت في جامع العتبية من البيان لابن رشد ما لفظه : قال مالك : ليس العمود المخلق قبلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبله النبي صلى الله عليه وسلم هو حدو قبلة الإمام ،

وإنما قدمت القبلة حَذْوَ قِبلة النبي صلى الله عليه وسلم سواء .
قال ابن رشد عقبه : وقد مر في كتاب الصلاة عن ابن القاسم أن مُصَلِّي
النبي صلى الله عليه وسلم هو العمود المخلَّق، خلاف قول مالك هنا ، انتهى . وقول
مالك « وإنما قدمت القبلة » يشير به إلى الحراب الذي في جدار القبلة بزيادة عثمان
رضي الله عنه ، وهذا الذي ذكره يكاد أن يكون قَطْعِيًّا ، وليس مراد ابن القاسم
إلا أن العمود المخلَّق أقرب شيء إلى قبلة النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف به ،
ولهذا نقل ابن النجار عن مالك ما يقتضي أن الأسطوانة المذكورة علم لمُصَلِّي
النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : قال مالك بن أنس : أرسل الحجاج
ابن يوسف إلى أمهات القرى بمصاحف ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها
كبير ، وكان في صندوق عن يمين الأسطوانة التي عملت علماً لمقام النبي صلى الله
عليه وسلم .

وقال ابن زبالة فيما سيأتي عنه : إن الخَيْرَانِ لما أمرت بأن تخلق المسجد
أشار عليهم إبراهيم بن الفضل فزادوا في خَلْق أسطوانة التوبة والأسطوان التي
هي علم عند مصلي النبي صلى الله عليه وسلم ، فخلقوها حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا
في الخَلْق في أعلاهما ، انتهى . وقد توهم جماعة أن المراد من كلام ابن القاسم ،
وما نقل عن مالك ، الأسطوانة المعروفة اليوم بالخلقة ، وهي التي بأوسط الروضة ،
وهو مردود ؛ لأن الأسطوانة المذكورة ليست علماً على مصلي الرسول عليه السلام
اتفاقاً ، ومنشأ الوهم ظنهم اختصاصها بوصف الخلقة ، ومن اعتقد ذلك الحافظ
ابن حجر فقال في الكلام على قول يزيد بن عبيد « كنت آتى مع سلمة بن
الأكوع فيصلي عند الأسطوانة التي عند المصحف » ما لفظه : هذا دال على أنه
كان للمصحف موضع خاص به ، ووقع عند مسلم بلفظ : يصلي وراء الصندوق ،
وكأنه كان للمصحف صندوق يوضع فيه ، قال : والأسطوانة المذكورة حَقَّقَ لنا
بعض مشايخنا أنها المتوسطة في الروضة ، وأنها تعرف بأسطوانة المهاجرين ،
(٢٤ - وفاة)

وأُسرت بها عائشة لابن الزبير، ثم وجدت ذلك في تاريخ المدينة لابن النجار، وذكره قبله محمد بن الحسن في أخبار المدينة، هذا كلام الحافظ ابن حجر، ومراده بمحمد بن الحسن ابن زبالة، وليس في كلامه ولا في كلام ابن النجار ما يقتضى أن الأسطوانة التي عند الصندوق هي أسطوانة المهاجرين، إلا من حيث وصف كل منهما بالخلقة، فتوهم اتحادهما، وليس كذلك، والله أعلم.

عرب المسجد
النبوى، ومقا
صنع؟

وسياتى أن المسجد الشريف لم يكن له محراب في عهده صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء بعده، وأن أول من أخذته عمر بن عبد العزيز في عمارة الوليد، وزعم الأشمهري في روضته أن مصلى النبي صلى الله عليه وسلم في موضع الصندوق، وفي موضعه اليوم المحراب المرخم المرتفع عن المصلى الشريف وبنائه، فإنه قال ومن خطه نقلت: إنه قيل: إن منبر النبي صلى الله عليه وسلم لم يتغير تقدماً ولا تأخيراً؛ فالزيادة وقعت في المنبر شمالاً لا غير، وحد المنبر الأصلي اليوم مُساوية مع مصلى الإمام، ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه في موضع الصندوق اليوم فهو خارج عن حد المنبر، انتهى. واستنتج من ذلك أن يكون ما حاذى الصندوق يَمْنَةً وَيُسْرَةً، قال: وهو مما زاده عمر روضة من رياض الجنة، قال: لأن المصلى الشريف روضة بلا شك، أى فما حاذاه كذلك، وهو عجيب لم أر من سبقه إليه، وما زعمه من أن حد المنبر - يعنى من القبلة - مساوٍ لمصلى الإمام اليوم، يريد به أن نهاية مصلى الإمام اليوم مساوية لنهاية المنبر من جهة القبلة، فإنه صور ذلك بخطه كما ذكرناه، وكأنه توهم أن مصلاه صلى الله عليه وسلم كان في محرابٍ بارزٍ عن سَمْتِ المسجد؛ لأنه جعل ما عن يمينه ويساره من زيادة عمر رضى الله عنه، ولم يقل به أحد، مع أن ما زعمه من الاستواء لا يشهد له عقل ولا نقل؛ لأن المنبر الذى كان في زمنه هو المنبر الذى كان في زمن المطرى، فإنهما متعاصران، وقد سبق عن المطرى في الفصل قبله أن بين المنبر والدرابزين الذى

في القبلة مقدار أربع أذرع وربع ، وأنه اتضح لنا صحة ما قاله ، وذلك هو محل المنبر النبوي كما سنوضحه ، وعرض الصندوق المذكور وما بعده إلى الدرازين المذكور ذراعان ونصف راجح ، والمنبر الذي أدركناه أولاً لم يكن بينه وبين الدرازين القبلي سوى ثلاثة أذرع ونصف راجحة ، ومع ذلك فخذ المنبر متأخر عن حد مصلى الإمام من جهة القبلة بنحو الذراع ، وعلى ما ذكره المطري - وهو الصواب - يكون متأخراً بأزيد من ذلك ، وذلك فيما يظهر هو القدر الوارد فيما كان بين المنبر والجدار القبلي ، وأوضح من ذلك في الرد عليه أن يحى نقل في كتابه عن محمد بن يحيى صاحب مالک قال : وجدنا ذراعاً ما بين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان بهمهده إلى جدار القبلة اليوم الذي فيه المحراب عشرين ذراعاً وربعا ، وهذه هي الزيادة التي زيدت بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال المراغي : وقد اعتبرته من وجه ستره مصلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى جدار القبلة فكان كذلك ، وبه يظهر أن المصلى الشريف لم يُغير عن مكانه ، وأن الصندوق إنما جعل في مكان الجدار الأول ، انتهى .

وقد اعتبرت ما ذكره من جدار المسجد القبلي إلى طرف المصلى الشريف المحاذي لطرف صندوق السترة ، فكان ذلك إحدى وعشرين ذراعاً ونصف^(١) وربع يرجح قيراطاً ، فإذا أسقط من ذلك عرض الجدار - وهو ذراع ونصف راجح - كان الباقي عشرين ذراعاً وربعا كما ذكره يحيى ، وقد علمت أن الصندوق المذكور له أصل قديم هناك ، فكيف يكون في موضع المصلى الشريف ولا ينه عليه أحد ؟ بل يذكرون ما يدل على خلافه ، بل كيف يمكنون من ذلك ، ويحرمون المسلمين التيمن بمكانه صلى الله عليه وسلم ؟ هذا مما يكاد العقل يُحيله .

(١) الصواب عربية أن يقول «ونصفاً وربعا يرجح قيراطاً» .

وقال النووي في مناسكه ما لفظه : وفي إحياء علوم الدين أنه - أى المصلى - يجعل عود المنبر حذاء منكبه الأيمن ، ويستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق ، وتكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه ، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قلت : وكأن المراد من استقبال السارية المذكورة جعلها عن جهة اليمين كما عليه وضع المصلى اليوم . وقد ذكر ابن زبالة هذه الأسطوانة ثم قال : حدثني إبراهيم بن محمد عن غير واحد منهم خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : إذا عدلت عنها - أى عن الأسطوانة المذكورة - قليلاً وجعلت الجزعة التى فى المقام بين عينيك والرمانة التى فى المنبر إلى شحمة أذنك قمت فى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن الرمانة المذكورة كانت فى أعلى عود المنبر النبوى ، ولذا عبر به فى الإحياء .

وسياتى أنه لما حفر بعد الحريق الثانى لتأسيس المنبر الرخام وجدوا محل المنبر الأصلى شبه حوض من حجر ، وفى جانبيه من المشرق والمغرب فريضتان منقورتان فى الحجر بهما شئ من الرصاص بحيث لا يخفى على من أحاط علماً بصفة المنبر النبوى أنهما محل عموده كانا محكمين بالرصاص فيهما ، وقد وقعت فى المصلى الشريف مما يلى مؤخره ، وتأملت الفريضة التى مما تلى الروضة فوجدتها فى محاذة يمينى ، فظهر أنها المرادة .

وأما الجزعة فذكر المطرى أن هذه الجزعة كانت فى الحراب القبلى المقابل للمصلى الشريف ، وأنها أزيلت منه ، قال : وما حققه الغزالي عند ذكر المصلى الشريف بقوله « إذا وقف المصلى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم تكون رمانة المنبر حذو منكبه الأيمن ويجعل الجزعة التى فى القبلة بين عينيه فيكون واقفاً فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان قبل حريق المسجد ، وقبل أن يجعل هذا

اللوح القائم في قبلة مصلى النبي صلى الله عليه وسلم : أى فإنه صار يحجب عن مشاهدة ما في الحراب القبلى ، قال : وإنما جعل بعد حريق المسجد ، قال : وكان يحصل بتلك الجزعة فتنة كبيرة وتشويش على من يكون بالروضة الشريفة من المجاورين وغيرهم .

وذلك أنه كان يجتمع إليها الرجال والنساء ، ويقال : هذه خرزة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عالية لا تُنَال بالأيدى ، فتقف المرأة لصاحبها حتى ترقى على ظهرها وكتفها حتى تصل إليها ، وربما وقعت المرأة وانكشمت عورتها ، وربما وقعتا معا .

فلما كان سنة إحدى وسبعائة جاور صاحبُ زينُ الدين أحمد بن محمد المعروف بابن حنا المصرى ، فرأى ذلك ، فاستعظمه وأمر بقلع الجزعة ، فقلعت ، قال : وهى الآن في حاضل الحرم ، ثم توجه إلى مكة في أثناء السنة فرأى أيضاً ما يقع من الفتنة عند دخول البيت الحرام ، وتعلق الناس بعضهم ببعض ، وتخل النساء على أعناق الرجال للاستمسك بالعروة الوثقى في زعمهم ، فأمر بقلع ذلك المثل ، وزالت تلك البدعة أيضاً ، والله الحمد .

قلت : والظاهر أن هذه الجزعة هى التى ذكرها ابن جُبَيْر في رحلته في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما قدم المدينة ، قال : رأيت على الحراب مسماراً مُثَبَّتاً في جداره فيه شِبْهُ حُقٍّ صغير لا يعرف من أى شىء هو يزعمون أنه كأس كسرى ، وشاهدت على رأس الحراب حجراً مربعاً أصفر قدر شبر في شبر ظاهر البريق والبصيص ، يقال : إنه امرأة كسرى ، والله أعلم بحقيقة ذلك كله ، انتهى .

ثم رأيت في العِقدِ لابن عبد ربه - وهو أقدم من ابن جُبَيْر - أن على ترس يعنى الحراب العثمانى فضة ثابتة غليظة في وسطها امرأة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة

رضى الله عنها ، ثم فوقه إزار رخام فيه نقوش صفائح ذهب مثمثة فيها جزعة مثل
جمجمة الصبي الصغير مسرة ، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مُخَلَّقٌ بِالْخُلُوقِ فيه
الْوَتْدُ الذي كان صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه في الحراب الأول ، انتهى

قلت : وقد سألت عن هذه الجزعة المتولى لأمر حاصل الحرم الشريف
وخازِنَ دارِهِ - وكان قديم الهجرة - وغيرهما ، فقالوا : إنه ليس عندهم بالحاصل شيء
من ذلك ، ولعل ذلك ذهب فيما أخذه الأمير جواز عند كسر حاصل الحرم الشريف ،
وقد وسع الحراب القبلى عما كان عليه وزيد في طوله بعد هدم الجدار القبلى
بعد الحريق الثانى

وقال ابن زبالة : إن ذَرَعَ ما بين المنبر ومقام النبى صلى الله عليه وسلم الذى
كان يصلى فيه حتى توفى صلى الله عليه وسلم أربعة عشر ذراعا وشبرا
قلت : وقد ذَرَعْتُ ما بين المنبر الموجود قبل الحريق الثانى وأعلى الحفرة الذى
ينزل منه إلى درجتها من ناحية مؤخر المصلى الشريف ، فكان أربعة عشر ذراعا ،
وعرض الدرجة شبر راجح ؛ فصح ذلك ، وأما حده من جهة المشرق فسيأتى أن
جعله على هذه الهيئة الموجودة اليوم أمر حادث

وقد قال ابن زبالة : إن ذَرَعَ ما بين مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم من
مسجده الأول وبين أسطوان التوبة سبع عشرة ذراعا ، وأسطوان التوبة في جهة
المشرق ، وقد ذَرَعْتُ ما بينها وبين درجة الحفرة الشرقية فكانت ست عشرة
ذراعا ، فعلمنا بذلك أن المصلى الشريف في جانب الحفرة الغربى ، وأن ما إلى
المشرق منها ليس منه ، ويشهد له ما سبق من كلام مالك والإحياء لذكرهما السارية
التي عندها الصندوق ، بل في خط الأشمهرى في مصنفه في الزيادة ضبط قول ابن
زبالة فيما بين المصلى الشريف وأسطوان التوبة تسع عشرة ذراعا - بتقديم التاء
على السين - وقد ذرعت ما بين طرف أسطوان التوبة الشرقى وبين طرف الحفرة

الغربي فكان كذلك

ونقل الأشمهري أيضا عن أنى غسان أحد أصحاب مالك أن ما بين الحجرة الشريفة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يقوم فيه ثمانية وثلاثون ذراعا ، وأن ما بينه وبين المنبر الشريف مثل ما سبق عن ابن زبالة ، وقد اختبرت ما بين طرف الحفرة الغربي ورُخام جدار الحجرة الشريفة فكان ثمانية وثلاثين ذراعا ، فعلمنا أن المحافظ عليه في حد المصلى الشريف هو طرف الحفرة الغربي ، ولم تكن هذه الحفرة في الزمن القديم ، ولهذا قال المجد : حكى ابن النجار الإجماع على أن المصلى الشريف لم يغير بتقديم وتأخير ، وإنما غيرت هيئته في هذا العصر الأخير بجعل المصلى شبه حفير أو حوض صغير منخفض عن موقف المأمومين نحو ذراع بسبب ترخيمه وتكاثر الرمل المفروش به الروضة

قلت : وهو الآن شبه حوض مربع ينزل إليه بدرجة طوله ذراعان ونصف وثمان ، وعرضه ذراعان ونصف ونصف ثمن ، لكن زاد وافي طوله في العمارة الحادثة بعد الحريق أرجح من نصف ثمن ذراع ونحوه في العرض

قال البدر ابن فرحون وغيره : وما زال العلماء الأئمة يتحرجون من ذلك ، وفي أيام القاضي السراج - وهو أول قاض ولى لأهل السنة - فمن بعده كانت ترفع تلك الحفيرة بالرمل حتى تزول الكراهة ، إلى أيام الشرف الأسيوطي ، فأراد طمس الحفرة أو رفعها وإزالة الخشب المنقوش أمامها الآتي ذكره ، فقام عليه بعض الناس من الخدام ، واستعانوا عليه بالأشراف ، فكف وانتقل عن الحراب ، وصار يصلى إلى الأسطوانة التي تقابل أسطوانة الوفود - أى من مقدم الروضة - ولزمها إلى أن مات ، وصار من الفقهاء من يرفع الكراهة بما يحصل من القرب إلى مقامه صلى الله عليه وسلم وموضع قدمه ، وهذه نزغة ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الموقف سواء ، فمن خالف سنته بالهوى فقد غوى

قلت : وهذه الحفرة بعيدة من موقف النبي صلى الله عليه وسلم لعلوا الأرض ؛ لما سيأتى عن البدر ابن فرحون أنهم وجدوا عند تجديد المنارة التى بباب السلام باب مروان وتحصيب المسجد الشريف القديم بعد حفر قامة ، ولما اتضح لنا فى العمارة الآتى ذكرها ؛ فقد اعتبرت أرض الحجرة الشريفة وأرض المسجد ، فكان بينهما من التفاوت ذراعان ونصف وأزيد ، لكن مقتضى ما ظهر من الرخام الذى وصفه ابن زبالة حول المنبر ومشاهدتنا لما انكشف منه فيما بين المنبر والأساطين التى خلفه عدم بعض أرض هذه الحفرة من محل الموقف الشريف فى ذلك العصر ؛ لأن نسبة ما بين هذه الحفرة والرخام المذكور أقل من نصف ذراع ، وقد حقت مسألة انخفاض المصلى الشريف فى كتابى الموسوم « بكشف الجلباب والحجاب عن القدوة فى الشباك والرحاب » ولم يتحرر لى ابتداء ترخيم المصلى الشريف وجعله على هذه الهيئة ، وسماه ابن جُبَيْر فى رحلته بالروضة الصغيرة ، وقال : إن الإمام يصلى بالروضة الصغيرة المذكورة إلى جانبها الصندوق ، وقال قبل ذلك فى وصفها : ويأزأها لجهة القبلة عمود مطبق يقال : إنه على بقية الجذع الذى حنَّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق ، انتهى .

ولم يذكر فيها ترخيم ولا انخفاضاً ، مع ذكره لذلك فى المحل الذى عليه المنبر كما سيأتى ، والظاهر أن حدوث انخفاض المصلى الشريف بما حوله تجدد بعد الحريق الأول ، وقد اقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد الحريق الثانى أن يخفض أرض المسجد حتى تكون مساوية للمصلى الشريف ، فقطع من الأرض نحو ذراع ؛ فكانوا يجدون طبقة من التراب ، وتليها طبقة من الرمل ، حتى وصلوا إلى الأرض المساوية للمصلى الشريف ، وظهر لهم الرخام الذى كان عليه المنبر الشريف بعد حفر نحو نصف ذراع ، وحصل بذلك إزالة هذه البدعة ، والله الحد والمنة .

وكان فى قبلة المصلى الشريف صندوق خشب بديع الصنعة يعلوه محراب قد

أُنتِج الصنّاع فيه نتائج مبدعة من صنعة النجارة ، والمحرابُ المذكور شبه باب نقنطر لموضع لطيف على ظهر الصندوق المذكور مكتوب في داخله أمام مُسْتَقْبِلِهِ بعد البسملة آية الكرسي^(١) ، وعلى ظاهر الباب المقنطر بعد البسملة « قد تَرَى تَقَلَّبَ وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها^(٢) » الآية ، وفيه صنعة عجيبة وصبغ باللارْوَرْدِ وتذهيبٌ عجيب يشغل الخاطر ، ويفرق القلب الحاضر ؛ إذ لا قَلْبَ أجمع وأعلى وأرفع من قلب سيد الأنام . عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد قال في شأن الخميصة من أجل تلك الأعلام « اذهبوا بخميصتي^(٣) هذه إلى أبي جهنم واثبتوني بأبجانية أبي جهنم ، فإنها ألهتنى آنفا عن صلاتي » وسيأتى أنه لما قال عمر بن عبد العزيز بعد زخرفة المسجد لعمر بن عثمان رضى الله عنه : بناؤنا أحسن أم بناؤكم ؟ فقال له : بنيناه ببناء المساجد ، وبنيتموه ببناء الكنائس

وقال مالك فيما نقله عنه صاحب التبصرة : كره الناس ما فعل في قبلة المسجد بالمدينة من التزاويق ؛ لأنه يشغل الناس في صلاتهم ، وأرى أن يُزال كل ما يشغل الناس عن الصلاة ، وإن عَظُمَ ما كان أنفق فيه فالله تعالى يبعث لهذا المصلي الشريف مَنْ يُزيل عنه هذه الزخارف ويسويه كما كان في زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد أذعِمَ^(٤) هذا المحراب الخشبي من ورائه بدعامة شبه التاج العظيم حتى اتصل بالدرازين الذى بين الأساطين في قبلة الروضة ، وبرز عنها ، وجعل في أعلاه وعن يمينه وشماله مع امتداد الروضة مغارز لفرخات القناديل السماة بالبراقات تسرج في ليالى الزيارات ، وفي داخله كسوة جليلة من الحرير من جنس كسوة الحُجْرَةِ الشريفة ذات طراز منسوج ، وقد احترق ذلك كله في الحريق الثانى الآتى ذكره ، وذلك بعد تمام هذا التأليف ، فاقضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد ذلك إبداله بمحراب مُرَحَّمٍ في دعامة تبنى في محل الصندوق المذكور ، حفروا هناك

(١) هى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة (٢) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

(٣) الخميصة : ثوب مخطط من خز أو صوف ، وقيل : الأسود المخطط خاصة .

(٤) في المطبوعات «وقد أوهم» تطبيع .

لأساسها نحو القامة ، فوجدوا هناك قبرا بدا لحدده مسدودا باللينِ أخرجوا منه بعض العظام ، ووجدوا الأقدمين لما أسسوا الأسطوانة التي عنده حرقوا أساسها عنه قليلا ، فتركوه على حاله ، وأسسوا للمحراب المذكور ، ورَّخَّوه بالرخام الملون ترخيا بديعا فيه صبغ ذهبي وغيره ، وهو أبهى منظرا من الأول ، وجهوا أرض المحراب المذكور مرتفعة قليلا على المصلى الشريف ؛ لأنه إنما جعل في محل الصندوق الذى كان أمام المصلى الشريف ، فليتنبه لذلك ، والله أعلم .

تنبيهات — الأول : قال البخارى فى صحيحه « باب قدركم ينبغى أن يكون بين المصلى والسترة » ثم روى عن سهل بن سعد قال : كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الجدار ممر الشاة ، ثم روى عن سلمة — يعنى ابن الأكواع — قال : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة ، تجوزها : أى المسافة ، وهى ما بين المنبر والجدار ، وقوله فى الحديث الأول « كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى مقامه فى صلاته ، وكذا هو فى رواية أبى داود ، وقوله « وبين الجدار » أى جدار المسجد مما يلي القبلة كما صرح به من طريق ابن غسان فى الاعتصام ، ومنه يعلم ما فى قول النووى فى شرح مسلم : يعنى بالمصلى موضع السجود ، والحديث الثانى رواه الإسماعيلى بلفظ : كان المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينه وبين حائط القبلة إلا قدر ما تمر العنز . قال الكرمانى فى بيان مطابقتها للتبويب : إن ذلك من حيث إنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم بجانب المنبر : أى ولم يكن لمسجده محراب ، فيكون مسافة ما بينه وبين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار ، فكأنه قال : الذى ينبغى أن يكون بين المصلى وسترته قدر ما كان بين منبره صلى الله عليه وسلم وجدار القبلة

قلت : وكأنَّ الكرمانى بنى ذلك على ما عهده فى غالب المساجد من أن مصلى الإمام يكون إلى جانب المنبر ، وقد تقدم بيان ما بينهما من المسافة وحكاية الإجماع على أنه لم يغير ، وأيضا فلا يلزم من كونه صلى الله عليه وسلم كان يصلى

إلى جانب المنبر أن يكون بينه وبين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار كما لا يخفى، وأوضح مما ذكره — كما قال الحافظ ابن حجر — ما ذكره ابن رشد من أن البخارى أشار إلى حديث سعد بن سهل الذى فى باب الصلاة على المنبر فإن فيه أنه صلى الله عليه وسلم « قام على المنبر حين عمل ، وصلى عليه » فاقضى ذلك أن ما بين المنبر والجدار يؤخذ منه موضع قيام المصلى .

قلت : لـسـكن يلزم من ذلك التأخر عند السجود ؛ لأن ذلك المقدار لا يتأتى فيه السجود ، وقد ثبت رجوعه صلى الله عليه وسلم القهقرى^(١) من أجل السجود لما صلى على المنبر لعدم تأتیه عليه .

وقال ابن بطال : هذا أقل ما يكون بين المصلى وسترته ، يعنى قدر ممر الشاة ، وقيل : أقل ذلك ثلاثة أذرع ؛ لحديث بلال أن النبی صلى الله عليه وسلم « صلى فى الكعبة وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع » كما فى الصحيح ، وجمع الداودى بأن أقله ممر الشاة ، وأكثره ثلاثة أذرع ، وجمع بعضهم بأن الأول فى حال القيام والقعود ، والثانى فى حال الركوع والسجود ، قاله الحافظ ابن حجر .

قلت : ويلزمه التأخر عن موقفه الأول عندهما كما قدمناه ، وهو متعين ؛ إذ لا يتأتى السجود فى أقل من ثلاثة أذرع ، ولهذا كان حریم المصلى الذى يكون بينه وبين سترته ثلاثة أذرع عندنا .

وقال ابن الصلاح : قدروا ممر الشاة بثلاث أذرع^(٢) .

قال الحافظ ابن حجر : ولا يخفى ما فيه .

قلت : الظاهر أن البخارى إنما أورد حديث سامة المشتمل على بيان ما بين المنبر والجدار ليستدل به على مقدار ممر الشاة ، فإن ما بينهما كان معلوما عندهم ، وقد تقدم عن العتبية أنه كان بينهما قدر ما يمر الرجل منحرفا ، والذى اقتضى حمل

(١) رجع القهقرى : أى إلى خلف .

(٢) هذا نوع آخر من الجمع بين حديث ممر العنز وحديث ثلاث الأذرع وملخصه أن العبارتين مترادفتان ، لكنه ليس بمسلم ، كما أشار إليه ابن حجر ، وأوضحه المؤلف بعده .

ابن الصلاح ممر الشاة على ما ذكره أن ذلك هو القدر الذى يتأتى فيه السجود مع الاستمرار فى الموقف .

وقد قال البغوى : استحبَّ أهلُ العلمِ الدُّنُوَّ من السترة بحيث يكون بينه وبينها قدر إمكان السجود ، وكذلك بين الصفوف ، وقد ورد الأمر بالدنو من السترة مع بيان حكمة ذلك ، وهو ما رواه أبو داود وغيره مرفوعاً : « إذا صلى أحدكم إلى سترة فليدِّنْ منها لا يقطع ^(١) الشيطان عليه صلاته » ، قال الحافظ ابن حجر : وهو حديث حسن ، والله أعلم .

التنبيه الثانى — فى العود الذى كان فى المصلّى الشريف .

روينا فى كتاب يحيى عن مصعب بن ثابت قال : طلبنا علم العود الذى كان فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم نقدر على أحد يذكر لنا فيه شيئاً ، قال مصعب : حتى أخبرنى محمد بن مسلم بن السائب صاحب المقصورة قال : جلس إلى أنس بن مالك ، فقال : تدرى لم صنَّعَ هذا العود ؟ وما أسأله عنه ، فقلت : لا والله ما أدرى لم صنع ، فقال أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع عليه يمينه ثم يلتفت إلينا فيقول : استوتوا ، واعدلوا صفوفكم .

وعن أنس بن مالك قال : لما سُرِقَ العود الذى كان فى الحراب فلم يجده أبو بكر حتى وجده عمر رضى الله عنهما عند رجل من الأنصار بقبأ قد دُفِنَ فى الأرض أكلته الأرصة ، فأخذ له عوداً ، فشقه فأدخله فيه ، ثم شَمَّبه ^(٢) ، فردّه فى الجدار ، وهو العود الذى وضعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى القبلة ، وهو الذى فى الحراب اليوم باقى فيه .

وعند أبى داود عن محمد بن أسلم صاحب المقصورة قال : صَلَّيْتُ إلى جنب أنس بن مالك يوماً فقال : هل تدرى لم صنعَ هذا العود ؟ فقلت : لا والله ، ^(١) يقطعها بالمرور فى المسكن المتروك ، أو يحمل من يمر فيها فيكون مروره قاطعاً للصلاة .

^(٢) شَمَّبه : أصلحه .

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليه فيقول : « استودوا واعدلوا صفوفكم » .

قلت : سيأتى فى الكلام على الجذع أن الأسطوانة المتقدم ذكرها التى هى عَلمُ المصلّى الشريف كان بها خشبة ظاهرة محكمة بالرصاص ، يقول الناس : إنها من الجذع الذى حَنَّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المطرى قال : إن الأمر ليس كذلك ، وإن العز ابن جماعة أمر بإزالتها ، فأزيلت عام خمس وخمسين وسبعمائة .

قال المجد : ورأى بعضُ العلماء أن إزالتها كانت وهما منها ، وذلك أن إتقان هذه الخشبة ، وترصيصها بين حجارة الأسطوان وإبرازها لم يكن سُدًى^(١) ، وإنما شاهد الحال يشهدُ بأنه كان من عمل عمر بن عبد العزيز ؛ فالظاهر أنه كان من الجذع .

قلت : بل الظاهر أنها ليست منه ؛ إذ لم ينقل بقاء شيء منه ، بل الظاهر أنها من هذا العود المذكور ؛ لما قدمناه فيه ، ولما سيأتى عن ابن النجار .

وقول الزبني المرافى : « إن احتمال ذلك كان يمكن تسليمه قبل حريق المسجد ، أما بعده فردود ؛ لأنه بقى من حريق المسجد بقايا خشب كثيرة كما سنحققه » .
وقول المؤرخين : « إنه لم يبق ولا خشبة واحدة » مردود ؛ فقد شاهدت عند إزالة هدم الحريق من الحجرة الشريفة ما لا يحصى من أطراف الخشب المحترق ، حتى ميزاب الحجرة الشريفة رأيتها من عَرَّعَر^(٢) فيما أظن احترق بعضه وبقى منه قَدْرُ الذراع ، وأخذ الناسُ كثيراً من تلك الأخشاب ، واتخذ متولّى العماره وغيره منها سُبْحاً كثيرة ، وعبارة ابن النجار صريحة فيما ذكرناه من كون العود المذكور كان بالأسطوانة المذكورة ، فإنه ترجم عليه بقوله : « ذكر العود الذى

(١) لم يكن سدى : أى لم يكن بغير سبب ، وفى بعض النسخ « لم يكن أسداً » تحريف ، وفى المطبوعات « لم يكن سداً » خطأ فى الكتابة .

(٢) العرعر - بفتح العينين وسكون الراء بينهما - شجر السرو ، وذكر المجد أنها فارسية .

في الأسطوانة التي عن يمين القبلة » ، ثم روى عن أهل السير خبر مُصَنَّب بن ثابت المتقدم .

وشُيُوعُ أن تلك الخشبة من الجذع قديم ، فقد قال ابن جُبَيْر في رحلته : إن بإزاء الروضة — يعنى المصلى الشريف منها — لجهة القبلة عمودا مطبقا يقال : أنه على بقية الجذع الذى حَنَّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقطعة منه وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويبادرون للتبرُّك بلمسها ومسح خدودهم فيها ، وعلى حافتها في القبلة منها الصندوق ، انتهى .

واستفيد منه أيضا أن وضع الصندوق هناك كان قبل حريق المسجد في زمنه ، وسبب الشيوع المذكور في تلك الخشبة ما سيأتى من أن الجذع كان قريبا من محل الأسطوانة المذكورة ؛ فالظاهر أن الخشبة المذكورة كانت قريبا منه في الجدار ، فجعلت في تلك الأسطوانة لقربها من المحل الأول ؛ فقد روى يحيى أيضا عن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يَسْتَمْسِكُ بعود كان في القبلة ، ثم يلتفت عن يمينه وعن شماله ، فإذا استوت الصفوف كبر » .

وروى ابن زبالة عن عمرو بن مسلم قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم حين أَسَنَّ قد جُمِلَ له العود الذى في المقام ، إذا قام في الصلاة توكأ عليه ، قال : ثم ألصق إليه عود معه ، وروى أيضا هو ويحيى من طريقه عن مسلم بن خباب قال : لما قدم عمر رضى الله عنه القبلة فَقَدَ العود الذى كان مغروسا في الجدار ، فطلبوه ، فذُكِرَ لهم أنه في مسجد بنى عمرو بن عَوْفٍ أَخَذُوهُ فجعلوه في مسجدهم ، فأخذه عمر فردّه إلى الحراب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة أمسكه بكفه يعتمد عليه ، ثم يلتفت في شقه الأيمن فيقول : عدُّوا صفوفكم ، ثم يلتفت إلى الأيسر فيقول مثل ذلك ، ثم يكبر للصلاة ، وذلك العود من طَرَفَاءِ الغابة ^(١) .

(١) الطرفاء : اسم لأربعة أنواع من الشجر : أولها الأثل ، وواحدته طرفاءة ، وطرفة ، وبها لقب طرفة بن العبد البكرى ، وفي الشعراء أربعة غيره تسمى بهذا الاسم .

التنبيه الثالث — أسند يحيى عقب ما تقدم عن ابن عباس قال : كنت أرى
صفحة خذ رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى في مسجده يتكلم .
وعن عروة : كان الزبير بن العوام وأناس من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم يتيامنون ويقولون : إن البيت تهامى ، قال يحيى : وسمعت غسيرا واحدا
من مشايخنا ممن يقتدى به يقول : المنبر على القبلة .

قلت : لعل ما ذكره من التيامن في غير المصلى الشريف ، والذي ذكره
أصحابنا أنه لا يجتهد في محراب النبي صلى الله عليه وسلم لأنه صواب قطعاً ؛ إذ
لا يُقرَّ على خطأ ؛ فلا مجال للاجتهاد فيه حتى لا يجتهد في اليمنة واليسرة ، بخلاف
محاريب المسلمين ، سيما وقد تقدم أنه وضعه وجبريل يؤمُّ به البيت ، والمراد بمحاربه
صلى الله عليه وسلم مكان مصلاه ، فإنه لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم محراب ،
نعم إن ثبت تيامنه صلى الله عليه وسلم في مكان مصلاه فما نقله متجِّه ، ويؤيده
أن الدكة التي ظهرت في محل المنبر ووجد فيها آثار قوائم المنبر النبوى كما سيأتى
متيامنة ، ولذا حرَّضت على بقائها على ما وجدت عليه فبقيت على حالها ، إلا أنهم
وضعوا المنبر عليها غير متيامن فصار محرفاً عنها ، وعبرة النوى في التحقيق :
وكل موضع صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضبط موقعه تعين ، ولا يجتهد
فيه بتيامن ولا تياسر ، انتهى .

وقال الشيخ محب الدين الطبرى في شرح التنبيه ، ومن خطه نقلت : إن
قيل محرابه صلى الله عليه وسلم على عين الكعبة ؛ إذ لا يجوز فيه الخطأ ، فيلزم
مما قلتم أنه لا يصح صلاة من بينه وبينه من أحد جانبيه أكثر من سمت
الكعبة إلا مع الانحراف .

قلنا : من أين لكم أنه على يمين الكعبة ؟ فيجوز أن يكون ذلك ولا خطأ
بناء على أن الفرض^(١) الجهة ، نعم إن روى في الصحيح أنه نصب على العين فنقول :

(١) يريد أن فرض الاستقبال في الصلاة هو جهة القبلة ، وهو قول من أقوال
معتبرة للفقهاء ، والثانى أن الفرض هو عين القبلة ، والثالث الفرق بين من يصلى
عند الكعبة فيتعين عليه الاتجاه إلى عينها ، ومن يصلى بعيداً ففرضه جهتها .

مقتضى الدليل ما ذكرتموه على القولين ، أما على العين فظاهر ، وأما على الجهة فإنما ذلك عند عدم المشاهدة ، وهذا الجراب منزل منزلة الكعبة فشاهدته كشاهدٍ ها ، إلا أن إجماع الصحابة رضى الله عنهم على بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم واسعاً وصلاتهم في أقطاره من غير أن ينقل الانحراف عنهم ذليلٌ على طرد حكم البعد في كل مكان ، سواء تحقق صَوْبُ عين الكعبة أم لا ، توسعة وتعميماً للحكم ، وتحقيقاً للقول بأن فرض البعيد هو الجهة مطلقاً ، ولا أعلم أحداً تكلم في هذه المسألة ، والظاهر فيها ما ذكرته ، انتهى .

وفيه نظر ، بل صلاة مَنْ بينه وبين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة صحيح ، واعتبار العين من غير انحراف لما تقر من أن المسامحة تصدق مع البعد ، ألا ترى أن الدائرة إذا عظمت اتسعت الخطوط فيسامت الخطُ الخارجُ من جبين المصلى الكعبة ظناً ، وهو المكلف به في البعد ، نعم هذا يقتضى جواز الاجتهاد بالتيامن والتمسك لمن بينه وبين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة إلا أن ينقل عدمه عن الصحابة في زمنه صلى الله عليه وسلم مع إقراره صلى الله عليه وسلم لهم على ذلك ، والله أعلم .

قد تم — بمعونة الله تعالى وحسن توفيقه — الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » تأليف العلامة المحقق ، والمؤرخ المدقق ، نور الدين على السمعوري ، أحد علماء القرن العاشر الهجري ، ويليه — إن شاء الله تعالى — الجزء الثاني منه ، وأوله « الفصل الرابع ، في خبر الجذع الذي كان يخطب إليه النبي صلى الله عليه وسلم — إلخ » نسأل الله الذي بيده تتم الصالحات أن يعين على إكماله ، بمنه وفضله ؛ إنه لاعمين سواء ، ولا يوفق للخير غيره .

